معالم تاريخ العالم الإسلامي
في التاريخ الوسيط والحديث والمعاصر

دكتور مصطفي محمد رمضان
أستاذ التاريخ الإسلامي الحديث والمعاصر

٢٠٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

من الموضوعات التي ما زالت تحتاج منا إلى جهد كبير في الكتابة ، موضوع تاريخ العالم الإسلامي ككل ، ورصد حركة التحول فيه بجميع أقطاره رصداً كاملاً ، وبصورة عامة تختلف عن الصور الإقليمية الهزيلة التي سادت في الآونة الأخيرة ، ومـزقت العالم الإسلامي فأفسدت التصور العام ، أو بعبارة أخرى أفسدت الرؤية الـصحيحة ، لأن تاريخ العالم الإسلامي قد زيفه الغرب عندما تغلب على أوطانه ، وهذا التزييف للأسف تسلل إلى عقولنا وكتبنا عن طريق كتاب الغرب ، ومن لف لفهم وأخذ عنهم سواء بقصد أو بغير قصد .

ومـن أهم الفترات التي زيفت في تاريخ العالم الإسلامي فترة مطلع القرن العاشـر الهجري (السادس عشر الميلادي) عندما خططت البابوية للالتفاف حول العالم الإسلامي من الشرق ومحاصرته من أطرافه الشرقية ونجحت في ذلك وساهمت الـبرتغال وأسـبانيا في هذا الميدان ، هذا التخطيط الذي أدخله الغرب فيما يسمى بالكـشوف الجغرافية ، على الرغم من أن ما يتعلق بالشرق الإسلامي لا يمكن أن يـدخل في مجـال الكشوف الجغرافية لأن الشرق كان مطروقاً من قبل من جانب المسلمين ومعروفاً لديهم ولدى الغرب معرفة قاصرة عنه .

وإبان هذا الالتفاف حول الشرق الإسلامي انتقل ميزان القوى في العالم من الـبر إلى البحر لصالح الغرب المسيحي وظهرت الدول البحرية التي سيطرت على مقـدرات العـالم كالـبرتغال وأسـبانيا ومن بعدهما هولندا ثم بريطانيا وفرنسا . وسيطرت هذه الدول البحرية متعاقبة على اقتصاد العالم فاختل التوازن بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي في الميادين الحربية والاقتصادية والسياسية ، والدينية .

ففـــي المجال الحربي ظهرت الأمم البحرية التي هيمنت على مقدرات العالم في أعالي البحار ، وسقطت الأمم التي كانت قوتها برية وتأخرت كالأمم الإسلامية ، وساعد علـــى ذلـــك هيمنة الدولة العثمانية على مصر فأوقفت نموها العسكري الذي كان يتطور باطراد وكان لها سبق في مجال التصنيع الحربي كالمدافع والبنادق ، وتم إغلاق المـــصانع الحـــربية المصرية ، وكان ذلك لصالح الغرب الأوربي الذي لم يعق تطوره العـــسكري شيء ، وأصبحت الدول البحرية الغربية سيدة البحار وحاربت انتشار العقيدة الإسلامية في البلاد المفتوحة .

وحاولت نشر المسيحية في تلك البلاد فاختل التوازن في هذا الميدان أيضاً لـــصالح المسيحيين وبدأت المسيحية تكسب أرضاً جديدة في مناطق كانت وقفاً على المسلمين مثل أفريقيا وآسيا الشرقية والوسطى وزادت أعداد المسيحيين وبدأت تقل أعداد المسلمين ، وتقدم الغرب المسيحي وتأخر الشرق الإسلامي وانقلب المسلمون من الهجوم والانتشار إلى الدفاع والانكماش وما زالوا حتى يومنا هذا .

وساعد في ذلك أن الغرب بدأ يحتكر الحضارة والتقدم التكنولوجي لصالحة وخاصـــة في ميدان المخترعات العسكرية الرادعة ولا يعطي للشرق الإسلامي منها إلا ما مضى عليه الزمن ولم يعد مؤثراً في المجال العسكري .

ولا شك أن الزحف الأوروبي على شرق العالم الإسلامي جاء فزلزل العالم الإســـلامي زلـــزالا شـــديداً في كثير من الميادين الاقتصادية والسياسية والعقائدية وبـــدأت التغييرات الخطيرة تظهر في العالم الإسلامي ، وكان من أهمها كما سنرى اخـــتفاء دولـــة المماليـــك وزحف الدولة العثمانية على الشرق العربي لملئ الفراغ العـــسكري الذي أحدثته هزيمة المماليك أمام القوى الأوروبية الزاحفة على الشرق الإسلامي ، ونقل العثمانيون الخلافة إلى إسلامبول .

وتأخـــرت الثقافة والحضارة الإسلامية عن غيرها من الثقافات الأوروبية لأن الـــزعامة ضـــاعت من العرب وكان التقدم الذي أحرزه العالم الإسلامي باللغة العربية ، ولم يكن في مقدور الترك أن ينهضوا بالتراث الإسلامي والعلوم الإسلامية لأن هذا التقدم قطع أشواطاً طويلة باللغة العربية ، ومنعت العنصرية التركية الترك مـــن تـــرك لغتهم ومواصلة الحضارة الإسلامية باللغة العربية فتمسكوا بلغتهم ولم يتوفروا على التراث الإسلامي العربي ليهضموه لا بالتركية ولا بالعربية لأن التراث العـــربي كـــان أكثر من أن يستطيعوا نقله إلى التركية ، ولم تكن التركية لغة تخزين حضاري لأنها خليط من العربية والفارسية والمغولية والتركية ، وظلوا أمة عسكرية وحالـــت طبيعـــتهم العسكرية دون أن يدفعوا الثقافة العربية الإسلامية دفعات إلى الإمام .

ووقع عبؤهم العسكري على الشرق العربي لفترة طويلة وعلى الرغم من انهـــم حموه في فترة كان مهدداً فيها من الغرب المسيحي إلا انهم أضروه ضرراً بليغاً ربمـــا مـــن غير قصد فقد أضروه في مضمار الحضارة وانسوه كثيراً من فنون التقدم العسكرية والحضارية في فترة عصر النهضة الأوروبي فبينما كان الغرب يتقدم كان الشرق العربي والإسلامي بصفة عامة يغط في نوم عميق .

ولمـــا ضعفت الدولة العثمانية عسكرياً تخطفتها يد الغرب المسيحي من كل جانـــب وســـقطت جمـــيع مناطقها العربية في يد الغرب وكانت مهيأة لذلك فقد أضـــعفتها التبعية والعزلة لأن الدولة العثمانية لم تشرك العرب في الجندية فأضعفت فـــيهم الروح القتالية ونسوا مسائل التسليح وتطويره لأنها كانت من مهام الدولة العثمانـــية وظل هذا الوضع في البلاد العربية بصفة خاصة من ٣٠٠ سنة في بعض المناطق إلى ٤٠٠ سنة في مناطق أخرى خضعت لها .

وعـــندما واجـــه العـــرب والمسلمون الغرب المسيحي بعد سقوط الدولة العثمانـــية وإبان ضعفها كان من أهم المشاكل العويصة ومازالت هي مسألة إعادة الـــروح العسكرية وإعادة التسليح وتنظيم الجيوش تنظيماً حديثاً وتصنيع السلاح ومـــا يتصل بذلك من المشاكل التي ستظل شغل المسلمين الشاغل حتى يتمكنوا من صنع سلاحهم بأنفسهم وتدريب جيوشهم بروح إسلامية وأيد إسلامية دون اعتماد على الغرب في هذا المضمار وهيهات أن يخلص لهم في هذا المجال .

وفي غـــضون ذلـــك تغلغلـــت الامتـــيازات الأوروبية في البلاد الإسلامية فـــشجعت الغـــزو الفكري الغربي الذي كان كل همه تمزيق وحدة الفكر الإسلامي توصـــلاً إلى تمـــزيق وحدة العالم الإسلامي وأصبحت بلدان الخلافة العثمانية في يد الاحـــتكارات الغربية وظهرت الأطماع الاستعمارية لاقتسام أملاك الدولة العثمانية التي أطلق الغرب عليها تركة الرجل المريض .

وحـــاول سلاطين العثمانيين أن يقوموا بمحاولات إصلاحية اتخذت النظام الغـــربي نمـــوذجاً لها ولم تكن الدعوة إلى الإصلاح نابعة من الشعب بل جاءت من الحكـــام أي أنها ثورة من القمة وليست من القاعدة وكان الهدف الرئيسي لها تأمين مصالح الحكام والحفاظ على رجال السلطة والمحافظة على الاستبداد السياسي الذي دمـــر العـــالم الإسلامي ولهذا امتد الإصلاح في المقام الأول إلى إصلاح آلة الحرب والنظم العسكرية .

وقـــد فشلت هذه المحاولات الإصلاحية على أيام سليم الثالث (١٢٠٤-١٢٢٢هـــ)= ١٧٨٩ـــ ١٨٠٧م ، ومحمود الثاني (١٢٢٢-١٢٥٥هـــ) = ١٢٠٧ـــ ١٨٣٩م ، وغيرهمـــا من السلاطين الذين أتوا بعدهما في القرن الثالث عـــشر الهجري نظراً لأن المحاولات لم تأخذ بعين الاعتبار الصيحات المخلصة المنبعثة

مـــن العـــالم الإسلامي وعلى الأخص في الجزيرة العربية التي تنادي بالإصلاح على أســـاس التوحـــيد الخالص من كل دخيل وعلى أساس عقائد السلف وبدلاً من أن تـــتعامل الدولـــة العثمانية مع هذه الصيحات التفتت إليها لتضربها كما سنرى في صلب هذا البحث عندما نتحدث عن حركات اليقظة الإسلامية في العالم الإسلامي لمواجهة التخلف والتمزق .

إنـــنا نريد في هذا العرض السريع التعرف على أخطاء الماضي التي أودت بالمـــسلمين إلى هاويـــة التمزق والتخلف حتى وقعوا فريسة سهلة في يد الاستعمار وأعـــداء الإسلام ، وان عرضنا هذا في الواقع عرض لمأساة المسلمين وانحدارهم بعد صـــعودهم فهـــو لـــذلك مؤلم في كثير من جوانبه ، ومن منا يحب أن يروي مأساة المـــسلمين ولكن لابد مما ليس منه بد . فنحن نهدف من هذا العرض استنهاض همم المـــسلمين لارتقائهم بعد سقوطهم وحثهم لاكتشاف ماضيهم المشرق وتعزيز الثقة بأنفسهم حتى يتمكنوا بفضل الله وعونه من ترشيد الحاضر وإنارة الطريق للمستقبل والله من وراء القصد يهدي ويعين ..

وهـــذا الكـــتاب لـــيس الغرض منه التسلية بل تبيان الحقائق حول العالم الإســـلامي ، وهـــي مسألة على قدر كبير من الحيوية ، فعلى القارئ أن يدرك انه موجه في الأساس إلى كل راغب في إصلاح أوضاع العالم الإسلامي .

أستاذ دكتور مصطفي رمضان
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
بجامعة الأزهر

الفصل الأول

تمهيد تاريخي

ظهـــر الإســــلام في الجزيرة العربية على يد محمد بن عبد الله عليه الصلاة والـــسلام وفي فتـــرة وجيزة من الزمن سادت مبادئ الإسلام تلك الجزيرة ، فقد صـــهرت تلك المبادئ العرب من جديد وحوَّلتهم من أمة ممزقة متنازعة متقاتلة على أتفـــه الأشياء إلى أمة مترابطة ، وحولت إرادة القتال بينهم إلى الدفاع عن الإسلام ومبادئه .

وانطلـــق المـــسلمون في عهد الخلفاء الراشدين إلى خارج الجزيرة العربية يخرجون الناس من الظلمات إلى النور ، وفي نحو قرن من الزمان تمكنوا من السيادة علـــى نصف الدنيا في الشام ومصر والعراق وفارس وما وراء النهر وشمال أفريقيا والأنـــدلس . وقهـــروا أعظم قوتين يومئذ وهما إمبراطوريتي الفرس والروم فزالت الأولى علـــى يـــدهم وامتد الصراع مع الثانية . فأذهل المسلمون العالم يومئذ بتلك السرعة غير العادية .

وكـــان هـــذا الـــنجاح السريع بفضل سمو مبادئ الإسلام التي تمسك بها المـــسلمون الأوائل و التي غيرت حياة العرب و غيرها من الأمم فنقلتهم من جور الحكام إلى عدالة الإسلام السماوية ، فكانت بحق فتحا جديدا مشرقا في حياة الأمم التي دانت بالإسلام .

واســتمر الإسلام في تقدم و انفتح المسلمون علي معارف الدنيا القديمة في العــصرين الأمــوي و العباسي الأول فاستوعبوها و صاغوا حضارة إسلامية راقية ومتميزة في العصر العباسي الثاني بلغت الذروة في القرن الرابع الهجري .

وحــرر الإســلام شــعوب الــشرق من الاستعمار الروماني ، لأن تاريخ الاســتعمار الغربي للشرق سابق على ظهور الإسلام ، فلقد صنع الغرب الروماني والبيزنطي للنصرانية المصرية والشرقية ولثقافة الشرق وحضارته الصور الزائفة التي بررت القهر والاضطهاد والإبادة التي مارسها الرومان البيزنطيون عشرة قرون ضد الشرق والشرقيين من الإسكندر الأكبر في القرن الرابع قبل الميلاد وحتى هرقل في القرن السابع الميلادي .

وفي العهــد الروماني كان رجال الدين المسيحي يبررون استرقاق واستعباد ســكان أفــريقيا وغيرهم من أبناء حام تنفيذا لنظرية دينية توهموها ، أخذوها من الــتوراة (سفر التكوين ــ الإصحاح التاسع) تقول : " إن نوح لعن سلالة ولده حــام ، لأن حام دخل على والده نوح فوجده مكشوف العورة ، فأبلغ أخويه سام ويافــث ولم يستر عورة والده ، فما كان من سام ويافث إلا أن قاما بالدخول على والدهما بغطاء وسترا عورته ، فلما علم نوح بذلك دعا بالبركة لأبناء سام ويافث ، ودعــا على أبناء حام بقوله : يكون أبناء حام عبيدا لأبناء سام ويافث ، وهذا يعني أن الاســترقاق عمــل من أعمال الله وليس نتيجة الحرب الوحشية ، وان الواجب الأخلاقي الأول للرقيق السود هو الطاعة العمياء ، وان ثورة الأفارقة والزنوج من أجل الحرية في نظر رجال الدين المسيحي ليست جريمة ، وإنما هي خطيئة ضد الله .

لكن جاء الإسلام بالمساواة بين البشر لا فرق لعربي على عجمي ولا لأبيض علـــى أسود إلا بالتقوى ، والناس سواسية كأسنان المشط ، وليس لأحد أن يستعبد أحدا ، لأن الناس ولدوا أحرارا وكان الحكم بالشورى ولا توريث .

فساد نظام الحكم في العصر الأموي:

لكن تطورا خطيرا حدث في نظام الحكم في الخلافة الإسلامية ، فبعد عصر الخلفـــاء الراشـــدين وانتقال الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان (٤١هــ) بالحيلة بعد مقـــتل علـــي بـــن أبي طالب آخر الخلفاء الراشدين ، غيّر معاوية نظام الحكم من الشورى إلى التوريث بالقوة ، وكان يرمي إلى جعل الخلافة ملكا يورث وليس أدل على ذلك من قوله : " أنا أول الملوك " .

وبذلك ورّث معاوية الخلافة الإسلامية لابنه "يزيد" (٦٠هــ) بدلا من ترك الأمـــر شـــورى بـــين المسلمين يختارون من يصلح للخلافة كما فعل الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدون من بعده .

فالرســـول علـــيه الصلاة والسلام لم يورث الخلافة لأحد من أقاربه ، فلقد حـــاول العـــباس عم الرسول ﷺ أن يكون الأمر بعد الرسول ﷺ في بني هاشم ، ولكـــنه لم يفلـــح ، فقد روى المؤرخون أن العباس دخل على الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يحتضر ، في مرض موته ، وخرج فحكى لعلي بن أبي طالب انه تأكد أن الرســـول عليه الصلاة والسلام قد شارف على الوفاة ، وقال قولته: إنني أعرف المـــوت في وجوه بني هاشم إذا حضرهم الوفاة ، وطلب من علي بن أبي طالب أن يدخل على الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويطلب منه أن يكون الأمر بعده في بني هاشـــم ، فرفض علي أن يفعل ذلك ، وقال: إن الرسول عليه الصلاة والسلام لو

منعـــنا إياهـــا لن نأخذها إلى يوم القيامة ، وهذا مما ينفي ما يذكره الشيعة من أن الرسول عليه الصلاة والسلام أوصى لعلي بالخلافة من بعده .

وبـــنظام الـــتوريث فسد نظام الحكم الإسلامي وأصبح يلي الخلافة من لا يـــستحقها مـــن أبناء الخلفاء في **العصر الأموي (٤١-١٣٢هـــ)** وكذلك في العـــصر العباسي وما بعده ، إلى يومنا هذا ، مما أضعف العالم الإسلامي على المدى البعيد .

ولأن الإســـلام هـــو الـــذي حـــرر بفتوحاته أرض الشرق من الاستعمار والاســـتغلال الـــروماني البيزنطي ، وحرر ضمائر الشرقيين من الاضطهاد والقهر الـــديني والحـــضاري فلقد بدأت الصورة الغربية المعادية للإسلام وحضارته وأمته ودولته وعالمه تتبلور في الثقافة الغربية الدينية والمدنية منذ ذلك التاريخ ، لقد كانت الحـــضارة الـــشرقية بنـــصرانيتها اليعقوبية هي (العدو البربري الهمجي) في نظر الـــرومان البيزنطيين ، فلما أصبحت الحضارة الشرقية إسلامية أصبحت هي العدو الجديـــد ، الـــذي حلت صورته محل صورة العدو القديم ، تماما كما صنع الإعلام الغـــربي عقب سقوط الشيوعية في العقد الأخير من القرن العشرين عن أن الإسلام هو العدو الذي حل محل إمبراطورية الشر الشيوعية (محمد عمارة)

وعلـــى ذلـــك فلقد بدأ العداء الغربي للإسلام منذ ظهور الإسلام وتحريره الـــشرق والـــشرقيين مـــن هيمنة الرومان ، وفي هذا المقام يقول الكاتب والقائد الإنجليزي " جلوب باشا " كلمته التي توقظ النيام :

" إن تـــاريخ مشكلة الشرق الأوسط إنما يعود إلى القرن السابع الميلادي ، ومنذ ذلك التاريخ توالت محاولات الغرب إعادة اختطاف الشرق من الإسلام.

الخلافة العباسية

قامـــت الخلافة العباسية سنة ١٣٢هـــ على أنقاض الخلافة الأموية عندما ضعفت الخلافة الأموية بسبب توارث الحكم الذي أدى إلى توريث الخلافة للأطفال وتنـــسب الخلافة العباسية إلى العباس عم الرسول على الرغم من أن العباس لم تتجه إليه الأنظار طوال حياته حتى توفي سنة ٣٢هـــ لكي يكون خليفة للمسلمين لأنه لم يكـــن من السابقين إلى الإسلام ومن ثم لم يرشح للخلافة هو ولا أولاده من بعده ، وإنمـــا قامـــت الخلافة على يد أحفاده من بعده وأولهم محمد بن علي بن عبد الله بن عـــباس ، وبدءوا يعملون سرا واعتمدوا على الموالي الفرس وتمكنوا من الثورة على الأمويين سنة ١٣٢هـــ واقتنصوا الخلافة بالقوة كما فعل الأمويون من قبل .

تطور نظام الحكم في الدولة العباسية (١٣٢هـــ- ٦٥٦هـــ) ودخلته تقاليد الملك الفارسية لأن تلك الدولة قامت على أكتاف الفرس الذين سخطوا على الأمويين لعدم مساواتهم بالعرب في الحقوق السياسية والاجتماعية ، ولما كان العباسيون يدينون بقيام دولتهم للنفوذ الفارسي وكانت بلاد فارس بلاد حضارة ونظم سياسية سابقة على الإسلام ؛ كان طبيعيا أن تبدأ التأثيرات الفارسية في الدولة وعلى الأخص في نظام الحكم والإدارة ، وذلك كإيجاد وزير من الفرس ، والوزير يعمل على إدارة الدولة بنفس النظام الذي كانت تدار فيه إمبراطورية آل ساسان ، وملأ هذا الوزير البلاط العباسي بالموظفين من الفرس ، وهؤلاء أحاطوا شخص الخليفة بالقداسة والرهبة والجبروت ، وبدأنا نسمع عن لقب جديد للخليفة رفضه الراشدون وقبله العباسيون وهو لقب " خليفة الله في الأرض "[١]

---

[١] سهيل زكار ، تاريخ العرب والإسلام ، ص ٢٤٥ .

وشاع بين الناس أن الخليفة يستمد سلطانه من سلطان الله تعالى وقوته من قوته ، وجعلوا الخليفة ظل الله في الأرض ، وادعوا أن الله هو الذي يختار الخليفة ويسوق إليه الخلافة مثل ما ظهر من قولهم :

جاء الخلافة أو كانت له قدرا   كما أتى ربه موسى على قدر

وقول الآخر :

ولقد أراد الله إذ ولاكها   من أمة إصلاحها ورشـــادها

ووصلت المبالغة إلى درجة وضعوا الخلفاء فوق صف البشر في مواضع العزة والقداسة أو قريبا منها حتى قال قائلهم يمدح بعض الخلفاء :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار   فاحكم فأنت الواحـــد القهار

وظهرت الأزياء الفارسية في البلاط وأصبح الخليفة يعيش معيشة الأكاسرة تحوطه الأبهة والعظمة وينحني أمامه الداخل عليه (ويقبل الأرض بين يديه وإذا قرب منه قبل رداءه ، وهو شرف لا يناله إلا رجالات الدولة البارزون) [٢].

واستمر الإكراه في البيعة ، على عهد العباسيين ، والأيمان المغلظة بالطلاق والعتاق ، مما حمل الإمام (مالك بن انس) إمام دار الهجرة على أيام أبي جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ) على الإفتاء بسقوط يمين الإكراه ، فأثر ذلك على نفوذ الدولة العباسية في الحجاز بخاصة وفي العالم الإسلامي بعامة وكان أقوى التأثير بالمغرب الذي اعتمد على فتواه في المعارضة مما عرض الإمام مالك بن انس للأذى ونزلت به محنة في عهد أبي جعفر المنصور سنتي ١٤٦ ، ١٤٧هـ فقد ضرب في هذه المحنة بالسياط حتى انخلعت كتفاه ، ومع ذلك ظل يحدث بحديث : " ليس على مُسْتكْرِهٍ طلاق " وبالقياس " فليس على مستكره بيعة " .

---

(٢) حسن ابراهيم ، تاريخ الإسلام السياسي ، ص٥٠ .

وانتقلت عاصمة الدولة من الشام إلى العراق وأسس العباسيون بغداد (١٤٥هـ) عاصمة لهم على مقربة من المدائن عاصمة آل ساسان فورثت بغداد مكانتها وجذبت إليها سكانها ، وبدأ اهتمام العباسيين كله ينصب إلى الشرق ، وفتحت الأبواب في الدولة على مصراعيها أمام التأثيرات الشرقية بصفة عامة والفارسية بصفة خاصة ، فبدأت التقاليد الفارسية تدخل في مجالس الخلفاء وأثرت تأثيرا بالغا في نظام الحكم .

فحتى آخر عصر بنى أمية كان في استطاعة الداخل على الخليفة أن يبادر الخليفة بالكلام في شكواه مشافهة وعلانية ، أما في العصر العباسي فقد أدخل الوزراء والحجاب والكتاب الفرس التقاليد الفارسية ، وذلك بإلزام الداخل على الخليفة بان يكتب شكواه أو طلبه في ورقة (قصة) تعرض على الخليفة أو من ينوبه أولا ، وليس للداخل على الخليفة أن يبدأ بالكلام حتى يبادره الخليفة نفسه ، فإذا لم يبادره الخليفة فليس له الحق في أن يتحدث رافعا شكواه ، وهكذا وضعت ورست قواعد الاستبداد الذي يرزح تحته العالم الإسلامي إلى يومنا هذا في مطلع القرن الواحد والعشرين .

وصفوة القول أن الخلافة العباسية ازدادت قربا من التقاليد الفارسية وبعدت عن التقاليد الإسلامية والعربية في مجال الإدارة والحكم ، وكان هذا كله على حساب الوجود العربي ، وبدأت الدولة يقل اهتمامها بالعرب في الجيش والإدارة ، وفي شتى الميادين ، وعارض العرب هذه الأوضاع ، وتوجست الدولة خيفة منهم .

وحاول الوزراء الفرس استغلال الخلفاء العباسيين ولكن خلفاء العصر العباسي الأول (١٣٢- ٢٣٢هـ)كانوا أبطالا أقوياء لا يسمحون لأحد بان يستبد بهم أو

يسلب سلطانهم،وقد وصل الصراع إلى أشده في فترة إلى أن أصبح الفرس في جانب والعرب في جانب أثناء الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون(١٩٣ – ١٩٨هـ) .

ولاية العهد وفساد نظام الحكم في العصر العباسي الأول :

أما فيما يتعلق بمشكلة ولاية العهد فقد سار العباسيون على النمط الذي سار عليه الأمويون من قبلهم وهو عقد الولاية لأكثر من واحد من الأبناء والاخوة ، ولم يأخذوا درسا مما حدث للأمويين من مشاكل بسبب هذا الموضوع.

فالخليفة العباسي الأول أبو العباس السفاح ولى عهده لرجلين هما: أخوه أبو جعفر المنصور ومن بعده عيسى بن موسى ، وكانت هذه التولية هي التي أثارت عمه عبد الله بن على قائد الجيش العباسي في الجبهة الغربية ، فخرج على الخليفة الثاني أبي جعفر المنصور بجيشه بعد وفاة السفاح سنة ١٣٦هـ ، وسببت كثيرا من الحروب وسفك الدماء وذلك بسبب فساد نظام بفقدان نظام الشورى الذي وضع أساسه الرسول والخلفاء الراشدون .

أما أبو جعفر المنصور فانه عندما كبر ابنه محمد المهدى عمل على تغيير نظام ولاية العهد لصالح ابنه محمد ودفع مبلغا من المال إلى ابن أخيه عيسى بن موسى لكي يؤخر نفسه ويقدم عليه محمد المهدى ويكون عيسى بن موسى هو ولى العهد الثاني .

ولما تولى المهدى الخلافة سنة ١٥٨هـ خلع عيسى بن موسى [٣] من ولاية العهد نهائيا وولى ولديه موسى الهادي وهارون الرشيد مقتديا في ذلك بما فعل والده ، وعوضه المهدى بنفس الثمن الذي باع منصبه به من قبل .

---

[٣] كانت ولاية عيسى بن موسى بن محمد للعهد ثلاثا وعشرين سنة (١٣٦ – ١٥٩هـ) وتوفى سنة ١٦٧هـ بالكوفة وعمره خمسة وستين سنة ، ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج٥ ، ص٦٩ .

وجاء هارون الرشيد (١٧٠ – ١٩٣هـ) فولى عهده لثلاثة من أولاده الأمين والمأمون والمؤتمن ، وزادت المنافسة بين الأمين والمأمون إلى أن أصبح في البلاط العباسي حزبان أساسهما النساء :

وكان هذا سببا في الفتن والحروب التي حدثت بين الأمين والمأمون ، ونشرت الخراب في الدولة الإسلامية وزادت من الحقد بين العرب والفرس ، وكثرت الاضطرابات وتعطلت شئون الدولة فطمع فيها الأعداء من وراء الحدود ، واستبد ولاة الأطراف بما تحت أيديهم .

وكانت هذه المآسي بسبب فساد نظام الحكم وولاية العهد وتجاوز نظام الشورى في اختيار خليفة المسلمين وأيلولة الخلافة إلى الصبيان الذين لا دخل للأمة في اختيارهم فدفعوا الأمة الإسلامية إلى الحروب الأهلية التي عمقت العداوة بين الأجناس وقضت على حيويتها وأصبح بأس المسلمين بينهم شديد وضعف الدافع إلى الجهاد فتوقفت حركة الفتوح .

الوضع في الجزيرة العربية بعد تغلب الأتراك على الدولة العباسية

حدثت ردة فعل بسبب هزيمة العرب في الصراع الذي دار بين الأمين والمأمون تمثل في ثورات للعرب بالشام والعراق ومصر ، ولكن الدولة العباسية استطاعت أن تخمد هذه الثورات في أيام المأمون والمعتصم بكثير من العنف دون محاولة منها لإرضاء جانب العرب الذين اتضح لهم وخاصة أيام المعتصم أنهم أبعدوا تماماً من دائرة الضوء وعن الاشتراك في الجندية ، وكانت آخر المحاولات اليائسة هي محاولة قام بها العباس بن المأمون للإطاحة بالمعتصم وكبار الأتراك لإعادة التوازن

لـــصالح العرب، ولكنها كانت محاولة غير محكمة وطائشة ، وكانت نهايتها الفشل وقتل العباس والقضاء على كل أنصاره .

لكن الشيء الهام الذي يرصده المؤرخ في عصر الواثق (٢٢٧-٢٣٢هـــ) أن العـــرب عندما أبعدوا عن الجيش الإسلامي لم يقبلوا أن يعيشوا في قهر العراق ، فعاد بعضهم بل معظمهم إلى جزيرتهم لأنهم لم يقبلوا أن يعيشوا في ضيم وظلم ،قال تعـــالى:﴿ إن الـــذين تـــوفاهم الملائكـــة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستـــضعفين في الأرض قالـــوا ألم تكـــن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مـــأواهم جهـــنم وساءت مصيراً ﴾ (النساء : آية ٩٧) ، وقال جل شأنه : ﴿ ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ﴾ (النساء :آية ٧٥) ، ذلك لأن الظلم إذا عم نـــزل الـــبلاء ودمر الجميع وشمل المطيعين ، قال الله تعالى: ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ فإذن ليس في شيء من أسباب نقص الدين البتة رضا مطلـــق إلا من حيث إضافتها إلى فعل الله تعالى ، فأما هي في نفسها فلا وجه للرضا بها بحال . (الغزالي : إحياء علوم الدين ،ج٤، ص٣٢٧) .

وقـــام العرب بانتفاضات وثورات ضد الدولة العباسية ظاهرها الإغارة على من جاورهم للسلب والنهب وقطع الطريق إلى الحج وفرض إرادتهم في المدينة ومكة ومـــا جاورهما من الأماكن الحضارية بالحجاز ، لكن المدقق لهذه الأحداث يدرك أن هدفها كان مناوأة الدولة العباسية التي قدمت العجم على العرب .

وكـــان هـــذا أمراً مؤسفاً ، لأن هذه القوة العربية كانت توجه من قبل إلى ســـاحات الجهـــاد مع أعداء الإسلام ، وبفضلهم تمت الفتوح الإسلامية في عصر الخلفـــاء الراشـــدين والعـــصر الأموي ، ثم ظهر الموالي في العصر العباسي وزاحموا العـــرب ، لأن قـــيام الدولة العباسية كان بجهود الموالي الأمر الذي جعل لهم شأناً

عظـــيماً في أمور الدولة ، فكان القواد منهم وكان الوزراء منهم والكتاب منهم ، فـــزاحموا العرب وتقدموا عليهم في شتى المجالات ، وكان انتصار المأمون بسواعدهم ممـــا دعم مركزهم في الدولة وأنقص من شأن العرب ، حتى لم يعد من العرب قائد معـــروف كمـــا كان في عهد المنصور والمهدي والرشيد ، وصار معظم الجند حتى عـــصر المأمون (١٩٨-٢١٨هـــ) إنما هم من أهل خراسان والأبناء من الفرس ، وصار معظم الاعتماد عليهم ، وابتداء من عصر المعتصم ظهرت أسماء قواد الأتراك ، واستعان المعتصم بالأتراك على نطاق واسع .

ولا شـــك أن هذا الوضع مما أضعف العرب وأضعف الدولة العباسية تماماً وجعلها أسيرة في يد الموالي من الفرس أولاً ثم الأتراك بعد ذلك ، وأفقد الدولة الفئة العربية المجاهدة التي قامت بنشر الإسلام إبان الفتوح الإسلامية .

وكان هذا الوضع المتدهور لمركز العرب مجال اعتراض من عقلاء العرب في عصر المأمون ، فقد روى الطبري وابن الأثير أنه تعرض رجل عربي للمأمون بالشام مـــراراً وقـــال لـــه : "يا أمير المؤمنين انظر إلى عرب الشام كما نظرت إلى عجم خراسان ، فقال له المأمون : أكثرت عليَّ يا أخا أهل الشام ، والله ما أنزلت (قيساً) عـــن ظهـــور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد ، فأما (اليمن) فـــوالله ما أحببتها قط ، وأما (قضاعة) فسادتها تنتظر السفياني وخروجه حتى تكون مـــن أشياعه ، وأما (ربيعة) فساخطة على ربها منذ بعث الله نبيه من (مضر) ، ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شارياً ، أعزب ، فعل الله بك " [٤] .وهذا الكلام يعيد إلى الأذهـــان التعـــصب القبلي بأوضح صورة يوم أن قال رجل من ربيعة لمسيلمة

---

(٤) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، طبعة دار المعارف ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ج٨ ، ص٦٥٢ ، وابن الأثير : ج٥ ، ص٢٢٧-٢٢٨ .

الكذاب : "أشهد أنك كذاب ، وأن محمداً صادق ، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر " [الطبري ج٣ ، ص٢٨٦] .

وهـــذا تصريح خطير من المأمون وهو إن دل على شيء فإنما يدل على أن هـــذه القوة العربية التي كان العالم الإسلامي يحس بوجودها ويخشى الخلفاء سطوتها قد ضعفت ، فاجترأ خليفة المسلمين بالجهر بهذا القول في حقها على ملأ من الناس ، الأمـــر الذي يدل على عدم الثقة الكاملة في العرب ، ولما كان جيش الدولة هو الذي يدل على حقيقتها كان من الواضح أن الدولة ليس لها من العروبة إلا اللغة ، أما العصبية العربية للعنصر العربي فقد أشرفت على الانتهاء (٥) .

ولـــذلك كانـــت النتـــيجة الخطيرة هو عودة كثير من العناصر العربية إلى موطـــنها الأصـــلي بالجزيرة العربية بعد أن زاحمتها وعادتها العناصر التركية ، ونظر إلـــيها الخلفـــاء العباســـيون هذه النظرة من عدم الثقة ، فعادوا إلى الجزيرة العربية وانقطعـــت عنهم أرزاقهم التي كانت مرتبة لهم في ديوان الجند ، ولم يستبق هؤلاء شـــيئاً للزمن فلم تكن هناك يومئذ مجالات لتنمية أموالهم التي سبق أن حصلوا عليها من الفتوح الإسلامية ، ولم يعد لهم سوى حياتهم التي ألفوها قبل الإسلام في الجزيرة العـــربية ، فعـــادوا إلى عـــاداتهم السيئة فيما يتعلق بالسلب والنهب والإغارة على بعضهم البعض ، وعلى الأخص الإغارة على الأماكن الحضارية في الحجاز .

والـــذي يتصفح ما كتبه الطبري وابن الأثير وغيرهما من الكتاب عن عصر الواثـــق يجد كثيراً من حوادث الإغارة من قبائل (بني سليم) و (بني هلال) و (بني نمير) و (فزارة)(٦) و (مُرَّة) و (غطفان) و (طيء) و (بني ثعلبة) على بعضهم ، وعلى

---

(٥) الخضري ، الدولة العباسية ، ص٢٠٣ .

(٦) الذي ينتمي إليهم "يزيد بن عمر بن هبيرة" الذي قتله المنصور غدراً بعد أن أمنه .

الأخص ما قامت به قبائل بني سليم وبني هلال من الإغارة على المدينة وعلى القرى والمـــناهل (٧) مـــا بين مكة والمدينة مما سبب انقطاع الطريق ونشر الخوف في هذه الأمـــاكن بعد أن أنعم الناس فيه زمناً طويلاً بالأمن والأمان منذ صدر الإسلام حتى عصر الواثق ، ولم تكن تقع هذه الحوادث من قبل إلا في القليل النادر .

قهر شخصية العرب :

ومـــن ناحية أخرى فقد كان لهذه الحوادث أثرها السيئ في نفسية العرب حيث أضعف نفسية العرب أمام الأتراك ، ذلك لأن أخذ العرب بالآلاف أسرى في يـــد الأتراك إلى (سامرا) من المشاهد المؤلمة التي أثرت في نفسية العرب ، ويغلب علـــى الظـــن أن الأتـــراك كان هدفهم منها قهر شخصية العرب ، لأنهم بالغوا في الانتقام منهم في هذه الهجمة التي لم تحدث منذ صدر الإسلام ، وعلى الرغم من أن الطـــبري يذكر أنها كانت بسبب اعتداءات الأعراب على غيرهم في المدينة وعلى الطـــريق بين المدينة ومكة وعلى غيرهم من القبائل ، إلا أن هذه الأخبار ربما بولغ فيها ، وخاصة أن الطبري ليس شاهد عيان لها ، وإنما نقلت إليه وسجلها عن رواية غيره .

ويغلـــب علـــى الظن أيضاً أن هذه الحركات التي حدثت من بعض القبائل كانت للإعراب عن غضبتهم من هيمنة الأتراك على الخلافة ، فلما واجهتهم الدولة العباســـية بالأتراك زادوا من حركاتهم وغضبوا وأعلنوا عن تمردهم ، وسوف نرى أنهم سيضعون أنفسهم في خدمة أي حركة أو قوة معادية للدولة العباسية .

---

(٧) المـــناهل جمع منهل ، والمنهل هو المشرب والموضع الذي فيه المشرب والمنزل يكون في المفازة ، وعلى ذلك فالمناهل أماكن الشرب وموارد المياه بالصحراء ، والناهلة المختلفة إلى المنهل (القاموس المحيط) .

وعلى سبيل المثال اشترك بنو سليم وبنو هلال مع القرامطة في غزو الشام واستقرت بعض بطونهم في الشام ، وعندما دخل الفاطميون الشام وهزموا القرامطة اتصل بنو هلال وبنو سليم بالفاطميين وتعاونوا معهم وقدموا إليهم خدماتهم فنقلهم الفاطميون إلى مصر .

وعندما قطع المعز بن باديس الصنهاجي المغربي الخطبة للفاطميين في أفريقيا ، قـــرر الفاطمـــيون توجيه قوة بني سليم وبني هلال إليه في سنة ٤٤٣هـــ وكتب الوزير اليازوري وزير المستنصر الفاطمي إلى ابن باديس يقول : "أما بعد فقد أنفذنا إليكم خيولاً فحولاً وأرسلنا إليكم رجالاً كهولاً ليقضي الله أمراً كان مفعولاً"(٨) .

على من تقع المسئولية :

وعلـــى العـــرب يقع جانب من المسئولية في إنهاء سلطتهم ومشاركتهم في شـــئون الدولة العباسية ، والمسئولية تشمل الراعي والرعية ، وأعني بالراعي الخليفة العباســـي الذي فرط في جمع شتات هذه القوة التي سبق أن حققت بتماسكها العزة والمنعة للإسلام على مدى أكثر من قرنين من الزمان ، والخليفة العباسي راعي وهو مسئول عن رعيته ، وبقدر ما أتاح الفرصة للعناصر الأخرى للمشاركة في أوضاع الدولـــة لتحقيق المساواة التي كانوا يطلبونها كان عليه أن يحافظ على الكيان العربي والقـــوة العـــربية التي هي الأصل وما عداها هي الفرع ، وكان عليه أن يوجه هذه القوة إلى ساحات الجهاد مع أعداء الإسلام .

وأمـــا الـــرعية فهـــم العرب جميعاً الذين تنازعوا واختلفوا إلى عرب شمال وعرب جنوب وشامية ومضرية ، وعرب الشمال إلى مضرية وربيعية ، والمضرية إلى

---

(٨) ابن الأثير ، ج٩ ، ص٥١٦ ، وابن خلدون : العبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ، ج٤ ، ص٦٢ ، والمقريزي : اتعاظ الحنفاء بذكر الأئمة الخلفاء ، ج٢ ، ص٢١٦

قرشـــيين وغـــير قرشيين ، والقرشيين إلى أمويين وهاشميين ، والهاشميون إلى علويين وعباســـيين ، والعلويـــون إلى فـــرق لا تحـــصى من الشيعة الزيدية والاثنى عشرية والإسماعيلية وهلم جرا ، إلى غير ذلك من الخلافات التي قضى عليها الإسلام ، ونبه علـــى خطورة العودة إليها والتي تؤدي إلى الفشل ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ...﴾ (الأنفال : آية ٤٦) ، ومن منطلق قوله تعالى : ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغـــيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ (الأنفال: آية ٥٣) ، وقوله تعالى :﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ (الرعد : آية ١١) .

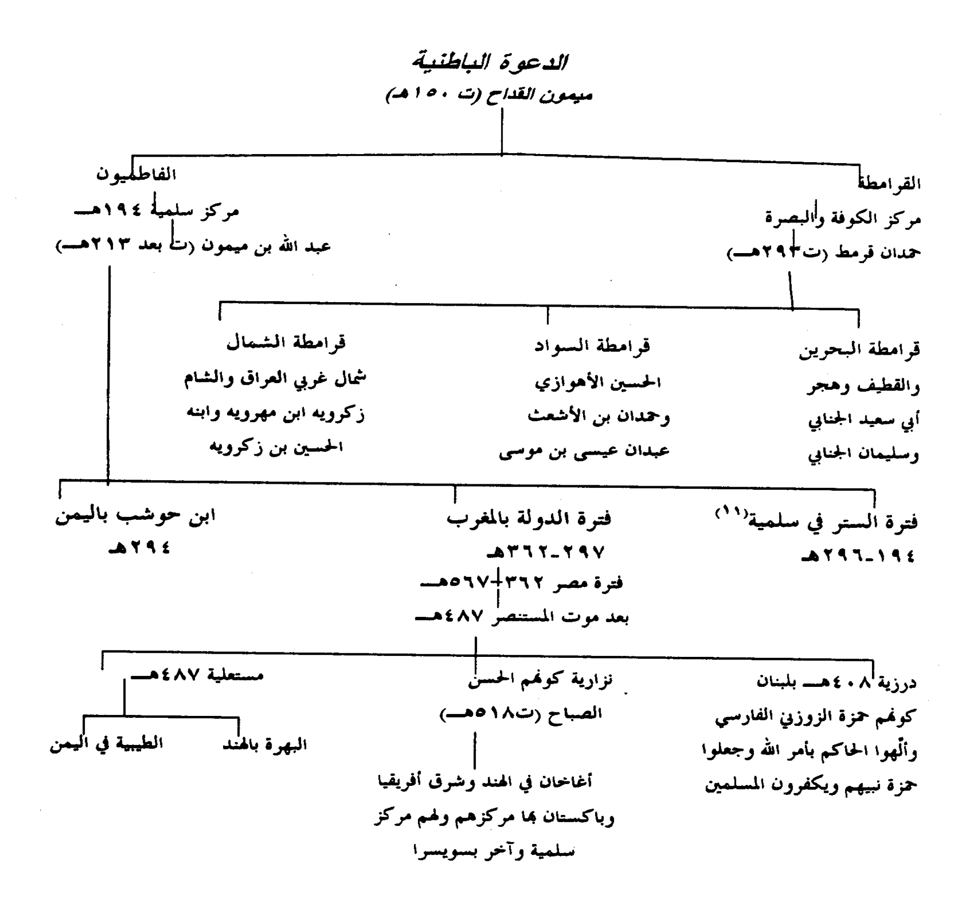
الدولة الفاطمية ٢٩٦-٥٦٧هـــ :

تنتـــسب الدولـــة الفاطمـــية إلى فاطمة الزهراء ابنة الرسول عليه الصلاة والسلام وزوج علي ابن أبي طالب ومؤسسها هو عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر الصادق بن محمد المكتوم [٩] بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وهذا نسبهم كمـــا أورده ابـــن خلدون في كتابه (العبر [١٠]) لكنه مختلف فيه بين المؤرخين نظراً لأنهم كانوا يغيرون أسماءهم في فترة الدعوة السرية خوفاً على أنفسهم من العباسيين وكـــان هـــذا سبباً في طعن العباسيين في نسبهم عند ظهور دولتهم سنة ٢٩٦هـــ بتونس بالمغرب العربي ، وترجع دولتهم في نشأتها إلى نشاط دعاة الباطنية في القرنين الـــثاني والثالث ، لذا يلزمنا قبل الخوض في تاريخ هذه الدولة أن نلقي الضوء على أصول الباطنية .

---

(٩) يسمونه المكتوم لأنهم كانوا يكتمون اسمه حذراً عليه ، ابن خلدون ، العبر ، ج٣ ، ص٤٥١ .

(١٠) المصدر السابق ، ج٣ ، ص٤٤٩ .



---

(١١)يذكر مصطفى غالب في كتاب له عن القرامطة أن خروج الإمام عبد الله بن محمد بن إسماعيل إلى سلمية كان سنة ٢٠٨هـ ، تاريخ الدعوة الإسماعيلية ، ص٨٣ .

أصول الباطنية :

يعـــد تاريخ الحركة الباطنية من الموضوعات الشائكة في التاريخ الإسلامي بـــسبب قـــيام الدعوة الباطنية على السرية التامة بسبب خوفهم على أنفسهم من رجال الدولة العباسية ، وهذا مما اضطرهم أيضاً إلى تغيير أسمائهم عدة مرات خوفاً مـــن انكـــشاف أمـــرهم ، ومن ثم نجد اختلافاً كبيراً في أسمائهم في شتى المصادر ، وبـــصفة عامـــة فالهم لجئوا إلى التخفي في أعمالهم كلها بسبب ما نالهم من مطاردة وحاربـــوا أعداءهم سراً في غالب الأحيان ولا يحاربون جهراً إلا إذا كانوا قادرين ومن ثم قالوا بالتقية .

وهـــم بذلك يختلفون عن الخوارج فقد كانوا ظاهرين في حروبهم ، وغلبت على الخوارج الطبيعة البدوية في الصراحة ، ومن ثم كان أكثرهم لا يقول بالتقية أما الباطنـــية فقـــد قالوا بالتقية وكانت أساساً في عقيدتهم وعقيدة غيرهم من الشيعة ، والتقية هي النفاق السياسي والمداراة للأعداء وقت قوتهم ، وهي أن يحافظ الشخص علـــى نفـــسه أو عرضـــه أو ماله بالتظاهر بعقيدة أو عمل لا يعتقد بصحته ، وقال الخوارج أن التقية لا تجوز ولا قيمة للنفس والعرض والمال بجانب العقيدة .

أمـــا أهـــل السنة فقالوا : من خاف على نفسه أو ماله لعقيدته وجب أن يهاجر من بلده ، فان لم يستطع أظهر التقية بقدر الضرورة ، ووجب عليه أن يسعى في الخـــروج بديـــنه [١٢] ، مستندين إلى قوله تعالى : ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ .

---

[١٢] احمد امين ، فجر الإسلام ، ص٢٧٤ .

ومـــن السمات البارزة للحركة الباطنية في مرحلة الستر أن كل إمام كان يحمل اسمين : اسماً حقيقياً وآخر سرياً وحركياً (١٣) .

ونظـــم الدعـــوة الباطنية في البداية جماعة من الخارجين الفرس على الدولة العباســـية الذين آذاهم ما حدث من الدولة العباسية لزعمائهم مثل أبي سلمة وأبي مسلم الخراساني وفشلت حركاقم العلنية في النيل منها ، ومن ثم فكروا في الاتصال بالعـــرب الـــشيعة الغاضـــبين على العباسيين وقاموا بتعزيز حركاقم سراً للنيل من الدولـــة العباسية وكان ذلك أيام أبي جعفر المنصور ووجد الشيعة في الموالي الفرس المتذمـــرين والحاقـــدين على الدولة مفكرين أقوياء قادرين على التنظيمات السرية بنفس الدرجة التي كانت عليها سرية الدعوة العباسية عندما واجهت الدولة الأموية ، ودخـــل كثير من الفرس الحاقدين على العباسيين إلى هذه الحركة السرية الشيعية الـــتي أطلق عليها فيما بعد (الحركة الباطنية) لأنهم كانوا يكتمون مبادئهم ويلقونها سراً ، ولأنهم كانوا يقولون بالإمام الباطن أي المستور ، ولقولهم فيما بعد "إن لكل ظاهـــر باطـــناً ولكـــل تنـــزيل تأويل" كما عرفوا بالإسماعيلية لقول دعاقم بإمامة إسماعـــيل بن جعفر الصادق وهو الإمام السابع في نظرهم وليس هو موسى الكاظم كما يرى الإثنى عشرية .

وقام بالدعوة الباطنية في البداية (أبو الخطاب الأسدي) بالولاء واسمه محمد بـــن أبي زيـــنب وكنيته (أبو الخطاب) وهو فارسي الأصل ، وكان نشاطه بالكوفة فقـــتله عيـــسى بن موسى والي الكوفة سنة ١٤٣هـــ وقال عنه انه ادعى أن جعفر الصادق إله .

---

(١٣) حامد غنيم ، العلاقات العربية السياسية في عهد البويهيين ، ص٣٥٣ .

وكـــان معـــه في الدعوة منذ قامت رجل فارسي آخر هو (ميمون القداح) المكـــنى بـــأبي شـــاكر ، وكان متفنناً في درس الأساطير الدينية والبحوث الكلامية والجـــدل الفلـــسفي ومتآمـــراً جريئاً ، وكان (ميمون) في الأصل مجوسياً من سبي الأهـــواز [١٤] أظهـــر إسلامه وبدأ حياته الإسلامية مولى (لجعفر الصادق) ، وكان داعـــياً لآل البيت ، ثم قبض عليه مع جماعة من أصحابه وسجنوا بالكوفة في أواخر عهد المنصور ، وفي السجن وضع ميمون وأصحابه دعوقم وأسسوا مذهبهم الشهير بمـــذهب الباطنـــية أو الإسماعيلية ، وخرج ميمون من السجن وانتشرت دعوته في جـــنوب فـــارس وجـــنوب العـــراق وتوفي ميمون سنة ١٧٠هـــ وترجع المصادر الإسماعيلية نسبة إلى سلمان الفارسي [١٥] والواقع أن تاريخ نشأته يكتنفها الغموض والإبهام .

وحمـــل الدعـــوة بعد ميمون ولده (عبد الله) الذي كان على غرار أبيه في الذكاء والبراعة فنظم الدعوة ويقال أن هذه الجماعة اتخذت من بلدة (ساباط) [١٦] مـــن أعمـــال المـــدائن القديمة مركزاً لدعوقا حيناً من الدهر ، وعلمت به الدولة العباسية فطاردهم فانتقلوا إلى (البصرة) .

وكانـــت (البصرة) مركزاً لالتقاء الفكر الإسلامي بهذه الأفكار لأنها أدنى مدينة عربية إلى فارس وتقع على باب الصحراء التي يفر إليها ويتخذها حمى له كل خـــارج مخالف للخليفة ، فقد كانت البصرة بحكم موقعها الجغرافي في ملتقى رجال الـــشرق الـــوثني مـــن فـــرس وهنود وديلم بمفكري الإسلام ، فيها التقت المانوية

---

(١٤) البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص٢٩٣ .

(١٥) مصطفى غالب ، تاريخ الدعوة الإسماعيلية ، ص١٣٩ .

(١٦) قـــيل إن مـــيمون جاء أولاً من مكة وانتقل إلى الأهواز ، وقيل انه جاء من محل في الأهواز يدعى قورج العباس ونزل عسكر مكرم ثم ذهب إلى ساباط من أعمال المدائن . المرجع السابق ، ص١٤٠ .

والزاردشـــتية والمزدكية والبرهمية والصائبة والدهرية وغيرها من تلك النحل القديمة التي جاء الإسلام يغزوها بدينه الفطري السهل (١٧) .

كانـــت (البـــصرة) مأوى لكل من يكيد للإسلام والخلافة لقربها من بلاد الفرس ، فتجمعت فيها أخلاط من الفرس والديلم والعرب وغيرهم ولم ينس الفرس والـــديلم ما كان لهم من ديانات فتآمروا على الإسلام ووجدوا الأنصار قريباً منهم في الأهواز وفارس ، وإذا طاردهم الخليفة ورجاله ركبوا الصحراء العربية أو البحر الخليج حتى تتاح لهم فرصة أخرى .

في هـــذه البيئة التي تتصارع فيها الأجناس والأفكار والعقائد ظهرت قوتان كبيرتان كلتاهما ضد الدولة العباسية :

أحـــدهما : قوة الفاطميين التي انتقلت فيما بعد إلى مقر سري بالشام هو قـــرية (سَلَمْيَة) من أعمال حمص التي أضحت موئل الإسماعيلية ومجمع أسرارهم في فترة الدعوة السرية حتى ظهورهم باليمن والمغرب .

الأخـــرى : قـــوة القـــرامطة ، وهي منظمة عاتية من قطاع الطرق ظلت بالبـــصرة ، وانـــتقل رجالها إلى شرقي الجزيرة العربية بالبحرين والأحساء واليمامة عندما أصبحت لهم قوة تقف معهم من القبائل العربية ، وكان لهم فرع بالشام .

فبعد وفاة (عبد الله بن ميمون القداح#) قام ابنه أحمد بترتيب الدعوة فبعث بالحسين الأهوازي داعية له بالعراق فالتقى (بحمدان بن الأشعث) المعروف (بقرمط)

---

(١٧) عمر الدسوقي ، إخوان الصفا ، ص٨٩ .

توفي عبد الله بن ميمون القداح بعد سنة ١٨٠هـــ وكان مولى لمحمد الباقر كما كان والده مولى لجعفر الصادق وتقول المصادر الشيعية بان معنى القداح : هو الذي ينشر من حوله ضوء الحكمة الإلهية . وهناك تناقض في السنين فبعض المصادر تجعـــل ميمون وابنه معاصرين لجعفر الصادق وإسماعيل ، وبعضها تقول أن عبد الله عاش في أواخر القرن الثالث الهجري (الفهرست ، طبعة طهران، ص٢٣٨) فيذكر الفهرست أن عبد الله كان حياً سنة ٢٦١هـــ .

في ســـواد الكـــوفة فدعاه إلى مذهبه فأجابه وقام حمدان بأمر الدعوة بالكوفة وإليه تنسب القرامطة [١٨] .

ويذكر البغدادي في كتابه (الفرق بين الفرق) : "إن الذين راجت عليهم أفكار الباطنية أصناف ثلاث :

أحـــدهم : العامـــة الـــذين قلـــت بصائرهم بأصول العلم والنظر كالنبط والأكراد وأولاد المجوس .

ثانيهم : الشعوبية الذين يرون تفضيل العجم على العرب ويتمنون عودة الملك إلى العجم .

ثالـــثهم : أغتام بني ربيعة من أجل غيظهم على مضر لخروج النبي منهم ، ومن أجل حسد ربيعة لمضر بايعت بنو حنيفة (مسيلمة الكذاب) طمعاً في أن يكون في بـــني ربـــيعة نبي كما في بني مضر نبي [١٩] [ولهذا قال قائلهم لمسيلمة : والله إني أعلـــم انـــك لكاذب ومحمد الصادق ولكن كاذب ربيعة أفضل عندنا من صادق مضر] .

وكان دعاة الباطنية يدخلون إلى المدعوين من مدخل سهل تبع ميولهم وعلى العمـــوم فقـــد كـــان مدخل محبة آل البيت والأخذ بيدهم لأنهم ظلموا هو المدخل الـــسهل، ويذكر البعض [٢٠] أن التشيع لآل البيت أصبح مأوى يلجأ إليه من أراد هـــدم الإســـلام لعـــداوة وحقـــد ، ومن كان يريد إدخال تعاليم آبائه من يهودية

---

[١٨] حمـــدان قرمط أصله من خوزستان ، واختلف في اسمه قيل : حمدان وقيل الفرج بن عثمان وقيل الفرج بن يحي ، أما (قرمط) فهو لقبه لحمرة عينيه ، أو لقرمطة في شكله أو مشيته ، توفي سنة ٢٩٣هـــ (الزركلي ، الأعلام) وانظر : إحسان الهو ظهير ، الإسماعيلية ، ص٩٧ ، ومصطفى غالب ، تاريخ الدعوة الإسلامية ، ص٢٨-٢٩ .

[١٩] البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص٣٠٠-٣٠١

[٢٠] احمد أمين ، فجر الإسلام ، ص٢٧٦ .

ونصرانية وزرادشتية وهندية ومن يريد استقلال بلاده والخروج على مملكته ، كل هؤلاء كانوا يتخذون حب آل البيت ستاراً يضعون وراءه كل ما شاءت أهواؤهم .

انتقال الحركة الباطنية إلى سلمية :

لـــيس معروفاً باليقين متى انتقلت الحركة الباطنية إلى سلمية ، وان كانت المـــصادر الإسماعيلـــية تنص على أن الانتقال تم في سنة ١٩٤هـــ [٢١] ، وعلى كل حـــال فعـــندما انـــتقل نشاط الباطنية إلى سلمية بالشام بدأ نشاط مكثف للدعوة الباطنية في دور الستر الذي استمر حتى سنة ٢٩٦هـــ ، فيما يتعلق بإعداد الدعاة وتوجيههم وإرسالهم إلى شتى النواحي .

وســـلمية تقع على حافة بادية الشام تلتقي عندها الطرق الآتية من البادية ومـــن العـــراق وهي تابعة لحمص بينها وبين حمص ٣٥ ميلاً ، وينطقها أهل الشام "سَلَمِيَّة" ويضبطها ياقوت في معجم البلدان "سَلَمْيَة" [٢٢] .

ونـــشأت الحركة في سلمية كمدرسة سرية لتخريج الدعاة الذين تمرسوا في فنون المناظرة والجدل ، وتذكر المصادر الإسماعيلية التي ظهرت مؤخراً بان الأموال والذخائـــر كانت تنقل إلى سلمية بواسطة الدعاة ، وتم حفر سرداب في الصحراء حـــتى داخـــل بيت الإمام طوله خمسة عشر ميلاً ، وكانت الأموال والذخائر تحمل على الجمال فيفتح لها باب السرداب في الليل وتنزل فيه بأحمالها عليها حتى تحط في داخل الدار وتخرج في الليل ثم يهال على باب السرداب بالتراب فلا يدري به أحد وقـــيل أن الأمـــوال التي كانت تصل إليها عظيمة جداً ، وهكذا أصبحت سلمية

---

[٢١] مصطفى غالب ، تاريخ الدعوة الإسماعيلية ، ص١٤٩ .

[٢٢] معجم البلدان ، مادة سلمية .

مركـــزاً رئيسياً للدعوة الباطنية مما ساعد على انتشارها بسرعة في الشام والجزيرة العربية والعراق والمغرب .

حركة القرامطة :

كانـــت حـــركة القرامطة هي التي ظهرت أولاً في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري على يد ثلاثة رجال هم :

١- **الرجل الأول** : حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط وأصله من خوزستان واختلف في اسمه ، فقيل (حمدان) ، وقيل (الفرج بن عثمان) وقيل (الفرج بن يحي) وقرمط لقبه لقرمطة في شكله أو دقة في مشيته أو لحمرة في عينيه ، وكان مركز نشاط حمدان في بلاد السواد الكوفة وما حولها ، وهو الذي نـــسبت إليه حركة القرامطة كلها بشتى فصائلها في شرقي الجزيرة العربية وبادية الشام.

٢- **الـــرجل الثاني** : هو (أبو سعيد الجنابي) داعي البحرين في شرقي الجزيرة العربية ، وهو منسوب إلى (جنابه) على الشاطئ الفارسي للخليج ، وهو مؤســـس دولـــة القـــرامطة في البحرين وسميت دولته بالقرامطة لأنه أخذ الدعوة الباطنية من حمدان قرمط .

٣- **الـــرجل الـــثالث** : هو (زكرويه بن مهرويه) الذي تولى الدعوة في بادية الـــشام وبعـــض بلاد الشام ، وهو بذلك مؤسس حركة القرامطة في هذه الجهات وأخذت لقب القرمطي لأنه هو الذي اختاره للدعوة الباطنية .

وصادفت حركة القرامطة نجاحاً كبيراً بين القبائل العربية وعلى الأخص في شـــرقي الجزيرة العربية وبادية الشام ، وذلك لأن القبائل العربية كانت ناقمة على الـــدول العباسية بسبب موقفها من العرب فلم تشركهم في جيوش الدولة وشئونها

فقلـــت هجرتهم إلى خارجها في القرن الثالث الهجري بالإضافة إلى قلة الخيرات في الصحراء ، كل هذه الظروف ساعدت حركة القرامطة والنفوذ الفاطمي في التغلغل بـــين القـــبائل العـــربية التي قلت بصائرهم بمرامي الحركة الباطنية وخطورتها على الإسلام.

ولم يلـــبث أن اختفـــى حمدان قرمط في تاريخ مجهول ، وقد اشتدت حركة القرامطة عنفاً بعده ولا سيما عندما نجحت في استمالة بعض القبائل القوية والعنيفة مـــثل (بـــني هلال) و (بني سليم) و(طيء) و (بني عقيل) ، وتمكن الجنابيون من أن يهجِّـــروا معهـــم بني هلال وبني سليم إلى البحرين ، وكانت الخلافة العباسية هي المركز الذي تنصب عليه نقمة القرامطة ، فقد وصفوها بأنها مصدر لكل شر ومنبع للظلم ورمز للطغيان والفساد ولذلك تعاون الجميع على إسقاطها وتدميرها وتحطيم كـــل ما قام بها وارتبط بها وتفرع منها ودعمها وساندها [٢٣] وهذا الموقف النفسي هـــو الذي يفسر لنا موجة العنف العارمة التي بدأ بها القرامطة مسيرة الإرهاب أو الثورة ضد الدولة العباسية وتطاير شرهم فنال الآمنين في الأراضي المقدسة في مكة والمدينة وطريق الحجاج ، وعلى الأخص في عصر المقتدر (٢٩٥-٣٢٠هـــ) .

فقد شهدت سنوات حكم المقتدر هجمات قادها (أبو طاهر الجنابي) خليفة (أبي سعيد الجنابي) حيث وجه ضرباته إلى أماكن حساسة بالنسبة للسلطة في بغداد ، ففي سنة ٣١٧هـــ دخلوا مكة بزعامة أبي طاهر الجنابي وقتلوا من الحجاج وأهل مكة أعداداً لا يتناولها الحصر قيل في بعض الروايات أنها بلغت ثلاثين ألفاً ، وأخذوا الحجـــر الأسود وفروا به إلى مركزهم في البحرين وتوسط الفاطميون لديهم فردوا الحجر الأسود إلى مكة سنة ٣٣٩هـــ .

---

[٢٣] انظر : مجلة الوثيقة ، العدد العاشر ، السنة الخامسة ، يناير ١٩٨٧ ، مقال بعنوان القرامطة .

وحــدث انــشقاق بــين القرامطة وإمام الإسماعيلية حتى قبل قيام الدولة الفاطمية بالمغرب سنة ٢٩٧هـ وتمرد جماعة زكرويه بن مهرويه ببادية الشام على أوامــر الخلــيفة الفاطمي ، وبدءوا يعملون لحسابهم في بلاد الشام وتصادموا مع الفاطميين والجنابيين .

وبعد وفاة أبي طاهر القرمطي (٣٣٢هـ) خلفه ابن أخيه (الحسن الأعصم) وفي عهده حدثت حروب بين القرامطة والفاطميين للنــزاع على الشام سنة ٣٥٨ هــ وهــاجم الحسن الأعصم دمشق سنة ٣٦٠هـ واستولى عليها وهاجم مصر واقتــرب من القاهرة ومعهم جماعة من (طيء) على رأسهم (حسان بن الجراح) ، وجماعة من (بني عقيل) على رأسهم (ظالم بن موهوب) العقيلي سنة ٣٦٣هـ [٢٤] لكن المعز فرق جموعهم بعد أن استمال زعماء بني طيء والعقيليين بالمال والمناصب في دولته .

ثم لم يلبث أن فقدت حركة القرامطة قوتها ، فقد هاجمهم البويهيون في عقر دارهــم في الأحساء بمعاونة زعيم من بني المنتفق الذين كانوا يترلون جنوب العراق ونهبوا القطيف وبذلك انتهت حركتهم عملياً في أواخر القرن الرابع الهجري .

ويعــدها الــبعض في عداد الدول لأنها سيطرت على المنطقة الشرقية من الجزيــرة العــربية ما يزيد على نصف قرن ، إلا أننا نعتبرها منظقة إرهابية معارضة أشاعت الخراب والفوضى والدمار في شتى أنحاء الجزيرة العربية والعراق والشام ، ومــا فعلته بالأراضي المقدسة لا يقوم به مسلم ينتمي إلى الإسلام ، فهم جماعة من قطــاع الطــرق تحللــوا من جميع الحدود والقيود الإسلامية ، والمسئولية تقع على الدولة في كل ذلك لأنها أهملت العرب فحدث لهم ما حدث .

---

(٢٤) ابن خلدون ، العبر ، ج٤ ، ص٦٤ .

ظهور الدولة الفاطمية :

سبق أن ذكرنا أن المغرب قد أضحى مأوى للمعارضة في عصر الدولة العباسية من أمويين وأدارسة وخوارج وفي النصف الثاني من القرن الثالث الهجري استقبل المغرب دعاة الإسماعيلية ، فلقد رأى دعاة الباطنية بعد التضييق عليهم في الشام والعراق صعوبة محاربة الدولة العباسية في عقر دارها فرأوا في اليمن والمغرب أماكن مناسبة لانتشار الدعوة الباطنية ، وذلك لمناعة هذه الأماكن الجبلية من ناحية ومن ناحية أخرى لبعدها عن مركز الدولة العباسية ومراقبتها .

ويرجع الفضل في قيام هذه الدولة إلى رجلين :

الأول : هو (ابن حوشب) وهو الحسين بن فرج بن حوشب وهو المشهور في تاريخ الحركة الفاطمية بلقب "منصور اليمن" ويرجع إليه الفضل في النجاح الذي حققته الدعوة الفاطمية في اليمن فقد قام بمهمته سنة ٢٦١هـ ، وكان يقود الحركة الفاطمية في إقليم اليمن ويشرف على تنظيمها في أقاليم أخرى ، فهو الذي أشرف على إرسال الداعي المشهور (أبو عبد الله الشيعي) إلى المغرب وأرسل بعض أتباعه إلى السند [٢٥] وذلك بعد أن شك الإمام في سلوك القرامطة من بني الجنابي وزكرويه .

وكان أول نزول ابن حوشب في (عدن لاعه) وهي قرية من أعمال صنعاء بجبل يسمى (جبل صبر) ، وحقق نجاحاً في هذه المناطق الجبلية التي كانت تابعة لبني يعفر سادة هذه المناطق والذين كانوا يعلنون ولاءهم للعباسيين [٢٦] وكلف ابن حوشب من طرفه داعياً يمنياً هو علي بن الفضل لكي يقوم بالدعاية الفاطمية في

---

[٢٥] حامد غنيم ، العلاقات العربية السياسية في عهد البويهيين ، ص٣٠٦ .

[٢٦] المرجع السابق ، ص٣٠٧ .

تهامة اليمن واستطاع الرجلان تحقيق إعلان دولة فاطمية باليمن سنة ٢٩٤هـ قبل إعلانها بالمغرب (٢٧) .

و**الرجل الثاني :** الذي يرجع إليه الفضل الأوفر في قيام الدولة الفاطمية هو رجل يسمى (الحسين بن أحمد بن محمد بن زكرويه الشيعي) ، ويعرف بأبي عبد الله الشيعي الصنعائي (٢٨) ، كان في بداية حياته يعلم الناس المذهب الإسماعيلي بالبصرة ، فطلبه إمامه عبيد الله المهدي لكي يذهب إلى الداعية ابن حوشب باليمن ليدرس عليه ثم يذهب بعد فراغه من الدراسة إلى المغرب ، وكان نشاط بن حوشب باليمن أقوى نشاط بعد فترة عبد الله القداح.

وبعد ان أتم أبو عبد الله الشيعي مهمته باليمن التقى في موسم حج سنة ٢٨٨هـ ببعض الحجاج من البربر من قبيلة كتامة وتعرف عليهم فأحبوه ووثقوا به وذكر لهم انه يريد مصر بعد الحج ، فطلبوا منه أن يصحبهم إلى المغرب وينزل ضيفاً عليهم ، فقبل ، وكانت قبائل كتانة من أعظم قبائل البربر ، وأهم مضاربها بين جبال أوراس والبحر المتوسط بنواحي قسنطينة شرقي الجزائر الحالية(٢٩) .

وأعانه الكتاميون على نشر دعوته التي كانت تتلخص في الدعوة بقرب ظهور المهدي من آل البيت الذي سيملأ الأرض عدلاً بعدما ملئت جوراً من العباسيين وغيرهم ، وانتشرت هذه الدعوة بالمغرب الأوسط وإفريقية ، وتمكن في الفترة من ٢٨٨هـ إلى ٢٩٦هـ من تكوين قوة كبيرة منهم صارت أكبر قوة ضاربة بالمغرب قضي بها في هذه الفترة الوجيزة على قوة الأغالبة والخوارج

---

(٢٧) المرجع السابق ، ص٣١٠ .

(٢٨) يذكر ابن خلكان انه من أهل صنعاء وكان من الدهاة .

(٢٩) أحمد مختار العبادي ، في التاريخ العباسي والأندلسي ، ص٣٨٤ .

والأدارســـة ، وعندما حقق النصر على هذه القوى استدعى إمامه عبيد الله المهدي من سلمية للحضور إلى المغرب .

كان (عبيد الله المهدي) زعيم الباطنية موجوداً بمقره السري بسلمية عندما وصـــله الخـــبر وكان قد شك في إخلاص آل زكرويه وخاصة عندما بدأ تحرشهم بقـــوات الدولة العباسية على غير هواه فكأنهم يعملون لحسابهم بالشام ، فخاف أن ينكـــشف أمره ، فخرج من سلمية خائفاً يترقب وأعلن للتمويه انه يريد اليمن بيد انـــه كـــان يـــريد المغرب وخرج في وقت بثت فيه الدولة عيونها في مغامرة لا تقل خطـــورة عن مغامرة عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الذي هرب إلى الأندلس ، واتخذ عبيد الله طريق الصحراء بعد أن عبر مصر بسلام خوفاً من عيون الدولـــة المتربـــصة له ، ونجح في الوصول إلى المغرب الأقصى ونجا من الموت عدة مرات ، فقد وقع أسيراً في أيدي بني مدرار (بسجلماسة التي تسمى الآن تافيلات) ، ولكـــن أبا عبد الله الشيعي هب لنجدته وأنقذه من سجنه وقدمه إلى أنصاره قائلا لهم : هذا إمامكم .

ودخـــل عبـــيد الله المهـــدي مدينة (رقّادة) [٣٠] سنة ٢٩٧هـــ العاصمة الخاصـــة للأغالبة وأعلن دولته ، واتخذها عاصمة له حتى بنى المهدية سنة ٣٠٠ هـــ التي تطل على خليج قابس ، وتلقب بأمير المؤمنين وأقيمت الخطبة باسمه .

وكان أول عمل قام به المهدي (٢٩٧-٣٢٢هـــ) هو اغتيال داعيه ورجله الـــذي حقـــق له النصر بالمغرب وهو أبو عبد الله الشيعي سنة ٢٩٨هـــ لأنه يريد الاستئثار بالسلطة دونه .

---

[٣٠] رقادة : تبعد مدينة رقادة عن القيروان نحو أربعة أميال وكانت رقادة عاصمة خاصة لدولة الأغالبة ، وكانت القيروان هي عاصمتهم الأولى وعاصمة الإسلام الأولى بالمغرب (١٦٠كم جنوب تونس) .

وحـــول عبيد الله المهدي هذا يدور الجدل فيما يتعلق بصحة نسبه إلى علي بـــن أبي طالب ، فالقادحون في نسبه يقولون بأنه سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح الأهوازي المجوسي الأصل .

ويقول بعض المنكرين لنسب الفاطميين بمقولة أخرى أشد خطراً ، وهي أن سعيداً هذا ليس ولد الحسين القداح وإنما هو ولد زوجه اليهودية من زوجها الأول اليهودي رباه ولقنه أسرار الدعوة واختاره للزعامة والإمامة من بعده .

وابن الأثير لا يصدق هذه الرواية ويحاول أن يثبت صحة نسب الفاطميين ، ويستدل بأبيات للشريف الرضي العلوي نقيب العلويين في بغداد حين يقول :

ما مقامي على الهوان وعندي * مقْوَلٌ صارم وانف حَمِيُّ
ألبس الذل في بلاد الأعادي * وبمصر الخليفة العـــلويُّ
من أبوه أبي ومولاه مولاي * إذا ضامني البعـــيد القصيُّ
لف عِرْقي بعرقـــه سيد النـــ* ــــاس جميعاً محمد وعلـــيُّ

بمـــا كتبه في المحضر المضمن القدح في أنساب الفاطميين فان الخوف يحمل علـــى أكثـــر مـــن هذا ، فلما بلغ القادر (٣٨١-٤٢٢هـــ) هذه الأبيات أحضر القاضـــي أبـــا بكر الباقلاني وأرسله إلى والد الشريف الرضي (المعروف بأبي أحمد الموســـوي) للـــضغط عليه لكي يتراجع الشريف الرضي عن موقفه ولكن الشريف الرضـــي امتنع عن الاعتذار وعن الطعن في نسبهم ، وفي هذا دليل قوي على صحة نـــسبهم ويعـــزز هذا في رأي ابن الأثير انه سأل جماعة من أعيان العلويين في نسب الفاطميين لم يرتابوا في صحته [٣١] ، أما في مقولة الأصل اليهودي فيقول ابن الأثير : كـــيف يعقـــل أن يعمـــل كل هؤلاء الدعاة على إخراج هذا الأمر من أنفسهم

---

[٣١] ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص١٢٤-١٢٩ .

ويسلموه إلى ولد يهودي ؟[٣٢] وقد تبعه على ذلك ابن خلدون فأنكر مقولة الطعن في نسبهم وأضاف بان العباسيين دأبوا على ذلك فقد سبق لهم أن طعنوا في نسب الأدارسة [٣٣] ويذكر أن انقياد العلويين بمكة والمدينة لهم يدل على صحة نسبهم .

ويقول ابن طباطبا في الفخري ، وهو علوي مثلهم : "والصحيح انهم علويين إسماعيليين صحيحو الاتصال ، وهذه الصورة التي أوردها هنا هي المعول عليها وبها خطوط مشايخ النسابين" [٣٤] واستشهد بأبيات الشريف الرضي السالفة ، وابن طباطبا يعول عليه في هذا المجال فقد كان نقيباً للعلويين في جنوب العراق وله اشتغال بالتاريخ ومعرفة الأنساب .

وتبعهما من المحدثين الشيخ الخضري حيث يقول : هذا كلام يظهر عليه التوليد والاختراع كتب لإرضاء العباسيين الذين غصوا بمكان الفاطميين ولم يجدوا لهم ما يحاربونهم به إلا مثل هذه الأقاويل[٣٥] ، ولا شك أن هذا الطعن أملته الأحقاد السياسية ضد الفاطميين ولا أساس له من الصحة وأولى منه أن يطعنوا في عقائده فهي فاسدة وملتوية . فيما ظهر منها أما ما بطن فالله أعلم به ، وحقيقة المذهب الفاطمي انه من مذاهب الشيعة الغلاة ، أي الذين يخلعون على الإمام صفات إلهية تضع فوق مستوى البشر ، فهم يقولون ، بان الآلهة تحل في الأمة حلولا شبه كلية ، وذلك على عكس الإمامية الذين يقولون بان هذا الحلول جزئي ، والزيدية المعتدلين الذين يقولون بان الإمام لا يتمتع إلا بتوجيه إلهي فقط [٣٦] .

---

(٣٢) المصدر السابق ، ج٦ ، ص١٢٤-١٢٩ .
(٣٣) ابن خلدون ، العبر ، ج٣ ، ص٤٤٩ -٤٥١ والمقدمة ص٣٠٩ .
(٣٤) الفخري ، ص٢٦٣ .
(٣٥) الدولة العباسية ، ص٣٠١-٣٠٢ .
(٣٦) سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربي ، ج٢ ، ص٥٣٩ .

وأخـــيراً أقول ما قاله ابن خلدون "وليس إثبات مُنْتَسَبهم بالذي يغني عنهم مـــن الله شيئاً في كفرهم [٣٧] ، فقد قال الله تعالى لنوح عليه السلام في شان ابنه:﴿ انـــه ليس من أهلك انه عملٌ غيرُ صالح ، فلا تَسْألْن ما ليس لك به علم ﴾ [هود : آيـــة ٤٦] وقـــال صلى الله عليه وسلم لفاطمة ابنته : "يا فاطمة اعملي فلن أغني عنك من الله شيئاً" .

والحقـــيقة أن الفاطميين أنفسهم لم يهتموا كثيراً بمسألة صحة النسب هذه بعـــد أن فرضوا حكمهم بالأمر الواقع ، وينسب إلى المعز لدين الله انه قال لجموع المهنئين عندما دخل مصر وهو يسل سيفه من غمده وينثر عليهم دنانير ذهبه : "هذا حسبي وهذا نسبي" يؤكد مقالة شرعية الأمر الواقع ، ويثبت أن الجدل حول نسبهم لم يعد ذا موضوع [٣٨] .

سبب انتقال الفاطميين إلى مصر (٣٥٨هـ) :

علـــى الرغم مما حققته الدولة الفاطمية من انتصارات بالمغرب على الأغالبة والخـــوارج والأدارسة ، لكن ما لبث أن نفر أهل المغرب منها ، وذلك لأن الأرض المغـــربية كان قد تمكن فيها مذهب الإمام مالك ، وأدرك عبيد الله المهدي أن شمال إفـــريقيا البربري لن يكون مهداً وثيراً لدولته الفاطمية الإسماعيلية ، وبدأت في أيامه المعـــركة الطـــويلة بين الفاطميين وغيرهم بالمغرب ، وكان أقوى الخصوم هم أتباع الإمام مالك [٣٩] .

---

[٣٧] المقدمة ، ص٣١١ .

[٣٨] سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربي ، ج٢ ، ص٥٤٤ .

[٣٩] حسين مؤنس ، أطلس تاريخ الإسلام ، ص١٧٩-١٨٠ .

ووجد الفاطميون أنفسهم وسط محيط بربري ضخم متطلع للإغارة وفرض السلطان فبجانب كتامة كانت هناك قبائل صنهاجة بالمغرب الأوسط وكانت أعدادهم أكبر من أعداد كتامة ، وحاول عبيد الله المهدي أن يضربهم ببعضهم ، وكانت هناك قبائل زناتة الذين استعانوا ببني أمية الأندلسيين لمقاومة أطماع الفاطميين واشتعل المغرب كله ناراً نتيجة تلك المطامع الفاطمية (٤٠) .

واستمر المغرب يعاني من هذه الحروب طوال الفترة الفاطمية ولذلك اتجه الفاطميون بأطماعهم نحو مصر وساعدهم على ذلك مسالمة أهلها للحاكمين وضعف الدولة الإخشيدية ، فاتجه الخليفة الفاطمي الرابع إلى مصر وهو المعز لدين الله الذي حكم في المغرب من ٣٤١هـ إلى ٣٦٢هـ ، فقد ركز جهوده في هذه المدة للاستيلاء على مصر حتى تم له ذلك سنة ٣٥٨هـ على يد قائده جوهر الصقلي .

وقبل أن يغادر المعز المغرب إلى مصر سنة ٣٦٢هـ عين يوسف بن زيرى الصنهاجي على المغرب وبذلك قامت دولة بني زيري في إفريقية والمغرب تابعة للفاطميين في البداية ، ثم استقلت عنهم ، وهي أول دولة ينشئها المغاربة بعد أن استعربوا .

واستمر بنو زيري على ولائهم للفاطميين إلى أن تولى أمرهم (المعز بن باديس) (٤٠٦-٤٥٣هـ) الذي تخلى عن ولائه للفاطميين ودعا للعباسيين ، وقد واجه الخليفة الفاطمي هذا الموقف بان أرسل إليه بعض القبائل العربية التي كانت تقيم في صعيد مصر ، وفي شرق الدلتا وهم بنو هلال وبنو سليم للانتقام منه ، وكانت هذه القبائل قد اشتركت مع القرامطة في غزو بلاد الشام ، واستقرت بعض

---

(٤٠) المرجع السابق ، ص١٨٠ .

بطـونها بـتلك البلاد ، وعندما دخل الفاطميين وعرضوا عليهم خدماتهم فنقلهم الفاطميون معهم إلى مصر [٤١] .

وعـندما قطـع المعز بن باديس الصنهاجي الخطبة للفاطميين قرر المستنصر الفاطمـي توجـيه قوة بني هلال وبني سليم إليه قائلاً لهم : "قد أعطيناكم المغرب وملك بن باديس العبد الآبق" [٤٢] ثم كتب إلى ابن باديس يقول له : "أما بعد فقد انفـذنا إلـيكم خيولاً فحولاً ، وأرسلنا عليها رجالاً كهولاً ، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً"[٤٣].

فاجـتاحت قبائل بني هلال وبني سليم دولة بني زيري وحصروا أمراءها في مديـنة (المهدية) على شاطئ البحر ، وعقب هذا الهجوم شاعت الفوضى في المغرب كله ، فإن القبائل العربية بعد قضائها على دولة المعز بن باديس التحموا بقبائل زناتة ودفعـوهم إلى المغـرب الأقصى إلى أن اندفعوا إلى جنوب المغرب الأقصى وطردوا أمـامهم جزءاً من صنهاجة هي صنهاجة الصحراء إلى الجنوب فأصبحوا محصورين بين زناتة من الشمال والقبائل السنغالية في حوض السنغال من الجنوب .

وكانت هذه الظروف هي التي دفعت قبائل صنهاجة الصحراء للعمل على الخروج من هذه المحنة فكانت حركة المرابطين التي سنتحدث عنها بعد هذه الدولة .

إنشاء الأزهر :

وعـندما انتقلت الدولة الفاطمية إلى مصر بنت عاصمة جديدة لها في شمال الفـسطاط هـي القاهرة ، وبنوا في وسطها مسجداً جامعاً أسموه بالأزهر ، وكانت

---

(٤١) محمد بن شديد العوفي ، العلاقات بين الفاطميين والعباسيين ، ص٢٦٤-٢٦٧ .

(٤٢) المرجع السابق ، نفس المكان .

(٤٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص٥٥ ، وابن خلدون ، العبر ، ج٤ ، ص٦٢ .

تقـــام بالأزهر منذ إنشائه حلقات الدعاية الباطنية ، وكانت لا تدرس في حلقاته في العـــصر الفاطمي غير دروس الفقه الشيعي الإسماعيلي بخطة دراسية موجهة دعمها وقواها الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم .

وظـــل الأزهـــر هكذا في خطته الدراسية طوال عصر الدولة الفاطمية حتى قـــضى صـــلاح الدين الأيوبي على الدولة الفاطمية فقد انتهز فرصة مرض الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ودعا للخليفة المستضيء العباسي في المحرم ٥٦٧هـــ كمـــا أمر بالدعاء له على منابر اليمن والشام التي كانت تابعة للخلافة الفاطمية ، فمـــنحه الخليفة العباسي تفويضاً بحكم هذه البلاد ، وتم هذا التغيير دون أن يلقي أيـــة مقاومـــة[٤٤] وبعد موت العاضد سنة ٥٦٧هـــ آخر الخلفاء الفاطميين أغلق صـــلاح الدين الأزهر تماماً وانشأ المدارس السنية في جميع أنحاء مصر لنشر المذهب الـــسني بهـــا وكانت الدروس ما زالت تلقى في جامع عمرو بن العاص بالفسطاط وجامـــع أحمد بن طولون بالقطائع على مذاهب أهل السنة والجماعة حتى في العصر الفاطمـــي وقضى صلاح الدين تماماً على المذهب الإسماعيلي في مصر وظل الأزهر مغلقـــاً نحو قرن من الزمان إلى أن افتتح في العصر المملوكي في عصر الظاهر بيبرس ٦٦٥هـــ [٤٥] .

وفي العـــصر المملوكي تحول الأزهر إلى معهد سني لدراسة علوم الدين على المـــذاهب الأربعـــة واخـــتلف مـــنهاج الدراسة في العصر المملوكي عنه في العصر الفاطمي، فقد تعين لكل مذهب شيخ كان له الإشراف الكامل على الطلاب الذين يتـــبعون مذهبه ، وأضحى الأزهر جامعة الإسلام الكبرى في العصر المملوكي وزخر

---

[٤٤] حسن إبراهيم ، تاريخ الإسلام ، ج٤ ، ص٣٢٢ .

[٤٥] انظر: للمؤلف كتاب : دور الأزهر في الحياة المصرية ، ص٢٦-٣٤ .

بكبار الشيوخ والعلماء الذين نهضوا بعلوم الشريعة ، وحافظوا على العربية وعلومها ، واستمر الأزهر هكذا حتى الوقت الحاضر وتحول إلى جامعة حديثة لدراسة شتى العلوم النظرية والعملية .

العالم الإسلامي
في القرن الخامس الهجري

كان العالم الإسلامي في المشرق قبل ظهور السلاجقة (٤٤٧هـ) يحتاج إلى حركة إنقاذ مما ألم به من شيوع الفرق الشيعية المتطرفة التي هيمنت في المشرق ومصر والشام والجزيرة العربية في ظل نفوذ الدولة الفاطمية ، وهيمنت في المشرق بما فيه العراق في ظل نفوذ الدولة البويهية (٣٣٤-٤٤٧هـ) ، فأصبح العالم الإسلامي في النصف الأول من القرن الخامس الهجري بمثابة صرح تقوض بناؤه شرقا وغربا وزادت المنافسة بين الخلافة العباسية في بغداد والخلافة الفاطمية في القاهرة مما أضعف جبهة الدفاع عن العالم الإسلامي على الحدود البيزنطية ، فتوغل الروم في الحدود الإسلامية ولم يفعل البويهيون شيئا في هذا المجال ، لأنهم انشغلوا بالنزاعات المذهبية في الداخل ، وكانت الدولة الفاطمية مشغولة بالمؤامرات التي أحدثت في العراق والشام اضطرابات مذهبية عنيفة بين السنة والشيعة ، وبالجملة أحدثت انشقاقا في الجدار الإسلامي فأمكن اختراقه من طرف الصليبيين .

وجاءت حركة الإنقاذ له من وراء حدوده ، فمن أقصى المشرق جاءت موجات الأتراك السلاجقة الذين أسلموا على يد الدولة السامانية السنية ودحروا البويهيين في بغداد سنة ٤٤٧ هـ ، وتغلبوا على البيزنطيين في آسيا الصغرى

واســتوطنوها فحولــوها بذلك إلى تركستان جديدة واتخذوها موطنا لهم ومهجرا للأتــراك بشتى فرقهم ، ولقد كان للاتحاد المذهبي بين السلاجقة والخلافة العباسية أثره في انتعاش الخلافة العباسية بعض الشيء ، مما أتاح للخلفاء العباسيين أن يكون لهم سلطان أكبر وأتاح للسلاجقة أن يخدموا الخلافة العباسية السنية خدمات تذكر لهــم فيــشكرون عليها ، وذلك في مجال تدعيم نفوذ المذهب السني والوقوف أمام الدولــة الفاطمــية الــشيعية وأطماعها ، وإيقاف دعايتها الباطنية الخطيرة بإنشاء المدارس السنية التي لعبت دوراً هاماً في هذا المجال مما أنعش الخلافة العباسية وقوى نفوذ المذهب السني .

وممــا هو جدير بالذكر أن أول من انشأ مدرسة سنية حنفية في بغداد كان هــو (ألب أرسلان) فما كاد يستقر في بغداد حتى أمر ببناء ضريح الإمام أبي حنيفة الــنعمان في بغــداد وبــناء مدرسة ملحقة به لتدريس الفقه الحنفي ، وفتحت هذه المدرسة أبوابها بمحضر كثير من الأكابر في احتفال كبير .

وكان الذي قام بالإشراف على هذه المدرسة العميد شرف الملك أبو سعد محمــد بن منصور الخوارزمي صاحب ديوان الزمام والاستيفاء أيام (ألب أرسلان) وملكشاه وتوفي سنة ٤٩٤هـــ [٤٦] .

والــسلاجقة مجمــوعة من القبائل التركية التي عرفت باسم (الغُز) وكانت هــذه القــبائل تسمى (الأوغوز) ثم خففت هذه التسمية فصارت (الغز) ، كانت تــسكن مناطق في أقصى بلاد التركستان وتجمعت في أعداد غفيرة وبدأت تنــزل بالهــضاب القريبة من بحر خوارزم والسواحل الشرقية لبحر قزوين والمناطق المحيطة بنهــري ســيحون وجيحون وقد أطلق على هذه القبائل التركية اسم (السلاجقة)

---

[٤٦] نظام الملك ، سياسة نامة ، ص٣٠ .

نسبة إلى رجل منهم تزعم حركتهم هو (سلجوق بن دقاق) [٤٧] وذلك لأنه هو الذي جمع شملها ووحدها تحت زعامته ثم قادها ونزل بها أرض الإسلام في سنة ٣٧٥هـ في بلاد ما وراء نهر سيحون [٤٨] .

وتعاون السلاجقة منذ وصولهم مع الدولة السامانية فاعتنقوا الإسلام على يدها على المذهب السني ، وكانوا يجاهدون من وراءهم من الترك الوثنيين ويساعدون السامانيين في حروبهم مع خانات الترك ، وأعطاهم السامانيون منطقة حول مدينة (جند) على نهر سيحون فاتخذوها قاعدة لهم وفيها تأصلت معرفتهم بالإسلام على مذهب أبي حنيفة ، ولذلك يقول ياقوت : " أن أهل جند كلهم أحناف " .

حتى إذا ما انهارت الدولة السامانية سنة ٣٨٩هـ ساعدهم ذلك على أن يرثوا أملاكها في تلك المناطق ولكنهم ورثوا عنها شيئاً هاماً نفعهم في تاريخهم وهو النظام والضبط والربط في مجال الجندية الذي وضع السامانيون له قواعد وأسس ، وأخذت جموع الأتراك تزداد وتنتشر حول سيحون وجيحون بحيث لم يبدأ القرن الخامس الهجري إلا وكانوا على استعداد للهجرة غرباً نحو خراسان .

وبعبور السلاجقة إلى خراسان تبدأ الخطوة الثانية من خطوات الهجرة السلجوقية ، اصطدموا فيها بالغزنويين الموجودين في خراسان ولكنهم تغلبوا على الغزنويين في خراسان سنة ٤٢٩هـ وأعلنوا قيام دولتهم في (نيسابور) بقيادة (طغرلبك) حفيد سلجوق ، واضطر الخليفة العباسي إلى إرسال التقليد لهم بالإمارة

---

[٤٧] دقاق أو تقاق كلمة تركية معناها القوس الحديدي ، ابن الأثير ، الكامل حوادث سنة ٤٣٢هـ .

[٤٨] عبد النعيم حسنين ، سلاجقة إيران والعراق ، ص١٧ .

في عام ٤٣٢هـ وبذلك أخذت الدولة السلجوقية صفتها الشرعية ومدوا سلطانهم إلى كل أقاليم إيران فأزالوا عنها الحكم البويهي كما أزالوا عنها سلطان الغزنويين .

وأرسل طغرلبك رسولاً إلى الخليفة يبالغ في إظهار الطاعة له ، فأمر الخليفة أن يذكر اسم طغرلبك في الخطبة ، ثم دخل طغرلبك بغداد سنة ٤٤٧هـ واعترف به الخليفة سلطاناً على جميع المناطق التي تحت يده وأسدل الستار على الدولة البويهية التي سيطرت على الخلافة العباسية وحكمت باسمها من سنة ٣٣٤ هـ حتى سنة ٤٤٧هـ .

والذي يهمنا في تاريخ السلاجقة هو أن نلقي الضوء على الدور الذي لعبه السلاجقة لخدمة الإسلام ، وينحصر هذا الدور في مجالين :

الأول : دورهم في مجال إحياء الجهاد الإسلامي في الجبهة الرومية وانتصارهم على الروم انتصاراً حاسماً في موقعة "منذكرت" سنة ٤٦٣هـ وإزاحتهم للحدود الرومية وتحويلهم منطقة آسيا الصغرى إلى تركستان جديدة وتمهيدهم بذلك السبيل للأتراك العثمانيين فيما بعد .

الثاني : دورهم في مجال محاصرة الأفكار والدعايا الشيعية في المشرق وإنشائهم للمدارس السنية النظامية ، التي كانت عبارة عن مراكز ثقافية لنشر مذاهب أهل السنة والجماعة وإشاعتها بين الناس لمقاومة النشاط الشيعي الذي كان قد انتشر بشكل ساحق في المشرق والعراق قبل قدومهم حتى وصل إلى السيطرة على عاصمة الدولة العباسية في بغداد .

العالم الإسلامي قبل ظهور المرابطين :

كـــان العالم الإسلامي في أوائل القرن الخامس الهجري بمثابة صرح تقوض بناؤه بالانقسام شرقاً وغرباً ، فكانت تتنازعه قوى مختلفة ، وتتزعمه ثلاث خلافات ، العباسية في بغداد والفاطمية في القاهرة والأموية في قرطبة .

وكانـــت الخلافة العباسية في بغداد قد غلب عليها النفوذ البويهي الشيعي الـــذي أضـــعف جـــبهة الدفاع عن العالم الإسلامي على الحدود البيزنطية ولم يقم البويهـــيون بعمل شيء في هذا المجال وزادت في نهاية فترتهم المنازعات المذهبية بين الـــشيعة والسنة في العراق وأصبحت تهدد كيان الدولة وتشغلها عن الأخطار المحيطة بهـــا ، وزاد في هـــذه المنازعات مؤامرات الدولة الفاطمية التي أحدثت في العراق والشام والمغرب اضطرابات مذهبية عنيفة بين السنة والشيعة.

كمـــا كانـــت الخلافة الأموية في الأندلس قد آل أمرها في هذه الفترة إلى التفكك إلى دويلات ضعيفة متنازعة عرفت بالطوائف أو الفرق ، مما أغرى الأسبان ومن ورائهم المسيحيون في أوروبا بالتحفز والهجوم على المسلمين في الأندلس .

وكـــان العالم الإسلامي في حاجة إلى حركة إنقاذ تلم شعثه وتقوي أطرافه وثغـــوره أمـــام الطامعين فيه ، وتحققت له هذه الأمنية حين جاءته من وراء حدوده شـــرقاً وغرباً عناصر فتية مليئة بفتوة البداوة وعنفوانها ، فمن أقصى المشرق جاءت موجات الأتراك السلاجقة السنيين الذين دحروا البيزنطيين والبويهيين وتغلبوا على البيزنطيين في آسيا الصغرى وحولوها إلى تركستان جديدة اتخذوها موطناً لهم كما سبق أن ذكرنا .

ومـــن أقـــصى المغرب جاءت عناصر مغربية فتية من صحراء (شنقيط) [٤٩] المغربية (موريتانيا) الحالية وهم البربر الملثمين أو المرابطين المتحمسين للإسلام الذين وحـــدوا المغـــرب كلـــه وعبروا إلى الأندلس فأنقذوها من براثن الأسبان وردوا المسيحيين المتربصين بها على أعقابهم ووحدوا الأندلس من جديد تحت نفوذهم.

الظروف والملابسات السياسية بالمغرب :

كـــان الوضـــع في المغـــرب مثله في الأندلس لقد تحول إلى ملوك طوائف بالإضـــافة إلى انتشار الجهل فقد عمت الفوضى بالمغرب عقب انتقال الفاطميين إلى مـــصر سنة ٣٦٢هـــ حتى قيام دولة المرابطين سنة ٤٥٠هـــ وتعتبر هذه الفترة من أعقد فترات تاريخ المغرب وأكثرها اضطراباً وأحفلها بالحوادث ، فعندما انتقل المعز لـــدين الله الفاطمي إلى مصر سنة ٣٦٢هـــ أسند حكم أفريقية وبعض بلاد المغرب إلى أحـــد رجاله البارزين من قبيلة صنهاجة البربرية الجبلية وهو (يوسف بن زيري) لكـــي يتفرغ خلفاء الفاطميين للجزء الشرقي من الدولة في مصر والشام والحجاز لمناوأة الدولة العباسية .

واســـتمر بـــنو زيري على ولائهم للفاطميين إلى أن تولى أمرهم (المعز بن بـــاديس) (٤٠٦-٤٥٣هـــ) الذي تخلى عن ولائه للفاطميين ودعا للعباسيين وقد واجـــه الخليفة الفاطمي هذا الموقف بان أرسل إليه بعض القبائل العربية التي كانت تقـــيم في صعيد مصر وفي شرق الدلتا وهم (بنو هلال) و (بنو سليم) للانتقام منه، وكانت هذه القبائل قد اشتركت مع القرامطة في غزو بلاد الشام واستقرت بعض

---

[٤٩] كلمـــة شنقيط كانت تطلق في الأصل على قرية من قرى (ولاية أدرار) في موريتانيا الحالية ، ومعنى شنقيط بالبربرية عـــيون الخـــيل ، يقـــال أنها بنيت في القرن الثاني الهجري ، ولم يلبث اسمها أن أطلق على القطر كله وصار أهله يعرفون بالـــشناقطة ، وما زالت مدينة شنقيط هي العاصمة الروحية للبلاد ، أما العاصمة السياسية فهي مدينة (نواكشوط) على ساحل الأطلسي [أحمد مختار العبادي ، في التاريخ العباسي والأندلسي ، ص٤٧٨] .

بطـــونها بتلك البلاد ، وعندما دخل الفاطميون الشام وهزموا القرامطة اتصل بنو هـــلال وبنو سليم بالفاطميين وعرضوا عليهم خدماتهم نقلهم الفاطميون معهم إلى مصر [٥٠].

وعـــندما قطـــع المعز بن باديس الصنهاجي الخطبة للفاطميين قرر المستنصر الفاطمي توجيه قوة بني هلال وبني سليم إليه قائلاً لهم :

"قـــد أعطيناكم المغرب وملك بن باديس العبد الآبق" [٥١] ثم كتب إلى ابن باديس يقول له :

"أمـــا بعد فقد أنفذنا إليكم خيولاً فحولاً وأرسلنا عليها رجالاً كهـــولاً ليقضي الله أمراً كان مفعولاً"[٥٢] فاجتاحت قبائل بني هلال وبني سليم دولة بني زيري وحصروا أمراءها في مدينة المهدية على شاطئ البحر ، وعقب هـــذا الهجـــوم شاعت الفوضى في المغرب كله فان القبائل العربية بعد قضائها على دولـــة المعـــز بـــن باديس الصنهاجي التحموا (بقبائل زناتة)[٥٣] حين وصلوا إلى مركـــزهم بتلمسان بالمغرب الأوسط ودفعوهم إلى المغرب الأقصى وخرج الزناتية بـــدورهم مـــندفعين إلى جـــنوب المغرب الأقصى وطردوا الصنهاجيين إلى الجنوب

---

[٥٠] محمد بن شديد العوفي ، العلاقات بين الفاطميين والعباسيين ، ص٢٦٤-٢٦٧ .

[٥١] المرجع السابق ، نفس المكان .

[٥٢] ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص٥٥ ، وابن خلدون ، العبر ، ج٤ ، ص٧٩-٨٠ .

[٥٣] بلاد المغرب الأوسط من نهر "شلف" إلى قرب مجرى نهر "المولوية" وينقسم قسمين : شرق المغرب الأوسط وهو مهد صـــنهاجة المغرب الأوسط ، وغرب المغرب الأوسط وعاصمته "تلمسان" ويغلب عليه الزناتيون ، وكان ولاؤهم موجهاً نحـــو الأمويين الأندلسيين وكانت الحرب دائمة طوال هذه الفترة بين الجانبين ، وعندما دخل بنو هلال وبنو سليم دفعوا الزناتية إلى المغرب الأقصى .

فأصبحوا محصورين بين زناتة من الشمال والقبائل السنغالية في حوض السنغال من الجنوب .

وكانت هذه هي الظروف التي دفعت قبائل صنهاجة (٥٤) الصحراء في منطقة شنقيط أو موريتانيا الحالية وشمال السنغال إلى التحرك للتخلص من هذا الوضع ولم يجدوا سوى الإسلام والتمسك بأهدافه فسعوا من أجل النهضة الإسلامية ، وكانت هذه القبائل ما زالت ضعيفة في إسلامها متفرقة الكلمة حتى أوائل القرن الخامس الهجري فحدثت فيها انتفاضة إسلامية إصلاحية كان قوامها تعاون الأمراء مع الفقهاء والحركات السياسية التي قامت في التاريخ الإسلامي بتعاون الفقهاء والحركات السياسية التي قامت في التاريخ الإسلامي بتعاون الفقهاء والأمراء كانت قوية وكونت دولا قوية ألفت بين قلوبهم ووحدت صفوفهم أمام الخطر المحدق بهم من الشمال والجنوب ، وذلك على أسس دينية وأخلاقية على يد الأمير (يحي بن عمرو بن إبراهيم الجدالي) زعيم الملثمين ، والفقيه (عبد الله بن ياسين الجزولي) وهما من أصل صنهاجي ، وكان ابن ياسين من أهل الورع والفضل والسياسة على جانب طيب في الناحية العلمية فتعاهد مع القائد يحي في سنة ٤٣٠ هـ على العمل للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين قبائل صنهاجة ، غير أن قبائل صنهاجة نفرت منه في البداية .

---

(٥٤) قبائل صنهاجة الصحراء : هم : جُدَالة ومَسُّوفة ولَمْتُونَة وتَارْجَا وجَزُولَة وبنو وارِث ، وكانت هذه القبائل تمتد أول الأمر إلى الشمال وتحتل إقليم تافيلات وقاعدته سجلماسة فلما بسط الزناتيون سلطانهم على المغرب الأوسط طردوا الصنهاجيون إلى الجنوب .

وانتهـــى الأمر إلى انتخاب مجموعة منهم اعتزلوا الناس للعبادة مرابطين في مكـــان أطلقوا عليه (الرباط)[٥٥] وشاع أمرهم بأنهم يطلبون الجنة فكثر الواردون عليهم الذين كانوا يتوبون على أيديهم ، وأخذ الداعي ابن ياسين يرغبهم في ثواب الله حتى تمكن من قلوبهم ، فلم تمر عليه سوى فترة وجيزة حتى تجمع لديه نحو ألف رجـــل مـــن أشراف صنهاجة فسماهم المرابطون وكانوا سنيين على مذهب الإمام مالـــك، وأخذ يعلمهم الكتاب والسنة وما فرض عليهم من ذلك ، فلما تفقهوا في ذلك وكثروا دعاهم إلى جهاد من خالفهم من قبائل صنهاجة .

وانتهـــى بهـــم الأمـــر إلى فرض دعوتهم في بطون صنهاجة في الصحراء ، واتجهوا بعد ذلك إلى الشمال لغزوه ، وكانت الأراضي الواقعة في الشمال في ذلك الـــوقت في فوضى ، فعلى أنقاض الخلافة الأموية في الأندلس قامت إمارات عديدة صغيرة في كلا جانبي مضيق جبل طارق ، وفي المناطق الشرقية من المغرب كان أمر الفاطميين قد ضعف منذ تمرد المعز بن باديس ، وهجوم قبائل بني هلال وبني سليم علـــى هذه المناطق فأشاعوا فيها الخراب والدمار والحرب وفي سنة ٤٤٧هـــ توفي (يحي بن إبراهيم الجدالي) فعين ابن ياسين مكانه أخوه (أبو بكر بن عمر بن إبراهيم الجدالي) وعلى أيامه أصبح المرابطون قوة ضاربة متماسكة دينياً وأخلاقياً وعسكرياً.

فخرج المرابطون من الصحراء يقودهم زعيمهم الديني (عبد الله بن ياسين) وقائـــدهم الحـــربي (أبـــو بكر بن عمر الجدالي) ، وبدءوا يجاهدون الزناتية الذين يضغطون عليهم من الشمال فانتصروا عليهم وكسروا الحصار الذي كان مضروباً عليهم في الشمال والجنوب .

---

[٥٥] قيل أن هذا المكان كان في جزيرة بنهر بالنيجر [ألفريد بل ، الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي، ص٢٢٦-٢٣٠] ، وقيل كان هذا المكان في جزيرة في نهر السنغال ، [توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام ، ص٣٥٢] وقيل أنها جزيرة في المحيط الأطلسي قرب الساحل [حسين مؤنس ، أطلس تاريخ الإسلام ، ص١٨٠].

فاســـتولوا على بلاد السوس في جنوب المغرب وقاعدتها (تارودانت) سنة ٤٤٨هـــ وفتحوا (سجلماسة) واتخذوها عاصمة لهم في البداية ثم اتجهوا بعد ذلك إلى (بـــلاد الحوز) واستولوا على عاصمتها (أغمات) في جنوب مراكش ، ونظراً لأهمـــية أغمات كمدينة متحضرة من جهة ولقربها من الصحراء من جهة أخرى ، فقـــد اختارها المرابطون عاصمة مؤقتة إلى أن يتم بناء عاصمة جديدة لهم وآثر أبو بكـــر بن عمر عبور الصحراء جنوباً للجهاد في الجبهة الثانية ضد مملكة غانا الوثنية وتـــرك بن عمه يوسف بن تاشفين يجاهد في الشمال ، وفي سبيل هذا الهدف العظيم اضطر الأمير المجاهد أبو بكر عمر أن يترك زوجته وأهله ووطنه وان يبيع نفسه من الله ، ويـــروى انه قال لزوجته زينب النفزاوية عند فراقه لها : يا زينب إني سائر إلى الـــصحراء برسم الجهاد لعلي أرزق الشهادة والفوز بالأجر الوافر ، ولا يمكنني أن أمشي عنك وأنت في عصمتي فان أنا مت كنت مسئولاً عنك ، والرأي أن أطلقك ثم طلقهـــا ، ويقـــال انـــه قال لابن عمه يوسف بن تاشفين : "تزوجها فإنها امرأة مسعودة فتزوجها يوسف ، وتوجه أبو بكر بن عمر إلى الجهاد ضد مملكة غانا [٥٦] وتوفي سنة ٤٨٠هـــ ، ولم تكن العلاقة طيبة بين المرابطين ومملكة غانا فكانت هناك اعـــتداءات متبادلة ، وتمكن أبو بكر من فتح بلادهم ونشر الإسلام بها وقيام مملكة مالي الإسلامية على أنقاضها وكان هذا ثمرة من ثمار جهاد المرابطين وقائدهم الحربي أبو بكر بن عمر الجدالي .

وفي ســـنة **٤٥٣هـــ** آلت زعامة المرابطين إلى شخصية قوية هي شخصية (يوســـف بـــن تاشـــفين) وهو أقوى حكام المرابطين تمت في عصره السيطرة على

---

[٥٦] الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ج٩ ، (١٨٣٥-١٨٩٧م) .

المغــرب الأقــصى والجزائــر وأسس مدينة مراكش[٥٧] سنة ٤٦٢هـ كعاصمة للمــرابطين ، وقيل سنة ٤٥٤هـ ، وقام بتوحيد بلاد المغرب الأقصى والأوسط ، وكان يوسف بن تاشفين معتدل القامة أسمر اللون نحيف الجسم ضعيف العارضين لا يعرف العربية غير ميال إلى الرفاهية شجاعا عادلا مقداما مؤثرا لأهل العلم والدين كثير المشورة لهم يحكمهم في بلاده ويصدر عن آرائهم ، وكان يحب العفو والصفح عن الذنوب الكبار ، أكثر رجاله وحشمه وخاصته من السودان وهم الذين اعتمد علــيهم في معاركــه بالمغرب والأندلس فحققوا له النصر بفضل ما اشتهروا به من ثبات سنذكر طرفا منه فيما بعد .

ولــا ظهــر نجــم يوسف بن تاشفين بعد توحيد المغرب تطلعت إليه أنظار المــسلمين بالأندلس فاستغاثوا به من ضغط الأسبان عليهم وطلبوا نجدته فلبى نداء ملوك الطوائف سنة ٤٧٨هـ وكانت استجابة المرابطين لنجدة إخوانهم بالأندلس بعد فتوى صدرت من علماء جامع القرويين بضرورة نجدة إخوانهم في الأندلس[٥٨] وقــد ســبقتهم شهرتهم في العبور إلى أعداء الإسلام وأصبح لها دوي كبير وخاصة لاســتيلائهم علــى المغرب في فترة وجيزة ، وعلم الأعداء بشجاعتهم وتفانيهم في الجهــاد وحبهم للجهاد وزهدهم في الدنيا ، وسمعوا ما ظهر لأبطالهم في المعارك من ضــربات بالــسيوف تقد الفارس وطعنات تصل إلى الكلى والقلوب ، فأصبح لهم رعب في قلوب الأعداء .

---

[٥٧] مراكش : اسم بربري قديم قد يكون مشتقا من أوركش ويعني ابن كوش وكوش بالبربرية معناها الأسود ، وفي هذا يقــول عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب في تلخيص أخبار المغرب : وإنما سميت بعبد أسود كان يستوطنها ويخيف الطــريق اسمه مراكش ، أما ابن خلدون فيرى ان معنى مراكش : امش مسرعا في لغة المصامدة لأن موضعها كان مأوى للصوص (أحمد مختار العبادي ، مرجع سابق)

[٥٨] عبد الهادي التازي ، جامع القرويين ، ج١ ، ص١٤ .

معركة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ :

وقد عبرت قوات المرابطين مضيق جبل طارق والتقت مع الأسبان وحلفائهم من المسيحيين في معركة حاسمة هي معركة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ شمال قرطبة ويصف بعض المؤرخين عبور قوات بن تاشفين فيقول : " فلما عبرت جيوش يوسف بن تاشفين عبر في آخرها وأمر بعبور الجمال فعبر منها ما أغص الجزيرة وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء ولم يكن أهل الجزيرة رأوا قط جملا ولا كانت خيلهم قد رأت صورها ، ولا سمعت أصواتها ، وكانت تذعر منها وتقلق ، وكان ليوسف بن تاشفين في عبورها رأي مصيب ، كان يحدق بها معسكره ، وكان يحضرها الحرب ، فكانت خيل الفرنج تحجم عنها وتجمح براكبها في المعركة " فلما التقى الجمعان قدم يوسف بن تاشفين بين يدي حربه كتابا على مقتضى السنة يعرض على الأدفونش الإسلام أو الجزية أو الحرب ، وقال له : بلغنا انك دعوت في الاجتماع بك وتمنيت أن يكون لك فُلْكٌ تعبر البحر عليها إلينا ، فقد أجزناه إليك ، وجمع الله في هذه العرصة بيننا وبينك وسترى عاقبة دعاتك ﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ (غافر :٥) ، فرفض عرضه مغتراً بجيشه الذي بلغ نحو ستين ألفاً ودارت الدائرة فيها على أعداء الإسلام ، ولم يملك قائدهم سوى الفرار مع عدد قليل من جيشه قيل انهم دون الثلاثين .

وقيل أن موضع المعترك على اتساعه ما كان فيه موضع قدم إلا على جسد أو دم ، وجمعت الغنائم وعف عنها يوسف بن تاشفين وآثر بها ملوك الأندلس ، وعرفهم أن مقصوده إنما كان الغزو لا النهب ، فلما رأت ملوك الأندلس إيثار يوسف بن تاشفين لهم بالغنائم استكرموه وأحبوه وشكروا له [٥٩] ، وبذلك أوقف

---

[٥٩] ابن خلكان ، ج٧ ، ص١١٦-١١٧ .

المـــرابطون تقـــدم الأسبان إلى الجنوب وأجلوا سقوط دولة الإسلام بالأندلس نحو أربعـــة قـــرون ، وبعد هذا النصر عادوا إلى أفريقيا مرة أخرى ، لكن حال ملوك الطوائف بالأندلس لم يستقر واستمرت خلافاقم ، وعاد المرابطون إلى الأندلس مرة أخـــرى في ســـنة ٤٨٢هـــــ وعزلوا ملوك الطوائف ووحدوا بلادهم تحت راية المرابطين .

وقـــد أضـــاف يوسف بن تاشفين بلاد الأندلس إلى دولة المرابطين بالمغرب وكانـــت العاصمة (مراكش) ، وقد تمكن المرابطون من المحافظة على ما ورثوه من الأنـــدلس الإســـلامي بفضل ما بذلوه من جهود جليلة في الجهاد وما كسبوه من انتصارات كبرى وما تكبدوه كذلك من خسائر وبهذا تظهر أهمية العامل الديني في الـــدفاع عن الإسلام فقد ظهرت أهميته في إعلان المرابطين للجهاد ضد قوى الكفر والمنحرفين وانتصروا لذلك .

وبهذا نرى انه لم يحدث في تاريخ الأمة الإسلامية من عصر الفتوح إلى الآن أن انخـــذلت أمتـــنا في معركة كانت العقيدة لواءها والإيمان ذخيرتها وإدارة الجهاد سلاحها ، وهذا هو التفسير الحقيقي لتاريخنا ، سواء قاد مسيرتنا العرب أو الأتراك أو الفـــرس أو البربـــر أو غيرهم ، فان الله وعد من يقاتل في سبيله النصر ، ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ .

وقـــد كانت تضحيات المرابطين في الأندلس من أكبر الأسباب التي مكنت المـــوحدين من التغلب عليهم [٦٠] بالإضافة إلى أن هذه البلاد الثرية الجميلة بالنسبة للـــصحراء الأفـــريقية قضت على خشونة المرابطين فعجزوا بعد فترة عن مقاومة غارات المسيحيين المستمرة ، وتغلب عليهم الموحدون .

---

[٦٠] حسين مؤنس ، مرجع سبق ذكره ، ص١٨١ .

ومما هو جدير بالذكر أن المرابطين اعترفوا بالخلافة العباسية السنية رغبة منهم في المحافظة على الوحدة الإسلامية ، ولأنهم كانوا لا يخشون الخلافة العباسية التي تطرق إليها الضعف والانحلال ، ولم يفكر المرابطون في الاعتراف بالخليفة الفاطمي في القاهرة لسوء اعتقادهم فيه وعدائهم للفاطميين بسبب تدخلهم في شئونهم .

ولذلك اتصل المرابطون بالخلفاء العباسيين وتبادلوا الرسائل معهم ، ولما أتم يوسف بن تاشفين إخضاع المغرب ، واستقرت الدولة في مراكش كان طبيعياً أن يتخذ لنفسه لقباً يتمشى مع اتساع نفوذه ، فرأى رجاله أن يتخذ لقب أمير المؤمنين ولكنه رفض وقال : انه لقب خلفاء بني العباس .

وبعد انتصاره على الأسبان في معركة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ بالأندلس حمل لقب (أمير المسلمين وناصر الدين) ، وعلى انه لم يقبل في البداية أن يحمل هذا اللقب إلا بعد أن أرسل إلى الخليفة العباسي المقتدي يستفتيه في جواز حمل هذا اللقب فلم ير الخليفة بدا في عرض هذا الأمر على الفقهاء الذين اجتمعوا برئاسة الإمام الغزالي سنة ٤٨٤هـ وأفتوا باستحقاق يوسف بن تاشفين لهذا اللقب بعد أن أحرز هذا النصر الإسلامي المؤزر على المسيحيين بالأندلس [٦١] .

وبذلك يمكن أن نقول أن المغرب في عهد المرابطين قد انتهى إلى وحدة دينية ومذهبية كاملة ، فقد أضحى المغرب كله من حدود مصر إلى المحيط الأطلسي ومن البحر المتوسط إلى مشارف إفريقية المدارية على مذهب السنة والجماعة ،

---

[٦١] حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام ، ج٤ ، ص٣١٣-٣١٦ ، ويذكر ابن الأثير أن علماء الأندلس قالوا ليوسف بن تاشفين انه ليست طاعته بواجبة حتى يخطب للخليفة ويأتيه تقليد بالبلاد ، فأرسل إلى الخليفة المقتدي فأتاه التقليد منه .

وأصـــبح يؤلـــف مع الدولة العباسية في المشرق وحده مذهبية سنية كان السلاجقة السنيون قد ساهموا هم أيضاً في بناء قواعدها في المشرق في عصرهم .

الموحدون :

أسس جماعة الموحدين بالمغرب داعية يسمى (محمد بن عبد الله بن تُومَرْت) مـــن قبـــيلة مصمودة البربرية في حوالي سنة ٥١٥هـــ ، وقد شب بن تومرت محباً للعلـــم، وارتحل في طلب العلم إلى المشرق على رأس المائة الخامسة ومر بمصر وزار العراق وحج ولقي جماعة من العلماء بهذه البلاد وأفاد علماً واسعاً .

وبعد عودته إلى المغرب أخذ نفسه بتدريس العلوم الشرعية بالمغرب والأمر بالمعـــروف والنهـــي عن المنكر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وكان ينتحل مذهب الأشاعرة في تأويل المتشابه ، ولقي بسبب ذلك أذى كثيراً .

ومـــذهب الأشـــاعرة نسبة إلى (علي بن إسماعيل الأشعري) المعروف بأبي الحـــسن الأشعري و هو من نسل الصحابي الكريم أبي موسى الأشعري (٢٦٠–٣٢٤هـــ) ، وقد نشأ بالبصرة وكان من كبار المعتزلة ولكنه خرج عليهم وخالفهم في أخريات حياته وأصبح يهاجمهم ومن أهم كتبه "مقالات الإسلاميين" .

فالمعتزلة يقولون بان الله : قادر بذاته عالم بذاته متكلم بذاته لا بقدرة وعلم وكلام زائدة على ذلك إذ لو كان عالماً بعلم زائد ومتصفاً بهذه الصفات كلها لكان هناك صفة وموصوف وهذه صفة الجسمية والله تعالى منـــزه عن الجسمية .

وجاء الأشعري فأثبت هذه الصفات لله متميزة وقال بأنها أزلية وقديمة قائمة بذاته تعالى .

وكـــان الـــسلف مـــن الـــصحابة والتابعين قد امتنعوا أن يخوضوا في هذا الموضوع، وقالوا : إن الله تعالى ليس كمثله شيء ولا يشبهه شيء فيقولون في مثل

قوله تعالى: ﴿ الرحمن على العرش استوى﴾ و ﴿ خلقتُ بيدي﴾ ونحو ذلك نؤمن بها ولا نؤولها ، ونكل أمرها إلى الله ، أما الغلو وأما التأويل فلسنا مكلفين بهما . وقال مالك بن انس عند سؤاله عن ﴿ الرحمن على العرش استوى﴾ : (الاستواء معلوم والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ومثل ذلك ما قال أحمد بن حنبل).

وكـــان للأشعري أتباع أقوياء من شافعية وحنفية ومالكية وحنبلية ، كأبي إســـحق الاسفراييني وأبو بكر القفال والحافظ الجرجاني وأبو محمد الطبري العراقي وأكثرهم جالسه وأخذ عنه .

وجـــاءت بعـــد هـــؤلاء طبقة ثانية : كالصعلوكي والداراني وأبو بكر الباقلأني وأبو بكر فورك .

ومن الطبقة الثالثة : أبو الحسن السكري وأبو منصور النيسابوري وأبو منصور البغدادي ، والحافظ الهروي وغيرهم .

ومـــن الطـــبقة الرابعة: الخطيب البغدادي وأبو القاسم القشيري وإمام الحرمين .

ومـــن الطبقة الخامسة : الغزالي ، وفخر الإسلام الشاشي ، وأبو نصر القشيري وابن عساكر والسمعاني وأبو طاهر السلفي .

ومن الطبقة السادسة : فخـــر الدين الرازي وسيف الدين الآمدي وعز الدين بن عبد السلام وابن الحاجب المالكي ، إلى كثير غيرهم ، وكل هؤلاء تبايعوا على نصرة مذهبه وخفوت خصومه [٦٢] .

---

[٦٢] أحمد أمين ، ظهر الإسلام ، ج٤ ، ص٧٣ .

ولجـأ ابـن تومـرت إلى (تينملل) بجبال مصمودة على مقربة من مـراكش [٦٣] وهـداه تفكـيره إلى توحيد قبائل مصمودة للتخلص من سلطان صنهاجة ، والتغلب عليها وإقامة دولة مصمودية ، ونجح في جمع شتات مصمودة ، ورتبهم في تنظيم ديني عسكري يواجه بهم المرابطين .

وفي سـبيل هدفه السياسي ادعى أن المرابطين منحرفين عن الإسلام رغم ما عرف عن أميرهم على بن يوسف بن تاشفين يومئذ من شدة تمسكه بالإسلام وكان مـن أصـلح الحكام وأشدهم نصرة للإسلام على غرار أبيه ، ولكن (ابن تومرت) كـان في الحقـيقة داعياً سياسياً يسعى إلى توحيد قبائل مصمودة ، وغطى أهدافه الـسياسية بهـذه المظاهر الدينية وعين كبير أصحابه (عبد المؤمن بن علي الكومي) قائـداً عـسكرياً لرجاله وأتباعه ، وبنى (رباطاً) لأتباعه سنة ٥١٥هـ في تينملل اجـتمعت فـيه إلـيه الطلبة والأنصار للعبادة والتعلم ، وكان يعلمهم دروساً في التوحـيد باللغـة البربرية ، ولذلك سمي أتباعه (بالموحدين) ، وقد تحرش به رجال (علـي بـن يوسف بن تاشفين) أمير أغمات فطلبه ، وكان قد بايعه أتباعه ولقبوه بالمهدي ، وقسم أصحابه إلى أنصار وإلى مهاجرين ، وكان يدعي انه حسني علوي.

وتـوفي ابـن تومرت سنة ٥٢٢هـ بعد أن قرر قواعد مذهب الموحدين وكثر أتباعه وخاصة من المصامدة ، وكان قد عهد بالأمر من بعده لكبير أتباعه وهـو عبد المؤمن الكومي [٦٤] وكان ابن تومرت رجلاً رَبْعة ، أسمر اللون ، عظيم

---

[٦٣] تـين ملـل قيل هي اسم جبال مصمودة سكنها برابرة مصمودة بينها وبين مراكش ثلاثة فراسخ (الفرسخ ٣ أميال والميل ٢ كم = ٦كم) [ياقوت] .

[٦٤] ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص٣٠٠-٣٠٦ ، وفي وفيات الأعيان لابن خلكان : إن وفاة ابن تومرت كانت سنة ٥٢٤هـ .

الهامة ، حديد النظر[٦٥] [قدم في الثرى وهمه في الثريا ، ونفس ترى إراقة ماء الحياة دون إراقة ماء المحيا] .

وكــتب لعــبد المــؤمن النصر بعد وفاة بن تومرت فاستولى برجاله على مــراكش سنة ٥٤٠هـــ وفاس سنة ٥٤٢هـــ وتلمسان سنة ٥٤٨ هـــ وإفريقية ســنة ٥٥٥هـــ وامتد ملكه إلى الأندلس حيث كان قد أرسل جيشاً إلى الأندلس سنة ٥٤٦هـــ فأخضع ما كان فيها بأيدي المرابطين [٦٦] .

وهكذا دخل في حوزة الموحدين كل سواحل الشمال الأفريقي من الحدود المصرية إلى المحيط الأطلسي .

وكان الموحدون يرون انهم أحق بالخلافة من غيرهم لأنهم من وجهة نظرهم أكثــر المسلمين إيماناً وأصحهم مذهباً وعندما عين ابن تومرت عبد المؤمن الكومي قائداً بعده للموحدين قال لأتباعه : "انتم المؤمنون وهذا أميركم"[٦٧] ، وبهذا لم يجد أتــباع الموحدين حرجاً في أن يلقبوا زعيمهم بلقب أمير المؤمنين ومن الألقاب التي أخذها عبد المؤمن لقب "خليفة" .

ومــن هــنا نلاحظ أن الوحدة التي أقامها المرابطون مع المشرق بعلاقتهم الطيــبة بالدولة العباسية واعترافهم بها وأقامتهم الخطبة للخليفة العباسي ، أقول أن هذه الوحدة قد انفصمت بقيام دولة الموحدين الذين كانوا يرون انهم أحق بالخلافة من العباسيين على الرغم من انهم كانوا سنة مثلهم .

---

(٦٥) ابن خلكان ، وفيات ، ج٥ ، ص٥٣-٥٤ .

(٦٦) كــان ذلــك بطلب الأندلسيين حين أرسلوا إلى قائد الموحدين يقولون له : من شعر أبي عبد الله بن الأبار من مطلع قصيدته السينية :

أدرك بخيلك خيل الله اندلساً * أن السبيل إلى منجاتها درسا

(٦٧) المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص١٨٨ .

الموجة الصليبية على العالم الإسلامي :

فكانـــت الموجة الاستعمارية الصليبية التي دامت قرنين من الزمان من سنة ٤٩٠ هـــــ حـــتى ســـنة ٦٩١ هـــ والتي شارك فيها الغرب كله بقيادة الكنيسة الكاثوليكـــية وتمويل المدن التجارية الأوربية وسيوف أمراء الإقطاع الأوربي ، وقد انتهت هذه الموجة بالهزيمة على يد الفروسية الإسلامية التي اقتلعت قلاعها وهدمت حصونها وأزالت كل آثارها.

الاجتياح المغولي للعالم الإسلامي :

وفي النصف الأول من القرن السابع الهجري اجتاح الإعصار المغولي المدمر بـــلاد الإسلام الشرقية الآسيوية ، بدعوة من الصليبيين الأوربيين الذين تحالفوا مع الوثنـــية المغولـــية ضـــد التوحيد الإسلامي ، فكانت كارثة عطلت سير الحضارة الإســـلامية وتطـــورها الهادئ في دنيا الإسلام وحطمت الكيان السياسي للدولة العباســـية و في سنة ٦٥٦هـ اقتحم المغول بغداد بقيادة هولاكو في وحشية مدمره متعطـــشة للـــدم ، وأسقطوا الخلافة العباسية ، وداسوا التراث الإسلامي بأقدامهم عندما جعلوا من الكتب والمصاحف جسرا يعبرون عليه نهر دجلة .

وكـــان ذلك بسبب ضعف المسلمين و تنازعهم و انقسامهم ، فقد أضحى الجزء الشرقي من بلاد المسلمين ألعوبة في يد الأتراك المتغلبين الذين زرعت حروبهم المتواصلة الدمار والخراب في الدولة الإسلامية ، فأضعفت بذلك الخلافة الإسلامية ، وصـــار الخلـــيفة في بغداد ألعوبة في يد الأتراك أيضاً فسقطت بغداد في يد المغول لقمة سائغة وفريسة هينة .

وكانت غارات المغول أفظع كارثة حلت بالعالم الإسلامي بل بالإنسانية كما قـــرر تلك الحقيقة المؤرخ عز الدين بن الأثير في لهجة باكية مؤثرة في معرض كتابته

عن تلك الأحداث سنة ٦١٧هـ (١٢٣٠م) فيقول : لقد بقيت عدة سنين معرضا عـــن ذكر هذه الحادثة استعظما لها ، كارها لذكرها ، فأنا أقدم إليه رجلاً وأؤخر أخري ، فمن الذي يهون عليه ذكر ذلك ؟ فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل حـــدوثها وكنت نسياً منسياً ، إلا أني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت إن ترك ذلك لا يجدي نفعا . فنقول : إن هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثـــة العظمـــي والمـــصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها ، عمت الخلائـــق وخصت المسلمين ، فلو قال قائل : إن العالم منذ خلق الله سبحانه و تعالى آدم وإلي الآن لم يبـــتل بمـــثلها لكان صادقا ، فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها وما يدانيها " [٦٨] مع انه لم يشهد دخولهم الوحشي المدمر لبغداد .

ثم يستشهد بقول المولي عز وجل حين يقول :" وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وماهم من دونه من وال " .

وطلب المغول من حكام مصر (المماليك) الاستسلام فردوا عليهم بهجوم ساحق شنوه عليهم في فلسطين ، وانزلوا بهم هزيمة حاسمة في معركة (عين جالوت) قرب الناصرة سنة ٦٥٨هـ (١٢٥٩م) وتمكنت فروسية المماليك الإسلامية من إيقاف الزحف المغولي عند حده وأنقذوا الحضارة الإنسانية وما تبقي من الحضارات الإســـلامية في مصر وشمال أفريقيا من عبث المغول . وذلك بفضل سياسة الهجوم التي أخذ بها المماليك والتي هي خير وسيلة للدفاع ، والتي قلبت المغول من سياسة الهجوم إلى سياسة الدفاع .

---

[٦٨] عـــز الـــدين بـــن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج١٢ ص٣٦١ ، طبعة دار صادر للطباعة ، بيروت ١٣٨٦هـــ/ ١٩٦٦م .

وكـــان ذلـــك بسبب هذه القيادة الواعية التي سهر على تربيتها سلاطين الأيوبـــيين الأواخر مثل السلطان نجم الدين أيوب ، الذي انشأ لهم مدرسة حربية إســـلامية في جزيرة الروضة وسط النيل بين القاهرة والجيزة واستجلب مماليك من وســـط آسيا أتراك ، ورباهم فيها تربية إسلامية وعسكرية صارمة ، فتخرجوا فيها رجالا يطمحون لخدمة الإسلام ، في وقت كان الإسلام في حاجة إلى من يدافع عنه ، في مواجهة الزحف المغولي والغزو الصليبي ، فحملوا هذه المسئولية عل عاتقهم ، فـــصدوا الـــزحف المغولي ، وفكوا التحالف بينه وبين الصليبيين في الشام . وأخذ المغـــول في التقهقر أمام المماليك وانتهى بهم الأمر إلى أن أسلموا ، وكونوا ثلاث إمبراطوريات إسلامية كبيرة هي :

الأولـــى : إمـــبراطورية مغول القبيلة الذهبية التي استقرت في وسط آسيا وحوض نهر الفلجا .

الثانـــية : إمبراطورية الإيلخانيين في فارس والعراق ، فقد تلقب هولاكو بعـــد دخوله بغداد بلقب "إيلخان" أي الخان الكبير ، وأصبحت العراق تحت حكم الإيلخانيين وكانت تبريز في أذربيجان هي العاصمة .

الثالثة : إمبراطورية المغول الإسلامية في الهند .

وإذا كـــان المغول قد غلبوا العالم الإسلامي عسكريا فان المسلمين غلبوهم عقائـــدياً وحـــضارياً وتلقف المغول الإسلام وخدموه بعدما أذلوه ، لكن هذا أخذ وقـــتاً طـــويلاً وجهـــداً مضنياً من دعاة المسلمين وتنافس أتباع الديانتين المسيحية والإسلامية في اجتذاب المغول إلى دينهم ، ولما هدأت ثائرة المغول وصدهم مماليك مـــصر عن غربي العالم الإسلامي وكانوا يدينون بالوثنية ، تركوا التخريب والتدمير

الـــذين امـــتازت بهما غزواتهم وبدءوا يعتنقون الإسلام وظهروا بمظهر التسامح مع أهالي الديانات الأخرى .

وتمكـــن المماليـــك مـــن القضاء على بقية الصليبيين في بلاد الشام وانهوا الوجـــود الصليبي في منطقة الشام . وكان هذا الدور هو الدور العظيم الذي قام به مماليـــك مصر وعلى رأسهم سيف الدين قطز ، والظاهر بيبرس ، والمنصور قلاوون وأولاده وهم من جنس الأتراك الذين جلبوا من مناطق التركستان .

انتقال الخلافة العباسية إلى القاهرة :

ودخلـــت الخلافة الإسلامية بعد سقوط بغداد في يد المغول في طور جديد مـــن أطـــوارها ، فبعد أن قوض المغول خلافة بني عباس في العراق عمد السلطان (الظاهـــر بيبرس) المملوكي إلى إقامة الخلافة العباسية من جديد في القاهرة عاصمة دولـــة المماليـــك رغبة منه في أن يخلع على حكمه صفة شرعية وكان للمكانة التي نالتها مصر بانتصارها على المغول لأول مرة أثر كبير في رفعتها فاتجه العالم الإسلامي إلى مصر ورضى أن تكون دار الخلافة بها بعد العراق وان تكون القاهرة بدل بغداد في زعامة العالم الإسلامي .

وقد شغر منصب الخلافة ثلاث سنين من سنة ٦٥٦هـــ إلى سنة ٦٥٩هـــ ، وقـــد رأى المـــسلمون أن عملية إقامة خليفة مهما يكن ضعفه فانه رمز للوحدة الإسلامية وربما يصبح الرمز حقيقة في يوم من الأيام .

فاستدعى الظاهر بيبرس المملوكي رجلاً من نسل بني العباس سنة ٦٥٩هـــ سمى (بالمستنصر) وقلده الخلافة في القاهرة ، ولم يكن للخليفة العباسي في مصر شيئاً مـــن السلطة في ظل سلاطين المماليك من سنة ٦٥٩هـــ – ٩٢٣هـــ ، فقد وصل نظام الخلافة الإسلامية في هذه الفترة إلى الانهيار .

فانفـــصلت الـــسلطة الـــزمنية السياسية عن السلطة الدينية ، حيث تقلد سلاطين المماليك السلطة الزمنية السياسية وتركوا للخليفة العباسي السلطة الدينية مـــثل الظهـــور في بعض الاحتفالات الدينية في مطلع العام الهجري والمولد النبوي الـــشريف ورؤيـــة أهلة الشهور العربية والاحتفال بالعيدين وتنصيب أحد سلاطين المماليـــك بعد تغلبه على السلطة وحصوله عليها بالغلبة فيأتي بعد ذلك دور الخليفة من الناحية المظهرية فحسب .

وتـــردت الخلافـــة الإسلامية في هذه الفترة إلى الحضيض فيذكر المؤرخ المـــصري أحمد بن إياس في حوادث سنة ٩٢٣هـــ أن الخليفة المتوكل على الله آخر الخلفـــاء العباسيين في القاهرة كان من بين موارده بعض أموال صناديق النذور التي تجمـــع مـــن أضـــرحة آل البيت بالقاهرة . وكان المتوكل على الله هو الذي يتولى الـــنظارة على مشهد السيدة نفيسة ، "ويقول ابن إياس أيضاً بان النظارة على ذلك المشهد كانت بيد الخلفاء من قديم الزمان " (٦٩)

ومهمـــا يكـــن من شئ فان سلاطين المماليك استفادوا من وجود الخليفة بالقاهـــرة ، فقد أسبغت عليهم هذه المسألة قوة وصيتاً في العالم الإسلامي وجعلت منهم سلاطين على العالم الإسلامي عامة لا سلاطين مصر وحدها (٧٠) .

وفي غـــضون ذلـــك تعرضـــت منطقة القلب من العالم الإسلامي في الشام ومـــصر لهجمات صليبية غادرة شنها الغرب المسيحي بهدف قهر الإسلام في عقر داره و القـــضاء علـــى المـــسلمين ، وقد بدأت هذه الحروب عام ٤٩٠هـــ (١٠٩٦م) بالحملـــة الصليبية الأولى ثم انتهت بسقوط عكا في يد المسلمين بقيادة

---

(٦٩) أحمـــد بن إياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، الطبعة الثانية ، تحقيق محمد مصطفي ، القاهرة ١٩٦٠م ، ج٥ ، ص٢٩٢ .

(٧٠) الإمام محمد أبو زهرة ، الوحدة الإسلامية ، ج٢ ، ص٢٢٢ .

السلطان المصري (الأشرف خليل بن المنصور قلاوون) سنة ٦٩١هـ (١٢٩١م) وضياع الممتلكات الصليبية في الشام إلى الأبد .

وصية لويس التاسع ملك فرنسا:

وحفلت فترة الحروب الصليبية بالعديد من التجارب والعبر المستفادة بالنسبة للمسلمين والصليبيين على السواء . وقد تبلورت هذه الدروس المستفادة بالنسبة للصليبيين في وصية كتبها لويس التاسع ملك فرنسا الذي قاد الحملة الصليبية السابعة على مصر في عام (٦٤٧هـ - ١٢٤٩م) حيث نزل في دمياط وزحف على المنصورة حيث مني فيها بهزيمة نكراء في موقعة عرفت بموقعة المنصورة عام (٦٤٨هـ - ١٢٥٠م) وفيها تم أسر لويس وسجن بالمنصورة في دار ابن لقمان التي لا تزال على حالها إلى الآن ثم افتدى نفسه من الأسر بمبلغ من المال وعاد إلى بلاده يجر أذيال الخيبة والفشل .

وقد أتاحت فترة السجن للويس فرصة هادئة للتفكير بعمق في السياسة التي يجب على الغرب اتباعها بعد ذلك إذا ما فكر في غزو الشرق الإسلامي وصاغ هذه السياسة في وصية ، وكانت أهم بنود هذه الوصية هي :

أولاً : تحويل الحملات الصليبية العسكرية إلى حملات صليبية سلمية تستهدف الغرض نفسه ، ويكون سلاح الحملات الجديد هو إثارة الخلافات بين الأوساط الإسلامية وإشاعة التفكك في وحدة المسلمين فينهار بذلك الإسلام .

ثانياً : استخدام من يمكن إغراؤهم من مسيحي الشرق في تنفيذ سياسة الغرب .

ثالثاً : إنشاء قاعدة للغرب في قلب الشرق العربي يتخذها الغرب نقطة ارتكاز لقوته الحربية للقضاء على الإسلام وعين لذلك ساحل الشام [٧١] ثم أضاف الغرب بعد ذلك مصر ، واتضحت بذلك أهمية الشام ومصر باعتبارهما القاعدة المعنوية والاستراتيجية للدفاع عن الإسلام إلى كونهما رأس جسر يمكن للغرب عبوره متسللا إلى آسيا وأفريقيا [٧٢] .

وسوف نرى فيما بعد ، كيف حاول الغرب الاستفادة من بنود هذه الوصية ، سواء في مجال استعمار الشعوب الإسلامية ، أو في مجال الغزو الفكري فيها .

أوضاع المغرب الإسلامي والأندلس :

هذا عن شرقي العالم الإسلامي وقلبه أما في غربي العالم الإسلامي فان الأندلس كانت قد تغير حالها من الوحدة إلى التمزق بسبب تفرق أهلها فان تلك البلاد التي عاشت ردحاً طويلاً من الزمن نحو سبعة قرون في ظل وحدة سياسة قوية أصبحت ممزقة تجد في كل ناحية أميراً ودولة ، وصدق قائلهم حين قال :

ألقاب مملكة في غير موضعها   كاهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

وانتهى بهم هذا التفرق إلى دمار ، وأخذ الأسبان يقتطعون منها الإقليم تلو الإقليم ، وبينما كانوا هم متفرقين بدأ عدوهم يتحد ، فاتحد فرديناند ملك (أرجونة) وإيزابيلا ملكة (قشتالة) ، في مملكة واحدة عن طريق الزواج السياسي بين

---

[٧١] محمد علي الغتيت ، الشرق والغرب من الحروب الصليبية إلى حرب السويس ، المرحلة الأولى في الصراع بين الشرق والغرب ، الدار القومية للطباعة ، القاهرة ، ولم تذكر سنة الطبع ، ص٦٥-٦٦.

[٧٢] المرجع السابق ، ص٨٤ .

الملكين سنة ١٤٦٩م ذلك الزواج الذي نتج عنه أسبانيا الحديثة التي تمكنت في عهدهما من توحيد شبه جزيرة الأندلس ما عدا البرتغال .

وفي عام ٨٩٧هـ (١٤٩٢م) سقطت غرناطة آخر حصن للمسلمين في أيديهما وطرد الأسبان ملكها "الزغبي" أي المشئوم وهو عبد الله بن أبي الحسين بن سعد بن بني الأحمر ، وتم إخراج عمه أبي عبد الله (الزقل) أي الشجاع من مالقة ، وتم بذلك إقصاء المسلمين عن الأندلس وبعد أن استولى الأسبان الكاثوليك على غرناطة أبرموا صلحاً مع أبي عبد الله ضمن للمسلمين حرية العبادة ، ولم يمر عليه زمن يسير حتى نكث الملكان العهد وأخذوا يضطهدون المسلمين الذين لم يجدوا بداً من الفرار بعدما ضيق عليهم الكردينال "فراي دون فرنسيسكو خمينيس" المعروف عند العرب "بابن الخميس" الذي كان الوزير الأول للملكين الكاثوليكيين ، وتنصر الكثيرون ممن بقي من المسلمين في الأندلس وأخفوا الإسلام وخرج من خرج في سنة ٩٠٦هـ (١٥٠١م) ومما زاد ابن خميس قوة وجرأة وصية الملكة إيزابيلا التي قالت فيها بتاريخ ٢٤ من نوفمبر ١٥٠٤م (٩٠٩-٩١٠هـ) قبل موتها ما يلي :

" أطلب من ابنتي الأميرة والأمير زوجي ان يهتما بأمور الإيمان (أي الدين) المقدس وان يشتغلا بدون انقطاع بغزو أفريقيا وبمحاربة الكفار في سبيل الدين (تعني محاربة المسلمين) " (٧٣) .

---

(٧٣) عبد الحميد بن أبي زيان ، دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر ،طبع الجزائر سنة ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م ، ص١٤ ، ولقد توفيت إيزابيلا في نفس السنة ١٥٠٤م ، ومن الجدير بالذكر أن زوجها الملك فرديناند توفي سنة ١٥١٦م وملك من بعده حفيده شارل الخامس ١٥١٦م تحت وصاية الوزير ابن الخميسي وانفرد شارل بالسلطة من سنة ١٥٢٧م وتخلص من ابن الخميسي وقيل أن حاشيته دست له السم في الطعام .

وقـد أثارت هذه المحن التي توالت على الأندلس في تلك الفترة المظلمة من تاريخها لوعة الشعر والأدب فبكاها الشعراء والأدباء يوم لا ينفع البكاء ولا يجدي .

ونظم شاعر العصر أبو الطيب صالح بن شريف الرندي مرثيته الشهيرة التي مازالـت تعتبر حتى اليوم من أروع المراثي القومية وأبلغها تأثيراً في النفس ، وفيها يبكـي قواعد الأندلس الذاهبة ويستنهض همم المسلمين لإنجاد الأندلس وغوثها ، ولكـن لا سميـع ولا مجيـب ، على الرغم من أن الدولة العثمانية الفتية كانت قد نشأت منذ زمن بالمشرق الإسلامي واشتد عودها وتمكنت في سنة ١٤٥٣ من فتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، ولكنها كانت مشغولة بالتوغل في أوروبا مـن ناحية الشرق وكانت تستطيع أن تمد يد العون إلى المسلمين في الأندلس ولكن ذلـك لم يحـدث ، كما كانت هناك الدولة المملوكية التي بدأت تضمحل في مصر والشام ، وكانت مشغولة بالتجارة وكثرة الفتن والانقلابات فلم تفعل شيئاً .

وإليك بعض ما جاء في مرثية الرندي التي خلدت ناظمها على كر الأحقاب :

لكل شيء إذا ما تم نقصـان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول ... من سره زمن ساءته أزمـان
وهذه الدار لا تبقي على أحد ... ولا يدوم على حال لها شان
فجائع الدهر أنواع منوعـة ... وللزمان مسـرات وأحزان
وللحوادث سلوان يهـونها ... وما لما حل بالإسلام سلوان
دهى الجزيرة أمر لا عزاء له ... هوى له أحد وانهد ثهلان [٧٤]

******

فاسأل بلنسية ما شان مـرسية ... وأين شاطبة أم أين جيان

---

[٧٤] ثهلان : جبل لبني نـمير بن عامر بن صعصعة بناحية الشريف بنجد .

وأين قرطبة دار العـــلوم فكم — من عالم قد سما فيها له شان
وأين حمص وما تحويه من نزه — ونهرها العذب فياض وملآن
تبكي الحنيفية البيضاء من أسف — كما بكى لفراق الإلف هيمان
على ديار من الإسلام خالية — قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس — ما فيهن إلا نواقيس وصلبان

******

يا راتعين وراء البـــحر في دعة — لـــهم بأوطانـــهم عز وسلطان
وحامـــلين سيوف الهند مرهفة — كأنـــها في ظلام النقع عقبان
أ عندكم نبأ عن أهل أندلس — فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم — قتلى وأسرى فما يهتز إنسان
يا من لذلة قوم بعد عزهم — أحال حالهم كفر وطغيـــــان
بالأمس كانوا ملوكا في منازلهم — واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
يا رب أم وطفل حيل بينهما — كما تفـــرق أرواح و أبـــدان
وطفله مثل حسن الشمس إذا — طلعت كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة — والعين باكية والقـــلب حـــيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد — إن كان في القـــلب إسلام وإيمان [٧٥]

****

[٧٥] راجع هذه المرثية كاملة في كتاب : نفح الطيب ، ج٤ ،ص٤٨٧-٤٨٨ وفي كتاب أزهار الرياض ، ج١ ،ص٤٧-٥٠ .

وكان سقوط الأندلس في يد المسيحيين نقطة تحول خطيرة في تاريخ الإسلام وقف المسلمون بعدها موقف الدفاع ومازالوا حتى يومنا هذا ، وأغرى هذا النجاح الأوروبيين بمحاصرة العالم الإسلامي .

وكانت خطة الأسبان في الأندلس تتلخص في رغبتهم في القضاء نهائياً على الأهـالي المسلمين في الأندلس تمهيداً لإقامة دولة تعتمد قبل كل شيء على مواطنين أسـبانيين مـسيحيين . كمـا تشتمل هذه الخطة على تطويق أقاليم المغرب العربي واحـتلال موانـيه المطلة على البحر المتوسط ، واحتلال أقاليم أفريقيا الواقعة إلى جـنوبه إن لم تـتمكن من احتلال المغرب العربي نفسه وتحويله إلى المسيحية وتحويل مـيدان الحـرب من الأندلس إلى بلاد المسلمين وظهرت إذ ذاك السفن الأوروبية الحربية التي كان دأبها الوحيد قطع الطريق على السفن العربية ونهبها والهجوم على الـسواحل المغربية ومحاولة احتلال الأراضي وإقامة مراكز استعمارية سماها الأسبان "بربسيديوس" وسماها البرتغاليون "فرونيتراس" [٧٦] .

وكـان المغرب العربي في تلك الآونة يرزح تحت آفة الانقسام التي هي أشد الآفـات فـتكاً بقوة المسلمين ، وجعلت ممالك المغرب تضعف شيئاً فشيئاً بسبب الخـصومات التي بين الزيانيين وأبناء عمهم بني مرين منذ نشوء مملكتهما ، وبينهما وبـين الحفصيين في تونس الذين أخذوا يتوسعون في المغرب الأوسط ولم يستطع بنو زيان [٧٨] ردهم وحماية رعاياهم بشرق الجزائر في وقت ظهر البرتغاليون في شواطئ المحيط الأطلسي ، ومن جهة أخرى تكونت طوائف في الصحراء الجزائرية والتونسية وانفردت بالحكم وانفصلت عن السلطة المركزية لتلمسان أو تونس أو فاس ، وزاد

---

[٧٦] عبد الحميد بن أبي زيان : دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر ، ص١١ .

[٧٨] كانت تلمسان عاصمة بني زيان .

الطـــين بلـــة ســـيطرة العرب الرحل في الهضاب العليا وتجبرهم على المدن والقرى وازداد عـــسفهم وظلمهـــم ، وتعـــديهم علـــى الأهالي وفرضوا عليهم الإتاوات والـــضرائب غير الشرعية ، وتكونت لصوصية في الصحاري وفي الجنوب وأخذت العـــصابات تقطع الطرق وتحجز القوافل الآتية من وسط أفريقيا أو الذاهبة إليها ، وتكـــونت إقطاعـــية مغربية في الأقطار الثلاثة في العائلات البارزة العربية والبربرية أخـــذت تفـــرض نفـــسها على الممالك المرينية والوطاسية والزيانية والحفصية التي أصبحت تحسب لها حساباً وتدخل نفوذها في الاعتبار وتمنحها الأموال وتستعين بها في الشدائد .

وتكـــونت عـــصبيات بحرية كونت شبه جمهوريات بحرية في شواطئ البحر المتوســـط والمحيط الأطلسي مثل طرابلس وجربه وبجاية وجزائر بني مزغنة وشرشال ووهران وتطوان وسلا وغيرها (٧٩) .

كانـــت هذه هي الحالة التي كان عليها المغرب في وقت تقوى فيه الأسبان بـــسبب اكتـــشافهم أمـــريكا وكسبهم الثروات الواسعة ، كما حاول البرتغاليون الالتفاف حول العالم الإسلامي عبر جنوب أفريقيا ، وذلك بفضل نهضتهم ، وتأخر المـــسلمين ، تلك النهضة التي اعتمدت على العلوم الإسلامية التي كان المسيحيون يـــتلقونها عن المسلمين في الجامعات العربية بالمشرق والأندلس والمغرب وصقلية ، وبفضل الحروب الصليبية التي مكنتهم من نقل العلوم والتقدم الإسلامي إلى بلادهم . في الوقت الذي بدأت فيه المدنية الإسلامية في الاضمحلال .

وكـــان من بين الأسباب التي جعلت الغرب يتفوق عسكرياً على المسلمين هو احتكارهم للأسلحة النارية وأهمها البندقية والمدفع تلك الأسلحة التي احتكرها

---

(٧٩) المرجع السابق ، ص١١-١٢ .

الغرب لصالحه بعد إن توقف إنتاجها بمصر بعد غزو العثمانيين لها فأحدثت خللا في ميزان القوى لصالح الغرب المسيحي ولم يتمكن الشرق الإسلامي بزعامة العثمانيين من مجاراتهم في صنعها وأخذ يعتمد على استيرادها بشروط مجحفة وأخذ الغرب يطورها لصالحه ويحتكرها إلى يومنا هذا ولا يبوح بسرها للشرق الإسلامي إلا في الأشياء التافهة التي لا تحسم الموقف العسكري ، وعندما استطاع الأسبان والبرتغاليون أن يركبوا المدافع على السفن الشراعية المتقدمة كان ذلك إيذاناً بانقلاب ميزان القوى من الشرق إلى الغرب ومن البر إلى البحر وإيذاناً بميلاد إمبراطوريات بحرية كالأسبان والبرتغاليين ومن بعدهم الهولنديون ثم الإنجليز ، وسوف نرى فيما بعد كيف أن الأوروبيين سينجحون في اقتحام معاقل الشرق الإسلامي ، ولا يملك المسلمون سوى الاستسلام لهم بسبب قوهم القاهرة .

التآزر التركي المغربي للدفاع عن شمال أفريقيا :

لقد حاول أبناء المغرب العربي في تلك الآونة الحرجة من تاريخ بلادهم الدفاع عن سفن المهاجرين الأندلسيين ، ووقف هجمات السفن المسيحية علي أساطيلهم وموانيهم ، تلك الهجمات التي نشرت القرصنة علي نطاق واسع في المنطقة وكان رد الفعل الطبيعي لدي أبناء المغرب الهم عملوا علي الثأر والانتقام من المسيحيين وسفنهم بعد كل حادثة تقع للمسلمين الفارين من وجه الأسبان ، ولقد أطلق الأوروبيون في كتبهم على أعمال المسلمين المغاربة في الدفاع عن الأندلسيين وعن الشواطئ المغربية اسم (القرصنة) ، ولكن في هذا تجن على الحقيقة ، فهي عملية دفاع ضد المعتدين الأوروبيين واسمها الحقيقي هو الجهاد البحري .

وسمي (ابن خلدون) القراصنة (غزاة البحر) ، وقد بدأت هذه الأعمال البحرية على أيامه في أواخر القرن الثامن الهجري ومطلع التاسع الهجري ، فله

وصف دقيق لهذه الحروب البحرية وإدراك لما كان يجري من تحول في ميزان القوى البحري لصالح الأوروبيين نتأمله فيما يلي :

"وكانـــت أمـــة الفرنجة وراء البحر الرومي في الشمال قد صار لهم تغلب ودولـــة بعد انقراض دولة الروم فملكوا جزائره وسردانية وميورقة وصقلية وملأت أســـاطيلهم فضاءه ثم تخطوا إلى سواحل الشام وبيت المقدس فملكوها وعادت لهم ســـورة الـــتغلب في هذا البحر بعد أن كانت سورة المسلمين فيه لا تقاوم إلى آخر دولـــة المـــوحدين بكثـــرة أساطيله ومراكبه فغلبهم الفرنج وعادت السورة لهم ، وزاحمـــتهم أساطيل المغرب لعهد بني مرين أياماً ، ثم فشل ريح الفرنجة واختل مركز دولـــتهم بفرنسة ، وافترقت طوائف في أهل برشلونة وجنوة والبنادقة وغيرهم من أمـــم الفرنجة النصرانية ، وأصبحوا دولاً متعددة ، فتمت عزائم كثيرة من المسلمين بـــسواحل أفريقيا لغزو بلادهم ، وشرع في ذلك أهل بجاية منذ ثلاثين سنة فيجتمع الـــنفير والطائفـــة مـــن (غزاة البحر) ويصطنعون الأسطول ويتخيرون له الأبطال الرجال ثم يركبونه إلى سواحل الفرنجة وجزائرهم على حين غفلة فيتخطفون منها ما قـــدروا عليه ويصادمون ما يلقون من أساطيل الكفرة فيظفرون بها غالباً ويعودون بالغـــنائم والسبي والأسرى ، حتى امتلأت سواحل الثغور الغربية من بجاية بأسراهم تضج طرق البلد بضجة السلاسل والأغلال عندما ينتشرون في حاجاتهم ويغالون في فدائهم بما يعتذر منه أو يكاد ، فشق ذلك على أمم الفرنجة وملأ قلوبهم ذلا وحسرة وعجـــزوا عن الثأر به ، وصرخوا على البعد بالشكوى إلى السلطان بإفريقية فصم

عـن سمـاعهم وتطارحـوا سهمهم ونكلهم فيما بينهم وتداعوا لنـزال المسلمين والأخذ بالثأر منهم " (٨٠) .

وتلـك الحـروب البحرية التي اصطلح على تسميتها في القرون المتأخرة بالقرصـنة هـي في الحقيقة كما ذكرنا اختراع أوروبي ، وحتى الكلمة دخيلة على العـربية فلا يوجد في اللغة العربية بديل لها وهي في الغالب معربة في القرن التاسع الهجـري ، وهي مشتقة من "كورسة" بالإيطالية و "كورس" بالفرنسية وقد بدأت القرصـنة مـنذ أواخر القرن الثامن الهجري بصفة عنيفة بين المسلمين والنصارى ودامـت أكثر من خمسة قرون ، بدأها النصارى من مختلف البلدان المجاورة للبحر المتوسـط ، ومهر فيها الأتراك وأهل الجزائر ، وازدادت شدة بعد استيلاء فرديناند وإيزابيلا على غرناطة سنة ١٤٩٢م .

ويـزعم المؤرخـون الأوروبيون أنها كانت من أعمال المسلمين انتقاماً من المسيحيين الذين أخرجوهم من بلادهم ، نعم لقد أورث هذا الطرد حقداً شديداً في قلـوب أهـل الأندلس المهاجرين فأرادوا الانتقام من الغاصبين الظالمين ، وأشهروا الحـرب علـيهم لعلهم يسترجعون مساكنهم وأموالهم ، وكان الأوروبيون يفعلون مـثلما يفعل المسلمون بل أكثر من سبي وقتل وفتك واستعباد وبيع الأسرى رقيقاً وإرغـام هؤلاء على العمل المرهق ، ويبيعون الرجال والنساء والأطفال وينصرونهم إكـراها ، ويستخدمونهم في منازلهم وفي حقولهم وحدائقهم ، ولكن المؤرخين نسبوا تلك الأعمال إلى المسلمين فقط كراهية وظلماً .

---

(٨٠) عبد الرحمن بن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، طبعة دار الكتب اللبناني سنة ١٩٥٩م ، ج٦ ، ص٩٠٢ .

ويذكـــر التاريخ الاستعماري أن أسبانيا إبان سيطرتها على المستعمرات في الدنـــيا الجديـــدة ، جـــنت من وراء ذلك ثراء طائلاً ، وتسبب هذا الثراء في حقد الـــدول الأوروبـــية الأخرى وسال له لعاب المغامرين الأوروبيين ، وسمع المغامرون الأوروبـــيون بقـــوافل الأســـبان البحرية المحملة بالمعادن الثمينة في طريقها بالمحيط الأطلـــسي إلى أسبانيا فتعرضوا لها وقاموا بالسطو عليها في المحيط الأطلسي وكان هؤلاء اللصوص وغيرهم من القراصنة الأوروبيين .

وهكـــذا كـــان الأوروبـــيون أول من احترف القرصنة البحرية في المحيط الأطلـــسي ولكنهم ألصقوها بغيرهم من المسلمين الذين كانوا يدافعون عن أنفسهم أمام الزحف الاستعماري من المغاربة وسكان الخليج العربي .

ويذكر التاريخ أن قراصنة القديس يوحنا تأسست جماعتهم في بيت المقدس عام ١٠٧٠م بمعونة الصليبيين والبابوية في روما ، وبعد أن طرد المسلمون الصليبيين مـــن الشام نقلت هذه الجماعة مقرها إلى قبرص عام ١٢٩٢م مؤقتاً ، ثم انتقلوا إلى رودس عـــام ١٣٠٦م واستقروا بها عام ١٣٠٩م وقد ساعدوا بحماس شديد كل الحملات الصليبية المتوجهة إلى مصر ، وآسيا الصغرى وخاصة الاستيلاء على أزمير عـــام ١٣٤٤م ونهـــب الإســـكندرية عام ١٣٦٥م ، وظلوا برودس إلى أن نجح الـــسلطان ســـليمان القانـــوني في إجلائهـــم عنها عام ٩٢٩هـــ (١٥٢٢م) [٨١] وتمركزوا في مالطة بعد ذلك وظلوا يمارسون القرصنة في البحر المتوسط ضد السفن والمواني الإسلامية إلى أن قضى عليهم نابليون بونابرت وهو في طريقه إلى مصر سنة ١٧٩٨ لأنهم كانوا أعداء للثورة الفرنسية وعملاء للبابا الذي عادى الثورة .

---

[٨٣] محمـــد كمال الدسوقي ، "العثمانيون وقراصنة رودس" بحث منشور في مجلة مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى ، العدد الثاني ، سنة ١٣٩٩هـــ .

ولعـــل من الجدير بالذكر أن القرصنة ظلت باقية من العصور الوسطى حتى ســـنة ١٨٥٦ حيث انعقد مؤتمر باريس لتصفية حرب القرم وقرر المؤتمر إلغاءها ، ومـــن الغريب أن الولايات المتحدة الأمريكية وأسبانيا والمكسيك امتنعت آن ذاك عـــن الالتزام بإلغائها ، وان كانت الولايات المتحدة وأسبانيا حرمتا على نفسيهما ذلك فيما بعد سنة ١٨٩٨م [٨٢] .

وبـــدأ الـــبرتغاليون يحتلون الموانئ المغربية المطلة على المحيط الأطلسي وبدأ الأسبان أيضاً يحتلون الموانئ المغربية المطلة على البحر المتوسط .

فاحـــتل الأسبان المرسى الكبير سنة ١٥٠٥م ووهران سنة ١٥٠٩م حيث قتلوا أربعة آلاف مسلم وأسروا ثمانية آلاف واحتلوا إحدى الجزر الصغيرة المواجهة للـــشاطئ الإفريقـــي ، واتخذوها قاعدة حربية للهجوم على ذلك الشاطئ وضربه بالقنابل ، ولم تكن هذه الجزيرة تبعد عن الشاطئ إلا بمسافة ٣٠٠ متر وهي الجزيرة التي أصبحت فيما بعد نواة لبناء مدينة الجزائر عاصمة دولة الجزائر الحالية .

وفي عام ١٥٠٨م احتلوا حجر باديس ، وفي العام التالي استولوا على بجاية ، وفي سنة ١٥١٥م احتلوا ميناء طرابلس وقاموا بتدبير منشآت المدينة كما استولوا علـــى وهـــران وغيرهـــا من المدن الساحلية ، وبذلك تناثرت على طول الساحل الـــشمالي لإفريقية ابتداء من طرابلس إلى المغرب الأقصى محطات عسكرية اتخذها الأسبان ومن قبلهم البرتغاليون جيوباً صليبية [٨٣].

وإبـــان هذا الصراع بين المسلمين من ناحية والأسبان والبرتغاليين من ناحية أخـــرى تطلعـــت أنظـــار المغاربة إلى إخوانهم المسلمين في الشرق العربي من أجل

---

[٨٢] عبد الحميد بن أبي زيان ، مرجع سبق ذكره ، ص١٧-٢٢ .

[٨٣] د. عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، الجزء الثاني ، ص٩٠١ ، طبعة مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٠م .

مؤازرهم في كفاحهم المصيري لئلا تتكرر المأساة التي وقعت في الأندلس وخاصة أن العـــدو بدأ ينفذ الأسلوب الذي أوصى به لويس التاسع ملك فرنسا وهو إحداث الوقـــيعة بين زعماء المسلمين ونصرة فريق منهم على فريق آخر وهو أسلوب فرق تسد . فجاءهم الرد من الأتراك المناضلين في البحر .

وكـــان مـــن أبرز الأسماء التي لمعت في مجال مؤازرة المغاربة هما الأخوين التـــركيين "عـــروج" و "خـــير الدين" اللذان أطلق عليهما الكتاب الغربيون لقب (بربا روســـا) أي الهمـــج المتوحـــشون ، الذين دافعا عن المغرب الإسلامي دفاعاً مـــستميتاً لتكوين وحدة مغربية تقف أمام الأطماع المسيحية في وقت تهدد المغرب الإسلامي بالزوال .

ويرجع نسب عروج وخير الدين إلى والدهما يعقوب بن يوسف كان تركياً يعـــيش في جزيرة مدلي ببحر الأرخبيل من بقايا الفاتحين المجاهدين وكان متزوجاً من ســـيدة أندلـــسية ولدت له ذرية من بينها عروج وخير الدين ، ونشأ أولاد يعقوب نشأة إسلامية صلبة وترعرعوا في حجر الجهاد الإسلامي العنيف يوم كانت الملحمة عامة وعارمة في البر والبحر بين المسيحية والإسلام ، وإذا كان الدم الأندلسي يجري في عـــروقهم عن طريق والدهم كان نداء الدم قد قادهم للجهاد في الحوض المغربي من البحر المتوسط حيث كانت دولة المسلمين تذل وتهان وتنقرض بالأندلس (٨٤) .

توجه عروج (٨٥) إلى الناحية الغربية من البحر المتوسط وطلب من سلطان تـــونس الحفـــصي (محمد بن الحسن) أن ترسوا سفنه في موانئ بلاده فقبل السلطان بـــشرط أخـــذ أخمـــاس الغنائم من بضاعة ورق وسفن ، واتخذ عروج أولاً جزيرة

---

(٨٤) أحمد توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا ، ص١٥٠-١٥٧ ، نقلا من عبد الحميد بن أبي زيان ، مرجع سبق ذكره ص٣٩ .

(٨٥) ولد عروج سنة ١٤٧٤م وكانت ولادة أخيه خير الدين حوالي ١٤٨٦م ، المرجع السابق ص٢٢٦.

(جـــربه) مركزاً وسماه أو منحه سلطان تونس لقب الولاية على هذه الجزيرة وحط رجاله بها منذ سنة ١٥٠٠م وأخذ ينطلق منها ويغدو إليها غازياً سواحل الإفرنج ثم اتخذ تونس قاعدة له بصفة عامة ، وكان يصحبه في جهاده أخوه خير الدين .

أنواع المجاهدين في جيش عروج :

كـــان عـــروج يـــستعين بالمجاهدين من مختلف النواحي المغربية من الجزائر وتـــونس والمغرب ومن الزنوج ومن أسرى الأوروبيين الذين اعتنقوا الإسلام الذين يـــسميهم النـــصارى بالمـــرتدين ، والعنصر الغالب والقوي في جيش عروج أهل الأنـــدلس الـــذين طردوا من ديارهم أو فروا منها ، وكانوا أشد الناس صلابة في الحـــروب وبفضلهم كان ينتصر عروج على أعدائه لشجاعتهم وشدة بأسهم وهم أقـــوى الـــناس عداوة للأسبان لما قاسوه من اضطهاد وتشريد من جانبهم . وكان عـــروج قـــد أســـدى إليهم معروفاً بنقله إياهم من السواحل الأسبانية إلى المغرب وخلـــصهم من قبضة عدوهم ، وقد حمل منهم ما يزيد على عشرة آلاف مهاجر في ســـفينة كما حمل منهم أخوه خير الدين من بعده ما يزيد على ٧٠٠٠٠ سبعين ألفاً في سبعة أسفاراً أو أكثر .

وكان المحاربون الأتراك في سفن عروج قليلين جداً بالنسبة لسائر الأجناس ويذكر عبد الحميد بن زيان أن عدد الأتراك الأولين الذين كان يحارب بواسطتهم عـــروج وأخوه خير الدين كان ضئيلاً جداً يعد على أصابع اليد وكانوا من اليونان والـــشركس وأهل الروملي والألبانيين ، وكانوا جميعاً ينتسبون للأتراك افتخاراً بهم(٨٦) .

(٨٦) المرجع السابق، ص ٤٣ —٤٤ .

وبعــد موت فرديناند عام ١٥١٦م خلفه شارل الخامس علي حكم أسبانيا نجح عروج في دخول الجزائر في هذه السنة وتملكها ودخل في صراع مع الأسبان بها وقابلــته مــشاكل كثيرة من أصعبها موقف العرب عملاء الأسبان بتلك البلاد ، واستــشهد علــي إثــر بعض المعارك مع الأسبان حول (تلمسان) في ٢٩سبتمبر ١٥١٨م (١٣ من رمضان ٩٢٣هـ) (٨٧) .

كــان عروج يبلغ من العمر عندما قتل ٤٤عاماً ، ومما يذكر انه كانت له لحــيه حمــراء ، وأطلق عليه الأسبان بربروس **barbarous** وهي في الإنجليزية بمعــني متوحش وبربري وهمجي ، وقد لحق هذا اللقب بعد وفاته باسم أخيه (خير الدين)وفاقت شهرته به شهرة عروج بهذا اللقب الذي أصبح لصيقاً بخير الدين(٨٨).

وتــولي من بعده أخوه خير الدين الذي وجد صعوبة في مواجهة الأسبان في جــو زادت فيه الخيانات العربية ضده من الحكام السابقين في شمال أفريقيا ، فوجد من الأفضل أن يدخل في خدمة السلطان العثماني ويعمل باسمه ، ومن ثم طلب حماية الــسلطان ســليم العثماني ، وقد منحه السلطان سليم لقب (بلك بكوات أفريقيا) وأرسل إليه عددا من جنود الأنكشارية ثم سمح له بتجنيد الأهالي في الدولة العثمانية نفــسها لمساعدته في عملياته الحربية في غرب البحر المتوسط ودخلت الجزائر رسمياً تحت السيادة العثمانية إعتباراً من عام ١٥١٩م ودعي للسلطان سليم علي المنابر في المــساجد وضربت العملة باسمه (٨٩) ، وتمكن خير الدين من إن يستولي علي المنطقة الــساحلية من الجزائر ويستولي علي القلعة التي بناها الأسبان علي الجزيرة السالفة التي أصبحت عاصمة الجزائر فيما بعد سنة ١٥٢٩:

---

(٨٧) المرجع السابق ، ص ٧٩ ، عبد الحميد بن أبي زيان ، دخول الأتراك الجزائر .

(٨٨) د. عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية ، ج ٢ ، ص ٩٠٧_ ٩٠٨ .

(٨٩) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٩١٢.

وقد عمل خير الدين علي تزويد أسطوله مرهوب الجانب في الحوض الغربي للبحـــر المتوسط ومنحه السلطان العثماني أيضاً لقب (قبودان باشا) وأعطاه القيادة العامـــة للأســـاطيل العثمانية في تلك النـــواحي ، وحاول خير الدين توحيد أقطار شمال أفريقيا .

وأصـــبح خير الدين بذلك أكثر من مجرد أمير للبحر فقد غدا أميراً لدولة كـــبيرة وان كانـــت مـــتحدة مع الدولة العثمانية وأصبح الحارس الأمامي للدولة العثمانـــية في البحر المتوسط ، وكانت تسنده جميع قوات هذه الدولة في صراعه مع الغرب .

ومـــن ناحـــية أخرى فقد بذل السلطان سليمان المشرع جهوداً كبيرة في تخليص طرابلس من يد الأسبان وقراصنة القديس يوحنا سنة ١٥٥١م وعين عليها أول وال عثماني هو مراد أغا في نفس العام ، كما تمكنت الدولة العثمانية من إعادة تونس إلى رحاب الحكم الإسلامي سنة ١٥٧٤م .

موقف الأشراف السعديين في مراكش :

كان للأشراف من آل بيت الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام أهمـــية كـــبيرة في تاريخ بلاد المغرب منذ أن وصل إلى مراكش (إدريس بن عبد الله الـــشريف) في عـــام ١٧٢هـــ (٧٨٨م) قادماً من الحجاز وأسس دولة الأشراف الأدارسة بها وبنى مدينة فاس .

وإبـــان الـــزحف البرتغالي الأسباني على شمال أفريقيا كانت المغرب في يد (الأسرة الوطاسية) التي فشلت في الدفاع عن مراكش حتى سقطت جميع ثغورها في أيـــدي الـــبرتغاليين والأســـبان ، وإبان ذلك أيضاً تطلعت أسرة شريفة هي أسرة الأشـــراف الـــسعديين إلى قـــيادة المغرب في محنته ودخلت في صراع ضد الدولة

الوطاسية التي فقدت احترام المسلمين في المغرب ، ونجح (محمد المهدي السعدي) في القضاء على الأسرة الوطاسية ودخل مدينة فاس عام ١٥٤٩م وتطلع إلى تحرير الثغور المغربية فاسترد "أصيلة" و "القصر الصغير" عام ١٥٤٩-١٥٥٠م [٩٠] ، ولم يبق للبرتغاليين سوى سبتة وطنجه ومزغان .

والواقع أن الأشراف السعديين في مراكش قاموا بدورهم في الجهاد الديني ضد الأسبان والبرتغاليين ، غير انهم لم يقتنعوا بالانضمام إلى الدولة العثمانية والانضواء تحت لوائها ، لأنهم اعتبروا أنفسهم أحق من العثمانيين بزعامة العالم الإسلامي والخلافة الإسلامية لأنهم أهل البيت الشريف ، وإذا كانت الظروف تفرض على أحد القوتين الخضوع للقوة الأخرى فليس هناك من المسلمين من يجادل في أحقية الأشراف في السيادة وحاولت كل دولة منهما النيل من الأخرى وكان الوقت يقتضي وحدتهما أو على الأقل تضامنهما أمام الزحف الأوروبي على العالم الإسلامي في تلك الآونة .

---

[٩٠] د. عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية ، مرجع سبق ذكره ، ج٢ ، ص٩٣٣-٩٣٤ .

الفصل الثاني

الالتفاف الأوربي حول العالم الإسلامي

مـــن الأخطـــاء الـــتي وقعـــت وما زالت تقع في دراسة ظاهرة الالتفاف الأوروبي حول العالم الإسلامي في مطلع العصور الحديثة هي أن الجامعات الإسلامية تدرس هذه الظاهرة كما زيفها الغرب المسيحي لنا على أنها نشأت في البداية بدافع بحث الأوروبيين عن ظروف اقتصادية أفضل وبسبب تنافسهم في المجال الاقتصادي انطلقوا في مجال كشف أماكن حيوية لهم واستعمارها .

والواقـــع لكـــل مـــن يدرس هذه الظاهرة ويدقق في الظروف والملابسات السياسية والدينية التي صاحبتها يدرك غير ذلك ، يدرك إذا كان منصفاً أن دوافعها كانـــت صليبية منذ البداية متعصبة مسرفة في عدائها للمسلمين واضحة في أهدافها ضدهم .

فقد بدأت مأساة هذا الالتفاف الاستعماري حول العالم الإسلامي مع نهاية القـــرن التاســـع الهجـــري "الخامس عشر الميلادي" عندما تم إخراج المسلمين من الأنـــدلس ، وكانـــت خطة الأسبان تتلخص في القضاء نهائياً على الأهالي المسلمين تمهيداً لإقامة دولة تعتمد قبل كل شئ على مواطنين أسبانيين مسيحيين، كما تشمل هذه الخطة على تطويق أقاليم المغرب واحتلال أقاليم أفريقيا الواقعة إلى جنوبه أن لم تـــتمكن مـــن احتلال المغرب الإسلامي نفسه وتحويله إلى المسيحية . ونجح الأسبان والبرتغاليون فعلا في احتلال بعض الموانى بالمغرب الإسلامي ، وامتد الصراع في هذه الجـــبهة زمـــناً طويلاً حيث صمد المسلمين في الدفاع عن شمال أفريقيا كما رأينا ،

وذلـــك بفضل تضامن المغاربة مع الأتراك في جهادهم ، وخرج المسلمون من هذه التجــربة بقصة عظيمة من قصص التضامن النادرة في حياتهم تعطيهم مفتاح النصر على عدوهم إن هم أرادوا لذلك سبيلا .

واتفــق الأسبان والبرتغاليون على الالتفاف حول العالم الإسلامي ، وقالوا بان منطقة شمال أفريقيا والشام هي منطقة قوية شبهوها بظهر التمساح القوي ، التي لا تعمل فيه الرماح ، وعليهم أن يلتفوا حوله ويضربوه في بطنه الناعم وبذلك ينالوا مــنه ، وتــوزعت أدوارهم ، فبينما يلتف البرتغاليون جنوباً حول أفريقيا ، ينطلق الأســبان نحــو الغرب عبر الأطلسي بقصد الوصول إلى شرق بلاد المسلمين بعدما تأكــد لديهم كروية الأرض ، وذلك ليتمكنوا من حصار المسلمين وإحكام القبضة عليهم .

والــذي يؤكد هذا المخطط أنه عندما وصل الأسبان إلى أمريكا لأول مرة أطلقوا على سكانها اسم الهنود الحمر ظناً منهم انهم وصلوا إلى شرقي بلاد المسلمين حــيث بــلاد الهند ، وسموا جزرها التي كانت أول محطة لرجالهم اسم "جزر الهند الغربية" ، وهذا يدل على ما في نفوسهم من رغبة وعلى ما في جعبتهم من مخططات ، ويــبدوا من هذا تفاهم الأسبان والبرتغاليين في سير كل منهما في اتجاه معين بحيث لا يتعارضان مع بعضهما ولا يصطدمان معاً أبداً .

وركــز الأوروبيون في كتاباتهم على أن العوامل التي دفعت الأوروبيين إلى الــشرق هــي عوامل الكشف الجغرافي وحب المعرفة ثم أضافوا العامل الاقتصادي الــذي يكمــن في رغــبة البرتغاليين في المشاركة في أرباح التجارة الشرقية ، وأن الــبرتغاليين وقعــوا تحــت تــأثير أهالي جنوة عندئذ على ملوك أسبانيا والبرتغال لتشجيعهم على الوصول إلى الهند للقضاء على ثروة البندقية عدوتهم اللدود .

وانساق وراء هذه الأقوال كثير من الكتاب المسلمين وأدخلوا هذه الهجمة الاستعمارية الشرسة على شرقي العالم الإسلامي في مجال الكشوف الجغرافية والمنافسة الاقتصادية . ومازالت تدرس حتى يومنا هذا في مدارسنا وجامعاتنا في مناهج الجغرافيا وحركة الكشوف والتنافس الاقتصادي بين الدول الغربية وبين الشرق والغرب . واستبعد المزيفون تماماً العوامل الدينية المبنية على الحقد والرغبة في القضاء على المسلمين ونشر المسيحية في الشرق وهي العوامل التي كانت واضحة في أقوال من خططوا لهذه الهجمة كما سنرى فيما يلي :

وآن لنا أن نتحرر من ذلك التزييف المتعمد الذي صاغه الغرب لنا ووضع في مناهج التعليم في بلادنا يوم أن كان الاستعمار ضارباً أطنابه فيها ويده من حديد يأمر وينهي ويوجه التربية والتعليم فيها الوجهة التي يريدها وتخدم أغراضه وتخفي أحقاده .

وللأستاذ محمود شاكر الكاتب الإسلامي والجغرافي المبدع محاولة طيبة لتوضيح الدوافع التي دفعت أوروبا للقيام بالهجوم على الشرق الإسلامي يبرز فيها الدافع الديني الصليبي بعد أن أهمله المؤرخون وغيرهم من الكتاب زمناً طويلاً ، وينعى باللائمة على أولئك الذين ينقلون الآراء الأوروبية بلا تمحيص ولا تدبر ويؤكد على أن هذه المعلومات المزيفة والمغلوطة "إن بقيت كما هي ، وكما أوردها أوروبا بالذات فإننا سنبقى في مكاننا لا نتحرك ولا نتقدم في كتابة تاريخنا بأنفسنا شيئاً ، وسنبقى تبعاً لأوروبا ومعلوماتها وتاريخها وكتاباتها ، نقلد دون إدراك ، ونأخذ من غير وضوح في الرؤية ونحاضر من غير روية ونتكلم من دون علم ونكتب دون مناقشة لا نختلف عن البدائيين إن لم نقل عن بعض أنواع الحيوان ، إننا

بحاجـــة إلى أن نناقش الفكرة قبل أخذها ونمحص الموضوع قبل عرضه على مجتمعنا وقبل تقديمه لأبنائنا وأجيالنا " [١] .

ولا شـــك أن العـــوامل الدينـــية من أقوى العوامل التي دفعت الأوروبيين للالـــتفاف حول العالم الإسلامي وفي طليعتهم البرتغاليون والأسبان . فعقب إجلاء المـــسلمين عـــن الأندلس في أواخر القرن الخامس عشر ازداد مسيحيو شبه جزيرة الأنـــدلس تحمـــساً وشراسة في مطاردة المسلمين خارجها وانتقل نشاطهم إلى شمال أفـــريقيا وغـــربها يتعقبون المسلمين وراودهم الآمال في إمكان محاصرة الإسلام عن طريق البحر وطعنه من الخلف وخاصة في آسيا وأفريقيا .

وكان ثمة أمل يراود البرتغاليين ويرجون تحقيقه وهو الاتصال بملك الحبشة المـــسيحي لـــتطويق البلاد الإسلامية كوسيلة للقضاء على الإسلام . بل ان هذه الـــروح الـــصليبية استهدفت أيضاً تحويل الحبشة إلى المذهب الكاثوليكي وربطها بكنيسة روما وفصلها عن الكنيسة القبطية الأرثوذكسية بمصر وتكوين جبهة صليبية مـــع الحبـــشة ضد المسلمين ولقد ساعد على هذه الرغبة في الاتصال بالأحباش ما روجـــه الأوروبـــيون من أساطير حول مملكة الحبشة ، فقد انتشرت في أوروبا منذ القـــرن الـــثاني عشر الميلادي أسطورة القديس يوحنا ، وتحكي هذه الأسطورة أن بطريـــرك مسيحي اسمه القديس يوحنا أسس إمبراطورية مسيحية كبرى في الشرق وحكم الهند والصين والحبشة التي كانت تعتبر الجزء الغربي من تلك الإمبراطورية ، وتحكـــي الأسطورة أنباء عجيبة عن هذه الإمبراطورية وملكها المقدس ، وان بلاده تنـــتج الذهب والأحجار الكريمة والتوابل وان أمله الوحيد هو زيارة بيت المقدس

---

(١) انظـــر : محمـــود شاكر ، الكشوف الجغرافية ، دوافعها – حقيقتها ، من منشورات المكتب الإسلامي ، بيروت سنة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٣م ، ص٤ .

ومحاربـــة أعـــداء الـــصليب وفي منتصف القرن الرابع عشر الميلادي تبلورت هذه الأســـطورة لدى الأوروبيين بان القديس يوحنا هو ملك الحبشة وتلاشت فكرة انه ملـــك للصين أو الهند . وشاع بين الأوروبيين في نهاية القرن الخامس عشر أن ملكة هـــذه المملكة أرسلت رسالة إلى البرتغاليين تعرب فيها عن رغبة الحبشة في التحالف معهـــم ، فوافق البرتغاليون على عرض الحبشة وإمدادها بالمعونة العسكرية اللازمة ضد المسلمين .

وان رائحة الحقد والدوافع الصليبية لتبدو واضحة من الرسائل المتبادلة بين ملـــك البرتغال عمانويل (١٤٩٥-١٥٣١م) وملكة الحبشة وتدعى (إليني) فقد جاء في إحدى هذه الرسائل :

مـــن إلـــيني إلى عمانويل : " باسم الله والسلام على عمانويل سيد البحر وقاهر المسلمين القساة الكفرة ، تحياتي إليكم ودعواتي لكم ، لقد وصل إلى مسامعنا أن سلطان مصر جهز جيشاً ضخماً ليضرب قواتكم ويثأر من الهزائم التي ألحقها به قوادكم في الهند ، ونحن على استعداد لمقاومة هجمات الكفرة بإرسال أكبر عدد من جـــنودنا في البحر الأحمر وإلى مكة أو جزيرة باب المندب ، وإذا أردتم نسيرها إلى جـــدة أو الطور وذلك لتقضي قضاء تاماً على جرثومة الكفر ولعله قد آن الوقت لتحقـــيق النـــبوءة القائلـــة بظهـــور ملك مسيحي يستطيع في وقت قصير أن يبيد الشعوب الإسلامية المتبربرة ، ولما كانت قواتنا متوغلة في الداخل وبعيدة عن البحر الـــذي ليس لنا فيه قوة أو سلطان فان الاتفاق معكم ضروري ، إذ إنكم أهل بأس شديد في الحرب البحرية " [٢] .

(٢) المرجع السابق ، ص٢٩-٣١ ، وانظر أيضاً : حامد عمار : علاقة الدولة المملوكة بالدول الإفريقية .

ومن ثم كانت رحلات البرتغاليين الأولى تواقة للاتصال بمملكة الحبشة ولقد شجعت البابوية في روما هذا المخطط الصليبي لغزو الإسلام في عقر داره ، وتورط بعض البابوات فوصفوا الإسلام في مراسيمهم بأنه طاعون [٣] ، وطالبوا ببذل الجهود لتنصير سكان المناطق التي يستولي عليها البرتغاليون والحيلولة بينهم وبين إصابتهم بالطاعون الإسلامي ، وشجعت البابوية عملية الانخراط في البحرية البرتغالية والأسبانية .

وكان البابا يعد المشتركين في تلك الحملات بالنجاة من النار يوم الحساب ،ويمنحهم صكوك الغفران لضمان هذه النجاة المزعومة ، وكانت السفن تخرج ناشرة أشرعتها وعليها الصلبان مرسومة يرافقها دعاة المسيحية المتعصبون لنشرها في جميع البلاد المفتوحة ، ولقد عبر عمانويل ملك البرتغال الذي قامت في عهده أول حملة بحرية إلى الشرق عن أهم هذه العوامل في خطبة طويلة نقتبس منها ما يلي:

" إن الغرض من اكتشاف الطريق البحري إلي الهند هو نشر المسيحية والحصول علي ثروات الشرق [٤] .

كما عبرت الحملة الأولى بقيادة فاسكودا جاما في يوليو ١٤٩٧م عن أغراضها خير تعبير ، فقد كانت سفينة القيادة تعلق فوق ساريتها علماً كبيراً رسم عليه صليب ضخم ، ولقد قيل يومئذ إن الصليب والمدفع كانا رمزي القادم الجديد

---

(٣) انظر : د. عبد العزيز الشناوي ، أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، الطبعة الأولى ، القاهرة سنة ١٩٦٩م ، ج١ ، ص٩٤ .

(٤) انظر د. السيد مصطفي سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ، الطبعة الثانية ، من منشورات معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة سنة ١٩٧٤م ، ص٤٦-٤٧.

الـــذي دخـــل إلي الشرق وكان رفع الشعار الديني واستعمال القوة الضاربة ضد التجار المسلمين هو الذي دفعنا إلى وصف هذه الحملات بأنها حملات صليبية .

ولقـــد ســـيطرت على الأسبان والبرتغاليين في القرن العاشر الهجري فكرة تحـــويل أعدائهم المسلمين إلى المسيحية في كل مكان يتواجدون فيه في آسيا وأفريقيا وما حولهما من جزر ، وكانت حملاتهم البحرية هي الوسيلة للوصول إلى قلب العالم الإسلامي .

وكان المؤرخون المسلمون المعاصرون لأحداث الهجوم البرتغالي على شرقي العالم الإسلامي يفهمون هذه الأحداث على حقيقتها ويدركون مراميها قبل تعرضها للتـــزييف بعد ذلك على يد المؤرخين الأوروبيين ، فها هو المؤرخ المسلم زين الدين الملـــباري الـــذي أرخ للنفوذ البرتغالي في البحار الشرقية ، وعاش في غضون القرن العاشر الهجري يشير إلى الأهداف الدينية الصليبية بقوله :

"ثم إن بغيـــتهم العظمـــى وهمتهم الكبرى قديماً وحديثاً تغيير دين المسلمين وإدخالهم في النصرانية نعوذ بالله من ذلك " (٥) .

اليهود يتجسسون لصالح الأوروبيين :

كان للمسلمين معرفة بالملاحة وعلوم البحار وكانوا متقدمين على أوروبا في هذا الميدان حتى مطلع القرن العاشر الهجري ، وكان لهم نشاط ملاحي في أرجاء المحـــيط الهـــندي وأرخبيل الملايو وبحر الصين فضلاً عن البحر المتوسط (بحر الروم) والبحر الأحمر والخليج العربي ، وقد بذل الأوروبيون جهوداً كبيرة في التعرف على علـــوم المسلمين ومعرفتهم في هذا الميدان ، وكان في طليعة من بذلوا جهودا في هذا الـــصدد الأســـبان والبرتغاليون واستعانوا باليهود في مجال الترجمة العربية وفي مجال

---

(٥) انظر : زين الدين الملباري ، تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتكاليين ، لشبونة ١٨٩٨م ، ص٤٦ .

التجـــسس ، وكان اليهود قد التجئوا إلى البرتغال ومعهم علوم العرب وخرائطهم وجـــداولهم الفلكية ، وكانوا قد ترجموها إلى العبرية ، وكان لهذه العلوم الإسلامية أكثر الأثر في تقدم البرتغاليين في مجال الرحلات البحرية (٦) وقد ساعد اليهود على نجاحهم في عمليات التجسس معرفتهم باللغة العربية ، وقاموا برحلات بين المشرق والمغـــرب براً وبحراً لغرض جمع معلومات من الطرق البحرية من الغرب إلى الشرق وعن الرحلات التجارية إلى الهند والصين وعن مقدرة المسلمين العسكرية والبحرية وتظاهر هؤلاء بأنهم مسلمون .

ففـــي سنة ١٤٨٧م أي قبل رحلة فاسكودا جاما بعشر سنوات قام جماعة مـــن الجواسيس اليهود متخفين في زي المسلمين بالسفر إلى مصر وكان على رأس هؤلاء الجواسيس :

الفونسو دى بايفا **Alfonso de paiva**

بيرو دي كوفيلهام **Rero de covilham**

وذكر الكاتب الإيطالي المعاصر "أنجلو بسكي" في كتاب طبع حديثاً عن جدة أن بيرو دي كوفيلهام من بين الرحالة الذين زاروا جدة في سنة ١٤٨٧ (٧) .

وقـــد انخرط هؤلاء الجواسيس في قافلة الحج المتجهة من المغرب إلى الحجاز عـــبر مصر ثم أقلعوا من السويس إلى جدة متظاهرين بالإسلام ، وفي جدة استقلوا ســـفينة مـــتجهة إلى الهند ، وفي هذه الرحلة تمكنوا من جمع كثير من المعلومات عن طـــريق الـــتجارة ووضع مراكزها الإسلامية بالهند ثم عادوا إلى البرتغال عن طريق مصر ، وفي القاهرة التقى هؤلاء الجواسيس ببعثة تجسس يهودية أخرى كانت تضم

(٦) انظر : د. انور عبد العليم : ابن ماجد الملاح ، ص٤٢-٤٤ .

(٧) Angelo pesce , jiddah portrait of an Arabian city , Falcom , press , Italy ١٩٧٧ . p.٣٠ .

إبراهام دي بيا ، ويوسف لاميجو وانضموا إلى هذه البعثة واتجه الجميع إلى هرمز ، ومـــروا في طـــريقهم على "زيلع" ومنها إلى الحبشة ، ثم عادوا إلى مصر ومنها إلى الـــبرتغال ، وقـــد استطاعت هذه المجموعة الحصول على بعض الخرائط العربية عن المحيط الهندي ، وجمعوا معلومات تفصيلية عن التيارات البحرية والرياح الموسمية في هـــذا المحيط ، وكيفية التخلص من منطقة الهدوء الاستوائي التي بقيت لغزاً صعب حله لدى الأوروبيين حيث تهدأ الرياح في هذه المنطقة الاستوائية ولا تتحرك السفن التي تسير بالشراع وهي المعروفة فقط آنذاك ،

ولا يمكـــن التـــنقل شمالا إلا في الربيع مع حركة الشمس الظاهرة ، وفي الخريف جنوباً مع تلك الحركة . واستطاعوا أن يعرفوا أحوال جيش المماليك أقوى الـــدول الإســـلامية آنذاك والتي تسيطر على شرق أفريقيا والسواحل العربية في البحـــر الأحمـــر وتساعد المسلمين في حربهم ضد الأحباش والنصارى ، كما تعرفوا علـــى أوضاع البلاد الداخلية . وعندما عادت هذه البعثة إلى البرتغال قدمت كل هذه المعلومات إلى السلطات الحاكمة في لشبونة فاستعانت بها في رحلاتها القادمة إلى جنوب أفريقيا وشرقها إلى الهند (٨) .

فضل المسلمين على البرتغاليين في الوصول إلى الهند :

كـــان للمسلمين معرفة دقيقة بالبحار وعلومها كما سلف أن ذكرنا ، وقد نقل اليهود هذه المعرفة إلى البرتغاليين فتعلم البرتغاليون استخدام الرياح لمعرفة اتجاه الريح في المحيطات ، وبعد أن اجتاز البرتغاليون رأس الرجاء الصالح في سنة ٩٠٣–

(٨) انظر : عبد العزيز الشناوي ، أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، مرجع سبق ذكره ، ص٩٧ ، ج٩٨.
وانظر أيضاً : محمود شاكر ، الكشوف الجغرافية ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٥–٢٦ .

٩٠٤هـــــ (١٤٩٧-١٤٩٨م) بقيادة فاسكودا جاما لم يتحركوا من شرق أفريقيا إلى الهند إلا بمعونة بعض البحارة المسلمين.

ذلك أن فاسكو ديجاما اتجه شمالا إلى (سفالة) و (موزمبيق) و (ممباسا) وهي مـــواني إسلامية حيث قوبلوا باستقبال غير رحب ، وقد قام فاسكو ديجاما بقصف موزمبيق مما كون لدى سكان الساحل الأفريقي انطباعاً مبكراً عن وحشية القادمين ، وفي (ماليـــندي) وهي إلى الشمال قليلاً من (ممباسا) والتي كون البرتغاليون علاقة طيـــبة مع ملكها ، وقد كانت (ماليندي) هي نقطة الانطلاق إلى المياه المفتوحة عبر المحـــيط الهندي بين أفريقيا والهند ، حيث استطاع ديجاما الحصول بضربة حظ على خدمات بحار عظيم سماه البرتغاليون (معلموكنكا) أو "مولموكانا" (٩) ويبدوا أن هذا كـــان اسمـــه الفـــني وعـــرفت شخصيته الحقيقية فيما بعد في كتب بعض المؤرخين المسلمين مثل قطب الدين النهرواني في كتابة (البرق اليماني في الفتح العثماني) وهو ابـــن ماجد أعظم بحار عربي يومئذ واسمه الكامل "أحمد بن ماجد النجدي" وهو من مـــنطقة نجد في وسط الجزيرة العربية كما يوحي بذلك اسمه ، وهو صاحب أفضل موسوعة عربية لعلوم البحار تحت عنوان :

(الفـــوائد في أصـــول علـــم البحار والقواعد) ومن كتبه أيضاً : "حاوية الاختـــصار في علـــم البحار" كذلك ألف ثلاثين مؤلفاً شعرياً عبارة عن أراجيز بها إرشادات ملاحية لبيان طرق الملاحة بين السواحل والمواني المختلفة ، ومعلومات ابن ماجـــد ليست مجرد معلومات نظرية يسردها في علوم البحار وإنما معلومات طبقها

(٩) أحمد بن ماجد : كتاب الفوائد في أصول البحار والقواعد ، تحقيق إبراهيم خوري وعزة حسن ، نشر في دمشق سنة ١٩٧١م ، ص١٦٠ .

ابـــن ماجـــد عملياً أي انه نقل المعرفة النظرية إلى الطريق التجريبي العلمي وهذا ما يشير إليه في كتابه الفوائد في قوله :

" ولم نستفد في زماننا هذا شيئاً له صيحة كعلومنا وتجاربنا واختراعاتنا التي في كتابنا هذا،لأنها مصممة مجربة وليس على التجريب شئ أحسن منه" (١٠).

وبعـــض مؤلفات ابن ماجد في باريس وبعضها في مكتبة لينينجراد بروسيا وغيرهمـــا ، وقـــد نـــشر بعض هذه المؤلفات وعلق عليها الفرنسي (جبريل فران) والمستشرق الروسي " شوموفسكي " والكاتب العربي إبراهيم خوري ، وقد أيدوا جمـــيعاً ما ذكره قطب الدين النهرواني في كتابه (البرق اليماني .....) من أن فاسكو ديجامـــا لم يـــتمكن مـــن الوصـــول إلى الهند إلا بفضل أحمد بن ماجد الملاح الذي صـــاحبهم في الوصـــول إلى الهـــند مرشداً لهم . وكذلك يقرر هذه الحقيقة المؤرخ الإيطالي الرحالة انجلوبسكي في كتابه الذي نشر عن تاريخ جدة في عام ١٩٧٧م .

وبعـــد مقابلـــة فاسكو ديجاما مع ابن ماجد اقتنع فاسكو ديجاما بمعرفة ابن ماجـــد بعـــد أن أراه خـــريطة بالمحيط الهندي بكل المخططات التي اتبعها المسلمون وعـــندما أراه فاسكو ديجاما (الاسطرلاب) الخشبي الذي يستخدمه في رحلته لم يكن ذلـــك محل غرابة من ابن ماجد وقال له أن كثيرا من بحارة البحر الأحمر يستخدمون الـــنجوم ، ويستخدم البحار نجوماً معينة في الشمال والجنوب وأيضاً بعض النجوم الـــتي تظهـــر في الـــشرق والغـــرب ولا يستخدمون مثل هذه الأدوات ولكنهم

(١٠) انظـــر : قطب الدين النهرواني : البرق اليماني في الفتح العثماني ، طبعة دار اليمامة بالرياض ، ص١٨- ١٩ وانظر : يحيي بن الحسين : غاية الأماني في أخبار القطر اليماني ، القسم الثاني ، ص٦٣٠- ٦٣١ ، هامش ٥ . وانظر د. أنور عبد العليم ، الفوائد في أصول علم البحار ... لابن ماجد ،بحث نشر في مجلة تراث الإنسانية المجلد الخامس ، عدد ٤ ص٢٧٤ ، وكذلك لنفس المؤلف كتاب ابن ماجد الملاح من سلسلة أعلام العرب رقم ٦٢ وانجلوبيسكي . angelo pesce :op .cit./ p. ٧٠.

يستخدمون أدوات أخرى والتي أحضرها ليريها لفاسكو ديجاما وكانت على شكل ثلاثة أطباق .

وقـــد أبحر ديجاما مع البحار العربي ، وبعد الإبحار لمدة عشرين يوماً وصلوا إلى هـــدفهم وظهرت أمامهم جبال شامخة وهي الجبال التي تقع شرق (كاليكوت) علـــى الساحل الغربي للهند وقد ظلوا ثلاثة أيام أخرى حتى وصلوا إلى الشاطئ في ٢٠ من مايو ١٤٩٨ المسمى ساحل الملبار .

وقـــد ذكـــر الأمير الدكتور سلطان القاسمي أمير الشارقة في محاضرة له في الجمعية المصرية التاريخية في مقرها الجديد الذي تبرع ببنائه بمدينة نصر بالقاهرة أنه بحـــث في موضـــوع مـــساعدة ابن ماجد للبرتغاليين في الوصول إلى الهند مستعينا بالوثائق البرتغالية فوجد أن الذي ساعده بحار هندي وليس هو ابن ماجد .

ويعتبر هذا التاريخ نقطة تحول في تاريخ العالم الإسلامي حدث أثره في موانئ الخليج العربي وموانئ البحر الأحمر والبحر الأبيض الإسلامية .

وكـــان بثغر كاليكوت جالية كبيرة العدد من التجار المسلمين العرب وقيل أن فاســـكو ديجامـــا حـــياه في كالـــيكوت نفسها عربيان من تونس خاطباه باللغة القـــشتالية ، ولذلك نجد بانيكار في كتابه (آسيا والسيطرة الغربية) يعلق على هذا قائلاً : فأين إذن أهمية استكشاف فاسكو ديجاما [١١] .

وفي السواحل الهندية اكتشف البرتغاليون الأسعار الحقيقية للبضائع الشرقية ومروا بأماكن تجمعها على ساحل الملبار واكتشفوا الفوائد العظيمة التي ستجني منها ، والـــشئ الـــثاني وهو على جانب كبير من الأهمية انهم تأكدوا من تفوق السفن الـــبرتغالية علـــى الـــسفن العـــربية والهندية حيث أن المدافع التي كان يستخدمها

(١١) بانيكار ، آسيا والسيطرة الغربية ، طبعة دار المعارف ، ص٢٠ .

البرتغاليون غير معروفة في المحيط الهندي ، وواجه المسلمون نتيجة لذلك تنافساً قوياً علـــى تجارة الهند ، وتعرض سلاطين مصر الذين كانوا يتحكمون في كل طرق هذه الـــتجارة إلى الغرب لفقدان مصالحهم ، وأخطر من ذلك أصبح المسلمون مهددون في عقـــر دارهم وأصبح البرتغاليون على وشك تحقيق حلمهم القديم وهو التحالف مع مسيحي الحبشة الشرقيين للهجوم على الإسلام وأرضه وأتباعه ومصالحه .

وقضى البرتغاليون ما يقرب من ثلاثة أشهر ونصف في المياه الهندية قبل أن يبحـــروا في طريق عودهم إلى بلادهم مع تغيير موسم الرياح في رحلة العودة ، ففي أغـــسطس ١٤٩٨م رحل ديجاما عائداً إلى البرتغال فوصلها بعد عام تقريباً أي في ســـبتمبر ١٤٩٩م واستقبلته لشبونة عاصمة البرتغال استقبال الفاتحين ، بعد رحلة استمرت حوالي عامين التي أبحر فيها حوالي ٢٤ ألف ميل .

البرتغاليون يبنون مراكز استعمارية في الشرق :

تركـــز نشاط البرتغاليين بعد وصولهم إلى الهند في حملتهم الثانية (٩٠٨– ٩٠٩هـــــ) في تثبيت أقدامهم على شواطئ المحيط الهندي ومهاجمة السفن والمراكز التجارية الإسلامية في جميع جهات المحيط واستغلوا بعض الخلافات بين حكام الهند في الـــتدخل لنـــصرة فريق على آخر كما تدفعهم وصاياهم للتفريق بين الأشقاء مما أعطـــى لهـــم فرصـــة لتدعيم نفوذهم على الساحل الهندي وإقامة بعض الحصون البرتغالية .

واتـــصف نـــشاط البرتغاليين الاستعماري في هذه المرحلة بامتزاج العوامل الـــصليبية بالعوامل الاقتصادية ، فقد حرصوا على نشر المسيحية في المناطق المحيطة بمـــستعمراتهم الـــتي أقامـــوها ، وكانت حملاتهم تضم بعض القساوسة لهذا الغرض واتصف موقفهم من المسلمين بالعداوة والعنف فقاموا بطرد المسلمين من مراكزهم

التجارية بالهند وسواحل أفريقيا ، وطاردوا السفن التجارية الإسلامية وعملوا على إغـــراقها والاســـتيلاء عليها ، فقد قام فاسكو ديجاما أثناء (حملته الثانية) إلى الهند بمهاجمـــة إحـــدى الـــسفن الإسلامية التجارية وكانت تخص سلطان مصر واسمها "ماريـــام" أو "مـــريم" وكانت في رحلة لها إلى جدة وكانت تحمل أعداداً كبيرة من الحجـــاج الـــذين واجهوا حتفهم وكانت هذه السفينة مسالمة غير مسلحة واستولى على ما بها من بضائع ثم أمر بإغراقها بما تحمل من ركاب (١٢) .

وبعد هذا الحادث توجه الأسطول البرتغالي إلى " كناتور" وتقع إلى الشمال مـــن "كاليكوت" ، وكان حاكمها على خلاف مع حاكم كاليكوت فعقد معاهدة صـــداقة معه ثم عاد بعد ذلك إلى كاليكوت طالباً من سكانها تعويضاً على الخسائر الـــتي لحقـــت به إثر اعتدائهم على سفنه دفاعاً عن أنفسهم وتصرف معهم بقسوة شـــديدة لطخـــت اسمه بالعار ، فعندما اقترب من الميناء وجد به خمسين سفينة غير مـــسلحة فأسر خمسين شخصاً من السكان كرهائن وأرسل (للزامورين) تهديداً بأنه إذا لم تلـــب طلـــباته فانـــه سيبدأ حرباً مبتدئاً بقتل الخمسين رهينة ، ولما لم يأته أي جواب فانه شنق الخمسين سجيناً وقطع أيديهم وآذانهم وأرسلها إلى المدينة ، ثم بدأ ضـــرب المديـــنة بالمدفعية حتى تهدمت واحترق عدد من منازلها بما في ذلك القصر الملكـــي ، ثم تـــوجه إلى "كوتشين" جنوب كاليكوت حيث عقد معاهدة أخرى مع ملكها .

---

(١٢) انظر : Angelo Pesce : op. cit. , p. ٧٣ .

وانظر أيضاً : بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ، ص٤٠ ، ٤١ .

وتحرشت السفن الإسلامية بأسطول فاسكو ديجاما ووقعت الحرب بين المسلمين يساعدهم الزامورين والبرتغال ، وقد رتب فاسكو ديجاما أسطوله وهو عائد إلى "كناتور" فقسمه إلى قسمين :

أحدهما : مكون من ثلاث سفن وخمسة قوارب تحت قيادة (سيدري) وأمر هذه السفن أن تبحر قرب الشاطئ وتدمر كل شئ يصادفها .

أما القسم الآخر : فكان مكوناً من عشر سفن أبحر بها وسط البحر وفي صباح ١٢ من فبراير ١٥٠٣م بينما كانوا مبحرين بهذا الترتيب شاهدوا أسطول كلكتا الذي كان متأهباً للحرب يتقدم نحوهم مكوناً من ٢٩ سفينة بقيادة بحار عربي ذو سمعة طيبة اسمه "خواجة بار" بالإضافة إلى عشرات من القوارب السنبوك بقيادة " خواجة قاسم" وللوهلة الأولى فانه يظن أن الغلبة ستكون للقوات الإسلامية ، ولكن الأسطول البرتغالي كان أحسن تسليحاً حيث توجد المدافع القوية لدى البرتغاليين ، وبعد معركة عنيفة سيطر البرتغاليون على الموقف وكان النصر حليفهم ونهبوا كثيراً من الغنائم بعد المعركة من السفن ، فوجدوا في إحدى السفن تمثالا ذهبياً يزن ٤٠ رطلاً يرجح انه كان لبعض الهنود مع جوهرتين كبيرتين.

وبعد ذلك غادر فاسكو ديجاما مياه الهند إلى لشبونة التي وصلها سنة ١٥٠٣م محملاً بالغنائم المنهوبة من السكان والتجار المسلمين ، فلم تكن هذه الغنائم من التجارة الحرة ولكن نهباً من سفن المسلمين الهنود ومن سفن العرب وكانت هذه الحمولة تقدر بنحو ٢٤ ألف دوكات ذهباً وكانت تتكون من ٣٥٠٠ طن بهارات و ٥٠٠ طن من الفلفل والذهب . ويقول أنجلو بسكي معلقاً على ذلك : "فإذا كان غرض البرتغاليين من الهند قد تحقق فان طريقتهم كانت شاذة ومتناقضة

مع طريقة العرب الذين عملوا بالتجارة منذ مئات السنين بدون أي محاولة لتخريب الدولة والتأثير على سكانها أو القضاء على التنافس"[١٣] .

وكـــان ديجامـــا إبان حملته الثانية (١٥٠٢م) قد كلف أحد قادته بالإقامة الدائمـــة عند مدخل البحر الأحمر ومعه خمس سفن لمهاجمة السفن الإسلامية ولمنعها مـــن الإبحار في مياه المحيط الهندي إلا بتصريح خاص من البرتغاليين ونجح هذا القائد في مهمـــته إلى حـــد كبير فقد قام في رجب سنة ٩٠٨هـــ (يناير ١٥٠٣م) بمهاجمة سبع سفن عربية واستولى عليها كما قتل بعض ركابها وأسر البعض الآخر .

وفي سنة ٩١٣هـــ هاجم البرتغاليون بقيادة "البوكيرك" جزيرة "سوقطرة" واســـتولوا عليها وتقع في مدخل خليج عدن لإغلاق البحر الأحمر ومحاولة القضاء علـــى تجارة المسلمين وأقام البرتغاليون في "سوقطرة" بعض التحصينات لهذا الغرض كمـــا هـــاجم البوكيرك عدن في نفس السنة ولكنه فشل في اقتحامها ، فتوجه إلى الخلـــيج العـــربي لإحكام السيطرة البرتغالية عليه وبذلك بدأ في عملية غزو الخليج العربي في سنة ٩١٣هـــ وما بعدها وبدأ البرتغاليون غزو المراكز التجارية به وأهمها من الجنوب إلى الشمال "قلهات" و "قريات" و "مسقط" و "صحار" و "خورفكان" و "هرمـــز" و "البحرين" و "القطيف" و "البصرة" وارتكب البرتغاليون من الأعمال والفظائـــع ما يضيق المجال هنا عن ذكرها ، وكانت دليلاً واضحاً على أن نفوسهم الحاقدة لا ترويها إلا الدماء .

---

(١٣)Angelo pesce : op. cit. , pp. ٧٤-٧٥ .

وقـــضوا على مملكة هرمز الإسلامية التي كانت تتحكم في مدخل الخليج العربي طوال قرنين من الزمان قبل الغزو البرتغالي وتخضع لها غالب الإمارات الممتدة من البحرين والقطيف حتى الساحل العماني (١٤) .

ويرجع تكوين مملكة هرمز البحرية إلى أواخر القرن السابع الهجري ومطلع القـــرن الـــثامن . عندما وصلت غارات المغول إلى الشاطئ الشرقي للخليج العربي ودمـــرت مدينة هرمز القديمة الواقعة على الساحل فانتقل أهلها إلى جزيرة في مياه الخلـــيج مقابلـــة لمديـــنة هرمز تسمى جزيرة "جرون" وأطلقوا عليها اسم "هرمز الجديـــدة" وبمـــضي الـــزمن تمكنوا من الانتشار التجاري في كثير من موانئ الخليج وجـــزره وغدا لهؤلاء التجار سلطنة تحولت إلى مملكة عرفت "بمملكة هرمز" فرضت سيطرتها في الخليج وظلت حتى قضي عليها البرتغاليون ، وكان يحكمها إبان الهجوم الـــبرتغالي ملك صغير يسمى سيف الدين تحت وصاية معلمه الشيخ خواجه عطار ، وتـــأتي أهمية مملكة هرمز من كونها تقع في مضيق في مدخل الخليج العربي أخذ اسمها وظل يعرف بمضيق هرمز إلى وقتنا هذا .

---

(١٤) انظر : صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، ص٩-١٠ .

الفصل الثالث

أوضاع المشرق الإسلامي
في مطلع القرن العاشر الهجري (١٦م)

كـــان بالمـــشرق الإسلامي في أواخر القرن التاسع الهجري ومطلع القرن العاشـــر عدة ممالك إسلامية بعضها ضعيف في الهند وجنوب شرقي آسيا واليمن ، وبعـــضها قوي في منطقة الشرق الأوسط ، وهي (سلطنة المماليك) السنية في مصر والـــشام وجزيـــرة العرب ، و (سلطنة العثمانيين السنية) في آسيا الصغرى وشرق أوروبا ، ثم (مملكة الصفويين) الشيعية في فارس .

ولم تـــتحد هذه القوى من أجل الوقوف في وجه أوروبا المعتدية التي تخطط للالـــتفاف حـــول العالم الإسلامي من الشرق ونجحت في السيطرة عليها لأن العالم الإســـلامي في المـــشرق لم يصل حتى إلى التضامن المفروض في الملمات وإنما حدث العكـــس وهو التضارب والتحارب وقت الشدائد ، واستغلت الدولة العثمانية فترة ضعف سلطنة المماليك بسبب الضربات البرتغالية التي وجهت إليها في الهند والبحار الشرقية لتحتل بلادها في وقت كان الإخاء الإسلامي يفرض عليها أن تمد يد العون لها في محنتها .

وقـــبل أن نفصل القول في هذا الموضوع لابد لنا أن نلقي الضوء على تلك القـــوى الإســـلامية التي أشرنا إليها سلفاً ، لكي يقف القارئ على أوضاعها التي أدت إلى ســـقوط بعـــضها بسبب ضربات الغزو الأوروبي ، وهوان البعض الآخر

وتخاذله وخيانته لشقيقه وقت الشدة ، واستجداء فريق ثالث وتحالفه تحالفاً محرماً مع الغزاة الجدد ، مما أعطى فرصة للاستعمار الأوروبي أن يستغل إلى أبعد الحدود مبدأ فرق تسد بين القوى الإسلامية .

سلطنة المماليك في مصر :

كانـــت دولة المماليك الأتراك المجلوبين من وسط آسيا (٦٤٨-٩٢٣هـــ/ ١٢٥٠-١٥١٧م) تـــضم القـــسم الأكبر مما نسميه الشرق الأوسط الآن حيث كانت تسيطر على مصر وبلاد الشام (فلسطين وسوريا ولبنان والأردن) والحجاز ثم الـــيمن في أخـــريات أيامها ، وبعض الجزيرة الفراتية وإقليم العواصم والثغور وهو القـــسم الجـــنوبي من آسيا الصغرى وكانت هذه أجزاء كثيراً ما تدخل في سلطان ملـــوك مـــصر في معظم العصور الإسلامية ، وكان بنو رمضان الذين تسلطنوا في طرسوس وما يليها يولون من قبل المماليك .

وبـــذلك يتضح أن السلطان المملوكي قانصوه الغوري (٩٠٦- ٩٢٢ هــــ) الذي عاصر نهاية انهيار الدولة كان يدير ملكاً واسعاً في مصر والأقطار التي تتبعها وكان للغورى والسلاطين المماليك من قبله الزعامة بين ملوك المسلمين وذلك لأمرين :

أولهمـــا : إن ســـلاطين المماليـــك كانوا يقومون بخدمة الحرمين الشريفين وحمايـــتهما وعلى الرغم من اهتمامهم بالألقاب الدينية ومنها لقب "خادم الحرمين" فقـــد تولـــوا من هذا الملك الواسع السلطة الزمنية فقط وتركوا ما عداها للخليفة العباس في القاهرة إلا انهم اهتموا بلقب "خادم الحرمين الشريفين" أو كما كان يقال أحياناً "حامي حمى الحرمين الشريفين" .

ثانيهما : وجـــود الخلافة العباسية في القاهرة بعد سقوطها في بغداد بعامين ســـنة ٦٥٨هـــ عندما استدعى الظاهر بيبرس المملوكي أحد أبناء العباسيين وعينه خلــيفة بالقاهـــرة . وصـــارت للمماليك بذلك زعامة معترف بها في جميع الأقطار الإسلامية ، ولم يكن أحد ينازعهم هذه الزعامة حتى أن العثمانيين أنفسهم وهم من أقـــوى الممالك الضاربة في العالم يومئذ كانوا يقرون للمماليك بهذه الزعامة ، ومن يطلع على الرسائل المتبادلة بين سلاطين آل عثمان ومماليك مصر يدرك تلك الحقيقة (١) .

ومـــن ثم نجـــد في كتاب ابن إياس "وهو أهم مؤرخ عاصر نهاية المماليك" كـــثيراً مـــن أخـــبار البعـــثات الدبلوماسية أو ما كان يطلق عليهم في ذلك الزمن (الرســـل) أو (القـــصاد) الـــذين كانوا يترددون بين الغورى وبين زعماء الأقطار الإســـلامية يومئذ ، وذلك مثل العثمانيين ، وسلاطين الهند وإيران والعراق وأمراء آســـيا الصغرى وبلاد السودان والحبش ، ومن بلاد الكرج وأوروبا ، وجزر البحر المتوسط وكانت مصر يومئذ مأوى الكثير من الأمراء المغلوبين على أمرهم يلجئون إلى مصر ليستنجدوا فيها بسلاطين المماليك أو يقيموا فيها آمنين.

يقول ابن إياس في حوادث شهر ربيع الآخر ٩١٨هـــ :"ومن العجائب أن في هـــذا الـــشهر اجتمع عند السلطان نحو من أربعة عشر قاصداً ، وكل قاصد من عند ملك على انفراده ، فمن ذلك : قاصد شاه إسماعيل الصوفي (الصفوي) وقاصد ملـــك الكـــرج وقاصد ابن رمضان أمير التركمان (في أذنه وطرسوس) وقاصد من

---

(١) كـــثير مـــن تلك الرسائل محفوظ في "منشئات السلاطين" التي جمعها فريدون بك في القرن الحادي عشر الهجري . وبعضها في كتاب : ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص٢٠-٢٦ .

عـــند ابـــن عثمان ملك الروم [٢] وقاصد يوسف ابن الصوفي خليل أمير التركمان وقاصـــد صـــاحب تونس ملك المغرب ، وقاصد من مكة ، وقاصد الملك محمود ، وقاصـــد ابن درغل أمير التركمان ، وقاصد من عند نائب حلب ، وقاصد من عند حـــسين الـــذي تـــوجه إلى الهند (حسين الكردي نائب جدة) وقاصد ملك الفرنج الفرانسة ، وقاصد علي دولات ، وغير ذلك قصاد من عند جماعة من النواب [٣] .

وكـــان بلاط الغورى على جانب كبير من الأبهة والعظمة فيذكر ابن إياس في مراسيم الاحتفال بمبعوث الشاه إسماعيل الصفوي ما يلي :

"وفـــيه (أي في شهر ربيع الآخر سنة ٩١٨هـــ) في يوم الأحد سابع عشر مـــنه عـــزم السلطان علي قاصد شاه إسماعيل الصوفي فجلس معه في المربع الذي بالمـــيدان وفـــرجه على لعب الكرة ، ثم دخل به إلى البحرة التي ببستان الميدان ، وأظهـــر في ذلك اليوم أنواع العظمة بحضرة القاصد . ومد له هناك أسمطة حافلة حتى أدهشه مما رأى في ذلك اليوم من حسن النظام وتزايد العظمة" [٤] .

وكـــان الـــسلطان الغوري ملكاً مهيباً يميل إلى الأبهة في ملابسه ومواكبه ، كما كان محباً للتنعم ، مولعاً بالفنون الجميلة ، ومحباً للموسيقى والغناء ، وكان يلهو أحـــياناً بلعب الكرة ويحضر مبارياتها كثيراً في ملاعب ميدان الرميلة بالقلعة، وكان

---

(٢) كـــان يطلـــق علـــى آسيا الصغرى يومئذ بلاد الروم ، وعلى سكانها الروم وذلك على الرغم من استيطان الأتراك الـــسلاجقة لها والأتراك العثمانيين من بعدهم ، وكان يطلق على سلطان العثمانيين كما قال ابن إياس "ملك الروم" وكل من يأتي من آسيا الصغرى يقال عنه "رومي" ، وذلك لسيطرة الرومان السابقة على هذه البلاد زمناً طويلاً فالتصقت بهم صفة الرومانية وان كانوا أصبحوا خليطاً من الرومان والأتراك والتركمان والمغول ومن سكان البلاد الأصليين قبل مجيء هؤلاء جميعاً إلى آسيا الصغرى .

(٣) انظر : محمد بن إياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، الطبعة الثانية ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة سنة ١٩٦٠م ، ج٤ ، ص٢٦٨-٢٦٩ .

(٤) المصدر السابق ، ذات المكان .

يلهو أحياناً بمشاهدة نطاح الكباش والثيران ولعب الكلاب والصقور والفهود ومشاهدة فن خيال الظل وهو فن مسرحي من وراء الستار .

وتمكن سلاطين المماليك من تشييد كثير من القصور والمساجد والمدارس والخانقاوات والأسبلة والأسواق ، وجعلوها في أبهى زينة ومازالت آثار عصرهم ماثلة أمامنا إلى اليوم دليلاً واضحاً على ثراء عصرهم ومن هذه العمائر الباقية مدرسة السلطان المنصور قلاوون وقبته وبقايا بيمارستانه بالنحاسين بحي الجمالية الحالي بالقاهرة ومجموعة ابنه السلطان الناصر محمد بجانبها ومدرسة السلطان حسن بن الناصر محمد بالقلعة ، ومدرسة السلطان برقوق ومجموعة السلطان قانصوه الغورى (الجامع والقبة والمكتب والسبيل بالغورية) بالقاهرة .

وكان السلطان الغوري من أعظم البناة للعمائر الإسلامية بالقاهرة وغيرها من أجزاء مملكته فكان مولعاً بتشييد العمائر والتأنق فيها ، تدل على ذلك آثاره الباقية ، فقد انشأ بجانب المجموعة السالفة جامعاً عند القلعة ، وبنى خان الخليلي وخانا وأحواضاً في طريق الحجاج عند العقبة ورباطاً ومارستانا في مكة وقصراً عند مقياس النيل بالروضة ، وانشأ الميدان الكبير عند قلعة صلاح الدين بالقاهرة ، وهو الميدان المعروف بميدان الرميلة ، وأضاف إليه أحواضاً وأبنية ، وعمر قاعة البيسرية وقاعة العوامدية والدهيشة بالقلعة وغير ذلك من الأبنية المدنية والحربية والقلاع والحصون في مصر والحجاز والشام .

والذي مكن المماليك من إقامة تلك الحضارة الزاهرة في العصور الوسطى ذلك الثراء البالغ بسبب تمكنهم من السيطرة على طريق التجارة بين الشرق والغرب فجنوا بذلك أرباحاً طائلة مكنتهم من إقامة العمائر الزاهرة وتكوين الجيوش القوية ، ومن ثم خفت وطأتهم على الشعوب التي حكموها لاعتمادهم على

موارد خارجية بل إن شعوبهم أدلت بدلوها هي الأخرى في مجال التجارة العالمية فعندما راجت التجارة بين الشرق والغرب في العصور الوسطى عن طريق البحر الأحمر اشتركت فيها الأوساط الشعبية أيضاً وخاصة في منطقة الشرق الأوسط فأخذ الأفراد يستثمرون أموالهم في هذه التجارة عن طريق نظام المضاربة الإسلامي فقد كان التجار يمولون من مجموعة من الأفراد أصحاب رؤوس الأموال ولهؤلاء الممولين نصيب في الربح غير محدد عند عودة التاجر من تجارته .

وتزخر مجموعة وثائق الجنيزة (٥) بالعديد من الوثائق التي هي عبارة عن عقود تجارية على نسق نظام المضاربة الإسلامي عقدت بين التجار والممولين الذين اشتركوا في نقل هذه التجارة العالمية مما يدل على أن هذه التجارة العالمية في العصور الوسطى عاد نفعها على الشعوب بعد الحكام . وأحدثت رواجاً اقتصادياً مرموقاً في منطقة الشرق الأوسط .

ولكن فترة حكم المماليك الأتراك البحرية ٦٤٨-٧٨٤هـ ، والمماليك الجراكسة (٧٨٤-٩٢٣هـ) ١٣٨٢-١٥١٧م اتسمت بعدم الاستقرار في الحكم ، فقد كثر تعاقب سلاطين المماليك على الحكم في سرعة فائقة ، حتى أن بعضهم ما كاد يعتلي العرش أياماً حتى يعزل مما يشهد على عدم الاستقرار ومدى الاضطراب الذي أصاب سلطنة المماليك في ذلك العصر ، بل أن أحد سلاطين

---

(٥) مجموعة وثائق الجنيزة عبارة عن عشرة آلاف وثيقة حفظها اليهود في معبدهم بالفسطاط ومقبرتهم بالبساتين على مقربة من القاهرة لمدة قرون طويلة قبل أن تأخذ طريقها إلى مكتبة جامعة كمبرج وغيرها من مكتبات الغرب الأوروبي وهي ترجع إلى العصور الوسطى ، الفاطمية والأيوبية والمملوكية وقليل منها من بداية العصر العثماني ومعظمها يرجع إلى العصرين الفاطمي والأيوبي . وتغطي فترة زمنية طويلة تمتد من ٣٥٨-٩٤٥هـ/٩٦٩-١٥٣٨م أي ما يقرب من ٦٠٠ سنة . انظر : د. حسنين ربيع ، وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادي لموانئ الحجاز واليمن في العصور الوسطى ، بحث قدم إلى الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية بجامعة الرياض ، إبريل ١٩٧٧م .

المماليك لم يبق سلطاناً سوى ليلة واحدة ، فنسمع أن (خاير بك) اعتلى العرش سنة ٨٧٢هـ (١٤٦٨م) بعد عزل (تمربغا) ، وكان اعتلاؤه العرش في المساء وتم عزله في الصباح التالي،مما جعل ابن إياس يطلق عليه "سلطان ليلة"(٦).

ولم تستقر الأوضاع في عصر سلاطين المماليك الجراكسة إلا في عصرين هما:

١- عصر السلطان الأشرف قايتباي ٨٧٢-٩٠١هـ (١٤٦٨- ١٤٩٦م) .

٢- وعصر السلطان قانصوة الغوري ٩٠٦-٩٢٢هـ (١٥٠١- ١٥١٦م) .

وتسببت هذه الفوضى المملوكية في سوء أحوال المملكة المصرية ، وبدأ ذلك في أواخر عهد السلطان قايتباي فقد قدر له أن يحكم حتى جاوز الثمانين من عمره واستبد به المرض في شيخوخته ، وعندما توفي قايتباي في سنة ٩٠١هـ عاد الصراع وكثر القتال على الحكم بين المماليك ، ولم تهدأ الأحوال إلا عندما اعتلى قانصوه الغوري كرسي السلطنة في ٩٠٦هـ (١٥٠١م) ولعل الميتة الوحشية التي تعرض لها كثيرون من سلاطين المماليك الأواخر عند عزلهم هي التي جعلت قانصوه الغوري يتهرب من منصب السلطنة عندما عرضه عليه الأمراء وامتنع عن تولي السلطنة وبكى (٧) بيد انه قبل في النهاية ذلك المنصب بعد أن اشترط عليهم عدم قتله إذا أرادوا خلعه (٨) .

ولم يكد السلطان الغوري يتولى السلطنة حتى أثبت انه رجل قوي صلب العود على الرغم من انه كان قد جاوز الستين من عمره(٩) ، وعلى الرغم من

(٦) ابن إياس ، بدائع الزهور ، مرجع سبق ذكره ، ج٢ ، ص٨٨-٨٩ .

(٧) المصدر السابق ، ج٤ ، ص٤ .

(٨) عبد الرحمن الرافعي ، وسعيد عاشور ، مصر في العصور الوسطى ، الطبعة الأولى ، دار النهضة العربية ، القاهرة سنة ١٩٧٠م ، ص٥٢٥ .

(٩) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج٤ ، ص٥ .

اعتقاد المماليك انه ضعيف يمكن التلاعب به ، عمل بسرعة منذ اللحظة الأولى على إعـادة الأمن والاستقرار إلى العاصمة ، وملأ مناصب الدولة بمن يثق فيهم من كبار الأمراء ، ثم اتجه إلى علاج الأزمة المالية بعد أن أفلست خزنة الدولة بسبب اعتراض الـبرتغاليين للتجارة الشرقية ، واعتدائهم على السفن الإسلامية التي كانت تحمل هذه التجارة .

وعلـى الرغم من أن الدولة كانت في حاجة ملحة إلى المال بعد أن نضب معـين الـتجارة في عصر الغوري مما اضطره إلى فرض كثير من الضرائب لمواجهة البرتغاليين وتحصين ثغور البحر الأحمر وإعداد أسطول قوي لمجابهة البحرية البرتغالية المـتقدمة ، على الرغم من ذلك إلا انه يؤخذ على الغوري جمع المال بكل الوسائل المـشروعة وغير المشروعة ، واتباع سياسة تعسفية في إشباع خزانة الدولة ، فجمع ضـرائب عـشرة أشـهر مقدماً دفعة واحدة ، ولم يكتف بفرض الضرائب على الأراضي والحوانيت والعقارات وإنما تجاوز ذلك إلى الطواحين والمعديات والسفن ، ودواب الـنقل حتى الأوقاف الخيرية هذا إلى جانب انه تلاعب في العملة لتستفيد الخـزانة من الفارق بين العملة الجيدة والعملة الرديئة ، وضاعف المكوس والرسوم الجمركية ، مما انزل بالتجار على وجه الخصوص أضرارا بالغة.

وأثقلـت تلك الإجراءات كاهل الشعب المصري والشامي والحجازي في وقـت بدأت المنافسة البرتغالية للتجارة المصرية في البحار الشرقية تلقي بظلها على الحـياة الاقتـصادية داخل دولة المماليك ، وعلى الرغم من ذلك فان الغوري ظل يـصرف كـثيراً مـن الأموال على مظهر بلاطه ، وفخامته ولم يقلع عن أسلوب الفخفخـة والعظمة حتى في أحلك الظروف الاقتصادية وأصبحت مماليكه وخيوله

وجواهـــره ومطبخه السلطاني مضرب الأمثال ، كما اشتهرت مجالسة الأدبية التي ضمت الشعراء والأدباء والعلماء (١٠) .

سلطنة العثمانيين :

الظروف السياسية التي ظهر فيها العثمانيون :

كانـــت العناصر التركية والمغولية تعمر الأقاليم الشاسعة الواقعة بين حدود فـــارس والـــصين القديمتين ، ولم يكن في استطاعتها أن تتخطى أسوار إحدى هاتين الإمبراطوريتين الكبيرتين ، ولكنها ظلت تقوم بدور الوسيط في نقل الحضارة بينهما ، وكانـــت الإمـــبراطورية الفارسية تحول بينهم وبين التدفق غرباً إلى بلاد الشرق الأدنى .

وبعـــد أن اخترقت الجيوش الإسلامية حزام فارس إلى مواطن الأتراك فيما وراء النهر وبلاد خوارزم ، تدفق العنصر التركي على شرقي العالم الإسلامي تدفقا ســلميا علـــى شـــكل جماعات ورقيق ودخلوا في خدمة الدولة الإسلامية ، وأقبل الأتراك يدخلون في رحاب الإسلام ، وعندما أخذت الدولة الإسلامية في الضعف في العصر العباسي الثاني ، أحست العناصر التركية بضعف السلطة المركزية وبدأت تحاول إنشاء دولة تركية إسلامية على أنقاض الدولة العباسية المنهارة . ثم تمكنوا من إنشاء أول دولة تركية في ظل الخلافة العباسية وهي دولة الأتراك السامانية (١١) .

وكـــان قـــيام هذه الدولة حافزاً لكثير من القبائل التركية على الزحف إلى مـــنطقة الـــشرق الأدنى في أوائل القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) وكان من أهمها عناصر القبائل السلجوقية في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)

---

(١٠) انظر: بحثاً قيماً عن مجالس السلطان الغوري ، للدكتور عبد الوهاب عزام . .

(١١) حسين مؤنس ، الشرق الإسلامي في العصر الحديث ، ص١٨-١٩ .

ويـــبدأ بدخول السلاجقة بغداد بعد القضاء على النفوذ البويهي سنة ٤٤٧ هــ ، وعلى أثر ذلك زاد النفوذ التركي السلجوقي في البلاط العباسي واستبد السلاجقة بالخلفاء في بغداد .

وكـــان للـــسلاجقة فضل في توحيد الدولة الإسلامية . وتمكنوا من هزيمة الدولـــة البيـــزنطية في مـــوقعة (ملاذكرد في سنة ٤٦٣هــ (١٠٧١م) ووصلت أملاكهـــم إلى بحر مرمرة وسيطر السلاجقة بعدها تماماً على آسيا الصغرى ، وصار الأناضـــول مهجراً تقصده العناصر التركية زاحفة من وسط آسيا (١٢) فتكونت به تركستان الجديدة فقد أصبح مكاناً لتجمع الأتراك .

غير أن ذلك الصرح الشامخ الذي بناه الأتراك السلاجقة ما لبث أن انهار بعـــد وفـــاة ملك شاه السلجوقي سنة ٤٨٥هــ (١٠٩٢م) فقد انقسمت الدولة الـــسلجوقية بعـــده إلى دويـــلات صغيرة مزقت الكيان السلجوقي وعرفت هذه الـــدويلات بـــدويلات الأتابكة ، وفقد أمراء السلاجقة سلطانهم بعد أن استبد بهم الأوصياء عليهم المعروفون بالأتابكة * .

وشهدت أحداث القرن السادس الهجري (١٢م) ظهور عماد الدين زنكي (أتابك الموصل) ، ومن بعده ابنه (نور الدين محمود) ثم (صلاح الدين الأيوبي) الذين حاولـــوا توحـــيد المشرق العربي ضد الزحف الصليبي ، كما شهد هذا القرن أيضاً

---

(١٢) محمد فؤاد كوبريلي ، قيام الدولة العثمانية ، ص ط من المقدمة .

* أتابـــك : كلمـــة تـــركية مركبة من كلمتين تركيتين : أتا : بمعنى الأب المربي ، وبك : لقب تركي بمعنى أمير وهي في الاصـــطلاح الـــسلجوقي معناها مربي الأمير ومدير المملكة وأول من تلقب بها نظام الملك وزير السلطان ألب أرسلان (٤٥٥-٤٦٥هــ) وابنه ملكشاه (٤٦٥-٤٨٥هــ) ويطلق اللقب أيضاً على أمير الجيش فيقال : أتابك العسكر [أحمد السعيد ، تأصيل الدخيل ، ص١٢ ، وابن الأثير ، ج٨ ، ص١١٥] ومنها لقب أتاتورك لمصطفي كمال بمعنى أبو الأتراك أو مربي الأتراك .

ســقوط الدولة الفاطمية الشيعية في مصر سنة ٥٦٧ هـ ، واستيلاء صلاح الدين الأيوبي على التركة الفاطمية في مصر وتصديه للصليبيين في الشام .

وفي أواخر النصف الأول من القرن السابع الهجري (١٣م) دخل في الأناضول عنصر جديد هو (العنصر المغولي) إذ لم يكد المغول ينتصرون على السلاجقة في معركة (كوسة طاغ) أي الجبل الأقرع سنة ٦٤١هـ (١٢٤٣م) حتى أخذوا يستوطنون بقبائلهم وجيوشهم في الأناضول [١٣] .

وكان يقابل هذا التكاثر المستمر في الجانب الإسلامي نقص مستمر في الجانب المسيحي في الأناضول حتى صار المسيحيون منذ القرن السابع الهجري عناصر تذكارية في جنوب الأناضول [١٤] بسبب إسلام بعضهم وهجرة البعض الآخر .

وقد تركت العناصر المغولية وسط الأغلبية التركية بالأناضول ، حتى إذا مازالت (دولة الايلخانيين) المغولية التي أسسها هولاكو في الأناضول سنة ١٢٥٣م (٦٥١هـ) [١٥] دخلت العناصر المغولية بحسب أماكنها الجغرافية في خدمة الإمارات المختلفة التي تمخض عنها الوضع السياسي في نهاية القرن السابع الهجري (١٣م) وتقدر تلك الولايات بنحو ست عشرة ولاية (أو دويلة) على الأقل من بينها ولاية آل عثمان .

ولازالت هناك بعض المشكلات التي تتصل عن كثب بقيام الدولة العثمانية وتحتاج من الباحثين إلى كثرة التوفر على دراستها لحلها أو الإجابة عليها إجابة معقولة ، ولعل من أهم هذه الأسئلة : في أي زمن وفد الأتراك العثمانيون على الأناضول ؟ وفي أي زمان اعتنق العثمانيون الإسلام ؟

---

(١٣) محمد فؤاد كوبريلي ، مرجع سبق ذكره ، ص ى .
(١٤) المرجع السابق ، ص ل ، م .
(١٥) المرجع السابق ، ص٧٣-٧٦ .

وتجمــع المــصادر القديمة على أن العنصر الذي انجب أسرة عثمان والذي يعتـبر بالضرورة النواة الأولى للدولة العثمانية ، عنصر غزي أي تركي لا يفترق في ذلك عن أغلبية الترك الذين وفدوا مع السلاجقة [١٦] وتنتمي أسرة عثمان إلى قبيلة (قـابي خـان) التي تنقلت ردحاً من الزمان إبان القرن الثالث عشر في الأناضول بقـيادة زعيمها *سليمان* جد عثمان ثم بقيادة ابنه أرطغرل من بعده ثم بقيادة عثمان بـن أرطغـرل الـذي أعطى اسمه من بعده لقبيلته التي غدت إمبراطورية مترامية الأطـراف ، وكانت هذه القبيلة تخضع نظرياً لا عملياً لسلاطين قونية ، وشهدت العناصـر التـركية بآسـيا الصغرى فترة الاضطراب بسبب الزحف المغولي على الأناضـول ممـا سبب لها كثيراً من التنقل والترحال الإجباري من مكان إلى آخر ، وبعـد مـوت (جنكيز خان) فكر سليمان جد عثمان في العودة بقبيلته إلى موطنه الأصـلي بآسيا الوسطى بعد سكون العاصفة المغولية بيد انه غرق عند مخاضة على نهـر الفـرات قرب حلب ، ودفنه أبناؤه بجوار قلعة جعبر داخل الحدود السورية الحالـية عام ٦٢٩هـ (١٢٣١م) وما زال قبره هناك معروف باسم (ترك مزارى) أي مزار الترك [١٧] .

وبعد موت سليمان انقسم بنوه من بعده ، فمنهم من فضل مواصلة المسير إلى مقـصد أبيهم ، ومنهم من آثر البقاء في تلك النواحي وكان على رأس الفريق الـثاني أرطغـرل بـن سليمان الذي قاد رجاله متوغلاً في آسيا الصغرى ، وتروي الحوليات العثمانية انه بينما كان أرطغرل يسير بمن تبعه من قبيلته في وهاد الأناضول شـاهد جيشان يقتتلأن أحدهما من المغول بقيادة (أوكتاي بن جنكيز خان) والآخر

---

(١٦) المرجع السابق ، ص١٨ .

(١٧) انظر : ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، الطبعة الثانية ، بيروت سنة ١٩٦٠م ، ص١٣-١٤ .
وانظر أيضاً : عبد السلام عبد العزيز فهمي ، السلطان محمد الفاتح ، دمشق سنة ١٣٩٥هـ ، ص١١ .

بقيادة علاء الدين السلجوقي سلطان قونيه(٦١٦ هـ ــ ٦٣٣ =١٢١٩ــ ١٢٣٥م) فدفعته غريزته الحربية للتوقف حتى تحقق من انكسار الجيش السلجوقي وعندئذ أسرع بالانضمام إليه وهاجم جيش المغول بقوة وشجاعة عظيمتين حتى وقع الرعب في قلوبهم وأعمل فيهم السيف ، وانتهت المعركة بهزيمة الجيش المغولي (١٨) وكان ذلك في عام ٦٣٠هـ (١٢٣٢م) وبعد انتهاء المعركة عقدت أواصر الصداقة والمحبة بين علاء الدين السلجوقي وأرطغرل وكافأه علاء الدين على مساعدته له بإقطاعه قطعة من الأرض على حدود الدولة البيزنطية قرب مدينة (بروسه) تسمى (اسكى شهر) (١٩) ومنحه لقب "سلطان أوني" أي مقدمة السلطان لوجود قبيلته في مقدمة جيوشه واتخذ أرطغرل الهلال شارة السلاجقة — شعاراً له على أعلامه وبيارقة ، وهو الرسم الذي لا تزال ترفرف به أعلام الأتراك حتى الآن (٢٠) .

وسار علاء الدين يعتمد في حروبه مع مجاوريه وخاصة الدولة البيزنطية على أرطغرل ورجاله ، وكان عقب كل انتصار يمنحه أرضاً جديدة ، وكانت هذه الإمارة الصغيرة (اسكي شهر) هي مهد الدولة العثمانية ، ففيها ولد عثمان بن أرطغرل سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) الذي تنتسب إليه الدولة العثمانية ، وفيها دعم أرطغرل أقدام قبيلته في الأناضول وفيها تمكن من تحويل قومه من نظام القبيلة

---

(١٨) محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص٣٩-٤٠ .

(١٩) اسكى شهر : أو كما يكتبها البعض أحياناً كلمة واحدة "اسكيشهر" مكونة من لفظتين تركيتين : اسكى : معناها قديم ، وشهر معناها مدينة فتكون بمعنى : المدينة القديمة . واسكى شهر تقع في الجزء الغربي من إقليم الأناضول الأوسط على نهر بورصوق وهو فرع من نهر سقاريا .

(٢٠) انظر : د. عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، طبعة الأنجلو المصرية بالقاهرة سنة ١٩٨٠م ، ج١ ، ص٣٥ ، هامش رقم ١ .

المتـنقلة إلى نظـام الدولة المستقرة التي بدأت تنمو وتتسع بالتدريج على حساب الإمـبراطورية البيـزنطية بالأناضول حتى أصبحت إمبراطورية مترامية الأطراف ، وغدت من أكبر الدول الإسلامية التي شهدها التاريخ .

ولمـا تـوفي أرطغول سنة ٦٨٧هـ (١٣٨٨م) خلفه في حكم الإمارة ابنه عـثمان فـسار على نهج والده في تدعيم سلطانه في إماراته الناشئة باتصاله الوثيق بخلفـاء علاء الدين السلجوقي ، وواتته الفرصة عندما تحطمت هيبة سلاجقة الروم أمـام غـارات المغـول وفـر آخرهم سنة ٦٩٩هـ (١٣٠٠م) هارباً ولجأ إلى الإمـبراطور البيزنطي الذي غدر به وقتله ، فاستقل بإماراته ولم يلبث أن ضم إليها بقـية الإمارات التركية الأخرى التي قامت بالأناضول بعد الغزو المغولي ، واندمجت هذه الإمارات التركية في إمارة عثمان على توالي الأيام وسمو أنفسهم عثمانيين أيضاً ، وبـذلك ورث العثمانيون سلاجقة الروم متوسلين في سبيل ذلك حيناً بالمصاهرة وحيناً بالمال وحيناً بالقهر والغلبة .

وتـدعمت حـركة عـثمان دينياً عندما اتصل بشيخ الطرق الصوفية في الأناضـول وهو الشيخ "إده بالى" (أدب عالي) وأكثر من التردد عليه وكان رجلاً صـالحاً ومن العلماء المسلمين المتعمقين في الدراسات الدينية ، وكان هذا العالم يقيم في قرية مجاورة لمدينة اسكى شهر ، وفي خلال زياراته له تعمقت أواصر المحبة بينهما وتوجت هذه الصلة بان تزوج عثمان ابنة هذا الشيخ واسمها "مال خاتون" ثم قلده الـشيخ سيف الجهاد في سبيل الله وبذلك قويت حركة العثمانيين روحياً وأصبح لها دعـاة يقوون من روح الجنود المعنوية ، الأمر الذي يجعلهم يستبسلون في الجهاد ، ويحتقرون الموت في ساحات القتال .

وإذا كـــان أرطغـــرل والد عثمان قد بنى أساس الدولة العثمانية ودعمها سياســـياً باتصاله بعلاء الدين السلجوقي ، فان عثمان قد دعم الدولة بروح الجهاد الديني عندما اتصل بشيخه ووالد زوجته الشيخ أدب عالي ، وتحمس عثمان لعقيدته الدينـــية ، وأخـــضع حكمـــة لمـــشورة الفقهاء المسلمين ، وصارت من رسومهم بإســـلامبول أن يتقلدوا سيف عثمان من إمام جامع أبي أيوب الأنصاري حيث تتم البـــيعة لهـــم ، ومـــن ناحية أخرى أظهر الأمير عثمان مقدرة فائقة في وضع النظم الإداريـــة لإمارته بحيث قطع العثمانيون على عهده شوطاً بعيداً على طريق التحول من نظام القبيلة المتجولة إلى نظام الإدارة المستقرة ، مما ساعدها على توطيد مركزها وتطـــورها تطوراً سريعاً إلى دولة كبرى ، وإعدادها للدور الضخم الذي قامت به بعد ذلك .

وأخـــذ عثمان يوسع أراضيه بالتدريج مستغلاً الفوضى والإهمال المسيطرين على الأراضي البيزنطية بالأناضول ، وكان أول صدام بينه وبين البيزنطيين في "قوين حـــصار" سنة ٧٠٠هـــ (١٣٠١م) ولم تستطع بيزنطة لمدة طويلة أن تتحرك ضد عثمان ، فقد كانت مشغولة بالقلاقل والفتن في العاصمة وفي البلقان ، وسقطت في يد العثمانيين أماكن كثيرة كان عليها أن تدافع عن نفسها بقواها المحلية ، فسقطت (بروسة) في يدهم سنة ٧٢٦هـــ (١٣٢٦م) .

ثم نقـــل العثمانيون عاصمتهم في هذه السنة (٧٢٦هـــ) إلى "بروسه"[٢١] ، وفي هذه السنة توفي عثمان في (بروسة) ودفنه بنوه فيها في مقبرة فخمة بعد وفاته ،

---

(٢١) أصبح لبروسه مركز كبير في العالم الإسلامي منذ أن اتخذها أورخان ابن عثمان عاصمة للدولة ، وضرب فيها أول سكة فضية لها قيمتها وهي الأقجة سنة ٧٢٧هـــ (١٣٢٧م) وظلت بروسة عاصمة للدولة العثمانية حتى فتح العثمانيون القسطنطينية فانتقلت حاضرتهم إليها ، ونزح من بروسة كثير من الأتراك إلى العاصمة الجديدة .

انظر : د. عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية ، مرجع سبق ذكره ، ج١ ، ص٤٢ ، هامش ١ .

وشيد العثمانيون في هذه المدينة كثيراً من المنشآت الإسلامية الرائعة وصارت محطاً لـرحال الأتـراك النازحين من بلاد تركستان بآسيا الوسطى وولي الحكم من بعد عـثمان ابنه (أورخان) ٧٢٦-٧٦١هـ (١٣٢٦-١٣٥٩م) الذي واصل تنظيم الدولة على أسس إدارية وحربية وطيدة الأركان[٢٢].

وقد وجد آل عثمان في غربي الأناضول مجالاً واسعاً لتوجيه نشاط عشيرتهم الفتـية نحـو الحـرب والجهاد لفتح الأقاليم البيزنطية وإدخالها في حوزة الإسلام ، وإقـدامهم على الجهاد بهذه الصورة صار يجذب إليهم عدداً غير قليل من المتطوعين من مختلف الإمارات التركية الإسلامية التي قامت على أنقاض الدولة السلجوقية .

وسـار العثمانيون في حكمهم على هدى الإسلام ، وكانوا متحمسين له ، وكـان للإسلام أثر كبير في مستقبل العثمانيين لا يقل عن الأثر الذي تركه الإسلام في مـستقبل عـرب شـبه الجزيرة العربية قبل العثمانيين بسبعة قرون فقد عبأهم الإسلام بشعور إسلامي دافق وجعلهم متحمسين للإسلام ، واجتمع لهم إلى جانب العاطفـة الدينـية المتأججة روح عسكرية طاغية بحيث غدت سمة بارزة في الأتراك العثمانيين ، وقد استمدوا هذه الروح العسكرية من بيئتهم الأصلية في سهول آسيا ، ثم عمل السلاطين على تعميقها في نفوسهم فلازمتهم طوال تاريخهم الحافل [٢٣] .

وقـد اسـتفاد العثمانـيون عندما اجتازوا الدردنيل سنة ١٣٤٥ في عهد أورخان ، وأخذوا يتغلغلون في القارة الأوروبية في البلاد التي سموها "روم ايلي" أو "روملـي" في المـراجع العـربية (أي ديار الروم) فقد كانت تلك البلاد تعتبر من الـوجهة الشرعية دار حرب وجهاد ، فيسوغ فيها الاسترقاق ، ولذلك ابتكر آل

(٢٢) عبد السلام عبد العزيز فهمي مرجع سبق ذكره ، ص١٤ .

(٢٣) د. عبد العزيز الشناوي ، أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، ص٥٢٩ .

عثمان في عهد (أورخان) طريقة تضمن لهم تكوين جيش دائم يحسن الحرب والجهاد ، فأخذوا يقومون من وقت لآخر بغارات على ما وراء حدودهم في البلاد النصرانية بقصد استرقاق الأطفال ، وكانوا يعودون من تلك الغارات بعدد كبير من الأطفال الصغار الذين كانوا يودعوهم في مؤسسات خاصة لتنشئتهم نشأة إسلامية عسكرية ، وكـــان هذا الجيش هو الذي عرف بالأنكشارية ، وهذه الكلمة محرفة من الأصل التركي "يني تشرى" بمعنى النوع الجديد أو النظام الجديد (٢٤) .

وكـــان أفراد هذه الطائفة لا يعرفون بطبيعة الحال شيئاً من أصلهم ونسبهم فمـــا كانوا يشعرون بارتباط نحو أسرة غير أسرة الجيش الذي ينتسبون إليه وكانوا ينشئون على الديانة الإسلامية ويتشبعون بفكرة الجهاد منذ نعومة أظفارهم يؤمنون بـــان الجهاد من فرائض الإسلام فيذهبون إلى ساحات القتال وهم يقولون في قرارة أنفسهم : "إما غازي وإما شهيد " بمعنى أن عليهم أن ينتصروا على الأعداء فيكونوا من الغزاة ، وأما أن يموتوا خلال الحرب ، فيدخلون في زمرة الشهداء الأبرار .

وصفوة القول أن هذا الجيش كان ينشأ للحرب والجهاد ويستعد لذلك من كـــل الوجوه المادية والمعنوية ، ويعتبر هذا الجيش في نظر بعض المؤرخين أول جيش دائم عرفه التاريخ .

وبعـــد أن عـــبر العثمانيون الدردنيل واستولوا على (غاليبولي) استقدموا كـــثيراً من أتراك الأناضول وكذلك بعض العشائر التركمانية فوطنوهم هناك وفر قـــسم مـــن أهل تراقيا أمام الزحف العثماني وعمر الأتراك القادمون من الأناضول أماكنهم الخالية .

---

(٢٤) ساطع الحصري ، مرجع سبق ذكره ، ص٦٦-٦٧ .

وبدأت بيزنطة التي احتفظت بمركزها كعاصمة قروناً طويلة تحس بالخطر العثماني بأوسع معانيه ، ولما تولى مراد الأول العرش في سنة ٧٦١هـ (١٣٥٩م) كـان الأتـراك قد استقروا نهائياً على ساحل أوروبا متخذين من "غاليبولي" نقطة متقدمة لعملياتهم الحربية .

وتقـدمت الفتوحات في "تراقيا" ووفق مراد في مدة سلطنته التي استمرت حتى سنة ٧٨١هـ (١٣٧٩م) في تحقيق غايته وهي بسط سلطان العثمانيين بصورة ثابتة على البلقان .

وسارت فتوحات الدولة العثمانية بسرعة حتى عهد السلطان الرابع بايزيد الأول ٧٩٢-٨٠٥هـ (١٣٨٩-١٤٠٢م) الملقب بالصاعقة "يلدرم" لحمله على أعدائـه في معـارك القـتال بطـريقة خاطفة وسريعة ، وصارت الدولة في عهده إمبراطورية راسية القواعد في الأناضول والبلقان فقد قضي نهائياً على مملكة البلغار وقـضي علـى قوة الصرب تماماً ، بيد انه كان سيئ الحظ بغزو التتار لبلاده فقد اجـتاح (تـيمور لـنك) الأناضول وطلب من بايزيد التسليم في سنة ٨٠٥هـ (١٤٠٢م) فـتقابل بايـزيد مع تيمور لنك بجيش أقل من جيوش المغول في معركة (انقرة سنة ١٤٠٢م) فانتصر المغول في هذه المعركة وأسر بايزيد بعد المعركة ومات في أسر تيمور لنك وقامت حرب أهلية بين أبناء بايزيد من بعده استمرت نحو عشرة أعـوام تعرضت الدولة خلالها للتمزق ، ولكن انتهى هذا التنازع بانتصار السلطان محمد الأول (٨٠٥-٨٢٤هـ) على أخوته في سنة ١٤٢١م .

وفي عهد السلطان محمد الأول تغلغل العثمانيون في شبه جزيرة البلقان حتى أتمـوا فـتح جميع أقسامها ثم توسعوا في الأناضول حتى أوصلوا حدودهم إلى جبال طوروس ، وأصبحوا متاخمين لدولة المماليك .

وقد توج العثمانيون هذه الانتصارات بفتح القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ (١٤٥٣م) على يد السلطان محمد الثاني ٨٥٥-٨٨٦هـ (١٤٥١-١٤٨١م) الذي استحق لقب الفاتح منذ ذلك التاريخ ، ولقد حقق العثمانيون بذلك أمنية ظلت تراود المسلمين منذ صدر الإسلام وكان من أول الأعمال التي قام بإنجازها محمد الفاتح بعد فتحها عمل يرمز إلى هذه الحقيقة ، ويمثل كفاح المسلمين الأوائل الذين حاولوا فتح عاصمة الدولة البيزنطية ، إذ بادر الفاتح إلى تشييد مسجد الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري الذي استشهد عند أسوار المدينة في إحدى المحاولات الإسلامية المبكرة لفتحها في القرن الأول الهجري ثم دفن أمام أسوارها سنة ٥٠هـ (٦٦٩م) (٢٥) .

وفي مطلع القرن العاشر الهجري (١٦م) ومع بداية التفاف الأوروبيين حول الشرق الإسلامي ، كانت الرياح العثمانية تنذر بعصر جديد تتحرك فيه القوة العثمانية الضاربة نحو الشرق ، وذلك بسبب الفراغ العسكري الذي حدث في منطقة الشرق الأوسط الناتج عن ضعف الدولة المملوكية في مصر الأمر الذي أغرى العثمانيين بملء هذا الفراغ ، ومن ناحية أخرى بسبب التراع المذهبي بين الدولة الصفوية الشيعية الناشئة في فارس وبين الدولة العثمانية السنية .

---

(٢٥) يذكر القرماني في كتابه "أخبار الدول وآثار الأول" بصدد التعرف على قبر أبي أيوب الأنصاري ، وان السلطان محمد الفاتح التمس معرفة مكان القبر باجتهاد أحد الصالحين الذين رافقوا محمد الفاتح في حملته الموفقة ويدعي الشيخ شمس الدين فأمر السلطان بان تبنى قبة فوق القبر وألحق بها جامعاً فخماً هو من أهم المساجد والمعالم الإسلامية الآن في إسلامبول ، وكان من رسوم سلاطين بني عثمان أن يتقلدوا سيف الجهاد من أمام مسجد أبي أيوب الأنصاري لدى توليهم السلطة في احتفال إسلامي مهيب .

الدولة الصفوية في فارس :

ظهـــر الـــصفويون على مسرح الحياة السياسية في فارس في مطلع القرن العاشـــر الهجـــري (١٦م) عندما تمكن (إسماعيل الصفوي) من دخول (تبريز) سنة ٩٠٧هـــ عاصمة (الآق قويونلو) ومعناها الخروف الأبيض ، وهم من التركمان الـــسنة وأعلـــن نفسه ملكاً على فارس وأعلن المذهب الشيعي مذهباً رسمياً في جميع أنحاء البلاد .

وكانـــت إيران (فارس) منذ هبت عليها العاصفة المغولية أشبه شئ بالكرة يتـــنازعها أمـــراء من الترك حيناً ومن المغول حيناً آخر ، وفي مطلع القرن العاشر الهجري تمكن الصفويون من توحيد البلاد والقضاء على جميع الكيانات المتناثرة من التركمان وبقايا المغول .

ويرجع نسب الصفويين إلى أسرة آرية كانت تعيش في (أردبيل) وهي مدينة تقـــع في شـــرقي اقليم آذربيجان قريباً من بحر قزوين ، وتصل الكتب التي أرخت للـــصفويين نـــسب إسماعيل الصفوي مؤسس دولتهم إلى جده الأكبر الشيخ صفي الـــدين الأردبيلي (٦٥٠- ٧٣٥هـــ) وتصل الكتب أيضاً نسب صفي الدين هذا إلى الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب [٢٦] ، وإلى آل ساسان أيضاً .

ويـــبدو أن انتـــساب هذه الأسرة إلى الحسين من الأمور المختلفة فهي من أصـــل آري قـــديم ، وكانـــت تـــسكن في منطقة آذربيجان ، وان الذين يقولون بانتـــساب الصفويين لآل البيت أرادوا أن يكسبوا الأسرة أحقيتها في الحكم نظراً لأن نظـــرية الحق الإلهي المقدس التي أودعت في الأسرة الساسانية كانت ذات أثر

---

(٢٦) بديع جمعة ، أحمد الخولي ، تاريخ الصفويين وحضارتهم ، ج١ ، القاهرة سنة ١٩٧٦م ، ص٢٨.

عظيم في تاريخ الفرس والتشيع ، ويعتقد الفرس أن الحسين بن علي قد تزوج (شهربانو) ابنة يزدجرد الثالث آخر ملوك آل ساسان .

فقد ذكر ابن خلكان في وفيات الأعيان :

أن الصحابة أتوا المدينة بسبي من فارس في خلافة عمر بن الخطاب ، كان فيهم ثلاث بنات ليزدجرد آخر ملوك آل ساسان ، فباعوا السبايا ، وأمر عمر ببيع بنات يزدجرد أيضا ، فقال علي بن أبي طالب : إن بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن من بنات السوقة فقال عمر : كيف الطريق إلى العمل معهن ؟ قال علي : يقومن ومهما بلغ الثمن قام به من يختارهن ، فقومن وأخذهن علي ، فدفع واحدة لعبد الله بن عمر ، وأخرى لولده الحسين ، وأخرى لمحمد بن أبي بكر الصديق ، فأولد عبد الله أمته ولده (سالم) ، وأولد الحسين أمته شهربانو (علي زين العابدين)، وأولد محمد بن أبي بكر ولده (القاسم) فهؤلاء الثلاثة بنو خالة ، وأمهاتهم بنات يزدجرد .

واستناداً إلى هذا أصبح الأئمة من الشيعة لا يمثلون حق أهل بيت النبوة وخصائصها فحسب ، بل يمثلون حق الملك وفضائله أيضاً من حيث كونهم يتمتعون بانحدارهم من أصل مزدوج من بيت الرسالة ومن آل ساسان ومن هنا نشأت هذه العقيدة السياسية (٢٧) .

والذين يقولون بانتساب الصفويين إلى أصل آري قديم يريدون تأكيد دور الصفويين في بعث القومية الفارسية التي ظهرت على أيديهم .

---

(٢٧) محمد إسماعيل جمال الدين ، دولة الإسماعيلية في إيران ، ص٨ ، وانظر أيضاً : د. بديع جمعة وأحمد الخولي : مرجع سبق ذكره ، ص٣٨ .

وعلـــى كـــل حـــال فقد تعمق الشيخ صفي الدين في أسرار المحبة الإلهية وتـــصوف وأصـــبح مرشداً لجماعة من المتصوفة والدراويش وفكر في الرحيل إلى فـــارس ولكنه نزل في (شيراز) حيث اتصل بالشاعر (سعدي الشيرازي) واتصل بالـــشيخ زاهد الكيلاني الذي تزوج ابنته وعهد إليه الشيخ زاهد بمقام الإرشاد في طريقته الصوفية ، ثم عاد إلى أردبيل ومات بها سنة ٧٣٥هـــ .

وبعـــد مـــوت الشيخ صفي الدين خلفه في الدعوة ابنه الشيخ صدر الدين موسى (٧٠٤-٧٩٤هـــ) ثم حفيده خواجه علي (ت٨٣٠هـــ) ثم الشيخ إبراهيم المعروف بشيخ شاه (ت٨٥١هـــ) ثم السلطان "جنيد" الذي قتل في عام ٨٦٠هـــ ثم السلطان حيدر والد إسماعيل الصفوي الذي قتل أيضاً عام ٨٩٣هـــ .

ولقـــد ســـاعدت الظروف السيئة التي حلت بإيران على يد التيموريين في التفاف المريدين حول دعاة الصفويين من أجداد إسماعيل وازدياد نفوذهم يوماً بعد يـــوم وقد حظي منهم الشيخ "خواجه علي" برعاية تيمور سنة ٨٠٥هـــ فلم ينزل بأتباعه أذى فأعطت هذه الرعاية أرضاً صالحة لدعايات الأسرة الصفوية التي بدأت في تعمـــيق الأفكار الشيعية لدى أتباعها على يد (خواجه علي) الذي يعتبر أول من اعتنق المذهب لشيعي من أولاد الشيخ صفي الدين ودعا إليه الأتباع صراحة .

وفي عهـــد (جنـــيد) اكتـــسبت الجماعة قدرة أوسع على الحركة وبدأت تكـــشف عن رغبتها في الملك عندما عمل جنيد على تحويل جماعته الدينية إلى حركة سياســـية معتمدة على عدد المريدين الضخم فكان أول إجراء اتخذه في هذا السبيل هو إطلاقه على نفسه لقب (سلطان) بدلا من لقب شيخ وفي هذا إشارة إلى الرغبة

الكامنة في السلطة ، وتابع خططه السياسية بتدعيم عسكري فجند أعداداً كبيرة في مقر أسرته في عاصمتهم (أردبيل) واستطاع أن يقيم بها حكماً مستقلاً[٢٨].

تـــيقظت الكيانات السياسية في فارس لهذه النهضة الصفوية ، ولم تغفر لها تطلعها للسلطة ، وكانت أقوى الكيانات الحاكمة في فارس أسرتي التركمان :

١ - (قرا قويونلو)

٢ - و (آق قويونلو) [٢٩]

ومعـــنى الأولى : الخـــروف الأسود ، ومعنى الثانية : الخروف الأبيض وسبب هذه التسمية يرجع إلى أن أسرتين اتخذتا الخروف الأسود والخروف الأبيض رمزين على علميهما .

وغـــضب (جهانشاه) التركماني رئيس الأسرة الأولى وأجبر (جنيدا) على الـــرحيل إلى ديار بكر ، ولما كانت الأسرة الثانية في نزاع مع الأولى فقد استغلت هـــذا الحـــدث لصالحها واستقبل رئيسها "أوزن حسن" : أي حسن الطويل زعيم الصفويين جنيدا وأحسن وفادته وزوجه أخته .

ولكـــن جنـــيداً عاد إلى أدربيل ، ولما رأى كثرة المريدين من حوله لعبت الـــسلطة برأســـه فأقـــبل علـــى تدريب المريدين تدريباً عسكرياً ، وتوجه بهم إلى (شـــيروان) مهاجمـــا حاكمهـــا ولكنه مني بالهزيمة وقتل عام ٨٦٠هـــ ، وتعد هذه الحـــرب ، وان كانت قد انتهت لغير صالح الصفويين ، بمثابة ظهور للصفويين على مسرح الحياة السياسية والعسكرية كقوة تنافس على عرش فارس .

---

(٢٨) المرجع السابق ، ص٣٣-٣٤ .

(٢٩) نفس المرجع ، ص١٢ .

وتولى (حيدر) بن جنيد رئاسة الصفويين ، وحاول الانتقام من حاكم شيروان قاتـل أبيه ، فأعد جيشاً لهذا الغرض وميزه بان جعل أفراده يرتدون قلنسوة حمراء ومنذ ذلك الوقت صار أتباع الشيخ حيدر يعرفون أو يلقبون (بالقزلباشية)[٣٠] أي أصحاب الرؤوس الحمراء ، غير انه فشل بعد اتحاد التركمان ضده وتمكنوا من هزيمته وقتله وتفريق جماعته سنة ٨٩٣هـ ومنذ ذلك التاريخ انقسمت إيران على نفسها وزاد الصراع بين البيت الصفوي الناشئ ومنافسيهم من التركمان ، واتسع نطاق هذا النزاع .

وأدت هذه الحالة إلى زيادة الفوضى في فارس ، ونشر الفساد في شتى أنحاء البلاد ، وقد ساهمت هذه الأوضاع في ظهور المدعي الجديد لعرش إيران وهو الشاه (إسماعيل بن حيدر) ، الذي وجد تأييداً كبيراً من الفرس وذلك لميلهم منذ صدر الإسلام إلى الأفكار الشيعية ، فصادفت الدعوة الصفوية الشيعية هوى في نفوسهم ، لأن الناس في ذلك الزمان قد ضاقوا ذرعاً بظلم وإجحاف أنماط الحكم المتناثرة في فارس ، وفقدوا الأمل في حياة مستقرة ، فلجأوا إلى حلقات الأسرة الصفوية الصوفية بحثاً عن الراحة النفسية ، ولم يكتفوا بذلك بل صاروا مريدين وأتباعاً يضحون في سبيل نصرة شيخهم وزعيمهم .

وقد ساعدت هذه العوامل أجداد إسماعيل على الانتقال من شيوخ طريقة صوفية إلى مؤسسي دولة ذات أهداف سياسية ومذهبية غيرت وجه فارس ، ونهض جنيد جد الشاه وحيدر والده نهضة حربية للجهاد من أجل الوصول إلى السلطة

---

(٣٠) كان هذا الغطاء يتكون من اثنتي عشرة ثنية حمراء تمثل كل منها إماماً من أئمة الشيعية الإثنى عشرية، ومنذ ذلك الوقت صار أتباع الصفويين يعرفون باسم القزلباش أي ذوي الرؤوس الحمراء وقد اعتنق هذا المذهب نحو تسع قبائل تركمانية سميت بقبائل القزلباش تضافرت على خدمة البيت الصفوي وتدعيم كيانه وإقرار المذهب الشيعي الإثنى عشري مذهباً رسمياً في فارس .

اعـــتماداً علـــى فدائية وإخلاص الأتباع القزلباشية الذين لا يهدفون إلى شئ سوى التضحية في سبيل نصرة شيخهم ومرشدهم .

الشاه إسماعيل الصفوي :

ولـــد إسماعـــيل الصفوي في ٢٥ من رجب سنة ٨٩٢هـــ [٣١] قبل مقتل والـــده بعـــام وقد ساءت حالته بعد مقتل والده حيدر ، وزادت سوءاً بقتل أخيه الأكبر (سلطان علي) فاضطر إلى اللجوء إلى حاكم (لاهيجان) في المناطق الغربية من فـــارس فحماه ورباه تربية دينية عسكرية وتجمع أتباع القزلباش عليه مرة أخرى ، وكـــون منهم جيشاً في عام ٩٠٥هـــ (١٥٠٠م) وفكر في الانتقام من قاتل والده حـــاكم (شيروان) فتوجه بهم إليه في عام ٩٠٦هـــ وكان في سن الرابعة عشرة من عمـــره ، يـــرافقه جيش من سبعة آلاف مقاتل استطاع أن يهزم بهم جيش حاكم شيروان الذي اعتصم في شماخى .

وكـــان لحياة الاضطهاد التي عاشها إسماعيل وأسرته ، ومقتل جده ووالده وأخيه وتعرضه هو للقتل من أعدائه وهو صغير أكثر من مرة ، كان لهذا أثره الكبير في نفـــس ذلـــك القائد الصغير ، فظهرت عليه أثناء المعركة وبعدها روح القسوة والعنف والوحشية ، فأحرق جسد خصمه (فرخ يسار) حاكم شيروان ، وأقام برجاً مـــن رؤوس القتلـــى ، وتعـــدت وحشيته الأحياء إلى الأموات فنبش مقابر حكام شـــيروان ومثل برفاقم ، وكان لهذا أثراً كبيراً في إرهاب أعدائه ، كما كان للغنائم الـــتي استولى عليها من شيروان أثرها الكبير أيضاً في تدعيم قوته المالية ، ومن ناحية أخرى كان لهذا الانتصار أيضاً أثره الواضح في تشجيع كثير من الإيرانيين للالتفاف حول إسماعيل واعتباره منقذاً لهم من دوامة الأسر الحاكمة الدخيلة على فارس .

---

(٣١) يوافق هذا التاريخ ١ من يونيو ١٤٨٠م من السنة الميلادية .

واشـــتد ساعد إسماعيل فتوجه إلى (تبريز) عاصمة تركمان الأق قويونلو ، ودخلها في سنة ٩٠٧هـــ دخول المنتصرين ، وتصرف بعنف شديد تجاه خصومه ، فقطع أوصال الكثير من الرجال والنساء والأطفال ، وأرغم كل من بقي في المدينة علـــى قـــبول علامة الشيعة القزلباشية ، وقتل في هذه المذبحة أكثر من عشرين ألف شخص ، ثم أمر بإخراج جثث الكثيرين من رؤساء أعدائه من القبور وأحرقها [٣٢] وغير ذلك من ضروب الفظائع التي تقشعر لهولها الأبدان .

وأعلـــن إسماعـــيل نفـــسه في "تبريز" ملكاً على فارس ولقب نفسه بلقب (المظفر شاه إسماعيل الهادي الوالي؟) ، وأصدر عمله باسمه ، وأعلن المذهب الشيعي مذهباً رسمياً في جميع أنحاء فارس ، وعلى الرغم من نصيحة علماء الشيعة له بالتريث نظراً لأن ثلاثة أرباع سكان تبريز من السنة ، وقالوا له ربما قاوم هؤلاء ملكه ، إلا انه أجابهم بقوله : "لا يهمني هذا الأمر فالله وحضرات الأئمة المعصومين معي وأنا لا أخـــشى أحدا وبإذن الله تعالى لو قال أحد من الرعية حرفاً فسأسحب سيفي ولن أترك أحداً يعيش " ثم أمر المؤذنين أن يرددوا قول الشيعة في الأذان "أشهد أن علياً ولي الله ، وحي على خير العمل" [٣٣] .

وتمكـــن إسماعـــيل على هذا النحو من فرض المذهب الشيعي في فارس بحد الـــسيف واستسلم الناس له قهراً ما عدا البعض الذي قاوم فلقي حتفه على يده ، وفي خـــلال عشرة أعوام من تاريخ اعتلائه العرش استطاع أن يخضع كل فارس ، وفـــتح العـــراق ســـنة ٩١٠ هـــ ، وبدأ يفكر في جلب أتباع القزلباش من آسيا الـــصغرى مـــوطن العثمانيين ، وطلب من (بايزيد الثاني) العثماني السماح لمريدي

(٣٢، ٣٣) بديع جمعة وأحمد الخولي ، مرجع سبق ذكره ، ص٥٤-٥٥ .

الـــصفويين بزيارة أردبيل المقر الروحي لشيوخهم ، وكان بايزيد مسالماً محباً للأدب والفلسفة غير ميال للصدام بإسماعيل فأرسل إليه في سنة ٩١٠هـــ سفيراً هنأه بفتح العراق وفارس وعرض عليه إقامة علاقات ودية بين البلدين .

وكان من بين العوامل التي ساعدت على انتشار المذهب الشيعي في فارس ، فتـــرة الـــزحف المغولي على إيران ، حيث ساعد المغول الاتجاه الشيعي ومشى في ركابهم الشيعة ونصروهم على أهل السنة .

غـــير أن العلاقـــات بـــدأت تسوء بين العثمانيين والصفويين عندما حاول إسماعـــيل نـــشر مذهبه في الأناضول بعد أن دعم مركزه في العراق سنة ٩١٤هـــ بإدخـــال كـــربلاء والنجف كمدن مقدسة للشيعة في حوزته ، وبدأ يتطلع إلى نشر نفوذه في الشام والجزيرة العربية ويمد حبال المودة للمماليك نكاية في العثمانيين.

وعندما تولى (سليم الأول ابن بايزيد) الحكم في إسلامبول سنة ٩١٨هـــ عـــزم على تأديب الشاه ووضع حد لأطماعه لأنه اعتبر أن دعوته الشيعية المتعصبة خطـــر على أمن وسلامة دولته ، وخاصة أن أطماعه كانت تهدف إلى تحطيم النظم السنية الإسلامية المعاصرة له وساعده على هذا الاعتقاد ، السرعة الخارقة التي نجح بها في فارس والعراق .

وفي ســـنة ٩٢٠هـــ واجهت الدولة الصفوية عاصفة عثمانية كادت تقضي علـــيها لولا أن ساعدتها الأقدار ، وذلك أن سليم الأول زحف عليها في هذه السنة بجـــيش جرار دخل به تبريز عاصمة الصفويين ، وكاد يقضي على دولتهم لولا أن الأنكشارية تمردت وامتنعت عن التقدم لاشتداد البرد ، فقفل راجعاً إلى إسلامبول .

وعلـــى الرغم من هزيمة الصفويين إلا انهم عادوا إلى تجميع صفوفهم حول إسماعـــيل ولم يـــستطع العثمانيون القضاء عليهم كما فعلوا مع المماليك فيما بعد ،

ذلك لأن حركة الصفويين كانت بجانب أنها حركة شيعية ، فقد كانت حركة قومية لتجمـــيع شـــتات الفرس يشترك فيها الشعب الفارسي كله ، واستمر الصراع بين الـــصفويين والعثمانـــيين زمناً طويلاً ، وظلت الدولة الصفوية طوال القرن العاشر الهجري (١٦م) تواجه خطرين على جبهتين : العثمانيون في الغرب ، والأوزبك في أفغانستان من الشرق ، وكلاهما من السنة .

وفي غضون ذلك كان البرتغاليون قد وصلوا إلى البحار الشرقية كما سلف أن أشـــرنا ، وتوغلـــوا في الخليج العربي وقضوا على مملكة هرمز الإسلامية وكثر توغلهم في البحر الأحمر واستعدوا للالتحام الفاصل بالقوى الإسلامية .

الدولة الطاهرية والزيديون في اليمن :

في مطلـــع القـــرن العاشر الهجري (١٦م) كانت "اليمن" تتوزع بين قوى عديـــدة ، فمنطقة الشمال الجبلي كانت موزعة بين عدد من الأئمة الزيديين حول صعدة وصنعاء وذمار والأشراف في منطقة الجوف الشرقية .

وفي الجـــنوب كانت هناك سيادة سنية شافعية تركز نفوذها في مناطق عدن وحضرموت وزبيد ونتيجة لذلك وجد في اليمن نظامان :

١- نظام الإمامة الزيدية :

والـــذي بدأ ينمو في اليمن الشمالي منذ وصول الإمام الهادي الرسي إلى صـــعدة سنة ٢٨٠هـــ وهو يحيى بن الحسين من نسل علي بن أبي طالب ، وينسب المذهب الزيدي إلى زيد بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب . وقد وصل هذا المذهب إلى درجة كبيرة من القوة في الشمال ، غير أن الذي أضعفه هو ظهور أكثر مـــن إمام في زمن واحد مما أضعف قوته أمام القوى السنية في الجنوب والتي كانت تـــسيطر على النواحي السهلية في اليمن والثغور الهامة المتصلة بالتجارة الشرقية ،

الـــتي تـــدر كثيرا من الأرباح من التجارة العالمية ، وكان هذا سببا في ثراء الدولة وقوتها .

٢- نظام الملك السني في الجنوب :

وقـــد كانـــت تمثله الدولة الطاهرية التي بدأت في سنة ٨٥٨هـــ (١٤٥٤م) وتعتـــبر آخـــر الدول السنية التي تولت الحكم في اليمن ، وكان بنو طاهر في أول أمـــرهم عمـــالا للدولة الرسولية (٦٢٦-٨٥٦هـــ) في (عدن) و (لحج) فخرجوا عليها ، وأسسوا دولة لهم على انقاضها ، وقد حاول ملوك هذه الأسرة منذ البداية ، توحيد اليمن تحت سيطرتهم فلم يتمكنوا من ذلك لاصطدامهم بالأئمة الزيديين في الشمال ، وظلت البلاد مقسمة بين الطاهريين والزيديين حتى بداية العصر العثماني وقد اعتمد الطاهريون في صراعهم على قوة مواردهم الاقتصادية التي كانوا يجبونها من التجارة التي كانت تمر بموانئ اليمن الجنوبية وعلى الأخص ميناء عدن الذي كان يتحكم في مدخل البحر الأحمر .

وفي ســـنة ٨٩٤هـــ تولى آخر سلاطين آل طاهر وهو السلطان "عامر بن عـــبد الـــوهاب" فعمل على توسيع رقعة أملاكه فقد ورث حوالي ثلثي اليمن عند توليـــته الحكم ، أما الثلث الباقي فقد كان موزعاً بين عدد من الأئمة الزيديين ، و تمكـــن (عامر بن عبد الوهاب الطاهري) من احتلال صنعاء سنة ٩١٠هـــ وبينما كانـــت قوات عامر بن عبد الوهاب تواصل جهودها لتوحيد اليمن ظهر إمام قوي في(حجـــة) سنة ٩١٢ هـــ وبدأ في توحيد الكيانات الزيدية في الشمال ويزحف على الجنوب وهو الإمام "شرف الدين" يحي ابن شمس الدين .

وظـــل عامـــر طوال فترة حكمه يرسل الحملات إلى جهات اليمن المختلفة للقـــضاء علـــى مقاومة الزيديين وتدعيم سلطانه في المنطقة الشمالية وكاد ينجح في

القضاء على مقاومتهم لولا ما حدث من ظهور البرتغاليين في البحار الشرقية ، وأدى الحصار البحري الذي فرضه هؤلاء على السواحل العربية الجنوبية ومطاردهم للسفن اليمنية إلى ضعف إيرادات الدولة الطاهرية الضخمة التي كانت ترد إليها من التجارة الشرقية فلم يستطع عامر الوقوف أمام خصومه من ناحية ، ومن ناحية أخرى لم يستطع الدفاع عن المصالح التجارية اليمنية أمام الأطماع البرتغالية من ناحية أخرى .

وكان المفروض أن تتعاون مصر واليمن وهما الدولتان المتضررتان من أثر الزحف البرتغالي ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، فقد كان عامر ابن عبد الوهاب مشغولاً بحروبه الداخلية لتوحيد اليمن ، ومن ناحية أخرى فقد كان اليمن يفتقر إلى أسطول حربي قوي مزود بالأسلحة النارية .

وعلى الرغم من أوضاع عامر بن عبد الوهاب الداخلية وضعف قدرته الحربية إلا انه أمر بتجهيز حملة بحرية في سنة ٩١٢هـ (١٥٠٧م) لمحاربة البرتغاليين في الهند مكونة من (أربع عشرة سفينة) من سفن النقل العادية تحمل (ستمائة مقاتل يمني) بالإضافة إلى بعض العلماء والفقهاء وطلبة العلم الذين تطوعوا للجهاد ضد البرتغاليين ، وأبحرت هذه الحملة من ميناء عدن في ١١ من مارس سنة ١٥٠٧م (٢٧ من شوال سنة ٩١٢هـ) ولم تكن سوى فريسة سهلة للبرتغاليين نظراً لأن المصادر اليمنية قد صمتت حينئذ عن ذكر أنباء تلك الحملة التي كانت أضعف بكثير من القيام بمهمتها الصعبة (٣٤) .

(٣٤) لم يشر إلى هذه الحملة سوى ابن الديبع في كتابه "الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد" .

وترتب على فقدان هذه الحملة تماماً أن السلطان عامر لم يفكر في إرسال حملة أخرى إلى الهند بعد تجربته الأولى هذه ، كما انه عجز من ناحية أخرى عن حماية سواحله أمام هجوم البرتغاليين عليها .

الالتحام بالقوى الإسلامية :

كان من الطبيعي أن تتحد القوى الإسلامية سواء الشيعية أو السنية في مواجهة خطر مشترك أصبح يهدد كل المسلمين في عقر دارهم ولكن على العكس من ذلك فقد انفرد البرتغاليون بالمماليك وبدلاً من أن يتلقى المماليك المساعدة من أشقائهم في محنتهم امتدت إليهم أطماع العثمانيين ولاذ الصفويون لحماية أنفسهم بمهادنة البرتغاليين بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك في التعاون معهم وهو التحالف كما سنذكر ذلك فيما يلي :

وتفصيل ذلك أن الشرق الإسلامي تأثر بالوجود البرتغالي في البحار الشرقية ، ولكن هذا التأثير بدرجات متفاوتة ، فبصفة عامة تأثر المسلمون جميعاً لأن هذا الوجود نتجت عنه نتائج خطيرة أضرت بأوضاع الدعوة وعملية نشر الإسلام في تلك الأصقاع فأوروبا التي كانت تهدد العالم الإسلامي من الشمال أصبحت تحاصره من الشرق والجنوب مما قلب موازين القوى في العالم لصالح الأوربيون ، وبدأ المسلمون بعدها ينقلبون من الانتشار إلى الانكماش ، ومن خطة الهجوم ، إلى الدفاع عن أنفسهم أمام الزحف الأوروبي ، الذي كان البرتغاليون طليعته ، وفي أعقابهم أتى الأسبان والهولنديون والإنجليز وغيرهم .

وتأثرت سلطنة المماليك وسلطنة الطاهريين باليمن وممالك الهند تأثراً مباشراً في أوضاعها الاقتصادية بسبب احتكار البرتغاليين لتجارة الشرق وتحويلهم لها إلى رأس الرجاء الصالح وكان من البديهي أن تعمل هذه القوى التي تأثرت تأثيراً

مباشـــراً علـــى استرداد سيطرتها وطرد الغزاة الذين جاسوا خلال الديار وكانت (ممالـــك الهند) مفككة وضعيفة وان كانت أقواها هي مملكة "كجرات" في الشمال الغـــربي وكانـــت عاصـــمتها "أحمد أباد" وأهم موانيها "ديو" و "سوارت" فأرسل ســـلطانها إلى الغوري سلطان المماليك بمصر يستعين به ويطلب منه بعض الأسلحة والمدافـــع الحديـــثة ، كمـــا اســـتنجد حاكم "كاليكوت" وكان يدعى الزامورين **Zumorin** بالسلطات المصرية .

وكـــان من البديهي أن يستنجد سلاطين الهند بالغوري ، فقد كانت الدولة المصرية حينئذ من أقوى الممالك الإسلامية أن لم تكن أقواها على الإطلاق ، وكان لهـــا مصالح اقتصادية مباشرة في الهند والمحيط الهندي كما سلف أن شرحنا ، وكان لـــديها الأسلحة النارية الحديثة التي يمتلكها البرتغاليون وأهمها المدافع فقد حصلت علـــي بعـــضها من البندقية ، وكان لها مصانع لصناعة الذخيرة وسبك المدافع أي صبها.

ولبت مصر استغاثة المسلمين الهنود وعرب جنوب الجزيرة العربية ومسلمي شـــرق أفـــريقيا ، وتركزت خطتها تجاه البرتغاليين على تقوية وضعها العسكري في أقالـــيم البحـــر الأحمر وتحصين سواحله للدفاع عن الأماكن المقدسة الإسلامية في الحجاز ، وعلى الأخص ثغور جدة وسواكن وعدن .

وأعد الأشرف قانصوة الغوري حملة بحرية بقيادة الأمير حسين الكردي وتم تعين الكردي سنجقاً لجدة أي حاكما لها لمباشرة تعميرها وبناء سور حولها وتحصين ســـواحل البحـــر الأحمر وغادرت الحملة القاهرة في جمادى الآخرة سنة ٩١١هـــ (نوفمـــبر ١٥٠٥م) وقـــد تكونت هذه الحملة من المصريين والمغاربة المهاجرين إلى مـــصر مـــن وجه الاضطهاد والاستعمار الأسباني والبرتغالي في الأندلس والمغرب ،

وكـــان المغاربـــة يؤلفـــون معظـــم أفرادها لأنهم كانوا من البحارة (٣٥) ، وكان اشتراكهم في هذه الحملة بدافع الانتقام من الأوروبيين الذين أخرجوهم من ديارهم ودأبوا على تعقبهم في سواحل أفريقيا الشمالية والغربية .

ولسنا نعرف شيئاً عن تعداد جنود هذه الحملة وكان عدد سفن الحملة نحو ثلاث عشرة سفينة مجهزة بالمدافع طبقاً لما ذكرته المراجع العربية (٣٦) على انه انضم إلـــيها كـــثير مـــن السفن الهندية لمملكة كجرات ، واشترك أسطول السامري (أو الـــزامورين) حـــاكم كالـــيكوت فكان مجموع السفن المصرية والهندية مائة سفينة أكثـــرها فاعلية السفن المصرية لتسلحها بالمدفعية ، وكان يعاون القائد رجل مغربي أطلـــق عليه ابن إياس الخواجا "نور الدين علي المسلاتي المغربي" وكان يرأس جماعة المغاربـــة (٣٧) ويـــرأس السفن الهندية لمملكة كجرات القائد البحري (مالك إياس) حاكم ديو .

وتذكـــر بعض المراجع الأجنبية انه كان على متن السفن بعض المستشارين مـــن البندقـــية وألف وخمسمائة مسيحي (٣٨) ولم تذكر المراجع العربية ذلك لا من قريب أو من بعيد .

وعلـــى الـــرغم مـــن أن السبب الرئيسي في إعداد هذه الحملة هو الغزو البرتغالي كما ينص على ذلك ابن إياس وغيره من المؤرخين ، إلا أن صاحب كتاب "السلاح والعدة في تاريخ جدة" يذكر أن سبب الحملة الدفاع عن مدينة جدة أمام هجمـــات البدو من عربان بني إبراهيم وهم أشهر القبائل التي كانت تسكن يومئذ

---

(٣٥) انظر : ابن إياس ، مصدر سبق ذكره ، ج٤ ، ص٨٤-٨٥ .

(٣٦) سيد مصطفي سالم ، مرجع سبق ذكره ، ص٦١-٦٣ .

(٣٧) ابن إياس ، مرجع سبق ذكره ، ج٤ ، ص٨٥ .

(٣٨) **Angelo pesce , op. cit. , pp. ٧٥-٧٦ .**

بين ينبع ومكة ، وكانت السلطات المصرية توكل إليهم حراسة قافلة الحج المصرية في بعض مراحل الطريق وفيما بين سنة ٩٠٧هـ وسنة ٩١١هـ قام (أعراب بني إبراهيم) بكثير من أعمال السلب والنهب لحجاج بيت الله الحرام متضامنين مع أمير ينبع (يحي بن سبع) .

وفي كتاب (بدائع الزهور) ، لابن إياس تفصيل أكثر للأوضاع التي حدثت بالحجاز وعلي الأخص في مكة ، وسببها تنازع أبناء الشريف محمد بن بركات شريف مكة المتوفي ، وهم بركات وأخيه الجازاني علي منصب الشرافة بمكة بعد وفاة والدهم فيذكر ابن إياس أن الجازاني حارب أخاه بركات ولجأ إلي عربان بني إبراهيم أشهر القبائل التي كانت تسكن بين مكة وينبع وجدة وكانت السلطات المصرية توكل إليهم حراسة قافلو الحج المصرية ، فاستعان بهم الجازاني علي أخيه بركات متضامنين مع أمير ينبع، يحيى بن سبع ، وعاثوا في الأرض فسادا في كل من جدة ومكة .

ومع ذلك لا نجد ذكرا لهذه الخلافات في كتاب السلاح والعدة ، ويبدو أن سبب ذلك الرهبة والخوف من الأشراف لأن لهم سطوة في جدة ومكة فلم يذكرهم ابن فرج إلا بالتوقير والاحترام والدعاء لهم على خلاف ما ذكره ابن إياس المصري وعبد القادر الجزيري المصري صاحب كتاب " درر الفوائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المعظمة " فقد أفاض كل منهما في شرح الخلافات التي وقعت بين الشريف بركات وأخيه الجازاني علي منصب شريف مكة ، وتحالف الجازاني مع قبائل بني إبراهيم ، وأمير ينبع يحيى بن سبع ، وعاثوا في الحجاز فسادا .

فيذكر الجزيري مؤرخ قافلة الحج المصرية في كتابه : (درر الفوائد) :

" إن الـــشريف الجـــازاني اســـتولى على منصب الشرافة بالقوة من أخيه بـــركات وطـــرده من مكة وان بني إبراهيم تحكموا في أهل مكة بالسلب والنهب والفساد وان يحيى بن سبع هو رأس الأذى "

وابـــن إياس يشبه هذه الأحداث بالذي فعله القرامطة بمكة سنة ٣١٨ هـــ زمن الخليفة المقتدر بالله العباسي ، وبسبب ذلك صدرت الأوامر في مصر بعدم حج النساء في عام ٩٠٨ هـــ ويذكر ابن إياس ما يلي عن هذه الواقعة :

" وكانـــت واقعة الجازاني من أبشع الوقائع وانحسها ، وقد كادت مكة أن تخـــرب في هـــذه الـــواقعة عن آخرها ، وتقرب واقعة الجازاني من واقعة أبي طاهر القرمطي وما فعله في مكة من النهب وقتل الناس "

واشـــتد أمرهم في سنة ٩١١هـــ فأمر الغوري بإيقاف عملية الحج في هذه الـــسنة . وعلـــى الـــرغم من قرب صاحب كتاب السلاح والعدة من تلك الفترة التاريخـــية إلا انه يغفل الأسباب الرئيسية التي دفعت الغوري إلى إرسال هذه الحملة ويجعل سببها الرئيسي هو أعمال السلب والنهب والتخريب التي قام بها عربان بني إبراهيم ومن شايعهم .

وكانـــت مهمة حسين الكردي تحصين جدة أولاً لتكون على استعداد لصد أي عـــدوان مفاجـــئ تتعرض له ، وبدأ حسين الكردي يعد العدة لتحويل جدة إلى قاعدة للحرب ضد البرتغاليين ، وكان مع الحملة فريق من البنائين والنجارين وكثير من العمال لإقامة التحصينات اللازمة كما سنرى فيما يلي :

وعلـــى الـــرغم مـــن عـــدم إحاطة صاحب "السلاح والعدة" بالظروف والملابـــسات السياسية والعسكرية والاقتصادية التي أحاطت بحملة حسين الكردي إلا انـــه يعتـــبر أهم مصدر وصف لنا عملية تحصين جدة وبناء سور حولها على يد

المصريين في عهد قانصوه الغوري ، كما وصف سور جدة وصفاً دقيقاً لا نجده في مصدر سواه .

ونظراً لأهمية هذا الوصف ولأن هذا السور بناه المصريون ومعهم بعض الحجازيين كان من أهم العوامل التي دفعت عن "جدة" عادية البرتغاليين أكثر من مرة فسنتناول هذا الوصف بشيء من التفصيل فيما يلي :

يذكر الشيخ عبد القادر بن فرج [٣٩] انه بمجرد وصول حسين الكردي وجماعته إلى جدة (بعد فراغه من تأديب عربان بني إبراهيم بينبع وهو في طريقه إلى جدة) شرع في عمارة السور التي تمت في تسعة أشهر (تمت في ذي الحجة من سنة ٩١٢هـ) بما في ذلك الأبراج العالية ودار النيابة التي هي مقر قيادة نائب جدة ، وجامع الميناء ومصلى العيد ، ومما هو جدير بالذكر أن الشريف بركات شريف مكة ساعد في عملية بناء السور وملحقاته وساعد في نزع ملكية بعض البيوت التي كانت قريبة من السور ، كما حضر الشريف بركات بنفسه عملية البناء ، وكان في بعض الأيام يقف على العمارة راكباً فرسه "ليحضر لحضوره جميع من في البلد ويعينون بالحمل للمونة الكبير منهم والصغير والغني والفقير والمأمور والأمير "[٤٠] .

وبذلك يتضح لنا أن عملية تحصين جدة شارك فيها مع المصريين الشريف بركات شريف مكة وأهل جدة على كل المستويات ، ولعل هذا هو السبب في براعة العمارة وسرعتها في مدة وجيزة كما يشير إلى ذلك عبد القادر بن فرج .

---

(٣٩) عبد القادر بن فرج مؤلف كتاب "السلاح والعدة في تاريخ جدة" وكان خطيب جامع جدة ولد بجدة ونشأ بها وكانت وفاته في سنة ١٠١٠هـ وعاصر بداية الفتح العثماني ، وكتابه سالف الذكر مخطوط بمكتبة الحرم المكي رقم ٢٨ تاريخ دهلوي ، ومما هو جدير بالذكر أن لدي صورة من هذا المخطوط (Photo copy) وأنا معني بنشرها محققة إن شاء الله (المؤلف) .

(٤٠) انظر: عبد القادر بن فرج : السلاح والعدة في تاريخ جدة ، ص٢٠-٢٢ .

وكـــان ارتفاع السور من الأساس حتى أعلاه(١٢ذراعا) وطول محيطه من ناحـــية مكة واليمن والشام (٣٠٠٠ذراع) وحوالي ١٤ مترا وعرض جداره (٤ أذرع) أمـــا الأبـــراج فكانـــت ستة أبراج ،ومحيط كل برج منها ستة عشر ذراعا وارتفاعـــه من على وجه الأرض خمسة عشر ذراعا ، منها برج شامي تجاه الشمال وأخـــر يماني تجاه الجنوب وبرجان قبليان (تجاه مكة)ملاصقان لبا بين يسمى إحداهما بـــاب الفـــتوح وهـــو الأيمن والأخر يسمى باب النصر وهو الأيسر : أما البرجان البحريان فقد نزل يهما الغواصون في البحر اثني عشر ذراعا [٤١]وكان من تمام هذا العمـــل حفر خندق محيط بالمدينة من جميع نواحيها ،وبعد إتمام البناء وحفر الخندق زود المـــصريون المدينة بكثير من المدافع والعتاد الحربي ،وكان جمله ما صرف على عمـــارة الـــسور وملحقاته (الأبراج ودار النيابة وجامع جدة ومصلى العيد وحفر الخندق) مائة ألف دينار غوري (أي من الدنانير التي سكها قانصوه الغوري سلطان مصر) [٤٢] .

وتتضح لنا من عمليه بناء سور حول جدة الحقائق التأليه:

أولا: إن المـــصريين هم أول من وضع حجر الأساس في الاهتمام بثغر جدة وتقويته بعد إن أصبح مستهدفا من البرتغاليين من مطلع العصور الحديثة .

---

(٤١)نـــص ابن فرج على أن هذا الذراع هو ذراع العمل وانه ذراع ونصف بذراع النجار ، وبالرجوع إلى خطط على مـــبارك وهو أهم مصدر تعرض لتقدير الأطوال تبين لنا ان ذراع النجار التي أشار إليها ابن فرج تبلغ٥ر٧٧ سم فتكون ذراع العمل التي قدر بها ابن فرج أبعاد سور جدة هي :

٥ر٧٧×٥ر١= ٢٥ر١١٦سنتيمتر فيكون طول محيط السور هو ٥ر٣٤٨٧مترا .

(٤٢) عبد القادر بن فرج :مرجع سبق ذكره،ص ٢٢.

ثانـــيا : إن بـــناء السور كان قويا بأبراجه العالية وخندقه المحيط به وتسليحه الأمر الذي جعل من جدة صخرة تحطمت عليها أمال البرتغاليين في نهاية العصر المملوكي وبداية العصر العثماني .

ثالـــثا : إن الـــشريف بـــركات ومعه جمع غفير من أهل جدة على كل المستويات شاركوا في عملية بناء سور حول جدة مع المصريين في همة ونشاط .

رابعا: وهو الأهم إن عملية بناء سور حول جدة لحمايتها بعد تسعة قرون من تاريخ الإســـلام يعد رامزا لانقلاب المسلمين من سياسة الهجوم إلى سياسة الدفاع حتى في عقر دارهم التي تعنى بداية عصور الضعف.

وبعـــد أن أنجزت الحملة المصرية عملية تحصين جدة أضحى ميناء جدة هو خط الدفاع الأول عن مصر وعن الحرمين الشريفين، ثم توجهت حملة الكردي بعد ذلـــك إلى ســـواكن على ساحل السودان الحالي فأقامت فيها بعض الاستحكامات ضـــمن بـــرنامجها قبل أن تتجه إلى الهند وخرجت الحملة من سواكن ومرت بالموانئ اليمنـــية مـــثل جيزان وكمران والمخا ثم إلى عدن حيث استقرت فيها بعض الوقت ،وقـــد أوضـــح حسين الكردي لوإلى عدن من قبل الطاهرين إن غرض الحملة هو الـــتوجه إلى الهند لمحاربة البرتغاليين، كما طلب منه أن يمده بالطعام والمؤن فسمح له الوالي بان يأخذ من عدن ما شاء [٤٣] ثم توجهت الحملة بعد ذلك إلى مياه الهند .

الموقف في الهند:

في نفـــس الـــوقت كـــان البرتغاليون قد أنجزوا تقدما في الشواطئ الهندية وأحكموا قبضتهم على الممتلكات الهندية وقد عين ملك البرتغال أول حاكم برتغالي

(٤٣) عيـــسى بـــن لطـــف الله ، روح الروح فيما حدث بعد تمام المائة التاسعة من الفتن والفتوح،مخطوط بمعهد إحياء المخطوطات العربية ، القاهرة ، رقم ٤٠٦ تاريخ ج ص٥٨(صورة بالميكروفيلم).نقلا عن سيد مصطفى سالم .

في الهند هو (فرانسيسكو دالميدا **Francisco dalmida**) ومنذ سنة ١٥٠٥م فانه حول بعض الأماكن إلى قلاع في كوشين،وكنانور،ومتلون، هذا هو الوضع في الهند عندما ظهر حسين الكردي في نهاية سنة ١٥٠٧في المياه الهندية ،وفي نهاية يناير ١٥٠٨أرسـل فرانسيسكو دالميدا ابنه لورانسو **lourenco** من كنانور بثلاث سفن وخمسة قوارب لزيارة ميناء شيول **choul** [٤٤] حيث أراد الحاكم أن يعقد معاهدة تجارية مع حاكم تلك المدينة ، وكانت شيول تقع على نهر على بعد ٤٥كم جنوب بومباي ويوم بحري من(ديو) حيث الأسطول المملوكي كان راسيا بصورة مؤقتة وعندما وصلت أخبار وصول السفن البرتغالية إلى حسين الكردي ومالك بن إيـاس حـاكم ديو وسلطان كجرات قرر الاثنان مهاجمتها فورا [٤٥] ،وأبحروا بقوة كاملة للإيقاع بلورانسو في نهر شيول،وفاجأت القوات الإسلامية السفن البرتغالية وانتصرت عليها في معركة استمرت ثلاثة أيام [٤٦] .

وقد كان من الواضح أن البرتغاليين في وضع سيئ محاصرين في مدخل النهر مـع قلة عددهم ولم يكن هناك أي أمل في الهروب إلى البحر المفتوح ولكنهم قاتلوا بـشراسة حتى آخر رجل ، وقد تردد حسين الكردي في البداية في استعمال مدافعه على أمل أن يأسر بعض القوارب ، واختار أن يجعل الهجوم من سطح السفن وكان رد فعـل البرتغاليين عنيفا جدا ، وحدثت مذابح رهيبة بين الطرفين في اليوم الثاني والـثالث وانـتهت بقتل ابن دالميدا (لورانسو) والذي أصيب بواسطة سهم عندما

---

(٤٤) كان ميناء شيول يقع جنوب سلطنة كجرات ويتبع مملكة الدكن الإسلامية ،سيد مصطفي سالم ، مرجع سبق ذكره ،ص٦٢ .

(٤٥،٤٦) **Angelo pesce, op ,cit, pp .٧٦-٧٧**

اجتاحت السفن البرتغالية بعض القوارب الكجراتية بينما كان هذا الشاب مربوطا في سفينة بواسطة حتى يستطيع قيادة رجاله إلى النهاية.

وتمكنت سفينتان برتغاليتان من الفرار في أخر لحظات المعركة بينما كانت القوات الإسلامية المتحدة تتحرك بوضع اللمسات الأخيرة في المعركة ،فوصلت السفينتان إلى كنانور بعد أسبوع موصلة وناقلة لأخبار المأساة للقيادة البرتغالية التي صممت على الانتقام (٤٧) .

معركة ديو الفاصلة:

على الرغم من أن عوامل الغضب كانت واضحة بادية لدى البرتغاليين إلا انهم انتظروا وصول الأسطول البرتغالي الذي كان في طريقة إلى الهند ،وعندما علم الميدا أن المصريين انسحبوا إلى ديو بعد معركة شول قرر أن يهاجمهم في ذلك الميناء وقد أبحرت ١٩سفينة من كنانور في بداية عام ١٥٠٩م لبدء الحملة الثأرية .وبعد توقف قصير في"دي بول " بدأت المعركة في ديو في ٣من فبراير ١٥٠٩وقد الحق البرتغاليون هزيمة شديدة وأسرت معظم سفن التحالف الإسلامي أو أغرقت وذبح البحارة وأسروا ليعدموا بعد ذلك ،وقد تصرف الميدا بقسوة مع الأسرى فبعد وصوله إلى كنا نور وعلى مرأى من الناس أمر بشنق كل الأسرى وربط بعضهم من أفواههم إلى فوهات المدافع الكبيرة وأطلق عليهم النار حتى تناثرت شظايا أجسامهم ،وهذا أعتبره تحية للمدينة ويعلق انجلوبيس على هذه الأعمال الوحشية فيقول :"ان مثل هذا العمل البشع هو ما جعل نهايتهم في أبشع صورة من قبل أبشع ناس في العالم " وجرح حسين الكردي ولكنة نجح في الوصول إلى الشاطئ وجمع رجالة القلائل بمساعدة الكجراتية وتوجهه بهم إلى جدة .

---

(٤٧) Ibid : p.٧٧ .

وتعــد معــركة ديو من المعارك الحاسمة الفاصلة في التاريخ ،فقد حسمت الموقــف لــصالح البرتغاليين بصفة خاصة وللأوربيين بصفة عامة في البحار الشرقية وفــصلت بين عهدين عهد لسيطرة عسكرية على التجارة الشرقية وعهد أتى بعد هــذا ســيطر فــيه الغرب سيطرة عسكرية على البحارة الشرقية وبدأ بذلك عهد الاستعمار والاستنزاف لثروات الشرق بأبشع صوره وتضاءلت بعدها إلى حد كبير الأهمــية التجارية للخليج العربي والبحر الأحمر تلك الأهمية التي ظلت المنطقة تتمتع بهــا طــوال العصور الوسطي ،وانتقل مركز الثقل إلى طريق رأس الرجاء الصالح وســاحل أفريقيا الغربي الذي غدا يزخر بخطوط ملاحية نشطة لأول مرة في التاريخ للــتجارة بين الشرق والغرب حتى فتح قناة السويس سنه ١٢٨٦هــ (١٨٦٩م) للملاحة الدولية وعودة النشاط التجاري إلى البحر الأحمر وموانيه من جديد في ظل الــسيطرة الأوربية أيضا ولم يكن للعرب ولا للمسلمين في هذا الوقت سيطرة حتى ولا على أوطانهم

وبعــد هذه الهزيمة التي منى بها المسلمون في الهند تمكن البرتغاليون من تقوية أوضــاعهم في الهند وصدرت الأوامر من ملك البرتغال بتنحية الميدا من الولاية في الهــند وتعيين البوكيرك **Albuquerque**وكان أحد قواد البرتغالية في الهند وقد كــان بين هذين الرجلين اختلاف في الرأي حول كيفية تقرير السيطرة البرتغالية في الشرق فقد كان البوكيرك من المؤيدين للتوسع الإقليمي وكان الميدا يريد الاحتفاظ ببعض المراكز البحرية والتجارية وتقوية القوات البحرية ووصل التنازل بين الرجلين لدرجة جعلت الميدا يقبض على منافسة وبضعة في السجن في سبيل المصلحة القومية [٤٨] ،وفي نوفمــبر ١٥٠٩وصلت تعليمات مع الأسطول البرتغالي بتعيين البوكيرك

---

[٤٨] **Angelo pesce,op>cit>,p.٧٨**

كقائد عام وعودة الميدا إلى لشبونة وقد استجاب الميدا على الفور وعاد إلى وطنه ، ويعتبر البوكيرك أول مؤسس للاستعمار الأوربي في الشرق فقد عمل بعد ذلك على احـــتلال مراكـــز البحـــرية إلهامه وإقامة الحصون القوية في جميع الجهات في المحيط الهندي حتى يحكم سيطرة البرتغاليين على مصادر التجارة (٤٩) .

فقـــد سيطر على مدينة (جوا) على ساحل الملبار غربي الهند وكانت مركزا لمملكـــة إسلامية مستقلة عن المغول وكانت منذ زمن هي الطريق لتصدير الحصان العـــربي إلى الهـــند وأحد المراكز لبناء السفن في شاطئ الملبار أضف إلى ذلك فانه لكـــونها تقع في جزيرة كانت معرضة لخطط البوكيرك ، فقام بالهجوم الأول الناجح علـــيها سنة ١٥١٠م ولكنة أخرج منها بعد وقت قصير ، ولكنه بعد فترة قصيرة عاد واستولى عليها بعد معركة حامية وحولها إلى مستوطنة برتغالية قوية .

وقـــبل ذلـــك نجد البوكيرك قد أسس عدة قلاع على الشاطئ ففي سنه ١٥٠٨م اســـتولى علـــى (سوقطرة (٥٠)) وبنى قلعة بها وجعل منها قاعدة للهجوم علـــى البحـــر الأحمـــر والهجـــوم على السفن المحملة بالبهارات المتوجهة إلى جدة

---

(٤٩) السيد مصطفي سالم ،مرجع سبق ذكره ، ص٦٤ .

(٥٠) ســـوقطرة. كما يكتبها أهلها ، وكما يكتبها أبو الفدا في تقويم البلدان ،أو سقطري كما يكتبها الهمذانى صاحب كتاب ((صفة جزيرة العرب وياقوت الحموي صاحب معجم البلدان)) هي جزيرة عربية تقع في مدخل خليج عدن على مقـــربة من القرن الأفريقي كانت محطة هامة للتجارة بين الشرق والغرب لدى العرب والهنود وقدماء المصريين وكمصدر هام للبخور والعطور ،وعرفها اليونان والرومان ،واحتلها البرتغاليون لفترة ،ثم احتلها الإنجليز بعد ذلك وجعلوها مركزا هامـــا لهم/لتموين السفن ،وهى اليوم تابعة لجمهورية اليمن الجنوبية ،ولأنها ذات مركز استراتيجي توجهت إليها أطماع الروس الذين كانوا يقيمون علاقات قوية مع اليمن الجنوبي ،وقد زال هذا النفوذ الآن ، وتعتبر الآن من القواعد البحرية الهامـــة للأمـــريكان في خليج عدن والبحر العربي .انظر :مادة سوقطرة في تقويم البلدان لأبي الفدا والهمذانى في ((صفة جزيرة العرب)) وياقوت الحموي في (معجم البلدان) .

والــسويس ولكــن لــندرة المياه بها ولخطورة مراسيها لطبيعتها الصخرية أجبرت البرتغال على تركها في السنوات الأولى .

وفي ســنة ١٥١٠م احــتل البوكيرك (مضيق هرمز) مركزا هاما لتجارة الخلــيج العربي (الفارس يومئذ)وكانت ذات أسطول بحري تجاري كبير وهى ميناء شــبيه بجــدة في البحر الأحمر حيث كان هو الموصل للبضائع المتوجهة إلى البصرة والقادمة من الهند حتى غدا اسمه مقترنا بالثروة الشرقية .

ووجه اليوكيرك همه واهتمامه للسيطرة على بوابة جنوب شرق أسيا الهامة وهــى (ملقــا) الميناء الذي يقع على شاطئ شبه جزيرة الملايو في أضيق مكان بينها وبين جزيرة سومطرة الإندونيسية . وتتحكم في الخليج الذي سمي باسمها ويوصل إلى بحر الصين وجزر الفيليبين واليابان والشرق الأقصى بصفة عامة وفي سنة ١٥١٣م وصلت أول سفينة برتغالية إلى ميناء كانتون الصيني (٥١) .

محاولة التحالف مع الأحباش :

حاول البرتغاليون التحالف مع الحبشة لتكوين جبهة صليبية في الشرق ضد المسلمين.

وكانت الحبشة في صراع مستمر مع مسلمي دول الطراز الإسلامي المجاورين لها في شرق أفريقيا وصمد المسلمون أمام محاولات الجيش للسيطرة عليهم ،ومن ناحية أخــرى كان البرتغاليون تواقون للاتصال بالأحباش ،كما سبق أن ذكرنا ،وعندما وصــل فاســكو ديجاما إلى الساحل الشرقي لأفريقيا في رحلته الأولى لم يجد سوى الممالــيك الإسلامية على الساحل لذلك عامل سكان هذه المناطق بقسوة ووحشية وظل البرتغاليون في محاولاتهم المضنية للتحالف مع الحبشة . وفي سنة ٩١٨هــ

(٥١) Angelo pesce op. cit., p. ٧٨-٧٩

(١٥١٢م) تــولى عــرش الحبــشة الملك الطفل لبنادنجل **Lebna Dengel** وكانت الوصية علية أمه الملكة هيلن **Eleni** التي سعت في عقد تحالف صليبي مع البرتغال ،وقد اتصل الأحباش في عهدها بالبرتغاليين وطلبوا معونتهم في صراعهم مع جيرانهم المسلمين ووصلتهم بعض هذه المعونات التي دعمته مركزهم إلى حين ولكن عندما ظهر العثمانيون في سماء البحر الأحمر وعملوا على إغلاقه فيما بعد كانوا من العوامل الرئيسية في عدم نجاح هذا التحالف وتقوية الكيانات الإسلامية في ساحل أرتــريا والقرن الأفريقي في وقت تركز نشاط البرتغاليين في عملية إغلاق البوبات الرئيسية في البحار الشرقية والسيطرة عليها وعلى التجارة الشرقية .

وكــان للبرتغاليين خطط خطيرة في السيطرة على البحر الأحمر والوصول إلى مكة أفصح عنها البوكيرك في رسائله للملك عما نويل ملك البرتغال والتي قال في إحداها : "إن عدن يجب أن تحتل ويوضح قلاع وهى ميناء أمن لحماية سفننا في الــشتاء وأخر أخبارها أن حائطا عاليا بنى عليها بمعاونة حاكم ديو وهو يظن أني لا أدرى بمــا يجرى .وحيث أن المضيق لا يصلح لعدم غزارة المياه فان عدن هي المكان الوحيد الملائم ومفتاح المضيق ".

وقد تطرق في رسالته إلى بلاد العرب ،ولذا فان كلمة رومان يقصد بها العرب في بعــض أدب البرتغاليين في هذه الفترة ،وأشار أيضا في رسالته إلى أن "شيخ عدن بنى قلعة هناك ولكن هذا لن يفيده لأن لدينا قلعة بالقرب من جدة تسمى "فرسان " وهى التي تواجه ميناء جيزان فهي بالإضافة إلى أنها ممون جيد للمياه فهي مرفؤ طيب لــسفننا ،أما (بربره) و (زيلع) فسنفرض جزية عليهم ونخضعهم .ولدينا جزر دهلك حــيث تــوجد أيضا مياه ،وخطواتنا الأولى هي أن (مصوع) هي المركز التجاري الرئيسي في مقاطعة"البرسترجون" أي مملكة الحبشة ،كما أعلمكم انه عند إنجاز هذه

الأشياء نستطيع بعدها أن نوجه نظرنا إلى مكة والسويس وحيث أن هناك كثير من الخـيل في مقاطعـات البرسترجون فإنه يكون من السهل تجهيز ٥٠٠فارس برتغالي بمعـداهم للـترول في جـدة ومن هناك ينتقلون إلى مكة وهى رحلة يوم ليجعلوها رمادا. [٥٢]

وفي رسالة أخرى يقول((إن رغبتي هي أن أذهب إلى مصوع ميناء البرسترجون لأسـتولي على دهلك حتى أرى ما أستطيع أن أفعله في جدة ، إن الرحلة إلى البحر الأحمـر ذات قيمة قصوى نتيجة لوجود تجارة البهارات والتي تأتى كل سنة إلى هذه المـناطق من الهند ،وحيث إنني أرغب في تصفية الرومان (يقصد العرب) وبعد أن أكـون علاقـات مع البرسترجون ،فإني سأدمر مكة لهذه الأسباب فأنا مصمم على الـذهاب إلى البحر الأحمر أولا وتحطيم قوى السلطان (يقصد سلطان المماليك) في تلك المياه)) [٥٣] .

نتائج الغزو البرتغالي:

لا شـك أن الـزحف البرتغالي على شرق العالم الإسلامي والسيطرة البرتغالية علـى الـبحار الشرقية جاءت فزلزلت العالم الإسلامي زلزالا شديدا في كثير من النواحـي السياسية والاقتصادية والدينية وبدأت التغيرات الخطيرة تظهر على العالم الإسـلامي ،وكـان من أهمها كما سنرى بعد قليل اختفاء دولة المماليك وزحف الدولـة العثمانـية على الشرق العربي لملء الفراغ العسكري الذي أحدثته هزيمة المماليك أمام القوى الأوربية الزاحفة على الشرق الإسلامي .

---

[٥٢] Ibid:P.٧٩.
[٥٣] Ibid:P.٧٩.

وجديـــر بالذكر أن البرتغاليين انتهكوا مبدأ حرية الملاحة في البحار الشرقية وهو مبدأ كان معمولا به قبل وصولهم وكانوا يعترفون به في أوربا،ولكن هذا الحق كان لا يتجاوز في نظرهم قارة أوربا،وساد بعد ذلك مبدأ((إن القانون الدولي الذي يـــضعه الأوربـــيون لا يطبق خارج أوربا ،وما يعد همجية في لندن أو باريس يكون ســـلوكا متمدينا في أفريقيا وأسيا ،كما يلاحظ انهم استعملوا القرصنة البحرية على نطـــاق واسع في البحار الشرقية التي كانت خالية تماما قبل مجيئهم من هذه الأعمال الشريرة .

فقـــد شرع فاسكو ديجاما في تطبيق ادعاء السيطرة على البحار وكان يقطع الطـــريق دون أي تحذيـــر علـــى أيـــة سفينة يلتقي بها في طريقة ودمرها تدميرا ، وروى(بانـــيكار)في كتابة أسيا والسيطرة الغربية حادثة مروعة لسفينة عربية عائدة من مكة وهي غير مسلحة فيذكر إن فاسكو ديجاما ألقى القبض عليها واستولى على ما بها من بضائع ، ومنع إخراج أي عربي منها ، وأصدر أوامره بإشعال النيران فيها (٥٤) .

وقـــد أدى تحول التجارة الشرقية إلى طريق رأس الرجاء الصالح إلى انهيار اقتـــصاديات بلـــدان الشرق الإسلامي بصفة عامة والشرق الأوسط بصفة خاصة والـــتي كانـــت تعـــتمد إلى حـــد كبير على موارد التجارة الشرقية ،وقد عرض البرتغاليون تجارتهم الشرقية في أسواق لشبونة بأسعار أقل من أسواق البندقية وذلك لكـــي يجذبـــوا إليهم العملاء من أوربا ،ونجحوا في ذلك نجاحا ساحقا وعادت تلك الأوضـــاع بالكـــساد على الثغور اليمنية والحجازية والمصرية والشامية وفي الخليج

---

(٥٤) انظر:بانيكار،مرجع سبق ذكره ،ص٤١، ٤٠

العـــربي ،وقلـــت موارد تلك البلاد ودخلت دورا جديدا من أدوار تاريخها اتسم بالضعف والانهيار .

وتمكـــن البرتغاليون من السيطرة على منافذ البحار كما سبق أن أشرنا ولم يستطيع المماليك ولا العثمانيون زحزحتهم عن هذه السيطرة وأصبحت لهم مراكز اســـتعمارية مسلحة يمكن عن طريقها التحكم في مداخل البحار والخلجان والجزر والـــثغور ذات المكانـــة الاســـتراتيجية في العالم الإسلامي وذلك في كل من أنجولا وموزمبيق ومدغشقر وسفالة وجوا وملقا وسومطرة ومسقط وهرمز وديو وبومباي وغيرها من المراكز ودامت لهم السيطرة في شرق العالم الإسلامي نحو قرن من الزمان زاحمهـــم علـــيها بعـــد ذلك كل من الهولنديين والإنجليز و الفرنسيين وغيرهم من الأوربيين .

ولعل من الأشياء الخطيرة التي قام بها البرتغاليون لمحاصرة الإسلام في أفريقيا انهم استعمروا أنجولا في غرب أفريقيا وكانت تسمى أحيانا بأفريقيا الغربية البرتغالية واســـتعمروا في مقابلـــها شرقا موزمبيق وكانت تسمى بأفريقيا الشرقية البرتغالية وحـــاول الـــبرتغاليون أن يصلوا بين المستعمرتين بحجاب حاجز لمحاصرة الإسلام في الـــشمال لمـــنع انتـــشاره في جنوب القارة الإفريقية بحزام مسيحي مانع،ولعل هذه الـــسياسة التي حاول البرتغاليون تنفيذها في أفريقيا مشى عليها فيما بعد الأسبان في الفيلـــبين وحاول تطبيقها أيضا الإنجليز فيما بعد فكانوا يعزلون المناطق الوثنية عن المناطق التي انتشر فيها الإسلام للحيلولة بينها وبين انتشار الإسلام بها.

ومن النتائج الخطيرة على مستقبل العالم الإسلامي إن هذه الغارة على العالم الإســـلامي أضافت مجالا حيويا جديدا للغرب المسيحي فإذا عرفنا انه في نفس فترة التوســـع الغـــربي في شرقي العالم الإسلامي ثم التوسع الغربي في الأمريكتين (الدنيا

الجديدة) وما حولهما من جزر أدركنا إن أسهما جديدا أضيفت إلى الغرب المسيحي في العـالم وانتـشرت النصرانية في تلك الأصقاع والأفاق مما نتج عنه تفوق الغرب المسيحي في العدد والقوة وتراجع المسلمون بعدها عددا وقوة بعد أن كان لهم تفوق في هذا المجال طوال العصور الوسطي.

ولقد حاول المماليك بعد هزيمتهم في ديو إعداد قوة بحرية لمواجهة الزحف البـرتغالي علـى شرقي العالم الإسلامي واستعانوا في سبيل ذلك بالعثمانيين الذين أمـدوهم بـبعض المعونات العسكرية في البداية في سنة ٩١٦هـ (ولكنهم عادوا فغيروا هذه السياسة عندما تولى السلطان سليم الحكم في سنه ٩١٨هـ وخططوا للاستيلاء على منطقة الشرق الأوسط) وبعد أن أتم المصريون استعدادهم البحري في الـسويس وجدة خرجت حملة بحرية لهم من ستة آلاف جندي في عشرين سفينة مـتجهة إلى الهـند بقيادة حسين الكردي في سنة ٩٢١هـ ولكن مما يؤسف له أن الحملـة المـصرية اشـتبكت مـع أمراء اليمن عندما رفض اليمنيون إقامة بعض التحصينات في السواحل اليمنية لمنع البرتغاليين من احتلالها وتطور الصراع بدرجة جعلت الحملة تغرق في مشاكل اليمن قبل أن تذهب إلى سواحل الهند وانتهى الأمر بدخـول المماليك صنعاء وقتلهم للسلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهري واحتلت القوات المصرية صنعاء.

وبذلك تطور الوضع في العالم الإسلامي تطورا خطيرا ،فبدلا من أن يكون بـأس المـسلمين علـى عدوهم أصبح بأسهم بينهم شديدا ولم يتحدوا على حرب عدوهم وظلوا مختلفين إلى يومنا هذا ،واستغل الاستعمار الأوربي نقطة الضعف هذه وغزاها بنصرة فريق على فريق ،وبذلك وجدنا حكام عدن بعد ذلك يتحالفون مع البرتغاليون ويقدمون لهم الولاء والطاعة .

ففـــي سنة ٩٢٣هـــ قدم أمير عدن (مرجان الطاهري) للبرتغاليين المؤن اللازمة لحملة لوبوسوريز على البحر الأحمر وأمدهم ببعض المرشدين من بحارة اليمن لإرشـــادهم داخل البحر الأحمر للوصول إلى جدة بعيدا عن مخاطر الشعب المرجانية الـــتي أعاقت تقدمهم من قبل وذكرت بعض المراجع الأوربية أن مرجان قدم إليهم مفاتيح عدن للتعبير عن خضوعه.

وعلـــى الـــرغم مـــن ذلك فقد عمل البرتغاليون على إخضاع عدن لسيطرقم خـــوفا مـــن وقوعها في يد العثمانيين ونجحوا في إجبار الطاهريين على عقد معاهدة معهـــم ســـنة ٩٣٠هـــ بمقتضاها تدفع عدن ضريبة سنوية لهم وتفتح ميناءها أمام ســـفنهم وفي ســـنة ٩٣١هـــ فرضوا عليها معاهدة جديدة أشد إذلالا بعد ضربها بالمدافـــع وفي سنة ٩٣٦هـــ اعترفت عدن لهم بالسيادة ودفعت لهم ضريبة وحرم الـــبرتغاليون على العدنيين توجه سفنهم إلى جدة وتركوا حامية لهم في عدن لضمان تنفـــيذ تلك الشروط ،وقد تعرض حاكم عدن لهجوم العلماء عليه لموقفة الخياني مما أثـــار علـــية حفـــيظة الأهالي وغضبهم مما دفعه للتخلص فيما بعد من هذه المعاهدة ومراسلته السلطان العثماني سليمان المشرع يطلب منه الدخول في طاعته لعله يكفر عـــن موقفه المخزي ، ومما لا شك فيه أن سياسة فرق تسد التي استغلها الاستعمار الأوربي يستعملها ويستغلها بمهارة فائقة في العالم الإسلامي إلى يومنا هذا .

وفي غضون ذلك تنبه العثمانيون لضعف المماليك الذين وقع على كاهلهم الدفاع عن البحر الأحمر ضد الهجمات البرتغالية الشرسة في الوقت الذي زادت فيه هجمـــات فرسان القديس يوحنا من رودس على موانئ مصر والشام وإذا عرفنا أن الـــبابا كـــان من وراء فرسان القديس يوحنا وأعماهم ويمدهم من أوربا بكل عون أمكـــن لـــنا تفسير شدة هذه الأعمال في هذا الوقت بالذات لأشغال المماليك عن

جـــبهة الهـــند والبحر الأحمر لكي يتمكن منها البرتغاليون الذين بارك أعمالهم البابا أيـــضا وشجعها وعمل لها دعاية في كل أنحاء أوربا للقضاء على الإسلام والمسلمين وعلينا أن نلاحظ هذا التنسيق المحكم بين البابا وفرسان القديس يوحنا والبرتغال في الهجوم على العالم الإسلامي في وقت فقد المسلمون أي نوع من هذا التنسيق .

وبـــدلا مـــن أن يتقدم العثمانيون لمساعدة المماليك على أيام سليم الأول العـــثماني (٩١٨_٩٢٦هـــ)ويكونوا يدا واحدة على عدوهم إذا بهم يفكرون في شيء أخر لمصلحتهم هم لا لمصلحة الإسلام وهو أن يتدخلوا في المنطقة لملء الفراغ العـــسكري بعد أن ضعف المماليك وأعدوا أنفسهم لهذا فعلا ،وساعدهم على ذلك تدهـــور الأوضاع الاقتصادية في مصر والشام ومنطقة البحر الأحمر بعد أن كسدت الـــتجارة وجفت مواردها وتخربت موانئ الشام ومصر والحجاز واليمن وهرمز وفي صفحات ابن إياس المؤرخ المصري المعاصر إشارات كثيرة إلى هذه الأوضاع السيئة الـــتي نجمـــت عن استيلاء البرتغاليين على التجارة الشرقية وأعمالهم التخريبية ضد الـــسفن والثغور الإسلامية (٥٥) وانعكست تلك الأوضاع الاقتصادية السيئة على الوضـــع العسكري فلم يتمكن المماليك من الإعداد اللازم للجيوش وأصبح ظاهرا للعـــيان مدى ضعفهم العسكري ومن ثم قام سباق رهيب بين البرتغاليين والعثمانيين لمليء هذا الفراغ وحاولت كل من الدولتين أن ترث الدولة المملوكية المتهالكة لأنها ضعفت عن مجابهة الأخطار المحيطة بها .

الغزو العثماني لمصر:

في أثـــناء سير سليم لمحاربة الصفويين ، حصن علاء الدولة التابع للمماليك مديـــنة "مـــرعش" وكـــان يحكم إمارة "ذي القدرية" ورفض تقديم الأغذية والمؤن

(٥٥) انظر : ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج٤ حوادث المحرم وذي الحجة من سنة ٩٢٠هـــ.

اللازمـــة للجيش العثماني فعطل ذلك تقدمه بعض الوقت ، وعندما رجع سليم بعد انتـــصاره على الصفويين في واقعة (جالديران) هاجمت القوات العثمانية إمارة (ذي القدرية) وقتلت حاكمها علاء الدولة .

أدرك السلطان قانصوه الغوري خطورة الموقف فزحف بجيشه إلى الشام في سنة ٩٢٢هـــ (١٥١٦م) وفي نفس الوقت غادر سليم اسطنبول على رأس جيش كبير قوامه ١٥٠ ألف جندي ، وواجه قوات الغوري .

وقبل صدام القوتين جرت محاولات لإيجاد مخرج بالطرق السلمية عن طريق المفاوضات ، إلا انه لم يتمكن الطرفان من الوصول إلى حل سلمي ، وأهان كل من ســـليم والغـــوري رسل الآخر ، وأصبحت الحرب لا محالة واقعة واشتبك الجيشان عـــند (مـــرج دابـــق) بالقرب من مدينة حلب في أغسطس سنة ١٥١٦م ، وقاتل الغوري وسط جيش مفكك من قوات أمراء المماليك ، وعلى الرغم من أن فرسان المماليـــك الـــشجعان استطاعوا أن يحرزوا نصراً سريعاً في أول المعركة إلا أن ذلك النصر لم يدم وذلك لأنسحاب (خاير بك) نائب حلب و (جان بردى الغزالي) نائب حماة من ميمنة وميسرة جيش الغوري ، وبذلك دارت الدائرة على جيش المماليك ، وأوقعـــت المدفعية التركية به خسائر فادحة فاضطرب نظام الجيش وسقط الغوري عـــن ظهـــر جـــواده وقـــتل في المعركة ولم يعثر له على أثر ، وترجع هزيمة الجيش المملوكـــي إلى أن قـــواته كانت مبعثرة في جبهة البحر الأحمر للدفاع عن الحرمين الشريفين ، وإن فرق الجيش المملوكي كانت غير مخلصة للسلطان الغوري على نحو ما سبق ، ومن ثم خسر المماليك المعركة أمام العثمانيين .

وتعتبر موقعة (مرج دابق) من المواقع الحاسمة في التاريخ لما ترتب عليها من النـــتائج الخطيرة ، فقد قررت مصير دولة المماليك وحلت محلها الدولة العثمانية في

زعامة العالم الإسلامي ، وكان لسهولة النصر الذي أحرزه العثمانيون على المماليك في أول ضـــربه أثــــره في جعل السلطان سليم يسارع إلى الزحف متوغلا في الشام متعقـــباً فلول المماليك ، وأرسل سليم إلى طومان باي الذي خلف الغوري في حكم مـــصر كتاباً شديد اللهجة يهدده فيه ويطلب إليه الاعتراف بالسيادة العثمانية وإلى أن يـــسك العملة باسم سليم وان يكون نائبه في حكم مصر حتى مدينة غزة فرفض طومان باي .

وكـــان من الصعب على دولة كبيرة كدولة المماليك أن تسلم بسهولة إلى غـــزاتها وتنسى ماضيها المجيد ، وصمم طومان باي على الدفاع عن مصر إلى آخر قطـــرة من دمائه ، وبذل وسعه في سبيل تنظيم قواته للدفاع عن مصر ، واشترى بعـــض البـــنادق والمدافع الحديثة من أهل البندقية وحاول أن يقيم خط للدفاع عن مصر عند الصالحية لكي يعطل الجيش العثماني الزاحف .

وتقدم العثمانيون من دمشق متبعين الطريق التاريخي الذي سلكه الغزاة من قـــبل عند اجتياحهم مصر ، فاستولوا على (يافا) وأسقطوا (غزة) بعد كسر مقاومة المماليك وتقدموا إلى (العريش) ، وعرف سليم بخطر تجمع بعض قوات طومان باي عـــند الصالحية فتجنب الصالحية وانحرف جنوباً واخترق صحراء سيناء في ١٣ يوماً ودخـــل مـــن شرق الدلتا ، ثم وصل إلى (بلبيس) ، ولو أن طومان باي استطاع أن يـــواجه العثمانـــيون وهم منهكون بعد عبور الصحراء مباشرة لكان من المحتمل أن يصدهم عن مصر ولكنه فوجئ بوصولهم إلى (الريدانية) وهي صحراء العباسية تقع بـــين المطـــرية والجـــبل الأحمر في يناير ١٥١٧م ، والتحم الجيشان وأحرز فرسان المماليـــك نـــصراً أولياً ولكن هجمات الأنكشارية العنيفة وفتك المدفعية العثمانية قضت على مقاومة المماليك ودخل العثمانيون القاهرة .

وموقعة (الريدانية) تعتبر مكملة لموقعة (مرج دابق) فقد قررت مصير دولة المماليك ، ولم ييئس طومان باي وبذل جهده للدفاع عن مصر في أحرج أوقات الهزيمة والفوضى وحاول استرداد القاهرة ، وحدث قتال عنيف في شوارع العاصمة ، وظفر طومان باي ببعض انتصارات محلية مؤقتة قائمة على المباغتة والشجاعة الشخصية دون جدوى ، فلقد تمكن العثمانيون من السيطرة على الموقف وعملوا على مقاومة المماليك ، وعندئذ حاول السلطان سليم وقف القتال وعرض على طومان باي حكم الصعيد تحت السيادة العثمانية ، ورفض طومان باي الصلح ، وكان لا يزال يحدوه الأمل في إنقاذ بلاده في آخر لحظة ، وصمم على القتال مهما تكن النتائج .

وعلى ذلك استمر الصدام فترة من الزمن ، وحاول طومان باي أن يمنع العثمانيين من عبور النيل إلى الجيزة وأخيراً تمكنت القوات العثمانية من العبور ، واستمر القتال عنيفاً ولكنه انتهى بهزيمة المماليك والتجأ طومان باي إلى الصحراء لتجميع الأنصار في مديرية البحيرة فخانه أحد زعماء العربان وسلمه إلى العثمانيين عندما أيقن بزوال سلطان المماليك .

وفكر السلطان سليم في الاستعانة بطومان باي في حكم مصر فحدثه طويلاً في شئون مصر وإدارتها وفكر في أن يحمله معه إلى إسلامبول ، ولكن خايربك وجان بردى الغزالي دفعاه إلى قتله فشنقه على باب زويلة في أبريل سنة ١٥١٩م /٩٢٣هـ .

إقامة السلطان سليم بمصر وأعماله بها :

بقي سليم في مصر بعض الوقت لكي يدرس أحوالها بنفسه واتخذ مركز إقامته في جزيرة الروضة ، وأخذ يتنقل بين أماكن مختلفة ، فزار معالم القاهرة وزار

أهـــرام الجيزة وخرج من القاهرة إلى رشيد والإسكندرية حيث استعرض جزءاً من الأسطول العثماني ورجع إلى القاهرة بطريق النيل ، وحاول جمع بعض المعلومات عن أحوال مصر الزراعية والإدارية وأمر بإجراء إحصاء أملاك المماليك وأملاك من قتل مـــنهم أثـــناء الحرب وأمر بإحصاء الأوقاف ، وأخذ يعمل على التخلص من كبار أمـــراء المماليـــك الذين اشتركوا في عمليات المقاومة الشرسة بزعامة طومان باي وتخلص منهم واحداً بعد الآخر .

وعندما عزم سليم على العودة إلى بلاده وضع مقاليد الأمور في مصر في يد المملـــوك الخـــائن خايربك فعينه والياً على مصر من طرفه ، فأطلق المصريون عليه (خاين بك) رمزاً لخيانته ، وترك بمصر حامية عسكرية تقيم بالقاهرة لمعاونة الوالي ، وظل خاير بك في منصبه نحو خمسة أعوام ، وبعد وفاته دأب العثمانيون على إرسال الوالي عثمانياً لحكم مصر يتولى لمدة سنة قابلة للزيادة .

وأجـــرى العثمانيون تعديلا جوهرياً في مجال النظام القضائي بمصر والشام والحجـــاز ففرضوا مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة ، وهو مذهب العثمانيين الرسمي وجعلـــوا له السيادة في الشئون القضائية والقانونية ، ودرجت الدولة العثمانية منذ ذلـــك الـــوقت علـــى إرســـال قاضي قضاة مصر من تركيا وبعض رجال القضاة العثمانيين لتقلد المناصب القضائية بالقاهرة وغيرها من العواصم العربية ، وكان هذا من أسباب فساد الحياة القضائية لعدم فهمهم للغة أهل البلاد واستعانتهم بالمترجمين وكثرت الرشوة واشترى الناس زمم رجال القضاء .

الحضارة العربية إبان الزحف العثماني :

جـــاء العثمانـــيون إلى مصر واسترعى نظرهم وجود حضارة زاهرة وتقدماً مـــرموقاً في جميع شئونها ، فقد وصلت مصر في العصور الوسطى (وهي التي تنتهي

بانـــتهاء القرن الخامس عشر الميلادي) إلى درجة عظيمة من الثروة والرقي بسبب ســـيطرتهم على التجارة العالمية ، وخلف المماليك آثاراً بديعة تدل على ما كان لهم مـــن وفـــرة المال وعظمة الجاه ، واسترعت هذه الحضارة نظر العثمانيين فنقلوا من فنوها وتحفها وما إلى ذلك من آثارها المنقولة الشيء الكثير .

ففـــي إحـــدى ليالي شهر جمادى الآخرة سنة ٩٢٣هـــ (١٥١٧م) جلس الـــسلطان ســـليم الأول بقـــصر المقياس بالروضة بالقاهرة يتسلى بمشاهدة حفلة مـــسرحية مـــن فـــن خيال الظل ، وكان مما عرض عليه في تلك الليلة تمثيل شنق السلطان طومان باي حين جاء به الجنود إلى باب زويلة وهو مكشوف الرأس غليل اليدين وأرخوه إلى الحبال ليشنقوه ووقفوا حوله وسلوا سيوفهم .

فلمـــا تحقق طومان باي من انه سيشنق ووقف على قدمية عند باب زويلة وقال لم حوله : "اقرأوا لي الفاتحة ثلاث مرات ، وبسط يده وقرأها مع الناس ثلاث مـــرات ، وقال للمشاعلي (عشماوي ذلك الزمان) : اعمل شغلك" ، فلما وضعوا الخية في رقبته ورفعوه بالحبل انقطع به الحبل فسقط على عتبة باب زويلة ، فأعادوا تعليقه فانقطع الحبل مرة ثانية ، فعلقوه للمرة الثالثة حتى مات ، فصاح الناس عليه صيحة شديدة هزت أرجاء المكان .

وقـــد ســـر السلطان سليم من التمثيل وانعم على المخايل (الممثل) في تلك اللـــيلة بمـــائتي دينار ، وخلع عليه قفطاناً مطرزاً بالذهب وقال له : إذا سافرنا إلى إسلامبول فامضي معنا حتى يتفرج ابني على ذلك .

والحـــق أن خيال الظل لم يكن الشيء الوحيد الذي أعجب السلطان سليم بـــه ورغب في نقله من مصر إلى إسلامبول بل انه دهش لمهارة المصريين في كثير من الفنون والصناعات وعمل على نقلها إلى عاصمته .

ويذكر لنا المؤرخ المصري ابن إياس المعاصر للغزو العسكري العثماني لمصر ، إن السلطان سليم عندما هم بالرحيل إلى إسلامبول عهد إلى جماعة من وزرائه وأهل مشورته بجمع الصناع والمهندسين وأصحاب الحرف ، فجلسوا في المدرسة الغورية وشرعوا يطلبون كثيراً من أهل الحرف والفنون كالبنائين والنجارين والمرخمين والمبلطين والحدادين وتجار خان الخليلي وتجار سوق مرجوش وغيرهم من أرباب الحرف حتى طلبوا جماعة من أعيان اليهود ، فلما تكامل عرضه في المدرسة الغورية عينوا جماعة منهم للسفر إلى إسلامبول فكتبوا أسماءهم في قوائم وألزموا كل واحد منهم بان يحضر له ضامناً يضمنه فلما فعلوا ذلك أطلقوهم على أن يستدعوهم فيما بعد .

وأخذ السلطان سليم يستدعي هؤلاء الصناع للسفر إلى استانبول على دفعات متوالية وكانوا يترلون في المراكب بالنيل ويتوجهون إلى ثغر الإسكندرية حيث يتجمعون بها قبل التوجه إلى نقل أكثر من خمسين صنعة من مصر إلى استانبول حيث ازدهرت هناك التقاليد العربية المصرية .

ومن ناحية أخرى فقد شرع السلطان سليم في فك الرخام الذي بقاعات القلعة والقصر الكبير وفك الأعمدة منها أيضاً ، فقد قيل انه أراد ان ينشئ له جماعة ممن أمرهم سليم بجمع الرخام كانوا يهجمون على قاعات الناس ويأخذون ما فيها من الرخام السماقي والزرزوري الملون فخربوا عدة قاعات من أوقاف المسلمين وبيوت الأمراء والتجار والمباشرين وهجموا على المدارس التي بها الكتب النفيسة بالقلعة ونزلوا بها إلى شاطئ النيل ووضعوها في المراكب ، وكانوا يأخذون المصريين من الطريق بالإكراه لنقل هذه التحف إلى المراكب بالنيل ، وجر أعمدة الرخام وانزالها إلى المراكب ، وخرب الأتراك العثمانيون بيوت الجزيرة الوسطة ولم يبق منها

إلا الحيطان ، وأما بركة الأزبكية فقد منعوا الماء من الدخول إليها وخربوا غالب بيوتها وأخذوا ما فيها من الأبواب والطيقان وغير ذلك من الأخشاب وكذلك بيوت بولاق .

ويذكر إبن إياس انه أشيع أن ابن عثمان خرج من مصر ومعه ألف جمل محملة بالذهب والفضة والتحت والسلاح والصيني والنحاس المكفت وغير ذلك من التحف الفاخرة ، هذا عدا ما حمله وزراؤه من الأموال والمنقولات وكذلك، عسكره فانهم غنموا من النهب ما لا يحصى .

ولا شك أن كل هذا قد أدى إلى ازدهار كثير من الصناعات والفنون والحضارة التركية بأساليب الفنون العربية والحضارة العربية ، وظهر هذا التأثير بشكل واضح في زخارف العمائر العثمانية التي شيدت في استانبول وغيرها من المدن التركية ، كما وضح هذا التأثير أيضاً في الفنون المعدنية التركية ، إذ اقبل الأتراك على صنع الثريات والتنانير على نمط الثريات والتنانير المعروفة في مصر والشام في عصر المماليك .

كما جمع العثمانيون كثيراً من المخطوطات العربية النادرة ، في شتى العلوم الإسلامية وحملوها معهم إلى استانبول ، كما أدى إلى وجود كثير من الكتب والمخطوطات العربية المهمة في عاصمتهم حتى الآن .

ويقول ابن إياس ملخصاً إقامة سليم بمصر :

"وفي مدة إقامة ابن عثمان بمصر لم يجلس بقلعة الجبل على سرير الملك جلوساً عاماً ولا رآه أحد ولا انصف مظلوماً في محاكمته ، بل كان مشغولاً بلذته وسكره وإقامته في المقياس بين الصبيان المرد ويجعل الحكم لوزرائه بما يختارون .

وكان لا يظهر للناس إلا عند سفك دماء الشراكسة ، وما كان له من أمان إذا أعطـاه لأحـد مـن الناس ، وكلامه ناقص ومنقوص لا يثبت على قول واحد كعادة الملوك في أفعالها ".

وعـندما هـم السلطان سليم بمغادرة مصر حمل معه عدداً من الرهائن من أصـحاب الـنفوذ والعصبية كالأعيان والتجار والعلماء والقضاة والموظفين ، هذا بجانب العدد الكبير الذي أخذه من الصناع وأصحاب الحرف .

وبيـنما كـان البرتغاليون يعملون المرة تلو المرة على التوغل داخل البحر الأحمـر حـتى انهم هاجموا ميناء جدة في خلال سنة ٩٢٣هـ كان العثمانيون قد نجحـوا في خـلال عام ٩٢٢هـ وأوائل عام ٩٢٣ هـ في الاستيلاء على أملاك الدولة المصرية المملوكة بالشام ومصر ونجحوا في ضم الحجاز واليمن سلميا .

ولم يـتمكن الغورى من الانتصار في موقعة مرج دابق سنة ٩٢٢هـ لأنة كان مشغولا بتأمين البحر الأحمر ضد الزحف البرتغالي والإعداد لحمله جديدة على الهند وكانت قواته موزعة في كثير من ثغور الحجاز واليمن والساحل الأفريقي ،كما كان من ناحية أخرى يقاوم ضربات فرسان القديس يوحنا المتكررة على ثغور البحر المتوسط .

وبشنق (طومان) باى أخر سلاطين المماليك على باب زويلة بالقاهرة أسدل الـستار علـى فتـرة من أهم فترات التاريخ الإسلامي كانت مليئة بالجهاد، حقق المماليـك فيها النصر على الصليبين والمغول ولكنهم أخفقوا في رد عادية البرتغاليين وسقطوا في قبضة إخوانهم العثمانيين .

انضمام الحجاز إلى العثمانيين :

كـــان العثمانـــيون يطمحون إلى مد نفوذهم إلى الحرمين الشريفين وتتوق نفوســـهم إلى أن ينعـــتوا بلقب حماية الحرمين الشريفين ، ذلك اللقب الذي اعتز به حكـــام مصر من المماليك وغيرهم ، وذلك لإعلاء مكانتهم في العالم الإسلامي وقد عـــبر الـــسلطان سليم عن هذا الأمل عقب انتصاره في معركة (مرج دابق) على المماليك سنة ٩٢٢ هـــ ودخوله حلب ، فقد حضر صلاة الجمعة في مسجد حلب وخطب الخطيب باسمه وأغدق على سليم لقب (خادم الحرمين الشريفين) وعندما سمـــع ســـليم هذا اللقب من خطيب المسجد طرب له ، وأظهر الفرح والسرور به وخلع على الخطيب خلعا متعددة وأحسن إليه إحسانا زائدا.

ولمـــا أراد سليم أن يجهز جيشا إلى الحجاز اتصل قاضي قضاة مكة صلاح الـــدين بـــن ظهيرة (كان معتقلا في مصر وفك طومان باي أسره) اتصل برجال السلطان سليم وأقنعهم بعدم إرسال هذا الجيش وان الرأي عنده إرسال خطاب إلى شـــريف مكـــة ولا تبدو منه مخالفة أبدا ، ولا يحتاج الأمر إلى تجهيز جيش ، فأخذ الـــسلطان سليم برأيه ، وكتب القاضي صلاح الدين رسالة من طرفه إلى الشريف بركات يعرفه فيها بما وقع ويطلب منه إرسال ابنه إلى السلطان سليم .

ونظـــر شريف مكة إلى الظروف والملابسات الحربية والاقتصادية التي كان يعيشها الحجاز إبان الزحف العثماني بعين الخوف من المجهول .

فمن ناحية : كان الحجاز يعتمد من الناحية الاقتصادية على المخصصات الثابـــتة الـــتي كانت تأتيه من مصر نظرا لندرة الزراعة به وقلة موارده ، فان دولة المماليـــك ومن سبقها من الدول الإسلامية التي ضمت الحجاز إليها قد عملت كل مـــنها على رصد المخصصات وحبس الأوقاف بالديار المصرية للصرف على سكان

الحـــرمين الـــشريفين ، فكان الحجاز بذلك يتلقى من مصر سنويا كل مايحتاجه من غـــلال إلى جانب مرتبات الأشراف والعاملين على خدمة الحرمين الشريفين في مكة المكـــرمة والمدينة المنورة والتي كانت ترسل صحبة أمير الحج المصري مع قافلة الحج المصرية .

ومـــن ناحية أخرى : كان الحجاز يمر بظروف حربية صعبة حيث تعرضت موانـــيه وعلى الأخص (جدة) لكثير من هجمات البرتغاليين الشرسة التي سبق أن أشـــرنا إلـــيها ، وهـــدد البرتغاليون بمهاجمة الأراضي المقدسة الإسلامية والعبث بمقدســـات المسلمين ، ولم تكن لدى شريف مكة القوات والعتاد الذي يستطيع به صد غارات المعتدين البرتغاليين .

هـــذه الظروف الاقتصادية والحربية التي كان يعيشها الحجاز إبان الزحف العثماني ، هي التي أملت على شريف مكة بركات قبول السيادة العثمانية ورد على رســـالة ابـــن ظهيرة بإرسال وفد برياسة ابنه (أبو نمي) لتقديم الولاء والاستعداد بدخول الحجاز تحت السيادة العثمانية ، وذلك لكي يضمن استمرار تدفق التموين مـــن مـــصر ، ويـــضمن وجود قوة إسلامية كبرى تقف أمام الغزو البرتغالي على الأراضي المقدسة الإسلامية .

واستقبل السلطان سليم وفد الشريف بركات في القاهرة في ١٦ من جمادى الـــثاني ٩٢٣هـــــ/٦ يوليو ١٥١٧م استقبالا حافلاً وقدم أبو نمى إلى سليم بعض الهـــدايا وبعض الآثار النبوية الشريفة التي كانت موجودة في مكة والمدينة ثم سلمه مفاتـــيح الحرمين الشريفين ، وهكذا تم إقرار شريف مكة بقبول السيادة العثمانية ، ومنحه سليم تفويضاً فيما يلي نصه :

" بحكـــم مكة المشرفة والمدينة المنورة المطهرة ونواحيها وضواحيها وتوابعها ولـــواحقها المعطرات ولكل موضع كان الجناب الكريم حاكما وضابطاً فيه بمراسيم السلاطين القديمة [٣٢] ".

ثم أمره بقتل حسين الكردي نائب جدة من طرف المماليك .

وعقـــب عـــودة وفـــد الشريف إلى مكة قرأ التفويض على الأهالي وأمر الـــشريف بالقبض على حسين الكردي فأخذ مقيداً إلى جدة وقتلوه غرقاً في ميناء جدة في تلك المياه التي سبق له أن دافع عنها ضد الغزو البرتغالي ، وهكذا شاء الله لهذا المجاهد أن يختفي في البحر الذي شهد نضاله وكفاحه عن شواطئه ضد البغاة من الأعـــراب ، وضـــد أعداء الإسلام منذ عام ٩١١هـ/١٥٠٥م حتى فاز بالشهادة علـــى يـــد إخوانه المسلمين بأوامر من العثمانيين الذين طعنوا الدولة المملوكية في ظهرها سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧ م

وبـــذلك دخل الحجاز تحت السيادة العثمانية دخولاً سلمياً وكان سلطان شـــريف مكـــة يمتد إلى جميع بلاد الحجاز ، ومن مهامه الرئيسية العمل على تأمين قـــوافل الحـــج الوافدة إلى الحرمين الشريفين من جميع بقاع العالم الإسلامي ، وكان يعـــتمد في ذلـــك على صلاته بالقبائل الضاربة في الحجاز والقريبة من طرق قوافل الحج ، كما يعتمد على عصبيته ونفوذه الديني الواسع ، وكان شريف مكة يتمتع في

---

(٣٢) انظـــر: نـــص الرسالة التي أرسلها السلطان سليم للشريف ، وقد ترجمها إلى العربية الدكتور أحمد فؤاد متولي في أحدث كتاب نشر عن "الفتح العثماني للشام ومصر" بالقاهرة سنة ١٩٧٦م ، ويمتاز هذا الكتاب بكثير من الوثائق التي ترجمها المؤلف من التركية إلى العربية وقد استقاها من الأرشيف التركي وغيره من المصادر التركية ، وهو أستاذ في اللغة التركية (انظر رقم ٣٠ في ملحق الوثائق لنفس الكتاب) .

التـــشريفات العثمانية بأسمى مقام في صف "الصدر الأعظم" في الآستانة والخديو في مصر .(٣٣)

أمـــا ثغـــر جـــدة فان السلطان سليم ولى عليه نائباً جديداً بعد مقتل نائبه المملوكـــي ، وهـــذا النائب الجديد هو التاجر (قاسم الشرواني) الذي كان من تجار مكـــة وســـافر قبل الغزو العثماني إلى مصر وصادف وجوده دخول السلطان سليم مـــصر ، فاتصل قاسم بالسلطان سليم وتقرب إليه بالخدمة فعينه نائباً لجدة فوصل إليها وباشر مهام منصبه في تلك السنة .(٣٤)

وجعـــل العثمانيون إمارة جدة تابعة لهم مباشرة يعينون لها نائباً من طرفهم بعـــيداً عـــن نفوذ شريف مكة ، وذلك بسبب وضعها الحربي وأهميتها الاقتصادية والإســـتراتيجية ، وأبطل العثمانيون منصب باشا مكة وتركوا لشريف مكة السلطة علـــى الحجـــاز ، وجعلوا له استقلالا عن نائب جدة إلا في الحالات الضرورية التي يلـــزم علـــيه أن يتعاون معه على استتباب الأمن في ربوع الحجاز لتأمين سير قوافل الحج إلى الحرمين الشريفين .

وقررت السلطات العثمانية لشريف مكة أن يأخذ نصف محصول ميناء جدة كل عام ، ومن ثم فقد تسبب هذا الأمر في إثارة كثير من المشاحنات بين نائب جدة وشـــريف مكـــة ولم تهدأ هذه الحوادث بينهما طوال العصر العثماني ، كما تسببت

(٣٣)انظر : ساطع الحصري "البلاد العربية والدولة العثمانية" ص ٢٤١ .

(٣٤)انظـــر : قطـــب الـــدين النهروالي "الإعلام بأعلام بيت الله الحرام" ص ١٩١ ، وانظر أيضا "أحمد بن زيني دحلان" خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام ص ٥١.

ثنائـــية الحكم هذه في خلق جو من الاضطراب والفتن والفوضى لا في جدة ومكة فحسب بل في الحجاز كله. [٣٥]

وهكـــذا حظيت الدولة العثمانية بشرف حماية الحرمين الشريفين ، وأضاف ســـلاطين آل عثمان إلى ألقابهم لقب "خادم الحرمين الشريفين" وظل هذا اللقب من الأمـــور التي يحافظ عليها سلاطين العثمانيين ، وحافظوا من أجله على بقاء الحرمين الـــشريفين في حـــوزهم ، كما ورثت الدولة العثمانية أيضاً نفوذ المماليك في البحر الأحمر بعد الاستيلاء على مصر وضم الحجاز.

وقابلـــت في الوقت نفسه مشاكل البحر الأحمر التي كانت بين البرتغاليين والممالـــيك حـــول الـــسيادة عليه والسيطرة على التجارة الشرقية ، وبرزت أمام العثمانيين بمجرد ظهورهم في المنطقة قضية الدفاع عن البحر الأحمر وأصبحت إحدى القضايا الملحة التي تحتاج إلى عمل حربي حاسم منهم .

وقد أثبتت حوادث الاعتداءات البرتغالية على ثغور البحر الأحمر بسرعتها وتلاحقها صدق ذلك ، فقبل أن يصل نائب جدة الجديد (قاسم الشرواني) لمباشرة مهـــام منـــصبه كان البرتغاليون قد أعدوا هجوماً على جدة في عام ١٥١٧م ، فقد أرســـلوا حملـــة بقيادة نائب الملك في الهند "لوبو سوريز" الذي تولى بعد البوكيرك وكانـــت هـــذه الحملـــة تتكون من أربعين سفينة ومن ألفين من الجنود المسلحين ، وهـــدف هـــذه الحملـــة هـــو الهجوم على جدة وتدميرها والقضاء على الأسطول المملوكي في البحر الأحمر ، وإقامة اتصال مباشر مع الحبشة .

(٣٥) انظر على سبيل المثال ما حدث من حروب بين شريف مكة ووإلى جدة في سنة ١٠٧٩هـــ وسنة ١١٨٤هـــ وما بعدها في كتاب (خلاصة الكلام لأحمد بن زيني دحلان).

العثمانيون في مواجهة البرتغاليين:

ونظـــراً لأن هـــدف هذه الحملة هو جدة فإنها لم تتعرض لعدن وخاصة أن أميرهـــا (مـــرجان) قد أمد الحملة البرتغالية بالمؤن اللازمة لها وببعض المرشدين من بحارة اليمن لإرشادها داخل البحر الأحمر للوصول إلى جدة بعيداً عن مخاطر الشعب المـــرجانية ، وعلـــى الرغم من ذلك فقد فشل البرتغاليون أمام جدة بسبب مناعة سورها وقوة استحكاماتها التي أقامها المماليك من قبل ، كما فوجئوا بتغيير السلطة فواجهوا العثمانيين لأول مرة فكان عليهم أن يعودوا أدراجهم كي يعيدوا حساباتهم قبل مجابهة العثمانيين .

وكـــان (الريس سلمان) العثماني بعد مقتل وإلى جدة حسين الكردي قد سيطر على الأمور في الثغر ريثما تصله الأوامر العثمانية ووقف أمام الهجوم البرتغالي على جدة ، وعندما انسحب البرتغاليون واصل مطاردة السفن المرتدة عن جدة إلى جزيـــرة كمـــران ، وتمكـــنت سفنه من الاستيلاء على سفينة برتغالية وأسر بحارتها وإرســـالهم إلى استنبول ، ووصلت القوات البرتغالية المرتدة إلى عدن حيث حصلت على الإمدادات اللازمة من أميرها مرجان وعادوا قافلين إلى مركزهم في هرمز(٣٦).

وكانـــت هـــذه الحملة التي هددت (جدة) والحرمين الشريفين كفيلة بجعل العثمانيين يفكرون بطريقة جدية في حماية البحر الأحمر والأراضي المقدسة الإسلامية مـــن هجمات البرتغاليين المتكررة والتي أخذت تتركز بصورة ملحة على ميناء جدة الإســـلامي ، ولكنهم بعد قليل من وصول نائب جدة الجديد قاموا بسحب (الريس سلمان) العثماني من جدة ، فعاد إلى القاهرة في شعبان عام ٩٢٣هـــ ، ومعه بعض الأســـرى من البرتغاليين (٣٧)وكان تعيين التاجر (قاسم الشرواني) في منصب نائب

---

(٣٦) انظر : د. السيد مصطفي سالم (الفتح العثماني الأول لليمن) ص ١٠٢-١٠٣ .

جـــدة في تلك الفترة الحرجة من تاريخ المدينة معناه الاسترخاء العسكري في جدة وفي البحر الأحمر إلى حين ، وعلي كل فهذا من الأمور التي تحتاج إلى إيضاح وإلقاء الـــضـــوء علـــي هذه الفترة ، وخاصة أن حالة الاسترخاء هذه ظلت حتى سنة : ٩٤٥هـــ / ١٥٣٨م.

---

(٣٧) انظر : ابن اياس (بدائع الزهور) حوادث شعبان ٩٢٣هـــ ج ٥ ص ٢٠٣ .

الفصل الرابع

العالم الإسلامي في العصر العثماني

خضعت كل من الشام ومصر وغالبية الجزيرة العربية لحكم الدولة العثمانية ، وأمـا العـراق فقد ظل مجال أخذ ورد وصراع بين العثمانيين والصفويين لوجود العتـبات المقدسـة للشيعة في كربلاء والنجف حتى قام السلطان العثماني سليمان المـشرع بـضمه إلى الدولة العثمانية في سنة ٩٤١هـ ،وأعاد فتح اليمن في سنة ٩٤٥هـ. وورثـت الدولة العثمانية ما كان لدولة المماليك من نفوذ ومصالح في البحـر الأحمر في سواحل الحجاز واليمن والسودان وأرتريا والصومال ، وورثت الدولة أيضا مواجهة الخطر البرتغالي في البحار الشرقية .

أمـا أقطـار المغـرب العربي فقد اتصلت بالعثمانيين لتتحالف معهم تجاه الأخطار المسيحية المحدقة بهم كما سبق أن أشرنا ،وطلب المجاهدون في المغرب وعلى رأسهم خير الدين التركي الذي أطلق عليه الأوربيون (بربا روسا) ومعناها البربري المتوحش ، طلبوا المساعدة من العثمانيين ضد البرتغاليين والأسبان فتقدم العثمانيون إلـيهم بالمـساعدة على أيام سليمان المشرع (٩٢٦- ٩٧٤هـ) ، ونتج عن هذا التـضامن الإسلامي قوة في المغرب مكنت المغاربة من استعادة كثير من الأراضي في شمال أفريقيا ؛ ووحد خير الدين شمال أفريقيا كله ما عدا مراكش تحت راية الدولة العثمانية .

وكـــان في مــــراكش الأشـــراف السعديون فاعتبروا أنفسهم أحق بحكم المـــسلمين وخلافتهم من العثمانيين فلم يسلموا لهم وظلوا يحاربونهم واستغل الغرب هذه الثغرة أيضا للإيقاع بين المسلمين .

وصفوة القول أن العثمانيين تمكنوا من السيطرة على غالبية العالم العربي في سرعة غير عادية وكانت هذه السرعة بسبب الضعف الداخلي والخطر الخارجي ثم الـــتجاوب الديني أو الوشيجة الدينية التي تربط العثمانيين بهذه البلاد والتي لولاها لكـــان مصير الغزو العثماني منذ البداية كمصير غيره من الغزوات الوثنية والصليبية السابقة.

وتحـــولت الدولـــة العثمانية في هذا الدور من دولة اناضولية بلقانية أغلب رعاياهـــا من المسلمين إلى دولة إسلامية حقا ، فيها بالإضافة إلى الأماكن المقدسة في مكـــة المكـــرمة والمدينة المنورة وبيت المقدس مراكز الحضارة الإسلامية في القاهرة ودمشق وبغداد وطرابلس الغرب والقيروان والجزائر والمغرب .

ولقـــد قابـــل العثمانـــيون مشاكل البحر الأحمر التي كانت بين المماليك والـــبرتغاليين ، حول السيادة عليه والسيادة على البحار الشرقية وتجارتها ، وبرزت أمـــام العثمانـــيين بمجـــرد وصـــولهم إلي المنطقة قضية الدفاع عن البحر الأحمر ، وأصـــبحت إحدى القضايا الملحة التي تحتاج إلي عمل حربي عاجل وحاسم منهم ، ولقد أثبتت حوادث الاعتداءات البرتغالية علي ثغور البحر الأحمر بسرعتها وتلاحقها صدق ذلك.

بـــيد أن الخطـــوات العثمانـــية في مجابهة البرتغاليين ظلت بطيئة واتسمت سياســـتهم العـــسكرية بالاســـترخاء العسكري في البحار الشرقية تلك الحالة التي استمرت حتى سنة ٩٤٥ هـــ (١٥٣٨م) وكان ذلك علي ما يبدو بسبب انشغالهم

في أوربا ، فقد كانوا يعملون على مد نفوذهم في كثير من المناطق الأوربية منتهزين الحرب الإيطالية التي شغلت أوربا في الفترة من سنة **١٥١٥**م حتى سنة **١٥٥٩**م. كمـا كانـوا يعملون من ناحية أخري على مد نفوذهم إلى العراق وفارس وتكملة الاستيلاء علي العالم العربي توصلا إلي توحيد العالم الإسلامي.

لكـن علـى الرغم من هذه المشاكل ظل الخطر البرتغالي يمثل تهديدا مباشرا للعثمانـيين في البحـر الأحمر والأماكن المقدسة الإسلامية في الحجاز وكان الأمر بالـيمن يقتـضي عملا حاسما لتقوية الوجود العثماني به بعد أن اضطربت أحواله بسبب تصارع القوي المملوكية والزيدية وبقايا الطاهريين في عدن .

لاشك أن فتح العثمانيين للعراق في سنة ٩٤١هـ جعلهم وجها لوجه مع الـبرتغاليين في الخليج العربي ، فقد دخل أمراء البصرة والقطيف والبحرين في طاعة العثمانيين بعد فتح العراق .

تحالف الصفويين مع البرتغاليين :

ومن ناحية أخري فان البرتغاليين قد أقاموا علاقات ودية مع الصفويين في فـارس نـتج عنها إمداد البرتغاليين للفرس ببعض المعدات العسكرية ، ولقد ساعد الخطر العثماني الذي كان يهدد الدول الأوربية علي التقارب بين هذه الدول وإيران ، عـندما ظهـرت الدولـة الصفوية بقوتها في شرقي الدولة العثمانية خف الضغط العـثماني علي أوربا واتجه إلي فارس ، ولذلك فقد سعت دول أوروبا إلي إسماعيل الـصفوي تعـرض علـية تثبيت عرى الصداقة والمودة وحاول إسماعيل من جانبه استغلال هذه الفرصة لحماية نفسه من أطماع الدولة العثمانية التوسعية في الأراضي الفارسية وخاصة بعد هزيمته المنكرة من الدولة العثمانية في معركة (شالديران) سنة

٩٢٠هـ(١٥١٤م) فأرسل الشاه إسماعيل رسوله إلى البوكيرك في هرمز سنة ٩٢١هـ يطلب من البرتغاليين مساعدته ضد العثمانيين وقيام تحالف بينهما .

اتفاق التحالف :

وتم عقد اتفاقية تحالف بين البرتغاليين والصفويين تنص على :

ـ تقديم سفن برتغالية لإسماعيل الصفوي لمعاونته في حملته علي البحرين والقطيف ، في مقابل أن يتنازل للبرتغاليين عن ميناء جوادر علي ساحل بلوخستان.

ـ تتحد الدولتان في مواجهة الدولة العثمانية.

ـ تصرف حكومة فارس النظر عن جزيرة هرمز، وتوافق علي أن يبقي حاكمها للبرتغال ، وان لا تتدخل في أمورها الداخلية [١] .

وقد أقلقت هذه العلاقات الصفوية البرتغالية الدولة العثمانية .

ومن ثم توجهت همة العثمانيين إلي : إعداد حملة بحرية إلي اليمن بميناء السويس وتتجه بعد اليمن إلى الهند منذ عام ١٥٣٧مـ (٩٤٤مـ).

حملة العثمانيين علي اليمن والهند ٩٤٥ هـ/١٥٣٨م :

كل هذه العوامل السالفة جعلت العثمانيين يرسلون حملتهم التي سبق إعدادها في السويس بقيادة سليمان باشا الخادم [٢] ففي المحرم سنة ٩٤٥هـ أبحرت تلك الحملة وكانت مؤلفة من ٨٠ سفينة و٢٠ ألف جندي، وكان سليمان الخادم لا يصلح لقيادة هذه الحملة فقد كان في الثمانين من عمره ، سري إليه

---

(١) انظر: بديع جمعة وزميلة : تاريخ الصفويين وحضارتهم، جـ ١، ص ٩٧ ، وانظر أيضا : صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي، ص١٧ـ١٨.

(٢) كان سليمان باشا الخادم أحد مماليك السلطان سليم الأول ومن المقربين إليه وظل واليا على مصر منذ عام ٩٣١هـ ،حتى غادرها إلى العراق للاشتراك في فتح بغداد سنة ٩٤١ هـ (١٥٣٤م) ثم بدأت ولايته الثانية لمصر سنة ٩٤٥هـ .

ضـــعف العقـــل والـــرأي وكانـــت لديه عقدة خاصة بنشأته حيث نشأ في القصر الـــسلطاني وكان من العبيد الخصيان ، ولم تكن له علاقة بالبحرية وكانت مؤهلاته انه رجل ميال للغدر وسفك الدماء.

وعلى الرغم من هذه العيوب الخاصة بشخصية قائد الحملة إلا انه تمكن من فـــرض الـــسيطرة العثمانـــية في سواحل اليمن الغربية والجنوبية بأساليب امتزجت بالحيلة والغدر .وقضى على بقايا الطاهريين والمماليك .

وانطلقـــت الحملة بعد ذلك إلي ديو بسواحل الهند لتحقيق الجزء الثاني من خطتها وهو القضاء علي النفوذ البرتغالي في الهند وكان ذلك بعد فوات الأوان لان البرتغاليين كانوا قد دعموا نفوذهم في تلك الأماكن ومضي علي وجودهم هناك ما يربو علي ثلث قرن من الزمن وكانت هذه الفترة الزمنية كافية بان يحتاطوا لأمرهم ويعـــدوا لكـــل شيء عدته . ومن ثم فما كادت الحملة تقوم بحصار بعض القلاع الـــبرتغالية هـــناك حتى فكت الحصار عندما علمت بنجدة برتغالية قادمة عن طريق البحر ويقال إن الهنود هم الذين أوهموهم بهذه الحملة ليتخلصوا منهم .

بالإضـــافة إلي عدم قدرة الحملة من الناحية العسكرية علي منازلة البحرية الـــبرتغالية وفـــشلت بـــذلك الحملة العثمانية في تحقيق أي شيء يذكر بالهند نظرا لضعف قائدها وضعف حلفائها الهنود. وعاد إلى اليمن وقضى على بقايا الطاهريين في جـــنوب الـــيمن ، وبقايا المماليك في اليمن الشمالي ، ولم يعد في اليمن من قوة مناوئة له سوى القوى الزيدية .

وكـــان القـــضاء علي الطاهريين والمماليك يعني بداية المواجهة المباشرة مع الـــزيديين وهم القوة الباقية في اليمن وحاول سليمان الخادم استدراج الإمام شرف

الـــدين علي طريقته في الغدر ولكنه لم يفلح وظل يتبادل معه الرسائل دون جدوى لأن الرجل لم يأمن جانبه فأعرض عنه حتى غادر سليمان اليمن عائداً إلى مصر .

وصـــفوة القول أن حملة الخادم حققت الاستيلاء علي السواحل اليمنية من جيزان شمالا إلي الشحر جنوبا أما الجهات الداخلية فظلت في أيدي الزيديين وقضت نهائـــيا علي كل من المماليك والطاهريين وفشلت الحملة في مشروعها الثاني بالهند كمـــا رأيـــنا ، وبعـــد فـــشل العثمانيين في الهند لم يفكروا في سياسة هجومية ضد البرتغاليين وظلت سياستهم دفاعية عن البحر الأحمر ومحاولة إغلاقه في وجه البحرية البرتغالية وكانت حملة الخادم هي الأولي والأخيرة للعثمانيين علي الهند .

نتائج الهيمنة العثمانية :

علـــى الرغم من أن العثمانيين قد تمت لهم الهيمنة على البحر الأحمر إلا أنهم فـــشلوا في مقاومة الوجود البرتغالي في الخليج العربي الذي أقام له مراكز استعمارية هناك وتحالف مع الصفويين في فارس كما سلف أن ذكرنا.

وإذا كان العثمانيون قد تم لهم تأمين البحر الأحمر أمام الغزو البرتغالي فانهم عجزوا عن تحقيق غاياتهم الرئيسية المطلوبة منهم وهي ضرب السيطرة البرتغالية في البحار الشرقية ، ولعل سبب إخفاقهم راجع إلي عدة عوامل .

مـــنها عـــدم قـــدرتهم علي لم شمل المسلمين وتأليف حلف إسلامي منهم لتوحيد القوي الإسلامية لمكافحة السيطرة البرتغالية عن طريق التضامن الإسلامي كمـــا حدث منهم في المغرب العربي مع المجاهدين المغاربة عندما تحالفوا معهم ومدوا لهم يد المعونة كما سلف أن ذكرنا .

ومـــنها أيــضا قلة استعدادهم البحري لمجابهة البرتغاليين فقد كانوا حتى ذلــك الــتاريخ مازالوا من الأمم البرية التي تعتمد علي قوتها الضاربة في البر دون البحر.

ولعــل أقوى هذه العوامل قاطبة هو تحطيمهم للقوة المملوكة بدلا من التضامن معها لتحمل المسئولية أمام الأخطار الصليبية كما حدث في المغرب العربي.

ومـــن النـــتائج التي ترتبت علي سيطرة العثمانيين علي العالم العربي انهم ورثوا القيادة في العالم الإسلامي بعد دولة المماليك المصرية وحظيت الدولة العثمانية بحماية الحرمين الشريفين وأضاف سلاطين آل عثمان إلي ألقابهم لقب "خادم الحرمين الشريفين " وكان العثمانيون يطمحون إلي مد نفوذهم إلي الحرمين الشريفين وتتوق نفوسهم منذ زمن بعيد أن ينعتوا أنفسهم بلقب حماية الحرمين الشريفين ذلك اللقب الــذي اعتــز به حكام مصر من المماليك وغيرهم وذلك لإعلاء مكانتهم في العالم الإســـلامي وقد عبر السلطان سليم الأول عن هذا الأمل عقب انتصاره في معركة مرج دابق علي المماليك سنة ٩٢٢هـ وددخول حلب فقد حضر صلاة الجمعة في مـــسجد حلب وخطب الخطيب باسمه وأغدق عليه لقب "خادم الحرمين الشريفين" وعندما سمع سليم هذا اللقب من خطيب المسجد طرب له أيما طرب واظهر الفرح والسرور بتلقيبه بهذا اللقب وخلع علي الخطيب خلعا متعددة وأحسن إليه إحسانا زائدا (٣).

(٣) انظر: قطب الدين النهروالي : الأعلام بأعلام بيت الله الحرام، ص١٨٧ــ١٨٨.

انتقال الخلافة إلى الأتراك :

وحدث تطور آخر يتعلق بالخلافة الإسلامية فبعد أن ظلت الخلافة العباسية بالقاهــرة قرابة ثلاثة قرون تحت إشراف أمراء المماليك منذ أن نقلها الظاهر بيبرس ســنة ٦٥٨هـــ إلي القاهرة إذ بها بعد الفتح العثماني للعالم العربي تنتقل إلي الأتراك ويــصبح خلــيفة المسلمين تركيا في إسلامبول ولعل من الجدير بالذكر أن الخلافة عــادت لهــا أهميتها في ظل الأتراك حيث كان السلطان العثماني هو الخليفة وكان يمسك في يده كل السلطات الزمنية والسياسية والسلطات الدينية أيضا وظل الأمر هكذا حتى إلغاء الخلافة سنة ١٩٢٤م علي يد مصطفي كمال أتاتورك.

ولمــا كانت الدولة العثمانية سنية فقد وقفت سدا منيعا أمام انتشار المذهب الــشيعي الصفوي في العالم العربي فحفظت له سيادة المذهب السني باستثناء بعض الجيوب الشيعية الضعيفة في العراق والشام واليمن وإمارات الخليج العربي ولم تكن هــذه الجــيوب تطلعات خارج حدودها بالإضافة إلي وجود خلافات مذهبية بينها وبين شيعة فارس.

ويمكن القول بان الدولة العثمانية حفظت أيضا لشمال أفريقيا عروبته وإسلامه بتآزرها مع المغاربة في كفاحهم طوال القرون الثلاثة التالية .

إهمال الجندية والتسليح في البلاد العربية:

ومن النتائج الخطيرة أن الدولة العثمانية لم تشرك العرب في الجندية وأعفت المواطنين من التجنيد فأضعفت فيهم الروح الحربية القتالية وكانت تتعقب من يحمل الــسلاح مــنهم وظلــت في حرب دائمة مثلا مع اليمنيين لأنهم أبوا أن يسلموا سلاحهم ، واعتبرت الدولة العثمانية أن مسألة الجندية خاصة بالانكشارية فقط لأنها

حكمت تلك البلاد بنظرية مستوحاة من بيئتها الرعوية الأولي في أواسط آسيا والتي تكون العناصر فيها ثلاثة :

الراعـــي ، والرعية ، وكلب الحراسة ، فطـــبق العثمانيون هذه النظرية علـــي الـــشعوب التي دانت لهم ، فالراعي: هو السلطان العثماني . والرعية : هم السواد الأعظم من الشعب . وكلب الحراسة : هو جيش الانكشارية من الأتراك وحدهم .

ولا شـــأن للشعب بقضية الدفاع عن البلاد فهي من شئون كلب الحراسة العـــثماني ، وحـــرمت علـــى الـــشعب العربي حمل السلاح وركوب الخيل ، لانها مـــدرعات ذلك العصر ، وإذا ركبها أحد أفراد الشعب فانه يتعلم الفروسية والكر والفر ، ويناوئ العثمانيين والمماليك ، فلم تسمح لهم بركوبها وسمحت لهم بركوب الحمـــير ، وسمحـــت للعلماء بركوب البغال فهي منزلة وسط بين الخيل والحمير ، بمقولة أنها تمشي الهوينى بما يتمشى مع وقار العلماء ، وكان للعلماء منزلة وسط بين الحكام والشعب .

ونـــتج عـــن هذا استرخاء في عضلات العرب ونسيان للجندية وإضعاف للـــروح القتالـــية ونسيان الشعب المصري والعربي لمسائل التسليح وتطويره لأنها كانت من مهام الدولة العثمانية وظل هذا الوضع في البلاد العربية من ٣٠٠ سنة في بعض المناطق إلي ٤٠٠ سنة في مناطق أخري .

وعـــندما واجـــه العـــرب الغـــرب المسيحي بعد ضعف الدولة العثمانية وســـقوطها في الـــنهاية كان من أهم المشاكل العويصة (ومازالت) هي مسألة إعادة الروح العسكرية وإعادة التسليح وإعادة تنظيم الجيوش وتصنيع السلاح وما يتصل بـــذلك مـــن المـــشاكل التي ستظل شغل المسلمين الشاغل حتى يتمكنوا من صنع

سلاحهم بأنفسهم وتدريب جيوشهم بروح إسلامية وأيد إسلامية دون اعتماد علي الغرب المسيحي وهيهات أن يخلص لهم في هذا المجال.

لقــد كـــان العـــالم العربي قبل الغزو العثماني له متقدما في مجال التسليح وعـــرف الـــبارود والأسلحة النارية والمدافع ، وقد سجل المؤرخ المصري أحمد بن إيـــاس في كـــتابه : (بدائع الزهور في وقائع الدهور) كثيرا من الأخبار عن صناعة المدافـــع التي كانت معروفة عند المماليك (بالمكاحل) (ومكحلة النفط) (والنفاطة) وعرف البارود وهو القوة الدافعة للمقذوفات .

وقـــد شهد مؤرخو الغرب بان هذه اختراعات عربية ، فقد قال جوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب :

" إن البحوث التي أجراها (رينو) و (فافيه) والتي سبقهم إليها (كاسيري) و (أندريـــه) و (فياردو) قد أثبتت بوضوح أن البارود ذا القوة الدافعة باعتباره مادة متفجـــرة تعمل على دفع القذائف اختراع عربي أصيل لم يشارك العرب فيه أحد ، لقـــد عـــرف العرب كيف يخترعون ويستعملون القوة الناشئة عن البارود ، وهم باختصار الذين اخترعوا الأسلحة النارية "

ويلاحظ أن المكاحل والمدافع ذكرت في كتب التاريخ العربية ، فقد ذكرها كـــثير من المؤرخين المصريين ، فمنهم ابن إياس وذكرت كلمة (مدفع) في كتاب الـــسلوك للمقريزي، وفي موسوعة صبح الأعشى للقلقشندي[٤] ، وذكرت أيضا في كتاب " النجوم الزاهرة " لابن تغري بردي .

وقد ذكر المرحوم اللواء الدكتور عبد الرحمن زكي في بحث إحصائي له عن ابـــن إيـــاس واســـتخدام الأسلحة النارية : ((إن أقدم التواريخ لاستخدام السلاح

---

[٤] القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٧ ، ص١٣٧ .

الـــناري هو عام ٧٤٣هـــ (١٣٤٢م) ذلك أن صالح بن يحي المتوفى سنة ٨٤٠ هــــ (١٤٣٦م) صـــاحب كتاب: (تاريخ بيروت) يقول فيه : انه حينما حاصر المنافسون السلطان شهاب الدين أحمد فـــي حصن الكرك ركَّب رجال الحامية على أسوار الحصن خمسة مجانيق ومدافع كثيرة .

ويذكـــر ابـــن إياس المتوفى سنة ٩٤١ هــ (١٥٣٤م) في أحداث سنة ٧٥٣هـــ (١٣٥٢م) : " ثم إن نائب قلعة دمشق في عهد الناصر محمد بن المنصور بن قلاوون حصن القلعة تحصيناً عظيماً وركب عليها المكاحل بالمدافع " .

وهذان النصان يوضحان لنا أن استخدام المدفعية في الدولة المملوكية الأولى بدأ تقريباً في الوقت الذي استخدمت فيه في غرب أوربا وهو بين عامي((١٣٢٥ م و ١٣٥٠م))[٥] .

ويذكـــر ابـــن إيـــاس أن السلطان قايتباي (١٤٦٨-١٤٩٦م) في مقدمة ســـلاطين المماليك الجراكسة الذين اهتموا بجد بإنشاء قوة عظمى لمدفعية الحصون المـــصرية ، ويـــشهد علـــى ذلك تشييده عام ١٤٧٩م قلعته القائمة إلى اليوم في الإســـكندرية مكان فنار الإسكندرية القديم ثم شحنها بالمدافع واستخدم طائفة من الجـــند حملة بنادق الرصاص وكان ذلك عام ٨٩٥هـــ (١٤٩٠م) حينما أعد حملة لرد العثمانيين عن حدود السلطنة المملوكية شمال سورية .

ومعنى ذلك فان عصر قايتباي أدرك الأسلحة النارية قبل أن يقضي العثمانيون على السلطنة المملوكية بسبعة وعشرين سنة (عام ١٥١٧م) .

---

(٥) أنظر : عبد الرحمن زكي ، ابن إياس واستخدام الأسلحة النارية.

سبك المدافع أيام قانصوه الغوري :
(٩٠٦-٩٢٢هـ / ١٥٠١-١٥١٦م)

وقــد عـــني ابن إياس عناية ملحوظة بمدافع عصر الغوري أكثر من عنايته بعـــصر قايتباي الكبير ، فيذكر ان الغوري أقدم بمجرد اعتلائه العرش على سياسة ســـبك المدافـــع بمعدل وعلى مقياس لم يسبقه فيه سلطان مملوكي من قبل فقد انشأ على مقربة من ميدان الفروسية الجديد في (يوليو ١٥٠٣م) مسبكاً للمدافع ووضع فيه كميات عظيمة من المدافع في زمن قصير وكان كلما تجمع عدد وفير منها أسرع بـــنقلها من المسبك إلى تربة العادل في الريدانية لإجراء اختبار مدى الرمي والمتانة ، وكـــان يحضر هذه التجارب السلطان الغوري بنفسه، وقد ذكر ابن إياس عدد هذه المدافع في أربع مناسبات ، ففي واحدة منها قال إن عددها ١٥ وفي مرة ثانية ذكر ٧٠ مدفعاً وفي ثالثة ذكر ٧٤ مدفعاً وفي مرة رابعة ذكر ٧٥ مدفعاً (٦).

ولعـــل في هـــذه النصوص التي قام بإحصائها العلامة الدكتور اللواء عبد الرحمن زكي ما يدل دلالة واضحة على تقدم التصنيع الحربي عندنا في مصر ، لكن بعـــد الاحـــتلال العثماني لنا تم إيقاف التصنيع الحربي في مصر وأصبحنا مجرد ولاية تابعـــة للتاج العثماني ولم تتمكن مصر من تطوير صناعتها العسكرية على مدى ثلاثة قـــرون وهي فترة الاحتلال العثماني لمصر ولم تباشر مصر إعادة هذه الصناعة إلا في عـــصر محمد علي (١٨٠٥-١٨٤٩م) عندما أصبحت مصر مستقلة استقلالا ذاتياً على الرغم من تبعيتها الشكلية للدولة العثمانية .

---

(٦) انظر : ابن إياس ، بدائع الزهور، ج٤ ، ص١٩١، ١٩٢ ، ٢٦٠، ٢٦١ ، ٢٧٤ .

عصر التراجع الحضاري:

ولعـــل أخطر النتائج قاطبة هو أن الحضارة الإسلامية والثقافية العربية تأخـــرت عـــن غيرهـــا من الحضارات والثقافات الأوربية لان الزعامة ضاعت من العـــرب وكان التقدم الذي أحرزه العالم الإسلامي باللغة العربية ولم يكن في مقدور الترك أن ينهضوا بالتراث الإسلامي والعلوم الإسلامية لان هذا التقدم قطع أشواطا طـــويلة باللغـــة العربية وكان قد تضخم بحيث يصعب نقلة إلي اللغة التركية التي لم تكن مهيأة لذلك ولم يكن الأتراك أيضا كشعب عسكري مهيأ لهذا العمل .

ولقد منعت العنصرية التركية الترك من التعريب كما تعربت مصر والشام وشمال أفريقيا ، ومواصلة الحضارة الإسلامية بالغة العربية فتمسك الأتراك بلغتهم ، ولم يتعـــرفوا علي التراث الإسلامي ليهضموه لا بالتركية ولا بالعربية وظلوا أمة عسكرية فحسب وحالت طبيعتهم دون أن يدفعوا الثقافة العربية الإسلامية دفعات إلي الأمام ووقع عبؤهم العسكرية علي الشرق العربي فترة طويلة ، وعلي الرغم من الهـــم حموه في فترة كان مهددا فيها من الغرب المسيحي إلا الهم أضروه ضررا يلغيا ربمـــا مـــن غير قصد فقد أضروه في مضمار الحضارة وانسوه كثيرا من فنون التقدم الحـــضارية والعسكرية في فترة عصر النهضة الأوربية . فبينما كان الغرب الأوربي يتقدم كان الشرق الإسلامي والعربي قد توقف والحكمة الحضارية تقول " إن من لم يتقدم يتأخر" .

وبـــدأ عـــصر التراجع الحضاري ، ففي هذا العصر بدأ العلماء يلجئون إلى الملخـــصات المعروفة بالمتون وحفظ هذه الملخصات ، وإخراج شروح على ما سبق أن ألف من قبل ، وعمل حواشي ، وكتابة التقارير على الكتب التي سبق إنتاجها في العصور السابقة .

ويـــرجع هذا الجمود والعزوف عن التأليف إلى فترة العصر العثماني التي تـــوقفت فـــيها الإضافات العلمية بل وظهرت فيها اتجاهات خطيرة لبعض العلماء الذين كانوا ينهون عن التأليف ، ومن هذا النفر العالم المصري الأزهري **محمد بن عـــلاء الـــدين أبـــو عبد الله المعروف بشمس الدين البابلي الشافعي الحـــافظ** ، وهـــو كما يقول المحبي في كتابه: (خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عـــشر) : "أحـــد الأعـــلام في الحديث والفقه وأحفظ أهل عصره لمتون الأحاديث وأعـــرفهم بجـــرحها ورجالها وصحيحها وسقيمها" المتوفى في سنة ١٠٧٧هـــ ومع علمه هذا إلا أنه كان ينهى عن التأليف ويقول :

"التألـــيف في هـــذه الأزمان من ضياعة الوقت فإن الإنسان إذا فهم كلام المتقدمين الآن ، واشتغل بتفهيمه ، فذلك من أجل النعم وأبقى لذكر العلم ونشره ، والتأليف في سائر الفنون مفروغ منه " .

وكـــان **الشيخ شمس الدين البابلي** إذا بلغه أن أحداً من علماء عصره ألف كتاباً يقول : "لا يؤلف أحد كتاباً إلا في أحد أقسام سبعة ، ولا يمكن التأليف في غيرها وهي :

١- إما أن يؤلف في شئ لم يسبق إليه يخترعه .٢- أو شئ ناقص يتممه أو شئ مستغلق يشرحه . ٣- أو طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه . ٤-أو شيء مختلف يرتبه. ٥-أو شيء أخطأ فيه مصنفه يبينه . ٦-أو شيء مفرق يجمعه .

ولقـــد نـــتج عن هذا النهي عن التأليف ظهور كثير من المتون على الكتب للعلماء السابقين ، وكانت مهمة المتون اختصار وتلخيص الكتب السابقة في كتيبات

صغيرة ، حتى يسهل حفظها ، ومن ثم شاع بين الحفاظ في هذا العصر القول الشائع : "**من حفظ المتون فاز الفنون**" .

وظهـــرت كثير من الحواشي والشروح والتقارير التي مهمتها شرح الكتب الـــتي ألفت في العصور السابقة ، وشرح المتون التي سبق اختصارها ، وظلت الحياة العلمية تمشي على هذه الوتيرة زمناً طويلاً لا يتقدم فيها العلم ولا العلماء.

ولكـــن كـــان لهـــذه المؤلفات والمختصرات والشروح خطرها على العقل الإســـلامي ، لأن هذه المختصرات كان طلاب العلم يحفظونها قبل دراستها من غير فهم ، وكان أصحاب هذه المتون يتنافسون في المبالغة في إيجازها حتى صارت عباراتها غامضة ، ولا سيما إذا كانت منظومة في شعر .

ومن ثم جاءت الكتب التي وضعت لشرحها فوجهت عنايتها لشرح وتفسير غوامض المتون وحل رموزها وعقدها ، وبذلك ضاعت العناية بدراسة مسائل العلوم التي وضعت فيها ، وكان لهذا الأثر البالغ في شيوع الغموض والتعقيد في المؤلفات .

ومـــع الزمن صارت تلك الشروح في حاجة إلى حواشي لتفسير ما فيها من الغموض ، وأضحت الحواشي في حاجة إلى تقارير تشرح ما فيها من غموض أيضاً .

فكـــان المدرس ينتقل بالطالب من المتن إلى الشرح ومن الشرح إلى الحاشية ومـــن الحاشـــية إلى التقرير ، وإذا توصل الطالب إلى فهم عبارات المتون والشروح والحواشـــي كـــان يبلغ في نظر علماء زمانه الغاية المرجوة ولو أدى ذلك إلى إفساد قواعد العلوم .

وهذه الطرق في تناول التراث أدت إلى الجمود والعزوف عن التأليف في أي جديد وبذلك توقفت الإضافات العلمية في الفكر الإسلامي والعلوم لدى المسلمين .

وقد أشار المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون إلى خطورة هذا النوع من المؤلفات ، وذلك في مقدمته تحت عنوان :

"فصل في أن كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم "[٧] :

وقال عن هذا الاختصار : "بأنه مخل بالبلاغة وعسر على الفهم ... وهو فساد في التعليم وفيه إخلال بالتحصيل ، وذلك لأن فيه تخليطاً على المبتدئ بإلقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد بقبولها ، وهو من سوء التعليم كما سيأتي ، ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم بتتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعاني عليها ، وصعوبة استخراج المسائل من بينها لأن ألفاظ المختصرات تجدها لأجل ذلك صعبة عويصة فينقطع في فهمها حظ صالح من الوقت " .

ثم أشار إلى خطورة كثرة الشروح على العلوم وقال بأنها عائقة عن التحصيل قائلاً : "إعلم أنه مما أضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التأليف واختلاف الاصطلاحات في التعليم وتعدد طرقها ، ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك ... فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها ، ولا يفي عمره بما كتب في صناعة واحدة إذا تجرد لها فيقع القصور ولابد ، دون رتبة التحصيل " .[فصل ٣٦ من الباب الثالث] .

ولم تزل الدولة العثمانية أن ضعفت بعد أن اتسعت اتساعا مهولا ولم تستطيع معه أن تجدد إدارتها ، ولما كانت عظمتها مبنية علي أساس قوتها العسكرية لذا عندما سقطت هيبتها العسكرية سقطت الدولة نتيجة للضربات التي سددها الغرب المسيحي إليها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وذلك بعد أن تغلغلت

---

(٧) ابن خلدون ، المقدمة ، فصل رقم ٣٧ من الباب الثالث من المقدمة .

فـــيها الامتيازات الأوربية التي شجعت الغزو الفكري الذي ساعد في تمزيق الأفكار والأوطان . وسوف نتناوله فيما بعد في فصل خاص به .

ظهور الأسر الحاكمة في الخليج العربي:

كـــان الشاطئ العربي من عُمَان إلى العراق في مطلع العصور الحديثة يخضع لحـــياة قبلـــية مضطربة ليس فيها إستقرار ولا هيمنة لقبيلة على أخرى . وكان بنو خالـــد يـــسيطرون علـــى الساحل الشرقي للجزيرة العربية في الأحساء والقطيف وســـواحل قطـــر والبحرين ، وهم من الشيعة ، ولهم نفوذ في داخل نجد يصل إلى وادي حنـــيفة وكـــان عـــثمان بن معمر عاملا لهم ، في زمن سليمان آل محمد فقد كانـــت لـــه يد طولى في أرض العرب سيما في نواحي العراق مما يلي نجد وفي نجد نفـــسها وكـــذا أطراف الشام،إذ معسكره كبير ودولته كبيرة وعظيمة وشجاعته معـــروفة وقومه الخوالد أهل بأس شديد ، وكان يغزو نجد ، إن لم يرضه كل واحد من حكامها بشيء [٨] .

وفي القـــرنين ١٨،١٧ بدأت تظهر قوى ودماء جديدة في الساحل العربي كاليعاربة في عمان ، وأسرة الصباح في الكويت ، والسعوديون في الأحساء ، وآل خليفة في قطر والبحرين ، والجلاهمة في قطر والقواسم وبني ياس في ساحل عمان .

ويـــرجع أصل هذه الأسر إلى (قبائل العتوب) التي خرجت من نجد بسبب القحـــط الذي أصابها وتوجهت إلى ساحل الخليج لكي تطل منه على العالم الخارجي علـــها تجـــد ســـبيلا إلى الرزق فاستقر اليعاربة في عمان ، وأستقر آل الصباح في

---

[٨] انظر : د.عبد الرحيم عبد الرحمن ، الدولة السعودية الأولى ، ص٣٢-٣٣ .

الكـــويت ، وآل خلـــيفة في قطر والبحرين ، والجلاهمة في قطر [٩] وبني كعب في عربستان بالساحل الإيراني ، والقواسم وبني ياس في ساحل عمان .

وكـــان مـــن بين من خرج من الأفلاج ، الأسرة السعودية وكان يقودهم (مانـــع بن المسيب) الملقب (بالمريد) جد آل سعود فكان يقطن بلدة (الدروع) من أعمـــال القطـــيف ، ثم استقرت الأسرة بعد ذلك قرب (الدرعية) في أواخر القرن الـــسابع عـــشر بـــزعامة (مقرن بن مرخان) الذي أختار الدرعية عاصمة له سنة ١١٠٠هـــ (١٦٨٢م) . [١٠] ومـــرخان يـــضع علامة استفهام في أصل الأسرة السعودية لأنه من أسماء المغول والأتراك ، فإذا أضفنا إلى هذا حب الأسرة السعودية في تـــسمية كـــثير من أبنائهم باسم (تركي) فإن الشك يصبح في محله في احتمال أصلهم التركي ، أو تصاهرهم على الأقل مع الأتراك .

وبـــذلك تكونت إمارات الكويت وقطر والبحرين وسلطنة نجد والإحساء والإمـــارات العـــربية المـــتحدة في الساحل الغربي للخليج . وعربستان في الساحل الشرقي الإيراني للخليج .

ويـــروى الـــشيخ عـــبد الله الـــسالم الصباح حاكم الكويت في الفترة من (١٩٥٠-١٩٦٥م) أنـــه في نهاية العقد الأول من القرن الثامن عشر (١٧١٠م) دفـــع قحط دائم أسرة الصباح ، وكانت ذات نفوذ كبير في قبيلة عنـــزة بأسرها الـــتي يرجع أصلها إلى بكر بن وائل من قبائل ربيعة ، وآل الصباح عشيرة من فرع من فروع قبيلة عنـــزة يسمى (الشملان) دفعهم هذا القحط إلى الهجرة من وسط نجد بحثا عن موطن أيسر عيشا ، وصحبتهم أسرة آل خليفة وتحركوا في البداية نحو

---

(٩) د . صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج ، ص٥٦ ، ٥٧ .

(١٠) د . عبد الرحيم عبد الرحمن ، الدولة السعودية الأولى ، ص١٤ .

الجـــنوب إلى وادى الدواســـر ، ولكنهم وجدوه أقسى حالا من نجد ، فرجعوا إلى (الـــزُّبارة) في شبه جزيرة قطر على الخليج العربى ، ومعهم أسر أخرى عريقة ... وحين وجدوا الأحوال في قطر غير حسنة ، تحركوا بماشيتهم ومتاعهم إلى موقع ناء ، هو موقع الكويت الحالية .

وحاول آل الصباح تأمين مقامهم لدى الأتراك الذين كانت لهم السيادة في البصرة والسيطرة على مناطق الخليج فبعثوا الشيخ الصباح جدهم الأعلى إلى الباشا التركـــي رســـولا يبين له أنهم فقراء نزحوا في طلب العيش ولا يبغون ضراً لأحد ، فـــنجح في ســـفارته وسمـــح لهم الباشا التركي بالإقامة في الساحل المعروف الآن بالكويت .

وهكـــذا تأســـست الكويت في بداية القرن الثامن عشر من قبيلة بنى عتبة الـــذين تزعمتهم أسرة الصباح ونمت نموا واضحا في السنوات الخمسين الأولى من حياتها [١١] .

وكـــان في صـــحبة آل الـــصباح في بدايـــة نزولهم بالكويت آل خليفة ، والجلاهمة ، وبعد أن اتخذت القبائل الثلاث الكويت موطنا لها،اتفقوا عام ١٧١٦م فـــيما بينهم على أن يتولى (آل الصباح) شئون الحكم ، و(آل خليفة) التجارة ، و (الجلاهمة) العمل في البحر ، على أن يقتسم الجميع الأرباح بينهم بالتساوي .

وبعـــد مضى خمسين سنة على الاتفاق أي سنة ١٧٦٦م رأى آل خليفة أن ينفـــصلوا عـــن الحلف فصرحوا لآل الصباح بأنهم ينوون الهجرة إلى (الزُّبَارة) على شاطئ شبه جزيرة قطر للاستقلال بها وحكم البحرين [١٢] وتخلص آل الصباح بعد

---

[١١] د . سيد نوفل ، مرجع سابق ، ص١٦٥ .

[١٢] حافظ وهبة ، جزيرة العرب في القرن العشرين ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٣٥م ، ص٩٥-٩٦ .

ذلك من الجلاهمة ، فامتنعوا عن مقاسمتهم الوارد وطردوهم من الكويت فلجئوا إلى آل خليفة في (الزُّبَارة) فأجروا لهم من الرواتب ما يتناسب مع مركزهم [١٣] .

وعمـــان هـــي الدولـــة الوحيدة في الخليج التي لها امتداد حتى قبل ظهور الإســـلام ، وهي دولة محورية في مدخل الخليج العربي تواجه إيران وتطل على بحر العـــرب فلـــها صـــلات بالهند وباكستان وأفريقيا ، وشرق آسيا فمن هنا كانت ومازالـــت لها أهمية استراتيجية في المنطقة العربية ، ولها سياستها التي تنفرد بها عن غيرها من دول الخليج . على الرغم من وجودها في عضوية مجلس تعاون الخليج مع السعودية والكويت وقطر والبحرين والإمارات العربية المتحدة .

النفوذ البريطاني في الخليج :

وعندما أتى الإنجليز إلى الخليج العربي واكتشفوا البترول اعتمدوا على هذه الكيانات القبائلية الضعيفة ، وثبتوهم في أماكنهم وعقدوا معهم معاهدات لحمايتهم ، وحافظوا على عدم وحدتهم ، واكتسب النفوذ البريطاني قوته في الساحل الجنوبي الشرقي لشبه جزيرة العرب ابتداء من الكويت إلى مسقط بوسيلتين :

أولاً : نظام التعهدات المنفردة :

التعهدات المنفردة هي التي عقدتها بريطانيا منذ سنة ١٨٢٠م مع الامارات والمـــشيخات العـــربية بما يسمى الامتناع عن القرصنة والحقيقة كانت الامتناع عن المقاومـــة ، والامتناع عن تجارة الرقيق ، وأخذت هذه التعهدات شكلا قانونيا أدى إلى عقـــد الاتفاقات المانعة في أواخر القرن التاسع عشر ، وبذلك أصبح لبريطانيا

---

[١٣] حسن سليمان ، مرجع سبق ذكره ، ص١٥١-١٥٢ .

نـــشاط تجـــارى كبير في الخليج وخاصة بعد أن حلت الملاحة البخارية محل الملاحة الشراعية العربية .

ثانياً : عقد الاتفاقات المانعة :

الاتفاقـــات المانعـــة هي التي يتعهد كل أمير من الأمراء ألا يدخل في أي علاقـــة أو اتفاقية مع أية دولة عدا الحكومة البريطانية ، ولا يتنازل أو يبيع أو يرهن أي جـــزء من بلاده إلا للحكومة البريطانية ، وهذه الاتفاقات هي التي مكنتها من فـــرض الغـــرامات على الإمارات والمشيخات ، وجمع الأموال عن هذا الطريق في أواخـــر القرن ١٩، الذي وضع المنطقة تحت الحماية ، ومكن بريطانيا فيما بعد من السيطرة على إنتاج النفط في المنطقة .

وكانت البحرين أول مشيخة تعقد اتفاقا مانعا مع بريطانيا سنة ١٨٨٠م في عهد الشيخ (عيسى بن على بن خليفة) (١٨٧٠-١٩٢٤م) الذي تولى الحكم بعد تنحـــية أبـــيه بمعاونـــة التدخل العسكري الإنجليزي بحجة مخالفة والده للتعهدات المنفـــردة، وهو عبارة عن تعهد من طرف واحد أعلن فيه شيخ البحرين : " بأنه لا يـــتفاوض أو يـــدخل في اتفاق مع دولة أجنبية بدون إذن الحكومة البريطانية ، [١٤] وكـــذلك لا يسمح بإقامة مستودع في أراضيه إلا بمشورتها ، ثم أكمل هذا الاتفاق باتفاق ثان سنة ١٨٩٢م تعهد فيه حاكم البحرين : "بعدم التنازل أو رهن أو تأجير جـــزء من أراضيه إلا بإذن الحكومة البريطانية ، وبعدم اعتماد ممثلين للدول الأجنبية في بلاده " .

---

(١٤) د . صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج ، ص١٧٨-١٧٩ .

فرض الحماية على إمارات الخليج :

وكان هذا هو نظام الحماية دون إعلانه ، ومن أهم مظاهره الإشراف على السياسة الخارجية للإمارة الموضوعة تحت الحماية ، ولكن بريطانيا أطلقت عليه نظام الاتفاقات المانعة ، وبذلك قطعت بريطانيا الطريق على الدول الأخرى من التدخل في إمارات الخليج الضعيفة ، مثل فرنسا وتركيا وفارس وغيرهم .

وهكـــذا اســـتطاعت بريطانيا أن تسيطر على الساحل الغربي للخليج كله حـــيث الكويت وقطر والبحرين وإمارات ساحل عمان التي أطلقت عليها إمارات الـــساحل المتصالح أو المهادن ، وتم لبريطانيا أن تعقد مع أمراء ومشايخ هذه المنطقة في القـــرن التاســـع عشر معاهدات أو تنتزع منهم التزامات من جانب واحد دون مقابل ، بأن يمتنعوا عن التصرف في أراضيهم بأي وجه من الوجوه إلا بموافقة سابقة مـــن بـــريطانيا الدخيلة القيِّمة على مقدراتهم . وكذلك تتولى بريطانيا جميع الشئون الخارجية لإمارات الخليج ، وتتدخل في شئونها جميعا بواسطة المقيم السياسي العام في البحـــرين ، والمعـــتمدين في سائر الإمارات ، وتتشبث بهذه الأقاليم العربية تشبثا عجيبا . (١٥)

ولقـــد عملت بريطانيا على عدم ذوبان تلك الإمارات في الدول المجاورة ، وذكر المقيم البريطاني في الخليج في سنة ١٩٥٩م بأن بريطانيا " لن تضحي الآن أو غـــدا مطلقاً بهذه المشروعات الضخمة الجبارة ، ويجب المحافظة بأي ثمن على السلام

---

(١٥) د . سيد نوفل ، الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربي وجنوب الجزيرة ، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة ، الطبعة الثانية ، دار المعرفة ، ص٦٠-٦١.

في هـــذه المنطقة (والأصح الاستسلام) ، والنفوذ البريطاني يجب أن تبقى له الكلمة الأولى والأخيرة [١٦] " .

أسباب تمسك بريطانيا بهذه المنطقة :

ويـــرجع السبب في تمسك بريطانيا إلى أن الدولة التي تستولي على الخليج وساحل عمان تستطيع أن تحكم جزيرة العرب والعراق وإيران وأفريقيا وتستطيع أن تغلـــق قـــناة السويس وأن تقطع خطوط المواصلات الجوية والبحرية إلى الهند وأفـــريقيا . لأن الخليج هو قلب الشرق الأوسط جغرافيا ، بالإضافة إلى أن المنطقة هي مصدر بترولهم وبترول حلفائهم في أوربا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية .

بالإضافة إلى ذلك أنها قلعة التهديد الأجنبي للشرق الأوسط الذي لم يتخل الاستعمار بعد عن أعماله العدوانية فيه بل زادت أطماعه ومحاولاته . والذي ساعد بريطانيا على السيطرة أن البلاد العربية في هذه المنطقة ، استحال عليها تكوين دول عربية موحدة بسبب التنازع والتفاخر بالأنساب والحرص على الثارات ، ونتيجة لـــذلك تعددت الوحدات السياسية الضعيفة ، وحافظت بريطانيا جاهدة على هذا الوضع بل إنها مضت في تشجيع عملية تفكك الوحدات حتى يتمهد لها السبيل إلى السيطرة عليها جميعا ، وكان لها ما أرادت.[١٧]

تدهور بريطانيا بعد الحرب الثانية والتدخل الأمريكي :

بدأ الاتصال الأمريكي بالشرق الأوسط منذ عقد الولايات المتحدة لمعاهدة مـــودة وتجـــارة مع سلطان مسقط تمنح المرور والإقامة لرعايا الولايات المتحدة في مسقط في عام ١٢٤٩هـــ (١٨٣٣م) .

---

[١٦] المرجع السابق ، ص٦٢ .

[١٧] د . حسن سليمان ، الكويت ماضيها وحاضرها ، نشر المكتبة الأهلية بغداد ١٩٦٨م ص١٤٥ .

وتكفلت بريطانيا بحماية هذه العلاقات ، وكانت الحكومة الأمريكية تميل إلى اعتبار المنطقة منطقة بريطانية ، وظهرت المطامع الأمريكية في الخليج واضحة منذ عام ١٩٢٤م وأخذ بعض الأمريكيين المستعربين يتنقلون في المملكة العربية السعودية بحثا عن البترول وظهر التنافس الأمريكي البريطاني .

وتدخلت أمريكا بقوة في نشأة إسرائيل وجعلها أداة لتهديد العرب ومصدراً للاضطراب في الشرق الأوسط فساعدت في الأمم المتحدة لإقرار مشروع تقسيم فلسطين بين العرب واليهود سنة ١٩٤٧م واعترفت بإسرائيل فور إعلان قيامها في ١٥ من مايو سنة ١٩٤٨م وأمدها بالسلاح والغذاء .

وكان هذا التحول الأمريكي في السياسة تجاه الشرق الأوسط خاصة والعالم عامة نتيجة لتدهور الاستعمار البريطاني وضعفه ورغبة في ملئ الفراغ الغربي [١٨] والبريطاني .

محاولات الإصلاح في العالم الإسلامي:

ضعفت الدولة العثمانية وتكالبت عليها كثير من الدول الأوروبية الطامعة في أملاكها ، ولم تستطع الدولة أن تواجه الأوضاع المتردية في ولاياها ، ولم تستطع من ناحية أخرى أن تواجه الأطماع الأوروبية في أراضيها . ولما وصل الحال إلى هذا الحد من الضعف ارتفعت الأصوات المخلصة في شتى أنحاء العالم الإسلامي تنادى بالإصلاح لإعادة المسلمين إلى سابق عظمتهم .

---

[١٨] د . سيد نوفل ، المرجع السابق ، ص٨٨-٩٤ .

الحركة الوهابية :

وكـــان التـــيار العام الجارف هو تيار الإصلاح على أساس عقائد السلف الـــذي يقـــول بأن الشريعة الإسلامية التي حققت للمسلمين الأوائل العزة والرفعة والمـــنعة بين الأمم في الأزمنة الماضية كفيلة بأن تحقق لهم العزة والمنعة من جديد إن هم عادوا إليها خالية من شوائب الانحراف وسوء التطبيق .

وقـــد انبعث هذا التيار في قلب الجزيرة العربية وقاده الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١١١٥-١٢٠٦هـ) (١٧٠٣-١٧٩٢م) هذا التيار الذي امتد ومازال يمـــتد حـــتى الـــيوم إلى شتى بقاع العالم وانبثقت منه مختلف الحركات الإسلامية في مختلف بلدان العالم الإسلامي في العصر الحديث .

محمد بن عبد الوهاب :

والـــشيخ محمد بن عبد الوهاب ولد في بلدة العيينة من إقليم نجد وتربى في بيت علم على مبادئ المذهب الحنبلي لأحمد بن حنبل (١٦٤ـــ ٢٤١هـــ)، وآراء ابـــن تيمـــية (٦٦١- ٧٢٨هـــــ) في الإصلاح والتفقه في الدين معروفا بالتقوى والـــسلوك الصالح بين ذويه وأهله ، وحج في مطلع شبابه لبيت الله الحرام في مكة المكـــرمة ، وطلب العلم في المدينة المنورة وساح في كثير من البلاد المجاورة كالشام والعـــراق وفـــارس ثم عاد إلى نجد ، وقد تميز غضبا لما رآه من سوء حال المسلمين فصحّت عزيمته على القيام بدعوة إصلاحية للعودة بالإسلام إلى نقائه الأول وعظمته لدى المسلمين الأوائل .

وبـــدأ يبـــشر بدعوته الإصلاحية التي قوامها محاربة البدع والخرافات التي ســـادت في العصر العثماني فأمر بهدم المزارات التي أصبح الناس يتوجهون إليها من

دون الله ودعـــا إلى نـــبذ ما لم يرد في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، حتى يخلص الإسلام من البدع والرجوع به إلى بساطته الأولى .

وأعلـــن الشيخ محمد بن عبد الوهاب دعوته صراحة وشاع أمره في بلدان العـــارض في (حريملا) و (العيينة) و (الدرعية) و (الرياض) وأتى إليه كثيرون من أهـــل تلك البلاد وانتظموا في سلك دعوته ، وألف كتابه " "التوحيد الذي هو حق الله على العبيد " وترك (حريملا) لأنها غير صالحة للدعوة لأن أهلها تآمروا على قتله ، وذهب إلى (العيينة) مسقط رأسه بدعوة من أميرها (عثمان بن معمر) فكثر أتباعه بهـــا وقصده الناس . وهدم كثيرا من القباب والمساجد المقامة فوق القبور . وقطع الأشجار التي كانت لها قداسة عند البدو من سكان إقليم نجد .

وبـــدأ يطبق قواعد الشرع وحدوده بمعاونة الأمير فبلغ ذلك (سليمان آل محمـــد) رئـــيس بنى خالد في الإحساء ، وكان عثمان بن معمر عاملا له بالعيينة ، فاتصل به يطلب منه قتل الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأخافه إن لم يفعل أن يقطع عنه الخراج ويمنع تجاره من الورود إلى موانئ الخليج .

فأمر ابن معمر الشيخ بمغادرة (العيينة) إذ ليس له حول ولا قوة إزاء محاربة ســـليمان ، فقـــصد الـــشيخ (الدرعية) ، وكان قد أصبح له فيها أتباع ومن بينهم أخـــوين لأميرها (محمد بن سعود) وهما (ثنيان) و(مشارى) . لعله يجد فيها المكان الصالح لدعوته ، وكانت رسائله لبث الدعوة قد سبقته إليها من قبل.

وقد وجد الشيخ محمد بن عبد الوهاب طريقه ممهداً إلى أمير الدرعية (محمد بـــن سعود) ، فعندما وصل إليها بايعه الأمير على الجهاد في سبيل الله وإقامة شرع الله والأمـــر بالمعروف والنهى عن المنكر وتم التحالف بين الشيخ والأمير على نصرة الحق ومحاربة مظاهر الشرك .

وكانـــت هـــذه بداية طيبة لآل سعود أنتشر نفوذهم بعد ذلك عن طريق الجهـــاد في شتى أنحاء الجزيرة العربية بعد أن كان أمرهم محصوراً في الدرعية فقط وليس لهم نفوذ في خارجها ، وكان هذا الاتفاق بين الأمير والشيخ حجر الزاوية في بـــناء الدولـــة الـــسعودية الأولى وكـــان هذا الاتفاق أيضا في سنة ١١٥٨هـــ (١٧٤٥م) .

وفي أعقاب هذا الاتفاق سارع كثير من رؤساء البلدان إلى الدرعية يخطبون ودها ، ومنهم من أعلن مناهضته للدعوة واستغرقت عملية توحيد إقليم نجد أكثر مـــن أربعـــين عاماً خاضت خلالها أسرة آل سعود حرباً طويلة مع مدن وقرى هذا الإقليم .

وبعد وفاة محمد بن سعود سنة ١١٧٩هـــ (١٧٦٥م) قام ابنه عبد العزيز مـــن بعده بالأمر وقاد الجيش السلفي إلى أقاصي أقاليم بلاد جزيرة العرب فانتصر فيها نصرا كبيرا وقد حاول شريف مكة (الشريف غالب بن مساعد) أن يصد دعوة الوهابيين ولكنه فشل .

ونظرت الدولة العثمانية إلى الحركة الوهابية نظرة ملؤها الخوف نظرا لأنها تدعـــو إلى خلافة عربية ونبذ الحكم العثماني والخلافة العثمانية التي كانت سببا في تأخـــر المسلمين ، وتوفى محمد بن عبد الوهاب سنة ١٢٠٦هـــ (١٧٩٢م) بعد أن قويت دعوته وانتشرت في الجزيرة العربية .

وفي ســـنة ١٢١٦هـــ (١٨٠٢م) دخل سعود بن عبد العزيز مكة وأجلى عـــنها الشريف غالب ، وأخرج من كان بمكة من الأتراك ، ثم استولى على المدينة بعد فتح مكة بسنتين وامتدت دعوتهم إلى عسير واليمن .

السلطان يأمر محمد على بضرب الحركة الوهابية :

تعطلت مواسم الحج السنوية واضطربت تركيا إزاء امتداد دعوة الوهابيين واستيلائهم على الحرمين الشريفين ومنعهم الحجاج الذين لا يتبعون تعاليمهم . فاستنجدت الدولة (بمحمد على باشا) والي مصر وطلبت منه أن يقضى على حركتهم ، وكان نفوذهم في ذلك الحين قد بلغ أقصى مداه ، ولم تجئ سنة ١٨١١م التي جهز فيها محمد على جيشه لقتالهم حتى كان سلطانهم قد امتد من أقصى الجزيرة إلى أقصاها [١٩] .

فأعد محمد على جيشا بقيادة ابنه (أحمد طوسون) وكان في السابعة عشر من عمره ، ورتب له أبوه حفلة كبيرة لإلباسه خلعة القيادة وانتقاله إلى معسكر الحملة (وهى الليلة التي تخلص فيها من المماليك في مذبحة القلعة) . وبلغ الجيش ثمانية آلاف رجل كثير منهم من البدو .

وتحركت الحملة برا وبحرا إلى ينبع ومعها أربعة علماء من علماء المذاهب الأربعة ، وواجه الجيش المصري قوة الوهابيين في أوجها ، ولكن ما لبث أن تحرج موقف الجيش المصري فسافر (محمد على) إلى الحجاز ومعه مدد من الرجال ، وبعد هدنة عاد محمد على إلى مصر وسافر (إبراهيم باشا) بن محمد على لقيادة الحملة فانتقل بالحملة من نصر إلى نصر حتى تم له الاستيلاء على (الدرعية) معقل آل سعود والدعوة السلفية وعاصمتهم سنة ١٨١٨م ، وكانت تبعد عن المدينة المنورة التي اتخذها إبراهيم باشا قاعدة لتحركاته الحربية حوالي ٤٠٠ميل . وانتهت الحرب الوهابية بانتصار الجيش المصري وبسط نفوذ مصر في بلاد العرب ،

---

[١٩] عبد الرحمن الرافعى ، عصر محمد على ، ص١٣١ .

وكانت الحرب الوهابية من وجهة النظر المصرية المعاصرة للأحداث عملا عدائيا ضد أخوة مسلمين قاموا بدعوة سامية لتخليص الدين من الخرافات والبدع ، فالجبرتي وهو معاصر لأحداث هذه الحرب ، ويعكس وجهة النظر المصرية تجاهها ، لم يكن راضيا عنها وسجل أحداثها بمرارة ظاهرة ، تدل على عدم الرضا والاستنكار ، وسجل بعض منشورات الدعوة الوهابية التي وصلت إلى مصر في كتابه (عجائب الآثار) وعلق عليها بالاستحسان قائلا : " أقول: إن كان كذلك فهذا ما ندين به نحن أيضا وهو خلاصة لباب التوحيد . وما علينا من المارقين والمتعصبين " وقد بسط الكلام في ذلك ابن القيم في " إغاثة اللهفان" والمقريزى في " تجريد التوحيد " ...[٢٠] .

وبذلك نرى أن الحركة الوهابية كانت حركة إصلاحية إسلامية ، وعليه لم تكن الحرب التي خاضها محمد على ضدهم وبذل فيها المصريون أرواحهم وأموالهم ، لم تكن حربا ضرورية وكانت مصر في غنى عنها ، ولقد ارتكب إبراهيم باشا بن محمد على في هذه الأراضي المقدسة كثيرا من الجرائم الوحشية ، كان على رأسها أنه حكم بقتل جميع رؤساء المذهب الوهابي من رجال الدعوة .

وأسدل الستار إلى حين على فصل من أهم فصول اليقظة العربية الإسلامية عندما قضت الدولة العثمانية على الدولة السعودية الأولى سنة ١٢٣٣هـ = (١٨١٨م) .

---

[٢٠] عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج٣ ص٢٧٢ .

الدولة السعودية الثانية :

وتولى حكم نجد أحد أفراد الأسرة السعودية باسم محمد على ، وهو (خالد بـــن ســـعود) [٢١] .وعقب انسحاب قوات محمد على من شبه الجزيرة العربية سنة ١٨٤٠م دب الخـــلاف بين الأسرة السعودية وشهدت حربا أهلية ثم كانت نهايتها في سنة ١٨٩١م .

الدولة السعودية الثالثة :

لكـــن الدعـــوة الـــسلفية جددت شبابها عندما ظهر في مطلع القرن الحالي الميلادي قائد قوى هو (عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود) حفيد محمد بن سعود الكـــبير ، الذي استولت التعاليم الإصلاحية على مشاعره وتملكه شعور بالتصميم علـــى إعـــادة الحـــركة إلى قوتها لإعادة الأمة العربية والإسلامية مرة أخرى لمكان الـــصدارة في الـــسياسة والفكر . وعلى الرغم من قلة رجاله إلا أن الإيمان الذي تـــسلح به كان أقوى من كل العقبات ((وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله)) فـــنجح برجاله القلائل في إعادة تجميع أنصار الحركة الذين فرقتهم الدولة العثمانية من قبل وأعاد سلطة الحركة السلفية والدولة السعودية من جديد منذ أن أعاد فتح الرياض سنة ١٣١٩هـــ (١٩٠٢م) من جديد .

حيث خرج عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود من الكويت ١٣١٩هـــ – ١٩٠١م ، ومعه أربعون رجلا كلهم من آل سعود والموالين لهم ، وسار بجماعته ، وتمكن من فتح الرياض ، فسمع الناس له وأطاعوا . وقد مكث اكثر من عشرين

---

[٢١] د . عبد الرحيم عبد الرحمن ، تاريخ العرب الحديث ، ص٣٣١-٣٣٢ .

ســـنة يجالد ويغالب الخصوم من النجديين والأشراف والأتراك ، يضربهم حيناً ويلين حينما يرى السياسة واللين انجح من الخصام والقتال .[٢٢]

ولأول مرة منذ صدر الإسلام تتحقق الوحدة العربية في الجزيرة العربية في أعقــاب الحــرب العالمــية الأولى ما عدا بعض الأطراف في اليمن وساحل عمان وإمارات الخليج التي تمركز فيها الاستعمار الإنجليزي .

محاولة تحضير البدو :

لقــد كان أهم ما ساعد الملك عبد العزيز على بناء الدولة السعودية الثالثة هــو محاولــته تحضير البدو واستقرارهم لأن هذا يمنع عملية اعتدائهم على بعضهم للسلب والنهب ، فقد عمل على إيجاد أماكن للاستقرار حول آبار المياه في أماكن صــالحة للزراعة سماها (الهجر [٢٣]) وكلمة الهجر معروفة في الجزيرة العربية بأنها هجــرة البداوة إلى حياة الاستقرار وبذلك عرفت منطقة البحرين في شرقي الجزيرة العربية التي اعتمدت على الزراعة بأنها منطقة هجر .

كانــت خطة عبد العزيز تستهدف في البداية اجتذاب عدد صغير من البدو حــول نقــاط مــياه مخــتارة بعناية تقع بعيدا عن طرق القوافل ورعايتها بالدعم والامتــيازات ، لزيادة الرقعة المزروعة عن طريق أعمال الري والزراعة حتى يقبل باقي البدو ويستقروا بدورهم لمضاعفة هذه الجزر الخضراء عندما يزيد عدد سكانها وفي الــنهاية حث البدو على الاستقرار في هذه المناطق المنتجة ، والتي تم الاستيلاء عليها رويدا رويدا من الصحراء القاحلة .

---

(٢٢) عمر رضا كحالة ، العالم الإسلامي ، ج١ ، ص١٥٨-١٥٩ .

(٢٣) هَجَرُ : تستعمل في خروج البدو من باديته إلى المدن ، وهي من الهجران ، كأنهم يهجرون حياة البداوة وينتقلون عنها إلى قرى جديدة ، وهجر بلغة حِمْيَر والعرب العاربة (القرية) فمنها هجر البحرين وهجر نجران وهجر جيزان (ياقوت ، معجم البلدان) وعندما بنى الملك عبد العزيز آل سعود قرى للقبائل للاستقرار بها أطلق عليها (هَجَرْ) .

وتكفـــل عبد العزيز لهم ببناء المساكن وأمدهم بالبذور والأدوات الزراعية وقــدم لهــم الخـــدمات الصحية والتعليمية والدينية ، وكان ذلك كفيلا بتغييرهم وإحلال الشعور الوطني محل الشعور القبلي حيث استقر البدوي في وطن يعيش في ظله ، ودولة توفر له الأمن والرخاء .

إنشاء حركة الإخوان :

وفي هـــذه المستوطنات (الهجر) بدأ عبد العزيز ينظم جيشا جديدا من هذه المـــستوطنات هو (جيش الإخوان) الذي لا ينتمي إلى مجتمع القبيلة وإنما ينتمي إلى المـــستوطنات الجديـــدة التي أقامها ، فقيام حركة الإخوان التي سيعتمد عليها عبد العزيـــز في حـــروبه تعتبر كسراً للمجتمع البدوي المبنى على أساس تضامن وحدة القبيلة ، فكان عبد العزيز يرى أن تجميع البدو في وحدات زراعية وسيلة مهمة من وسائل القضاء على النـــزعة القبلية عندهم .

وكانـــت مـــستعمرة الإخـــوان الأولى التي أقيمت في عام ١٩١٢م وهى (الأرطاويـــة [٢٤]) أول خطـــوة في برنامج مرسوم يستهدف القضاء على النظام القبلـــي في الجزيـــرة العربية لصالح الوطن ؛ وسرعان ما أصبحت الأرطاوية المدينة المزدهـــرة الـــتي تـــضم عشرة آلاف مواطن النموذج الذي يحتذي لمائة مستوطنة خرجت إلى نور الحياة في أجزاء مختلفة من نجد أثناء الخمس عشرة سنة التالية [٢٥].

وبعد تنظيم حركة الإخوان وانتشارها وتطورها لم تعد السلطة الفعلية على القـــبائل بـــيد شيوخها بل انتقلت إلى الحكومة المركزية التي يرأسها عبد العزيز في

---

[٢٤] كانت الأرطاوية لقبائل مطير فهم أول من أجاب دعوة عبد العزيز لإنشاء الهَجر ، وتقع الأرطاوية في شمال (سدير) وشرقى (الزلفى) وكان أميرها فيصل الدويش وكان زعيما لقبائل مطير .

[٢٥] الموسوعة البريطانية ، مجلد ١٢ ، ص٣٦ ، ٣٧ .

الـــرياض وأصبح الملك عبد العزيز الحاكم الفعلي والإمام الشرعي لجماعات البدو إلى جانب الجماعات الحضرية [٢٦] .

وكفــل عـــبد العزيز ما أصبح يعرف باسم (حركة الإخوان) التي كانت تقتـــضي ممن ينضمون إليها أن يكونوا إخوانا – بالفعل – ولم تكن العلاقات القبلية أو صـــلة الدم تعنى شيئا بالنسبة لأعضائها ، والشرع هو القانون الذي يحكمهم ، ويجب أن يهجر أفراد التنظيم الحياة البدوية ويستبدلوا بخيم الصحراء المؤقتة مساكن القـــرى المـــستقرة حـــيث تنموا النخيل ويمكن زراعة الحبوب ورعايتها . وأصبح الـــبدوي لأول مـــرة صـــاحب مـــسكن يرتبط به ويعود إليه ونبذ حياة الترحال والتجوال ، ونمت فيه غريزة الاستيطان .

فكرة تحرير البلاد العربية من المستعمر :

وبعـــد أن تكونت المملكة العربية السعودية بأرجائها القائمة الآن كان من رأى الإخـــوان بزعامة فيصل الدويش أن يتقدموا إلى مملكة الأردن الهاشمية ومملكة العراق الهاشمية أيضاً لتحريرها من الاستعمار وأعوانه ، فكان على الأولى الملك عبد الله بن الحسين وعلى الثانية أخوه فيصل بن الحسين وكلا الرجلين يمشيان في ركاب الاستعمار الإنجليزي.

وقـــد أنـــشأ الإنجليز مملكة شرق الأردن كياناً مصطنعا لم تكن له خلفية تاريخية ولم يسبق أن قامت في هذا المكان دول أو حتى دويلات فأنشأه الإنجليز لكي يكون دولة وظيفية لها وظيفة محدودة تظهر من خريطتها التي تحجز الشمال القومي في الـــشام عـــن الجزيرة العربية وتحجز الأفكار السلفية من أن تتسرب إلى الشمال الـــشامي ، وكان العراق أيضا له مثل هذه المهمة الأخيرة وهى عدم سريان العقيدة

---

[٢٦] د . ساعد العرابى ، الملك عبد العزيز رؤية عالمية ، ص٣٤١-٣٤٢ .

السلفية إلى ارض العراق تلك العقيدة التي تحض على الجهاد ضد أعداء الإسلام ، وكانت أيضا لحماية الكيان الصهيوني المزمع إقامته بعد وعد بلفور سنة ١٩١٧م .

وكان من رأى فيصل الدويش قائد حركة الإخوان أن يزحفوا على هذا الشمال بعراقه وشامه مروراً بالأردن لنشر رايات العقيدة السلفية وتحرير أرض المسلمين من الغاصبين الذي وزعوها فيما بينهم غداة الحرب العالمية الأولى وخشي الإنجليز من ذلك الخطر الجهادي الذي به وحده تتحرر ديار العرب فضغطوا على الملك عبد العزيز وهددوه واعتبروا ما يقوم به الإخوان على الحدود الأردنية والعراقية عملية سلب ونهب يقوم بها فيصل الدويش ورجاله وذكروا للملك عبد العزيز مهددين أنه لابد من إيقاف هذه الغارات .

ولكن حقيقة هذه الحركة أن الإخوان تمردوا على الملك عبد العزيز عندما رضخ للإنجليز بعد أن حققوا النصر له ، فالإنجليز كانوا لا يرغبون في هذا النوع من المجاهدين الذي يعلن الجهاد على أعداء الإسلام وعملائه ومنهم حاكم العراق فيصل بن الحسين ذلك الملك الذي استوردوه من الحجاز لحكم العراق ، فالإنجليز يخشون من زحف هذه القوى على العراق وشرق الأردن .

وأصبح هناك خطر على العراق والأردن من الإخوان فبدأ فيصل الدويش ورجاله يهاجمون الحدود العراقية والأردنية على الرغم من رفض عبد العزيز لأنه كان قد سوى أموره مع الإنجليز في مقابل أن يتركوا له الحجاز .

ولذلك فإن الإنجليز هم الذين ساعدوا عبد العزيز على ضرب الإخوان وتصفية حركتهم عندما اختلف عبد العزيز مع فيصل الدويش ، فتولى فيصل الدويش عنه غاضبا ، لكن الإنجليز خدعوه فلجأ إليهم فيصل ، وكانوا يريدون قتله لكنهم كانوا يريدون أن يكون القتل بيد عمرو لا بيدهم أي بيد عبد العزيز .

وقـد قامـت السلطات البريطانية في الكويت باعتقال زعماء الإخوان في شـعبان سـنة ١٣٤٨هـ(يناير ١٩٣٠م) وقام وفد بريطاني بتسليم كل من : فيـصل الـدويش ، وجاسر بن لامي ، ونايف بن حثلين ، إلى الملك عبد العزيز في معسكره ، وشكر الملك عبد العزيز المسئولين البريطانيين على تعاونهم وأقر بأن هذا برهان عملي على صداقة الدولة الإنجليزية [٢٧] .

ولا شـك أن ضرب الإخوان كان خسارة كبيرة للعالم العربي والإسلامي ذلـك لأنهـم أحـيوا الجهاد الإسلامي وكانت سيوفهم هي الوحيدة التي تستطيع اقـتلاع الاستعمار من منطقة الشرق الأوسط لكن حكام المنطقة ومنهم عبد العزيز مالوا إلى مهادنة الإنجليز خوفاً على عروشهم .

ويـرى الـبعض إلى أن عـبد العزيز رأى أن طاقة جيله انتهت بتوحيد ما وحدته وأنه لا يستطيع محاربة بريطانيا في العراق والكويت وعدن والأردن .... الخ ، ربما لأن شعوب هذه البلاد لم تكن ناضجة للتحرير ، وهكذا اختلفت الدولة مع الـثورة ، وكـان خلافاً محتوماً ، وخيار كل فريق كأنه القدر المكتوب أو الدراما الإغـريقية .. ابن سعود أراد فترة بناء بعد حروب دامت ٣٠ عاماً ، وأراد إقامة دولـة نمـوذج تكـون قاعدة لكل النشاط الإسلامي سواء باحتضان الثائرين أو بـدعمهم بالمال والسلاح وربما المتطوعين لكن دون اللجوء إلى الفتح أو الاصطدام المباشر مع بريطانيا وفرنسا . [٢٨]

ويقـول : " الإخـوان اختاروا الثورة وما كان لهم أن يختاروا غيرها بحكم تـربيتهم وعقـيدتهم وتكويـنهم كمؤسسة عسكرية ، اختاروا استمرار الثورة ،

[٢٧] د . مالك رشوان ، مشاكل القبائل على الحدود العراقية النجدية ، ص١٠٣ .
[٢٨] محمد جلال كشك ، السعوديون والحل الإسلامي ، ص٦١٧-٦١٨ .

واستمرار تحرير الوطن الإسلامي من حولهم ، وهل يمكن القول بأن الإخوان أرادوا استمرار الثورة ، حتى ولو كان الثمن تعريض الدولة السعودية للخطر ، أم الأحرى القـــول بـــأنهم رأوا أنه لا معنى ولا إمكانية لاستمرار السعودية إذا لم تستمر الثورة فليـــست القـــصيم بأعز على الإسلام من بغداد ودمشق والقاهرة ؟! ، وأنه إذا ما انحـــسرت الثورة في الدولة السعودية جفت الدولة وذوت الثورة في الصحراء كما حدث في تجربة سعود الكبير ، ويمكن القول إنهم كانوا على حق نظرياً (٢٩) .

نهضة علماء الأزهر :

كانت الظروف الخارجية للدولة العثمانية في القرن ١٨م تنتقل من سيئ إلى أسوأ نظرا للحروب التي خاضتها الدولة ضد بعض الدول الأوروبية في القرنين ١٧م ، ١٨م ، في هـــذا الجـــو ارتفـــع صوت علماء الأزهر في مواجهة ظلم الحكام من المماليك والعثمانيين في مجالين : في الديوان العثماني فقد كانوا أعضاء فيه بحكم أنهم علماء الشريعة ، والمجال الثاني قيادة النضال الشعبي ضد ظلم الحكام .

وكانـــت قمـــة هـــذا النـــضال ثورة شعبية قادها شيخ الأزهر والعلماء في القاهرة وألزموا المماليك بالكف عن الظلم والتوقيع على وثيقة بحقوق الشعب المصري سجلوها في المحكمة الكبرى بالقاهرة.

حدثت هذه الحركة في شهر ذي الحجة١٢٠٩ هـــ (١٧٩٥ م) فقد وفد إلى الأزهر فلاحون من قرية تتبع مركز بلبيس عاصمة الشرقية في ذلك الوقت ، وكانت للشيخ عبد الله الشرقاوي (شيخ الجامع الأزهر يومئذ) حصة من الأرض

(٢٩) المرجع السابق ، ص٦١٨ .

بهذه القرية وقدم الفلاحون شكواهم للشيخ الشرقاوي بأن مماليك (محمد بك الألفي) ظلموهم وطلبوا منهم ما لا قدرة لهم عليه من الضرائب .

اتصل الشيخ الشرقاوي في أول الأمر (بإبراهيم بك ومراد بك) وطلب منهما وقف هذه المظالم ولكن الأميرين لم يبديا اهتماما وأهملا وساطة الشيخ فثارت ثائرته ، وحضر إلى الأزهر في اليوم الثاني وعقد اجتماعا في الأزهر فقرر العلماء الإضراب العام وبدء الثورة وخرج المجاورون يأمرون الناس بإغلاق الأسواق والحوانيت ، وتجمع الناس في ساحة الأزهر يتقدمهم الشيخ الشرقاوي يتبعه العلماء وتوجهوا إلى منزل الشيخ (محمد أبو الأنوار السادات) والذي كان مجاورا لمنزل (إبراهيم بك) ، ولهذا وقع اختيارهم له ولما للشيخ السادات من نفوذ كبير لدى جماهير الشعب ولمنزلته لدى الأمراء .

رأى إبراهيم بك هذه الجموع الثائرة على مقربة من داره فأرسل رسولا من طرفه إلى المشايخ وهو " أيوب بك الدفتردار " فحضر إليهم وسألهم عن سبب تجمعهم فأجابه الثوار نريد العدل ورفع الظلم وإقامة الشرع وإبطال الحوادث والمكوسات التي ابتدعتموها وأحدثتموها فرد عليهم الدفتردار بأنه لا يمكن الإجابة إلى هذه المطالب كلها فإننا إذا فعلنا ذلك ضاقت علينا المعايش والنفقات فرد عليه المجتمعون بأن هذا ليس بعذر عند الله ولا عند الناس ، وما الباعث على الإكثار من النفقات وشراء المماليك و الأمير يكون أميرا بالإعطاء لا بالأخذ .

وقد كان هذا في الواقع حوارا جديدا وقد قال محمد أنور السادات (الرئيس المصري ١٩٧٠ــ ١٩٨١م) معلقا على هذا الحوار الذي دار بين الشعب وممثل شيخ البلد الحاكم " إن الثورة الفرنسية كلها لتتضاءل أمام المغزى العميق لهذا الحوار فقد أسفرت الثورة الفرنسية عن مبادئ ثلاثة هي : الحرية والإخاء والمساواة

،ولم تلبث أن أصبحت فرنسا ذاتها وأثناء الثورة الفرنسية نفسها شعارا للقتل والتدمير بين الفرنسيين والثوار أنفسهم .

ثم ما لبثت هذه المبادئ أن صدرتها فرنسا إلى الخارج على صورة استعمار خبيث يفتك بالشعوب البريئة ويسلبها أرزاقها ، ويقتل النساء ويفتك بالأطفال ويغتصب الأرض ويجعل من الإنسان شيئا أخطر من الحيوان ، كل هذا باسم الحرية والمساواة والإخاء " .

فوعدهم الدفتردار بعرض مطالبهم على إبراهيم بك ، وتطورت المسألة من مجرد المطالبة بوقف اعتداءات مماليك الألفي على أهالي قرية شرقية بلبيس إلى حركة شعبية تنادي بضرورة وضع حد للمظالم التي يتعرض لها الشعب المصري ومطالبة الحكومة بضغط المصروفات والحد من الإسراف في استيراد المماليك وتأمين الأفراد على أموالهم وأرواحهم .

ولم يرجع الدفتردار إلى الثوار بجواب كما وعد : فعاد زعماء الشعب إلى الجامع الأزهر وقضوا ليلتهم بالمسجد وصمموا على المضي في حركتهم لليوم الثالث على التوالي ، وبدأت بوادر النصر فقد أرسل إليهم (إبراهيم بك) يعضدهم ويقول لهم : أنا معكم وهذه الأمور على غير خاطري ومرادي وأرسل إلى (مراد بك) يخيفه عاقبة ذلك فتزلزلت أركان مراد بك وخاف من تفاقم الثورة ، فأرسل إلى المشايخ يقول لهم :" أنه أقلع على ظلم الشعب " وطلب أربعة من المشايخ عينهم بأسمائهم فذهبوا إليه بالجيزة فلاطفهم والتمس منهم السعي في أمر الصلح .

وفي اليوم الثالث للثورة نزل الباشا من القلعة إلى منزل إبراهيم بك واجتمع الأمراء وأرسلوا إلى العلماء بالحضور فحضر الشيخ (السادات) والسيد (عمر مكرم) نقيب الأشراف والشيخ (الشرقاوي) والشيخ (خليل البكري) والشيخ

(محمد الأمير) وغيرهم من العلماء ، ومنعوا العامة من الذهاب معهم إلى الاجتماع ، ودارت مناقشات حامية بين المجتمعين انتهت بإصدار وثيقة متضمنة شروط العلماء وإعلان توبة الأمراء عن الظلم والتزامهم بالعدل .

وقد ذكر الجبرتي مضمون هذه الوثيقة ولم يذكر نصها الأصلي ، وقد عثرنا على أصل هذه الوثيقة مسطرة في سجلات الديوان العالي ، وهذه الوثيقة غاية في الأهمية ، لأنها تعطينا صورة عن ترتيب زعماء الشعب في نهاية القرن الثامن عشر تبعا لمترلتهم الشعبية وهم الذين آلت إليهم الزعامة الشعبية قبيل الحملة الفرنسية بسنوات قليلة ، وعلى رأسهم شيخ الأزهر الشيخ عبد الله الشرقاوي ونقيب الأشراف السيد عمر مكرم .

ويلي المماليك رؤساء الأوجاقات السبعة العثمانية. ولعل أول ما يلفت النظر في هذا الترتيب هو تقدم العلماء على من عداهم من الحكام المماليك والأتراك هذا باستثناء قاضي القضاة بمصر الذي تقدم اسمه الجميع وصدرت الوثيقة بحضوره وبين يديه .

وكانت أهم الشروط التي فرضها العلماء وأثبتوها بالوثيقة هي :

١- تتريل جوامك (بدل تعيين أو بدل جراية) المسلمين المطلوبة من المال الأميري

٢- إجراء جرايات المستحقين وعلوفات الفقراء والمساكين على حالها.

٣- إجراء المقرر للجامع الأزهر وجراياته من وقفه الخاص به ولا يؤخذ منه شيء من المكوس والمظالم (يعني المحافظة على ميزانية الجامع الأزهر) .

٤- إجراء أموال الحج ومتعلقاته حكم قديمها على ما هي عليه من زمن الملوك والسلاطين (يعني المحافظة على ميزانية الحج) .

٥- منع التفاريد على البلاد والرعايا والفقراء (يعني منع الفردة الجديدة) .

٦- منع الكشاف الجائرة في بلاد الله التي عذبوها ونهبوها ودمروها .

٧- إزالة الفلتجية (بعض طوائف العسكر) من مصر القديمة لإيذائهم المسلمين.

٨- لا يزاد على دفتر المرحوم الأمير محمد بك أبو الذهب في رفع المظالم ويزال ما استحدث بعده (إلغاء التشريعات الضريبية المستحدثة منذ عهد محمد بك أبو الذهب) .

٩- ترفع المكوس الجارية في البنادر والموارد وما جعل على المآكل والمشارب (يعني رفع الضرائب عن المواد الغذائية).

١٠- إزالة جميع الحوادث والمظالم من جميع الأقطار المصرية .

١١- لا يتعرض أحد من المماليك للسادة الأشراف بجميع البلاد بأي وجه من الوجوه وينهي أمرهم في حوادثهم الخاصة بهم إلى أفنديهم ونقيبهم في سائر الأقطار والأزمان .

١٢- لا يتعرض أحد منهم لنواب الشريعة المحمدية وينهي أمرهم في حوادثهم إلى أفنديهم قاضي عسكر أفندي .

١٣- أن يقوموا بعمارة السواقي الموصلة للمياه إلى القلعة .

١٤- عدم إنزال الغلال من الديار المصرية إلى بلاد الكفرة والمشركين أعداء الدين يعني (عدم تصدير السلع الضرورية لحاجة الشعب إليها) .

وبذلك نلاحظ أن حركة العلماء حققت عدة أهداف :

أولا: أنهم أجبروا الأمراء على التفاوض معهم .

ثانيا:نزل الأمراء على إرادة العلماء ووافقوا على إلغاء الضرائب الجائرة.

ثالثا: عزل الحكام الجائرين من المناطق التي تضررت بوجودهم بها.

رابعا: امتدت مطالبهم لتشمل ميزانية الدعم للحرمين الشريفين وميزانية الأزهر .؟

خامسا: استصدروا وثيقة بهذه الحقوق ووقع عليها القاضي والأمراء ووالي مصر .

وتضمنت الوثيقة العبارات الآتية :

(أجاب الأمراء بالسمع والطاعة وعدم مخالفة الجماعة وكل من خالف ذلك فيكون على ساداتنا أرباب السجاجيد وعلماء الإسلام والأمراء قهره واستخلاص كل ما هو مطلوب منه لأربابه) .

وانتهت بذلك الحركة وعاد العلماء إلى الأزهر وحولهم الثوار يعلنون على الناس صدور اللائحة الجديدة أو الاتفاقية الجديدة باسم السادة العلماء : حسبما رسم سادتنا العلماء بأن جميع المظالم والحوادث والمكوس بطالة من مملكة الديار المصرية.

وكان نداء الشعب حسب عرف العصر معناه أن علماء الأزهر أصبحوا يهيمنون على الأمور في البلاد ، وكان هذا في الواقع تطورا خطيرا دفع البعض إلى وصف هذه الوثيقة بأنها " الوثيقة السياسية الكبرى ، أو وثيقة حقوق الإنسان " .

وقال الأستاذ عباس العقاد في بيان أهميتها : " ولو أنها كتبت في بعض البلاد الأوربية لجاءنا خبرها من كتب القوم في علوم السياسية الحديثة بعنوان من تلك العناوين الكثيرة عن حقوق الشعب أو الدستور الأكبر أو (الماجنا كارتا) وما إليها من مصطلحاتهم التاريخية ، ولكن العلماء الذين دعوا أمراء العصر إلى توقيع ذلك العهد لم يحسبوا أنهم جاءوا إلى الناس بعهد جديد غير التذكير بعهد كتاب الله وسنة رسول الله التي نسيها أولئك الأمراء وكتب الموثق (حجة)، عليهم بشهادة الرعية وشهادة (علماء الأمة) الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر " .

بيد أن الجبرتي ذكر أن كل شئ عاد إلى ما كان عليه وزيادة بعد صدور الوثيقة ، ورد البعض على تعليق الجبرتي بقوله :" يجب ألا يفسد علينا تعليق الجبرتي نحن أبناء القرن العشرين مغزى الحادثة ، فليس المهم أن الاتفاقية نقضت فتاريخ الأمم

يكاد ينحصر في إخلال الحكومات بالاتفاقيات أو الدساتير التي تجبر على إصدارها تحت الضغط .

ولكن المهم هو أن مجرد إقرار الاتفاقية ، وصدورها بأسماء العلماء"حسب ما رسم ساداتنا العلماء ". والوصول إليها عبر ضغط الثوار وتحركهم وبعد مفاوضات ، كل ذلك يدل على أن الشيوخ والعامة لم يكونوا مجرد قوة رمزية. بل كانوا يستطيعون دائما تحويل كل مظهر سخط إلى إضراب عام يتطور إلى مواجهة شاملة تطالب بإصلاحات أوسع من حدود المشكلة المباشرة التي أثارت الحادث ، وأنهم كانوا يستطيعون مواجهة الأمراء وفرض مطالبهم وإجبارهم على التراجع والتسليم ولو بنية الغدر .

وبذلك نرى أن علماء الأزهر لم يكونوا أبدا رجال كهنوت منعزلين عن مجرى الحياة العامة وإنما شاركوا الشعب في شعوره ودافعوا عنه في مواجهة ظلم الحكام.

وخلال هذه الأحداث السالفة الذكر بدأت تتضح معالم مجتمع العلماء بالأزهر فانقسم العلماء إلى فريقين :

فريق: تصدى لخدمة الجماهير والدفاع عن قضاياهم لدى الحكام ، وهؤلاء اعترفوا كما قرر الشيخ عبد الله الشبراوي للوالي العثماني (أحمد باشا كور) بأنهم ليسوا أعظم علماء مصر " لسنا أعظم علمائها بل نحن المتصدرين لخدمة أهلها وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة وأهل الحكم فيها" وقل إنتاج هذا الفريق في الناحية العلمية .

وفريق آخر: انقطع لدراسة العلم بالأزهر فبرزوا في ميادين الإفتى والتدريس في حلقات الأزهر العلمية ، وكذلك في ميادين التأليف في كثير من العلوم الإسلامية

كالفقه على مذاهب أهل السنة والجماعة ،والتفسير والحديث والتوحيد والعقيدة والتاريخ ، وكذلك في علوم اللغة العربية وآدابها .

على أبواب الثورة :

قوي إحساس العلماء في نهاية هذه الفترة بما يجب عليهم نحو مواطنيهم وبما ينبغي عمله للأهالي وضرورة التحرر من ظلم الحكام ولهذا كثرت الثورات في هذه الفترة الأخيرة التي سبقت مجيء الحملة الفرنسية حتى أن الباحثين يغالون فيشبهون الوضع في مصر في هذه الفترة بالحالة التي كانت عليها فرنسا قبل الثورة الفرنسية ١٧٨٩ م فيقول هذا البعض :

((ونحن إذا بحثنا حال فرنسا قبيل ثورتها لا نستطيع أن نرى من بوادر ثوران النفوس أكثر مما بدأ في أواخر القرن الثامن عشر في مصر)) ويضيف بأن هذه الحركات كانت جديرة ((أن تنتهي أما بثورة تامة كثورة فرنسا ، وإما بإصلاح تدريجي شامل يتناول كل نظمها)) وأن الذي لم يوصلها إلى هذا الحد من الثورة أن حكام مصر كانوا دائما يترلون عند مطالب الشعب بعد أن يروا غضبته ويصلحون ما يشكوا منه من فساد ويقوِّمون ما يشير إليه من اعوجاج .

وكان هناك عامل آخر جعل هذه البوادر الثورية لا تصل إلى ثورة حاسمة لصالح الشعب المصري ، وهذا العامل كان خارجيا وأعنى به نكبة الحملة الفرنسية التي نزلت بالبلاد سنة ١٧٩٨ م .

نخلص من هذا العرض السريع إلى القول : بأن قيادة الجماهير في نهاية القرن الثامن عشر أضحت بيد نخبه من العلماء قاموا بدور كبير في خدمة المجتمع المصري ، جعل منهم هذا الدور جهازا من أجهزة الحكم القائم مهمته الوقوف في صف الجماهير كلما هددهم خطر الحكام .

وخلاصة القول أن الحياة في مصر إبان الحكم العثماني كانت تؤذن بتغير مرتقب نظرا لأن الحكم العثماني قد بدأت تتزعزع أركانه في البلاد على أيدي المماليك من ناحية ، ومن ناحية أخرى وهى التي همنا ، وهى ناحية الشعب المصري فقد بدأت حركة اليقظة الوطنية في مصر على أيدي العلماء وعلى الرغم من أنها كانت متواضعة إلا أنها كانت بداية ، وليس على الرواد الأوائل أن يقوموا بحركات ثورية كاملة مبرأة من كل عيب ، ويكفيهم أنهم بدءوا ووضعوا لنا أساسا على معالم الطريق نهتدي به عبر مسيرة نضالنا من أجل التحرر من ربقة ظلم الحكام المستبدين.

ولا شك في أن حركة العلماء في مصر على الأخص في النصف الثاني من القرن الثامن عشر كانت أولى أدوار اليقظة القومية ولم تكن الحملة الفرنسية هي التي أيقظت الشعب المصري كما يدعى البعض فقد أتت الحملة الفرنسية فوجدت الأزهر يموج بتيارات سياسية تتعدى جدرانه لكي تشمل الحياة العامة كلها .

وعلى ذلك يجب أن نتيقظ لما يروج مصريا وعالميا لتأثير الحملة الفرنسية على مـــصر في مـــيدان اليقظة المصرية ، وأنها على العكس قطعت الطريق على الشعب المصري الذي كان أوشك على أن يصل إلى ثورة حاسمة للحصول على حقوقه .

الفصل الخامس

الهجوم الفرنسي على مصر
١٢١٣-١٢١٦هـ (١٧٩٨ -١٨٠١ م)

دوافعه : كانت الحروب الصليبية صراعا سافرا بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي دام نحو قرنين من الزمان [١] وحفلت هذه الفترة الزمنية بالعديد من التجارب والعبر المستفادة بالنسبة للمسلمين والصليبيين على السواء . وقد تبلورت هذه الدروس المستفادة من الحروب الصليبية بالنسبة للصليبيين في **وصية كتبها (لويس التاسع) ملك فرنسا:** الذي قاد الحملة الصليبية السابعة على مصر[٢] والتي أتاحت له معاناته بسجنه في المنصورة فرصة هادئة ليفكر بعمق في السياسة التي يجب على الغرب اتباعها بعد ذلك إذا ما فكر في غزو الشرق الإسلامي .

فأوصى بالحملات شبه السلمية بأسلوب استعماري جديد وعدم رفع شعار الصليب ومعاداة المسلمين ، والاستفادة من المسيحيين في العالم الإسلامي ،

---

(١) بدأت هذه الحروب عام ٤٩٠هـ - ١٠٩٦م بالحملة الصليبية الأولى ثم انتهت بسقوط عكا في يد المسلمين وضياع الممتلكات الصليبية في الشام عام ٦٩١هـ - ١٢٩١م .

انظر : محمد علي الغتيت ، الشرق والغرب من الحروب الصليبية إلى حرب السويس المرحلة الأولى في الصراع بين الشرق والغرب ، الدار القومية ، القاهرة ، لم تذكر سنة الطبع .

(٢) جرد لويس التاسع حملته على مصر ونزل إلى دمياط في عام ١٢٤٩م وزحف على المنصورة حيث منى فيها بهزيمة نكراء في موقعة عرفت بموقعة المنصورة عام ١٢٥٠م وتم أسر لويس ، وسجن بالمنصورة في دار ابن لقمان التي لا تزال على حالها إلى الآن ثم افتدى نفسه من الأسر وعاد إلى بلاده يجر أذيال الخيبة والفشل .

والتركيز على ساحل الشام ومصر ، إلى غير ذلك من بنود الوصية التي سبق أن أشرنا إليها في الفصل الأول.

تلك كانت أهم الدروس المستفادة من الحروب الصليبية والتي تلقاها الغرب عن أسلافه الصليبيين ، وكان بونابرت أول من حاول في العصر الحديث الاستفادة من هذه البنود إبان حملته على مصر .

ولعل بونابرت (نابليون) يوضح لنا تلك الدوافع في مذكراته فيقول :" أن مشروعات غزو مصر كانت دائما لمصالح كثيرة ، وكانت تطبيقا لخلاصة نظريات ومبادئ متعددة يسودها جميعا الخوف من أن تقوم في هذه البقعة من الكرة الأرضية أمة متحدة قوية تستطيع أن تجعل من مصر مركزا لإمبراطورية تسود العالم كله .

وقائع الغزو الفرنسي:

استولى بونابرت على الإسكندرية في ١٧محرم ١٢١٣هـ—٣ يوليو ١٧٩٨م ، وتقدم بسرعة إلى القاهرة عبر الصحراء الغربية وهزم المماليك بقيادة مراد بك عند شبراخيت [٣] . يوم ١٣يوليو ثم واصل بونابرت زحفه على القاهرة واستعد مراد بك بجيشه للتلاحم مع الفرنسيين في معركة فاصلة عند إمبابة ، أما إبراهيم بك فقد وقف بجيشه على ضفة النيل الشرقية عند بولاق.

ومنذ وصول الأخبار إلى القاهرة أصبح الأزهر مكانا لتعبئة الروح المعنوية للجهاد ضد الفرنسيين . وصعد السيد عمر مكرم نقيب الأشراف إلى القلعة وأنزل

---

[٣] شبراخيت بلدة من مديرية البحيرة على الشاطئ الغربي لفرع رشيد ، يذكر على مبارك (الخطط ، ج٢ ، ص١١٨) أن المعركة كانت عندها . وتذكر المصادر الفرنسية أن المعركة وقعت عند شبرا ريس وهناك قريتان بهذا الاسم إحداهما شبرا ريس البحيرة وتقع على الشاطئ الغربي لفرع رشيد جنوب شبراخيت بنحو نصف ساعة ، والثانية شبرا ريس المنوفية قرية مركز تلا على الشاطئ الغربي لترعة الباجورية وتقع جنوب كفر الزيات على مسيرة ثلاث ساعات ، خطط علي مبارك ، ج١٢ ، ص١٢٢ .

منها علما كبيرا سمته العامة (البيرق النبوي) فنشره بين يديه وطاف به في أنحاء القاهرة مناديا بالجهاد الديني ضد الغزاة فاجتمع حوله ألوف من الشعب مسلحين بالأسلحة والنبابيت والعصي يهللون ويكبرون .

بيد أن هذه الجموع الغفيرة لم يكن لها أي دور إيجابي في المعركة وذلك لأن بونابرت حسم الموقف الحربي بانتصاره على جيش مراد عند امبابة في٢١ يوليو ١٧٩٨م ولم يكن للجماهير أي تأثير اللهم إلا تلك الأصوات التي كان يدوي صداها في الأفق وخاب أمل الجماهير في جيش المماليك التقليدي في الدفاع عن البلاد .

وعندما وقعت الهزيمة بجيش مراد بك انسحب إلى الصعيد ، وانسحب رفيقه إبراهيم بك إلى الشام ، وتركوا القاهرة عزلاء بدون أسلحة أو قوات تدافع عنها ، فاشتد الكرب بسكان القاهرة وهرع كثير من الناس القادرين في الرحيل من القاهرة .

الأزهر محط الأنظار :

ألقت هذه الظروف الصعبة بالمسئولية على عاتق رجال الأزهر واجتمع بالأزهر بعض العلماء والأعيان الموجودين بالقاهرة في صباح الأحد ٢٢من يوليو ١٧٩٨م غداة معركة إمبابة وأخذ المجتمعون يفكرون في الخطة التي يتبعونها حيال هذه الكارثة التي حلت بهم ، لتخفيف الأمر الواقع شأن كل مدينة كبيرة هزم الجيش المدافع عنها .

وبعد أن تشاور العلماء في الوضع القائم ، اتفق رأيهم على أن يرسلوا إلى بونابرت—قائد الفرنسيين الذي مازال في البر الغربي للنيل —وفدا استطلاعيا يستعلم نوايا الغزاة تجاه البلاد وأهلها ، وهكذا عندما انهارت القيادة الرسمية التي كانت

تمثل في المماليك والوالي العثماني ، انبثقت قيادة جديدة من علماء الأزهر وتحملوا عبء مقاومة الاحتلال الفرنسي للبلاد طوال مدة الاحتلال .

وانتهت المفاوضات بتسليم القاهرة بشرط إعلان الأمان العام للناس، وعبرت القوات الفرنسية النيل إلى القاهرة في اليوم التالي لمعركة امبابة (٢٢يوليو) .

وفي الصباح وجد أهالي القاهرة منشورا باللغة العربية ملصقا على الجدران يطمئن المصريين ويؤمنهم ويهدئ من روعهم وفي يوم الثلاثاء ١٠ من صفر ١٢١٣هـ (٢٤يوليو١٧٩٨) دخل بونابرت القاهرة دخول الفاتحين ونزل بقصر محمد بك الألفي[٤] المطل على بركة الأزبكية واتخذه مقرا لقيادته .

سياسة بونابرت الإسلامية :

كان بونابرت يدرك أن غزو مصر سوف يعرضه لصدامين محتمين :

الأول: صدام بينه وبين الأتراك .

والآخر: صدام بينه وبين المصريين .

أما بالنسبة لصدامه بالأتراك :

فقد حاول منذ البداية انتهاج أسلوب لا يبعث على قلق الأتراك وهو الاعتراف بالسيادة العثمانية على مصر وأن فرنسا سوف تدفع الأموال المقررة على البلاد للسلطان في مواعيد منظمة وأن تسك العملة باسم السلطان ، ويخطب باسمه في المساجد ،وغير ذلك من المظاهر الشكلية وتتولى فرنسا الاحتفاظ بمصر مؤقتا

[٤] كان محمد بك الألفي قد أنشأ هذا القصر وزخرفه في السنة السابقة لقدوم الحملة الفرنسية وصرف عليه أموالاً كثيرة وفرشه بالأثاث الفاخر .

رعاية لمصالح الدولة العثمانية وهذه في الواقع كانت خطة مرحلية لجيش الاحتلال ريثما يتسنى لبونابرت السيطرة على الأمور في مصر .

وأما بالنسبة للصدام مع المصريين:

فكان يخشى ما يخشاه بونابرت لأن تقارير القناصل كانت تؤكد على تجنب الصدام لعواطف المصريين الدينية، لأن هذا الصدام يحول الشعب إلى قوة تناهض قوى الاحتلال فكان لابد من إحراز نصر آخر إلى جانب النصر العسكري ألا وهو قهر روح المقاومة في الشعب حتى يتمكن الغازي من جني ثمار غزوه .

وارتكزت خطة بونابرت في هذا الميدان على ترويض الروح الإسلامية أو كما قال هو فيما بعد في وصيته لكليبر أن يعمل على(تنويم) العاطفة الدينية إلى أن يتمكن من استئصالها وعلى هذا الأساس عمد بونابرت في منشوراته إلى الشعب المصري إلى انتهاج سياسة عرفت بالسياسة الإسلامية .

فعندما أصبحت الحملة على مقربة من مياه الإسكندرية كتب بونابرت منشورا مهما وزعه على جنوده أشار فيه إلى وضع علماء الأزهر وضرورة احترامهم وعدم معارضتهم في معتقداتهم وطالب جنوده في هذا المنشور أن يبدوا تسامحا للتقاليد التي يقضي بها الشرع الإسلامي .

وعندما نزل بونابرت إلى الإسكندرية ، بادر بتوزيع ***منشور*** على الشعب المصري كان قد طبعه من قبل ، ووقعت نسخة في يد عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ الذي ذكر لنا أنها وصلت القاهرة مع الأسرى المسلمين ،الذين كانوا في معتقلات قراصنة القديس يوحنا بجزيرة (مالطه) منذ سنوات طويلة ،فلما وصل بونابرت إلى

الإسكندرية أطلق سراحهم من باب الدعاية للحملة[*] وأعطاهم المنشور،فسبقوه به إلى القاهرة ،لكي يحدثوا بذلك الأثر الذي أراده وهو أنه ليس عدوا للإسلام والمسلمين بل على العكس كما يبدوا من هذا الحدث أنه مناصر للإسلام والمسلمين.

ولعل أهم ما يتضح في هذا المنشور هو الخطوط الرئيسية لسياسة بونابرت الإسلامية التي اعتزم انتهاجها في مصر فقد حاول فيه تخدير العاطفة الإسلامية وعدم الاصطدام بها لكي لا يثير في وجهه حربا دينية وجهادا إسلاميا يقضي على مشروعه من أساسه ويعصف بآماله ومن ثم فقد بدأ منشوره بالبسملة على نحو ما يفعله المسلمون فيما يكتبون من كتب ومراسلات ثم ، بشهادة لا اله إلا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه ، ويلاحظ أنه أغفل (وأن محمدا رسول الله) وأكد في أكثر من موضع في هذا المنشور ، أنه لن يتعرض بسوء للدين الإسلامي بل أنه أكثر من المماليك عبادة لله، وقرر أن الفرنسيين مسلمون مخلصون لأنهم حاربوا البابا الذي يحرض النصارى دائما على محاربة الإسلام ، وقاتل فرسان القديس يوحنا وشردهم لكراهيتهم للإسلام والمسلمين ، وأكد بونابرت أن الفرنسيين محبون للسلطان العثماني لعلمه بمترلته لدى المصريين الذين يعتبرونه خليفة الإسلام والمسلمين .

---

[*] كـــان هؤلاء المعتقلون من البحارة المسلمين أخلاط من الترك والعرب والمغاربة ، وكانت تأسرهم واجب ديني وكانوا يجـــبرونهم على الأشغال الشاقة فيقضون بقية عمرهم في هذا الشقاء فلما احتل بونابرت مالطة أطلق سراحهم وأحضرهم معه إلى الأسكندرية لكي يستغلهم في الدعاية لحملته،ولم يكن النشاط العدائي الذي مارسه قراصنة مالطة ضد المسلمين هو الـــذي حمل بونابرت على غزو مالطة والقضاء عليهم ، ولكن انبثق موضوع غزو الجزيرة عن اعتبارات تتصل بالسياسة العليا لفرنسا واستهدف توفير الأمن الداخلي والخارجي لنظام الحكم الذي جاءت به الثورة الفرنسية .

انظر : د. عبد العزيز الشناوي : صور من دور الأزهر في مقاومة الاحتلال الفرنسي لمصر في أواخر القرن الثامن عشر ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، ص١٧ — ١٨ .

رأي علماء الأزهر في المنشور :

للجبرتي تعليق لاذع على ما احتواه هذا المنشور من مزاعم فقد وصفه بأنه مليئ (بالإغراء والتخدير والتحيل[٦]) وأنه "مكيدة " وأن فيه ادعاء بأن الفرنسيين " قدموا من طرف السلطان وأنهم جاءوا ليزيلوا عن المصريين الظلم"[٧] وعلق على زعم بونابرت بأنه يحترم القرآن العظيم بقوله :" إن احترام القرآن تعظيمه ، وتعظيمه بالتصديق بما فيه ، وهو من آيات النبي الدالة على صدقه وأنه نبي آخر الزمان وأن أمته أشرف الأمم وهؤلاء لجميع ذلك نافون وفيما عدوه كاذبون ، وكأي من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم معرضون وأما التعظيم الحسن فهو فرض مأمور به بقوله تعالى :" لا يمسه إلا المطهرون " فيحرم على المحدث والجنب مس آية من القرآن وهؤلاء قد شوهد الكثير منهم يتغوط ويمسح بأوراق المصحف ويرميها ملطخة في الطريق ومحل النجاسات فأين أعزك الله التعظيم الذي يزعمه هذا المفتري ؟ ثم أن قوله "واحترم نبيه " من باب عطف الكذب على الكذب لأنه لو احترمه لآمن به وصدقه واحترم أمته " [٨] .

---

(٦) عـــبد الرحمن الجبرتي ، تاريخ مدة الفرنسيس بمصر من سنة ١٢١٣هـــ إلى سنة ١٢١٦هـــ ، ص٣ ، وهي مخطوطة بخط يد الجبرتي رحمه الله ، محفوظة بمكتبة جامعة ليدن بهولندا تحت رقم (cod . Or . ٢٤٣٧)، وقد حصلنا على نسخة مـــنها عن طريق التصوير بالميكروفيلم (photocopy) ، وهي ذات أهمية بالغة في توضيح بعض الحقائق الخاصة بفترة الحملة ، لأنها عبارة عن مذكرات أولية كتبها الجبرتي لنفسه عن فترة الحملة غير أنها ناقصة حيث تؤرخ لسبعة أشهر فقط مـــن بداية عصر الحملة ، من المحرم ١٢١٣هـــ حتى نهاية رجب ١٢١٣هـــ ، وتحتوي على بعض الإضافات التي حذفها الجبرتي عند إخراج كتابيه (مظهر التقديس) و (عجائب الآثار) . وقد قمنا بدراسة مركزة لهذه المخطوطة قدمت إلى ندوة عبد الرحمن الجبرتي وعصره ، المنعقدة بالقاهرة في الفترة من ١٦-٢٣ أبريل سنة ١٩٧٤م تحت عنوان مخطوطة من تاريخ الجبرتي في ليدن دراسة مقارنة بينها وبين (عجائب الآثار) و (مظهر التقديس) .

(٧) عبد الرحمن الجبرتي ، مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس ، طبعة وزارة التربية والتعليم ، تحقيق وتعليق : أحمد زكي عطية ، وعبد المنعم عامر ، ومحمد فهمي عبد اللطيف ، القاهرة ١٩٦١م ، ج١ ، ص٥٦ .

(٨) الجبرتي ، مظهر التقديس ، ج١ ، ص٥٦ .

وقد اعترف نابليون نفسه وهو يعقب عليه بعد ذلك في منفاه بسانت هيلانه بقوله : أن المنشور قطعة من الدجل"ولكنه دجل من أعلى طراز " وقال لشخص آخر من أصدقائه في سانت هيلانه :" على الإنسان أن يصطنع الدجل في هذه الدنيا لأنه السبيل الوحيد إلى النجاح " (٩) .

وبونابرت كان يود أن يذهب إلى أبعد من ذلك في دجلة على الشعب المصري المسلم فقد زعم فيما بعد أنه كان ينوي الذهاب إلى بيت الله الحرام بمكة لأداء شعائر الحج فقد أفضى إلى أحد رفاقه في منفاه في جزيرة (سانت هيلانة) بهذا الحديث :

(ليس يعجبني في " الإسكندر الأكبر " حملاته الحربية بل أساليبه السياسية لقد كان محقا حين أمر بقتل " بارمينون " الذي عارض بحماقة في تخلي الإسكندر عن التقاليد الإغريقية وكان منتهى حسن السياسة أن يذهب لزيارة معبد آمون فهو بهذا فتح مصر ، ولو أنني مكثت في الشرق لأقمت على الأرجح دولة كدولة الاسكندر بذهابي إلى مكة للحج (١٠) ، ويعتبر هذا الحديث مجرد تسلية أو ثرثرة يملأ بها نابليون الفراغ الذي كان يعيش فيه في منفاه .

تعيين علماء الأزهر بديوان القاهرة :

ومن مظاهر سياسة بونابرت الإسلامية تعيين علماء الأزهر بديوان القاهرة فبعد أن استقر بونابرت بالقاهرة بدأ في تنفيذ ما وعد به الشعب المصري من إنشاء حكومة راقية في مصر ليكسب بها مودة الشعب وثقته . ولذلك أصدر أمره من

---

(٩) كرستوفر هيرولد ، بونابرت في مصر ، ترجمة فؤاد أندراوس ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧م ، ص٩٨-٩٩ .

(١٠) كرستوفر هيرولد ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٥٦ .

قصر الألفي بالأزبكية بتشكيل ديوان من علماء الأزهر وانتهى الأمر إلى تعيين عشرة أفراد هم :

الشيخ عبد الله الشرقاوي شيخ الأزهر والشيخ خليل البكري شيخ السجادة البكرية والشيخ مصطفى الصاوي والشيخ سليمان الفيومي والشيخ محمد المهدي والشيخ موسى السرسي والشيخ مصطفى الدمنهوري والشيخ أحمد العريش والشيخ يوسف الشبراخيتي والشيخ محمد الدواخلي [١١] .

موقف علماء الأزهر بالديوان :

على الرغم من أن علماء الأزهر كانوا يكونون الأغلبية الساحقة بديوان القاهرة وعلى الرغم أنهم احتلوا المناصب القيادية بالديوان العام إلا أنهم لم ينسوا وضعهم بين مواطنيهم ولم ينغمسوا في مساعدة الفرنسيين لإحكام قبضتهم على البلاد وإنما كان موقفهم دائما هو مساعدة الأهالي كلما اشتدت عليهم وطأة المحتلين وطلب التخفيف عنهم والتوسط من أجلهم لدى الحاكم الجديد إذا ما نزل بالمواطنين ضرر أو كاد ، ولم ينسوا هذا الواجب حتى في أشد فترات الإرهاب الفرنسي للمواطنين .

رفض التبعية :

على أن محاولة التقريب بين الفرنسيين ومشايخ الأزهر في الديوان باءت بالفشل ، وتبين أنها محاولة من جانب واحد فقد حدث أن استدعى بونابرت إليه (الشيخ عبد الله الشرقاوي) شيخ الجامع الأزهر ومعه جماعة من العلماء فلما استقر بهم المجلس نهض بونابرت وأتى بشارة الجمهورية الفرنسية والتي يسميها الجبرتي

---

[١١] عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج٣ ، ص١١ .

(الطيلسان) المثلث الألوان ، ووضعه على كتف شيخ الأزهر تكريما له ، ولكن شيخ الأزهر "رمى به إلى الأرض وامتقع لونه واحتد طبعه " كما تغير وجه بونابرت أيضا لهذه الإهانة الظاهرة وتميز غضبا ، فتدخل الترجمان قائلا للعلماء :" يا مشايخ أنتم صرتم أحبابا لصاري عسكر وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته ، فان تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس وصار لكم منزلة في قلوبهم " فرد عليه المشايخ قائلين :" لكن قدرنا يضيع عند الله وعند إخواننا من المسلمين " فاغتاظ بونابرت من ذلك وبلغ عنه مترجموه أنه قال في شأن الشيخ الشرقاوي "أنه لا يصلح للرياسة بيد أن بقية العلماء استعفوا بونابرت من ذلك فأذعن بونابرت لمشيئة المشايخ في أمر هذه الطيالس ولكنه أصر على أن يضعوا في صدورهم على الأقل الشارة المثلثة الألوان (الجوكار) وهي العلامة التي يقال لها الوردة فطلب العلماء منه مهلة اثنا عشر يوما [١٢].

وعندما وجد بونابرت أن الشعب لا يقبل شارة الجمهورية هذه نادى المنادي بإبطال هذه الشارة عن العامة وما لبث الأمر كله أن ألغي بعد قيام ثورة القاهرة الأولى على الرغم من أن بونابرت كافح من أجل هذا الغرض كثيرا لدرجة أنه ارتدى يوما الملابس الشرقية المكونة من العمامة والقفطان ليستقبل بها أعضاء الديوان حتى يخجل المشايخ ويحملهم على أن يضعوا الشارة على الأقل[١٣] ولكن العلماء تمسكوا بموقفهم واحترموا وطنيتهم ورفضوا التبعية مهما كان في ذلك تشريف لهم كما زعم نابليون بونابرت .

---

[١٢] الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج٣ ، ص١٧ .

[١٣] كريستوفر هيرولد ، مرجع سبق ذكره ، ص١١٠ .

وقد استاء أحد الباحثين من موقف العلماء الذين رفضوا أن يزينوا صدورهم برمز الثورة الفرنسية وعلق عليه بقوله:"وكان أحرار أوربا يتخطفونه حينئذ"[١٤] .

وكان هذا الموقف من العلماء أفضل من موقف رجال ثورة يوليو ١٩٥٢م الذين قرروا الأخذ بهذا العلم وتركوا العلم المصري الذي به الهلال والنجوم في رقعة خضراء الذي يرمز إلى الراية الإسلامية .

وانتقل مشايخ الأزهر من رفض شعار المستعمر إلى رفض أفكاره وهذا ما حدث في جلسات الديوان العام عندما أراد الفرنسيون أن يعرضوا على المشايخ ما استحسنته عقولهم من نظم المواريث الفرنسية ولكن العلماء الأجلاء كانوا أزهد الناس فيها بفضل ما لديهم من تشريع إسلامي ينظم حياتهم وعلاقاتهم ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنـــزيل من حكيم حميد .

أولى حملات الغزو الفكري :

وجاء بحث موضوع التشريع الخاص بنظام المواريث يوم الأحد(٤من جمادى الأولى ١٣أكتوبر) وقد بدأت المناقشة في هذا الموضوع الخطير بسؤال من القاضي ملطي [١٥] وجهه إلى علماء الأزهر قال :" يا مشايخ أخبرونا عما تصنعونه في قسمة المواريث " .

فأخبره العلماء بفروض المواريث الشرعية فرد القاضي ملطي :" ومن أين لكم ذلك؟ فقال العلماء :" من القرآن " وتلوا عليه بعض آيات المواريث وتدخل الفرنسيون قائلين :" نحن عندنا لا نورث الولد ونورث البنت...الولد أقدر على

---

[١٤] صبحي وحيده (في أصول المسألة المصرية – مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة سنة ١٩٥٠م ، ص١٢٨ .

[١٥] كـــان القاضي ملطي كاتباً عند (أيوب بك الدفتردار) قبل الحملة وكان من أقباط مصر ويرأس المحكمة التجارية التي أنـــشأها بونابـــرت بالقاهرة للفصل في المنازعات التجارية والمدنية التي سماها الجبرتي (محكمة القضايا) مؤلفة من ستة من التجار المسلمين وستة من القبط . (الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج٣ ، ص٢٠) .

الكسب من البنت " وقد علق الجبرتي على نظام المواريث الفرنسية التي عرضوها على الديوان بأنها "بحسب تحسين عقولهم " أي أنها قوانين من وضعهم هم وليست قوانين سماوية كما هو الحال في نظام التوريث الإسلامي وقال(ميخائيل كحيل الشامي) أحد أعضاء الديوان " نحن والقبط يقسم لنا مواريثنا المسلمون " وعند ذلك حسم الموقف ، وطلب المندوبان الفرنسيان أن يكتب العلماء قواعد تقسيم المواريث طبقا لأحكام الشريعة الإسلامية ودليل هذه الأحكام من آيات القرآن الكريم فوعدهم العلماء بتقديم هذا البيان في جلسة مقبلة [١٦] .

وفي جلسة الاثنين (٥من جمادى الأولى) قدم العلماء البيان المطلوب وفيه كيفية قسمة المواريث الشرعية ، وفروضها وحصص الورثة والآيات المتعلقة بذلك، وانتهت الجلسة باستحسان نظام التوريث الإسلامي .

واضطر بونابرت إلى التسليم بإقرار هذا النظام الإسلامي ولم يتعرض له لأن علماء الأزهر كانوا لمثل هذه الغزوات الفكرية بالمرصاد .

الأزهر يقود المقاومة :

لم يكد يمضي على الحملة ثلاثة أشهر (يوليو-أكتوبر ١٧٩٨م) حتى بدأ التناقض بين المستعمر المسيحي وأهل البلاد المسلمين يظهر جليا وفشلت سياسة التقريب بين الطرفين التي حاولها بونابرت بسياسته الإسلامية وتبين له في النهاية أنها من جانب واحد واستحال إيجاد جو من التعايش السلمي بسبب اختلاف الدين [١٧] بالإضافة إلى كثير من الإجراءات التي كان من بينها فرض الضرائب ومصادرة

---

(١٦) المصدر السابق ، ج٣ ، ص٢٥ .

(١٧) انظـــر شـــرحاً مفصلاً عن العامل الديني في كتاب الأستاذ الدكتور عبد العزيز الشناوي "صور من دور الأزهر في مقاومة الاحتلال الفرنسي في مصر " مرجع سبق ذكره ، ص٥٧-٦٦ .

الأملاك وبعض الإجراءات الإصلاحية وازدياد نفوذ النصارى الذين مشوا في ركاب المستعمر وانتشار الخلاعة والمجون ووضعت خارجها لافتات باللغة الفرنسية تبين نوع اللهو الذي يمارس داخلها وفرشت هذه البيوت بالأثاث " وكان أبسط ما يقال عن هذه البيوت أنها تقدم الخمر لروادها وتهيئ لهم رقص المخاصرة مع السيدات على أنغام الموسيقى وحولت بعض المقاهي في الأحياء الشعبية إلى مراقص وفتحت محال الدعارة بكثرة في شتى أنحاء القاهرة وأقبل الجنود الفرنسيون على ارتيادها إقبالا شديداً [١٨] ، ولقد كانت هذه العادات والتقاليد الخليعة تتعارض مع تقاليد المصريين الإسلامية كما كانت تتناقض مع ما كان الفرنسيون يدعونه ويذيعونه من سياسة إسلامية تحترم الدين الإسلامي والتقاليد الإسلامية .

وتهيأ الشعب للثورة بسبب تلك العوامل السالفة والتفت الشعب كعادته إلى علماء الأزهر يستلهمهم الرأي ويطلب منهم النصيحة في شأن هؤلاء الأعداء الذين جاسوا خلال الديار وأرغموا المصريين على مختلف المكاره وكان علماء الأزهر عند حسن ظن الشعب بهم فنظموا كفاحهم وقادوا ثوراتهم وكان لاختلاف الدين أثره الواضح في تحمس الشعب على ضرورة مكافحة أعداء الدين وأصبح الشعب بذلك ثوريا من الدرجة الأولى .

ثورة القاهرة الأولى (أكتوبر ١٧٩٨) :

على الرغم من أن الجبرتي يرصد أحداث الثورة ساعة بساعة ويوما بعد يوم إلا أنه لا يشير إشارة واضحة إلى قيام تنظيم يدبر هذه الثورة وينظم حركتها ولكن وثائق الحملة الفرنسية تؤكد وجود هذا التنظيم الذي كان مقره الأزهر فيقول

---

[١٨] د. عبد العزيز الشناوي ، المرجع السابق ص٨٣ — ٨٤ .

(ريبو) [١٩] : لقد اجتمع إلى جانب تذمر الأهالي واستيائهم نشر الدعاية إلى الثورة فكان في الجامع الكبير المعروف بالأزهر لجنة لتدبير الثورة تعمل على إثارة الكراهية في نفوس الناقمين .

ويقول نابليون في مذكراته :" إن الشعب قد انتخب ديوانا للثورة ونظم المتطوعين للقتال واستخرج الأسلحة المخبوءة وأن الشيخ السادات انتخب رئيسا لهذا الديوان " وذكر في تقريره إلى حكومته عن ثورة القاهرة الأولى" وأن لجنة الثورة كانت تنعقد في الأزهر " [٢٠] .

وأغلب الظن أن هذا التنظيم الذي دبر بكفاءة تفجير الثورة أثبت كفاءة أيضا في كتمان ذلك التدبير لدرجة أن رجلا مثل الجبرتي كان يجهل هذا التشكيل على الرغم من أنه أمدنا ببعض زعمائه .

والأستاذ عبد الرحمن الرافعي يقرر أن دعاة الثورة " تعاهدوا على الاجتماع ليلة الأحد ١١ من جمادى الأولى (٢١من أكتوبر١٧٩٨) لرسم الخطة الواجب اتباعها فاجتمعوا وكان عددهم في ذلك الاجتماع ثلاثين " [٢١] .

لجأ مجلس الثورة في حملته الدعائية ضد جيش الاحتلال الفرنسي إلى تعبئة الشعور الديني لدى الجماهير وأختار لهذا الغرض طائفتان من رجاله وهم : خطباء المساجد والمؤذنون .

---

[١٩] ريبو أحد مؤرخي الحملة والذي تولى تحرير الأجزاء ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨ من كتاب التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية في مصر .

انظر : عبد الرحمن الرافعي ، تاريخ الحركة القومية ، ج١ ، ص٤٥١ .

[٢٠] المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٧٥ .

[٢١] لم يذكر الأستاذ الرافعي المصدر الذي استقى منه هذا العدد (تاريخ الحركة القومية ج١ ، ص٢٧٧ .

أحداث الثورة :

بدأت طلائع الثورة من صحن الأزهر حيث أحتشد جمع غفير من الشعب والطلبة منذ الصباح الباكر من يوم الأحد ١١ من جمادى الأولى (٢١أكتوبر) وتعالت أصواهم بالهتاف وتنادوا بالجهاد ، وخرج بعض الشيوخ الصغار وبدأ ينادى في المدينة ((أن كل مؤمن موحد بالله عليه بجامع الأزهر لأن اليوم ينبغي لنا أن نغازي في الكفار)) ويظهر أن هذا التجمع بالأزهر كان من أجل تنظيم كتائب الثورة لأن الجماهير كانت قد احتشدت منذ الصباح الباكر في الطرقات ((من غير قائد يقودهم ولا رئيس يسوسهم)) فعمل زعماء الثورة على جمع شملهم أولا بالجامع الأزهر وبعد ذلك يكون التنسيق .

وخرجت عدة كتائب من الأزهر ، منها كتيبة كان يقودها الشيخ بدر المقدسي ، وأخرى كان يقودها ((رجل عطار يتزيا بزي الفقهاء وهو ينادى في الناس الله أكبر يا مسلمين قد أمركم العلماء بقتل المشركين فاستعدوا يا جدعان واضربوا منهم كل بنان))[٢٢] ونصبت هذه الكتيبة الثانية كمينا لمحافظ القاهرة الجنرال (ديبوى) وقتلوه مع بعض أتباعه الفرسان .

وبعد مقتل محافظ القاهرة تشجع الثوار وزادت حماستهم وأخذوا حذرهم وسيطروا على مداخل القاهرة كباب الفتوح وباب النصر والبرقية وباب زويلة وباب الشعرية وغيرها وأقاموا المتاريس في الشوارع من مصاطب الحوانيت وغير ذلك من الأحجار لتعوق هجوم الفرنسيين وقت المعركة .

وبينما تحصن الثوار داخل القاهرة الفاطمية على هذا النحو السابق ، لجأ الفرنسيون ، وكان مقرهم في الأزبكية في قصر الألفي لجئوا إلى حصار المدينة

---

[٢٢] الجبرتي ، تاريخ مدة الفرنسيس ، ص٣٥ .

الفاطمية ، واقتحم الثوار حي الأروام ، وكان به كثير من نصارى الشوام والقبط المتعاونين مع جيش الاحتلال والذين أصبحوا عيونا على إخوانهم المصريين لحساب المحتلين فكان قتالهم في نظر الثوار قضاء على أذناب الفرنسيين من النصارى الخونة .

قصف الجامع الأزهر:

فكر بونابرت بسرعة وعرف أن مركز الثورة الحقيقي هو الجامع الأزهر ، وكان الثوار قد أقاموا المتاريس والحواجز في سائر الشوارع والدروب المؤدية إلى الأزهر ، ولا سبيل إلى وصول القوات إليه مباشرة لإخضاع الثوار ، لأن الحواري والدروب المؤدية إليه تمكن الثوار من الدفاع عنها وتجعلهم يصطادون الفرنسيين ولم يتدرب الجيش الفرنسي على مثل هذه الحروب فأمر بنصب المدافع على سفح المقطم لكي تعاون مدافع القلعة في قصف حي الثوار وأصدر أمره بقصف الجامع الأزهر قصفا مركزا وخاطب جنوده بقوله :((عليكم أن تضربوا الجامع الأزهر وعليكم أن تقتحموا الجامع الأزهر بكتائبكم تحت حماية المدفعية .. وعليكم أن تقتلوا جميع من في الجامع وأن تضعوا فيه حرسا قويا))[٢٣] .

ونفذت أوامر بونابرت تنفيذا صارما فقد أخذت المدفعية تقذف حي الأزهر بقنابلها وركزت الضرب على الجامع رغبة في التنكيل بالثوار ، وأخذت آلاف القنابل تنهال على الأزهر والأحياء المجاورة له ، ففتكت بكثير من الثوار والأهالي وتحطمت الدور والمتاجر وأنتاب الأهالي فزع شديد ، وألقت انفجارات القنابل الرعب في قلوب الناس وشعروا بقسوة القوة الحربية الفرنسية لأول مرة لأن الشعب كان بعيدا عنها في حين تصدى لها المماليك وظل الشعب المصري منذ دخول الحملة حتى ثورة القاهرة لا يرى من الفرنسيين إلا التقرب والسياسة

---

(٢٣) د. عبد العزيز الشناوي ، صور من دور الأزهر ، ص١٢٦ – ١٢٨ .

والمجاملة فلما قامت الثورة واصطلى الشعب بهذا الضرب الهادر((ولم يكونوا في عمرهم عاينوه نادوا : يا سلام من هذه الآلام يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف)) كما يقول الجبرتي .

ويذكر (ريبو) وهو شاهد عيان من الفرنسيين لهذه الثورة بأن الجامع الأزهر أوشك أن يتداعى مما ناله (من شدة الضرب فتدفن تحت أنقاضه الجماهير الحاشدة فيه وأصبح الحي المجاور للأزهر صورة من الخراب والتدمير فلم يكن يرى فيه إلا بيوت مدمرة ودور محترقة ومات تحت الأنقاض آلاف من السكان الآمنين كان يسمع لهم أنين موجع وصيحات مرعبة وكانت الجهات القريبة من الأزهر والغورية والصنادقية مسرحا لهذه المشاهد الفظيعة))[٢٤] .

عندما فرغت الذخيرة من يد الثوار وظهر للعلماء أن الثورة ستتحول إلى مذبحة وأن الاستمرار في القتال في هذه المرحلة يعنى الانتحار لم يجد كبار الشيوخ بدا من الظهور بعد أن كانوا قد اختفوا عن أعين الثوار وتوسطوا لدى بونابرت لمنع إبادة الشعب وطالبوه بالكف عن ضرب الأزهر بمدفعيته التي انتصرت على شجاعة الثوار وأرهبتهم وهزمت مقاومتهم وقبل بونابرت وساطتهم وأوقف ضرب المدفعية واشترط على العلماء أن يعاقب الذين تسببوا في الثورة وثبت أنهم أثاروا الفتنة .

وعلى الرغم من أن بونابرت منح أمانه العام للناس في القاهرة ، إلا أن الأزهر استهدف بعد قمع الثورة لأشد ضروب الانتقام ونزلت بعلمائه النوازل ، وكانت أشد الفعال وقعا في نفوس المسلمين هو دخول القوات الفرنسية الجامع الأزهر بخيولهم وانتهاك حرمة الأزهر على هذا النحو الهمجي ، معناه سقوط كل زيف ودجل حاول بونابرت أن يستر أهدافه خلفه .

---

[٢٤] عبد الرحمن الرافعي ، تاريخ الحركة القومية ، ج١ ، ص٢٨٧ ، نقلاً عن ريبو .

عمل بونابرت على تصفية الثورة وقطع رؤوس أبطالها في الخفاء فألقى القبض على زعماء الثورة وقتلهم رميا بالرصاص وكان في مقدمة هؤلاء الأبطال الشيخ (سليمان الجوسقي) شيخ طائفة العميان والشيخ(أحمد الشرقاوي) والشيخ (عبد الوهاب الشبراوي) والشيخ يوسف المصيلحي) والشيخ (إسماعيل البراوي) وكان هؤلاء المشايخ في مجموعهم طرازا خاصا من العلماء الذين يستطيعون مخاطبة الجماهير وتحريكهم وقيادتهم فهم خطباء الثورة والداعين لها وقد بذلوا دماءهم زكية في سبيل عزة وطنهم والذود عن حياضه فكانوا شهداء أول ثورة قامت في وجه المستعمر في العصر الحديث .

وقد قرر بونابرت في مذكراته أن السلطات الفرنسية ألقت القبض على ثمانين شخصا حكمت محكمة عسكرية بإعدامهم جميعا وقد علق نابليون على هذا الحادث بعد ذلك بنحو عشرين عاما بقوله يصف شهداء الثورة ((كانوا قوما ذوى تفكير عنيف متطرف))[٢٥] وهكذا يوصف الثوار الذين يدافعون عن ديارهم بالتطرف والتهور وتوصف أعمالهم بالتخريب والإرهاب[٢٦] .

وعلى الرغم من أن الشيخ محمد أبو الأنوار السادات كان في مقدمة من ارتاب فيهم الفرنسيون ونسب إليه بونابرت في مذكراته قيادة الثورة بيد أنه تردد كثيرا في شأنه وقال عنه :((أنه مع قيام البينات على أنه زعيم الثورة فقد عفا عنه ورأى أن الضرر من قتله أكثر من نفعه لما كان له من المترلة الرفيعة في الشرق ولأن قتله يجعله شهيدا في نظر الشعب [٢٧].

---

(٢٥) كريستوفر هيرولد ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٧١ ، نقلاً عن مذكرات نابليون .

(٢٦) يصف الإسرائيليون الفدائيين الفلسطينيين الذين يدافعون عن وطنهم بالمخربين ويصفون أعمالهم بالتخريب والتاريخ يعيد نفسه ، ويصفونهم بالإرهابيين وأعمالهم في الدفاع عن أنفسهم بأنها إرهاب .

(٢٧) عبد الرحمن الرافعي ، تاريخ الحركة القومية ، ج١ ، ص٢٩٤ .

وبعد إخماد الثورة أدرك الفرنسيون بما لا يدع مجالا للشك استحالة إيجاد جو من التعايش السلمي بينهم وبين أهل البلاد فبدءوا يجمعون قواتهم في مكان واحد بدلا من بعثرتها في المدينة وتحرزوا بحمل السلاح بعد أن كانوا لا يحملونه إلا نادرا .

وكانت أهم نتائج الثورة أن المصريين أدركوا أنه لا يمكن طرد الفرنسيين بالثورة العزلاء فلابد من السلاح لأنهم قاتلوا حتى نفذت الذخيرة من أيديهم وهو الأمر الذي سوف يعمل الثوار حسابه في ثورة القاهرة الثانية حيث قلدوا المدافع وركبوا البارود .

العلماء وحملة بونابرت على الشام :

علم بونابرت بأن الأتراك يستعدون للهجوم على مصر ، كما رأى أنه لا مفر من القضاء على إبراهيم بك وجماعته الذين فروا إلى الشام وظلوا مصدر شر دائم له بما يرسلوه من مكاتبات تعكر له صفو حياته بالقاهرة ، فرأى أن من مصلحته أن يبادر بالهجوم على الشام لأن الهجوم في نظره خير وسيلة للدفاع ، ثم إنه يحاول تنفيذ مشروعه ببناء الإمبراطورية الكبير .

بونابرت يغازل اليهود :

من المعروف أنه عقب قيام الثورة الفرنسية ١٧٨٩ بدأت أوضاع اليهود تتحسن في أوربا وفرنسا على الأخص نظرا لاشتراك منظماتهم السرية في الثورة الفرنسية ، وقد صدر قرار حكومة الثورة في ٢٨ سبتمبر ١٧٩١ بالاعتراف باليهود كمواطنين وألغيت القوانين المقيدة لحرياتهم ونشاطهم .

ويلاحظ أن شعار الثورة الفرنسية هو نفس شعار "الماسونية العالمية" وهذا يلقى ظلالا يهودية على الثورة الفرنسية المعادية للمسيحية والتي نبذ رجالها الدين المسيحي .

وتطلع اليهود بعد هذا النصر الذي حققوه في الثورة الفرنسية إلى إنشاء كيان سياسي خاص بهم لحل مشكلة تفرقهم واضطهادهم وتمكنوا في فترة القرن التاسع عشر من تقوية قبضتهم المالية في كثير من دول الغرب عندما تحولت النظم الاقتصادية فيها إلى النظام الرأسمالي فأصبحت لهم مؤسسات اقتصادية لها شأنها في شتى أنحاء أوربا وأمريكا وأضحى لهذه المؤسسات ضغط سياسي على حكومات أوربا وأمريكا .

وعندما أتى بونابرت إلى مصر كانت لديه قناعة بحق اليهود في العودة إلى فلسطين (أرض الميعاد) ، وعندما بدأ يغزو الشام أثناء حملته على مصر أصدر بيانا لليهود فيه يصف اليهود بأنهم ورثة فلسطين الشرعيين ، ويمنيهم بالعودة إلى أرض الميعاد ، أرض صهيون وهم ينشدون ، ويقول ليهود العالم :

" انهضوا بقوة أيها المشردون في التيه ... إن فرنسا تقدم لكم يدها الآن حاملة إرث إسرائيل ... إن الأمة الفرنسية تدعوكم إلى إرثكم بضمانها وتأييدها ضد كل الدخلاء " #:

وهذا النداء يدل على أن نهضة اليهود وتفكيرهم في العودة إلى أرض الميعاد بدأت منذ قيام الثورة الفرنسية .

فشل بونابرت في حملته على الشام وبدأت تظهر بوادر الفشل في تأسيس إمبراطورية شرقية وخاصة أن الإنجليز أعداءه الألداء صمموا على إخراجه من مصر وتم الاتفاق بينهم وبين العثمانيين على إعداد حملة كبيرة لهذا الغرض وعندما وصل

انظر كتاب : المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل ، الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية . وانظر أيضا الأهرام القاهري عدد ٢٦ أكتوبر ١٩٩٦م ، من مقال لزكريا نيل في سلسلته المعروفة بذاكرة التاريخ والمقال بعنوان : " العرب بين شجاعة شيراك وخطيئة نابليون".

بونابرت خبر نزول الحملة العثمانية في أبي قير بقيادة (مصطفى كوسة) باشا في ١٧ من يوليو ١٧٩٩ جمع قواته بسرعة مذهلة ، وتقدم إلى أبي قير وتمكن من هزيمة العثمانيين في ٢٥ يوليو وأسر قائد الجيش التركي .

وأحدثت حملة العثمانيين على مصر حركة في نفوس المصريين فانتعشت أرواحهم وتجددت آمالهم وراموا الخلاص من الاحتلال الفرنسي ((وتجاهروا بلعن النصارى))[٢٨] وتشاجروا مع بعض النصارى وكادت تحدث ثورة في هذه الأثناء .

رحيل بونابرت :

على الرغم من انتصار بونابرت في معركة أبي قير البرية (٢٥من يوليو ١٧٩٩) إلا أنه أحس بحرج مركزه في مصر وأدرك فشله الذريع ويأس من عدم نجاح سياسته الإسلامية في مصر ، ورأى بثاقب نظره أن مصر بوجه خاص تمردت عليه والشرق الإسلامي بوجه عام ، ليس مهيئا لما تصبو إليه نفسه ، من تكوين إمبراطورية أحلامه ، على الرغم من ضعف الإمبراطورية العثمانية إلا أن شعب مصر لم يزل معبأً بالروح الإسلامية القوية بقيادة علماء الأزهر وأن هذه الروح ستظل في ثورة مستمرة بالرغم من أنه حاول ترويض العاطفة الدينية ، إلا أنه لم يتمكن من السيطرة عليها ورأى أن الجهاد الديني بدأ يشتعل ضده وخاصة بعد حربه مع طلائع الحجازيين والشاميين . فأعاد إلى ذاكرته الحروب الصليبية فأدرك فشله الذريع .

فخرج من مصر خائفا يترقب واتخذ طريقه سربا إلى باريس ، لينال فيها ما تطمح إليه نفسه من المجد والفخار ووعد بونابرت في منشوره إلى الجنود وفي رسالته إلى الديوان أن يعود سريعا ((وقد يكون هذا من حسن السياسة ولكنه لم يكن من

---

[٢٨] عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج٣ ، ص٧٨– ٧٩ .

الأمانة في شيء))[٢٩] .لأنه لم يكن في نيته أنه سيعود كما أنه من العار أن يترك جيشه ويفر هاربا وحده .

عهد كليبر :

عقب سفر بونابرت إلى فرنسا تسلم كليبر القيادة في (أغسطس ١٧٩٩) إلا أن كليبر لم يكن على مثال سلفه بونابرت الذي كان بارعا في كسب القلوب ، فقد كان كليبر مشحوناً بالغرور والصلف ،كما ((كما كان بونابرت سياسيا حسابا ، أما كليبر فجندي عاطفي)) ولم يكن كليبر من أنصار البقاء في مصر فعقد (معاهدة العريش) في يناير ١٨٠٠مع طلائع الجيوش العثمانية والإنجليزية الزاحفة لإخراجهم من مصر ، واتفق على الجلاء عن البلاد بيد أن الإنجليز نقضوا شروط المعاهدة وأصروا على أن يسلم الفرنسيون أنفسهم وأسلحتهم كأسرى حرب فتقدم كليبر واشتبك مع العثمانيين في (معركة عين شمس) وهزمهم بسرعة فائقة في مارس ١٨٠٠م .

ثورة القاهرة الثانية : (مارس ١٨٠٠):

بعد هزيمة العثمانيين في (معركة عين شمس) دخلت بعض القوات العثمانية المنسحبة من عين شمس إلى القاهرة فانطلقت بذلك الشرارة الأولى لثورة القاهرة الثانية ، وهى صفحة مجد مصرية ، فالجيش العثماني سحق تماما على يد كليبر في عين شمس خلال ساعات ، بينما قاومته القاهرة حوالي خمسة أسابيع وكانت تلك الثورة ثورة إسلامية شاملة فقد ساهمت فيها جميع العناصر الإسلامية الموجودة بالقاهرة ، كما كانت أول ثورة في الشرق تواجه الاستعمار الغربي بهذا الشمول

---

[٢٩] كريستوفر هيرولد ، مرجع سبق ذكره ، ص٤٤٦ .

والصمود وقام سكان القاهرة خلالها بما لم يستطع أحد أن يقوم به من قبل ، فقد صنعوا المدافع وركبوا البارود ، وكان هذا هو الدرس المستفاد من ثورة القاهرة الأولى التي استسلم فيها الثوار بلا قيد أو شرط عندما نفذت الذخائر من أيديهم .

ولجأ كليبر إلى أقصى أنواع العنف في قمع هذه الثورة وسلط مدافعه على المدينة وخاصة (حي بولاق) الذي أضحى مركزا للثورة ، وأخذت المدافع تنشر في المدينة الدمار والخراب ، وعهد إلى قواته أن تصوب نيرانها إلى الجامع الأزهر مركز تنظيم المقاومة وتعبئة الروح الجماهيرية للقتال وشدد الفرنسيون الحصار على القاهرة وبولاق وأشعلوا النيران بهما وجرى على سكان القاهرة من الأهوال ((ما لم يسطر في كتاب ولم يكن لأحد في حساب))[٣٠] وغلت الأقوات بسبب حصار القاهرة وانتشر النهب والسلب بسبب المجاعة التي حلت بالشعب وسرعان ما أحرز الفرنسيون نجاحا كبيرا في القضاء على الثورة .

مهادنة مراد بك :

وكان من العوامل التي ساعدت في القضاء على الثوار نجاح كليبر في مهادنة مراد بك [٣١] ، فعقد معه معاهدة صداقة في ٥ من أبريل ١٨٠٠ وكان لهذه المعاهدة أثر كبير في القضاء على ثورة القاهرة ، فقد أقبل مراد مباشرة على معاونة

---

[٣٠] الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج٣ ، ص١٠٣ .

[٣١] مراد بك حمل لواء المقاومة في الصعيد ، وطارده الفرنسيون في أرجاء الصعيد مدة عام بطولة وكبدوه خسائر فادحة ، وقبل مراد بك معاهدة الصداقة مع الفرنسيين أخيراً مراعاة لمصلحته وشدة شكوكه بالعثمانيين ، لذلك أقدم على هذه المعاهدة تدفعه إليها مصلحته الشخصية ، وقامت السيدة (نفيسة المرادية) زوجة مراد بك بدور كبير في إبرام هذه المعاهدة فقد ظلت هذه السيدة بالقاهرة ولم تخرج مع زوجها إلى الصعيد ، وأظهر بونابرت ثم كليبر من بعده كثيراً من ضروب العناية والاحترام لهذه السيدة فكان هذا سبباً أخيراً دفع مراد بك إلى التقرب إلى الفرنسيين بهذه المعاهدة وكانت المراسلات الأولى بينهما عن طريق السيدة نفيسة المرادية . وهذه المعاهدة تتنافى مع ما أعلنه بونابرت في منشوراته وبياناته إلى المصريين من أنه إنما جاء إلى مصر لمحاربة المماليك وإنهاء حكمهم من الوجود .

الفرنسيين في إخماد الثورة فقدم لهم المؤن والذخائر وأرسل لهم عددا من المراكب المحملة بالحطب والمواد الملتهبة لأحداث الحرائق في القاهرة ، وبذلك تمكن الفرنسيون من إخماد الثورة بفضل الحرائق التي أشعلوها في الأحياء الوطنية وفي حي بولاق على وجه الخصوص كما ساعدهم مراد في أحكام الحصار حول القاهرة لإجبارها على التسليم .

على الرغم من أن الجنرال كليبر تعهد أن يعفو عفوا عاما على جميع أهالي القاهرة وعلى المصريين الذين اشتركوا في الثورة ولكنه نقض عهده عقب دخوله إلى القاهرة وحمَّل علماء الأزهر مسئولية الثورة ، وطلب منهم عشرة ملايين فرنك ووكل الفرنسيون جمع الغرامة إلى المعلم (يعقوب القبطي) الذي أصبح يروح ويغدو تتبعه الأعوان من القبط الذين زادت سلطتهم وسطوتهم بالبلاد في هذه الفترة ونادوا في تبجح بزوال ملة المسلمين .

ولقد أدرك بعض القبط أنهم أمعنوا في خيانة إخوانهم المسلمين إبان عصر الحملة الفرنسية ، ولذلك غادروا مصر مع الحملة تاركين وطنهم لخوفهم من الانتقام فقد كانوا يعلمون أن ما حدث منهم لا يمكن أن يغفره لهم العثمانيون ومن ثم خرجوا مع زعيمهم المعلم يعقوب كبير المباشرين الذي كان قد أمعن في خيانته للشعب ومنحه الفرنسيون لقب جنرال ويذكر بعض أشياعه (لويس عوض) أن الفرنسيين كلفوه بتنظيم شبكه للمخابرات على الشعب المصري لصالح الفرنسيين كانت تمتد من مصر إلى سوريا قبل جلائهم عن مصر بخمسة شهور[٣٢] .

---

(٣٢) انظـر العـرض الوافي الذي قدمه محمد جلال كشك عن الجنرال العميل (المعلم يعقوب) في مؤلفه : ودخلت الخيل الأزهر ، الفصل الثامن ، ص٤١٩ – ٤٦٣ .

بطل من الأزهر يقتل قائد الحملة :

وفي هذا الجو المشحون بعوامل السخط والذي أزداد فيه الجفاء بين المصريين والمحتلين ، وقع حادث اهتزت له البلاد وهدد الأزهر بأخطار شديدة وذلك الحادث هو اغتيال الجنرال كليبر على يد طالب أزهري هو (سليمان الحلبي) في ٢١محرم ١٢١٥هـ(١٤يونيو١٨٠٠م).

معنى هذا أن الأزهر لم ترهبه سياسة كليبر التي أنتهجها لإذلال الشعب والزعماء بل على العكس قابل الإرهاب بالإرهاب فأعدت مجموعة ثورية من طلبة الأزهر خطة (برواق الشوام) لاغتيال كليبر ، ونجحوا في تنفيذ هدفهم واستطاعوا بذلك أن يوجهوا إلى المستعمر ضربة رائعة في هدفها وأحكامها والتي تميزت بضخامة الهدف مع ضآلة الخسائر .

وسليمان الحلبي قاتل كليبر مفخرة للأزهر ، فهو من أوائل الفدائيين الأبطال فقد استطاع أن يوجه ضربة عنيفة إلى جيش الاحتلال الفرنسي ، ومع أن دافع الجهاد في سبيل الله كان واضحا في سلوك سليمان الحلبي ، إلا أن الفرنسيين عمدوا إلى تزييف تاريخ هذا البطل فقد حاولوا إظهاره في ثوب الشاب العميل المأجور الذي دفعته إلى فعلته روح المنفعة الشخصية التي حصل عليها من الأتراك فعندما أعياهم الحصول على خيوط المؤامرة الحقيقية التي حيكت داخل أروقة الأزهر حاولوا إظهار الحادث على أنه مؤامرة أجنبية وبتحريض من الخارج ، ويد محركة ، ومبلغ من المال دفع له ، فالمجاهد المدافع عن حرية بلاده ، لا يمكن إلا أن يكون قاتلا مأجورا تحركه دولة أجنبية لقاء مغنم شخصي .

كان معنى هذا أن الدافع إلى الجهاد والدفاع عن الإسلام لا وجود له والموجود الذي يجب أن يسجله التاريخ من وجهة نظر الفرنسيين هو الدافع الشخصي فقط .

كان دافع الجهاد واضحا في سلوك سليمان ، فقد مكث بالأزهر ثلاثين يوما بعد مجيئه[٣٣] من الشام يعد فيها عدته لإنجاز هدفه ويروض نفسه بالعبادة والوعظ لتقوية روحه ، وكتب دعاء بخط يده بأن ينصره الله في مهمته وعلقه فوق رأسه في رواق الشوام بالأزهر .

ووصف المحققون سليمان بالثبات ورباطة الجأش فذكروا عنه أنه كان ينظر إلى محاضر التحقيق بعين رفيعة [٣٤] وأبدى سليمان بطولة نادرة عندما أخذه الجنود إلى مكان تنفيذ الحكم فقد سار ثابت الخطى مطمئن الفؤاد إلى مصيره وأبدى من الشجاعة والجرأة والثبات ما أدهش الحاضرين فقد مد يده إلى الجمر الموقود وكان ينظر لحمه تشويه النار شيا فلا يهتز بألم ولا ينبض له نبض ولا تنبس شفتاه بكلمة وعندما سيق إلى الخاذوق[٣٥] لم تلمح على وجهه إمارات اكتراث بما آل إليه أمره كما لم يتقلص له عضل ولم يلتو من أعضائه عضو بل ظل ساكنا سكون الحجر الأصم وكل ما لحظه عليه المشاهدون أنه حينما رفعته أكف منفذي الحكم لوضعه على الخازوق أجال نظره في الحاضرين مطمئن الفؤاد هادئ الروع ثم فاه بالشهادتين وظل سليمان مرفوعا على الخازوق أربع ساعات ونصف ساعة سأل خلالها مرارا شربة ماء فلم يجبه أحد إلى طلبة مخافة أن يموت قبل أن ينال من

---

[٣٣] كـان سـليمان الحلبي قد غادر الأزهر إلى الشام عقب مجيء الفرنسيين وكان عمره ٢٤ سنة وتلقى العلم بالأزهر منتسباً إلى رواق الشوام .

[٣٤] الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج٣ ، ص١٣٧ .

[٣٥] حكمـت محكمة فرنسية عسكرية بإحراق يد سليمان الحلبي (اليمنى) ثم إعدامه على الخازوق وترك جثته في العراء فوق تل العقارب بالقاهرة حتى تأكلها جوارح الطير .

أدوار جوان ، مصر في القرن ١٩ ، ص١٦٧ –١٦٨ من الترجمة العربية لمحمد مسعود ، القاهرة ١٩٣١م .

العذاب ما صمم عليه الفرنسيون ، وعندما ناوله أحد الجنود كوب ماء ما كاد يشربه حتى أسلم روحه .

وعندما خرج الفرنسيون من مصر نقلوا معهم ما تبقى من جثمان سليمان الحلبي إلى باريس[٣٦] ووضعوا رأسه المحنطة داخل دولاب زجاجي يطل إلى يومنا هذا على الزائرين في (المتحف الجنائي) بباريس وقد كتبت عليه لافتة تقول ((رأس قاتل والاسم سليمان الحلبي)) وهذه هي كل مخلفات البطل الأزهري العظيم وعظام سليمان الحلبي معروضة بهيكلها في غرفة التشريح (بحديقة النباتات) الفرنسية بباريس[٣٧] .

وقد أراد الفرنسيون بذلك محو أثر تلك البطولة من مصر بعد تزييف تاريخها لأنهم فكروا أن المصريين ربما يقيمون ضريحا لسليمان يزار على مر الأيام كما هي طريقتهم في تخليد الأبطال ، فأرادوا حرمان مصر من هذا الغرض المرتقب ، لكيلا يكون هناك أثر للبطولة في مصر تذكر المصريين بفظائع الفرنسيين .

قيادة الجنرال منو[٣٨] :

تولى الجنرال منو قيادة الحملة الفرنسية عقب اغتيال الجنرال كليبر وكان على خلاف سلفه في نظرته إلى البقاء في مصر فبينما كان كليبر من أنصار التعجيل برحيل الجيش إلى فرنسا مع عقد صلح مشرف مع الإنجليز والعثمانيين ، كان منو من أنصار البقاء في مصر ، ومن ثم حزن الجيش لوفاة كليبر حزنا شديدا ولم يكن

---

(٣٦) د. محمد فؤاد شكري ، الحملة الفرنسية ، ص٥١٠ .

(٣٧) أدوار جوان ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٨ .

(٣٨) الجنرال (منو) عينه كليبر كومندانا للقاهرة في شهر مايو ١٨٠٠م عقب إخماد ثورة القاهرة الثانية ، وبقي بها إلى قتل كليبر فتولى قيادة الحملة بعده ، لأنه أقدم القواد ، وكان قائداً من قبل على رشيد منذ قدوم الفرنسيين ، وكان قد أظهر أنه مسلم وتزوج بامرأة مسلمة من رشيد وتسمى باسم عبد الله ، وكان إسلامه متمماً لخطة بونابرت الإسلامية .

منشأ هذا الحزن حب الجيش لقائده السابق فحسب، بل لأن كليبر أيضا إلى جانب تعلق الجيش به ، كان صاحب سياسة الجلاء عن مصر والعودة إلى فرنسا وكان قواد الجيش وضباطه لا يثقون في قيادة منو الذي وصفه جماعة منهم بأنه رجل البلاط القديم ، وعلى الرغم من عدم كفاءة منو العسكرية والسياسية إلا أنه كان على جانب كبير من الغرور والاعتزاز بالنفس ، وكان يحقد على سلفه كليبر لمترلته بين قواد الحملة وجنودها .

إغلاق الجامع الأزهر :

عقب قتل كليبر كثرت شكوك الفرنسيين حول الأزهر ، وتكررت مفاجأتهم له للبحث عن الأسلحة ودفعتهم شكوكهم إلى حفر بعض الأماكن بالأزهر للبحث عن السلاح وكتبوا الطلبة في كشوف وأصدروا أوامرهم ألا ينام أحد غريب في الأزهر وطردوا الأتراك المجاورين من الجامع وأنتاب المجتمع الأزهري خوف شديد من الإرهاب الفرنسي وشرعوا في نقل أمتعتهم من الأزهر.

أدرك العلماء خطورة الموقف وخافوا عاقبة شكوك الفرنسيين فربما دبروا لهم مؤامرة لهدم المسجد وأدركوا أن استمرار الدراسة في هذا الجو أمراً متعذراً فطلبوا من الجنرال منو أن يسمح لهم بإغلاق الجامع الأزهر لمنع الريبة كلية فوافقهم على ذلك ووافق ذلك هواه ، وتم إغلاق الأزهر في ٢٨محرم ١٢١٥هـ(٢١يونيو ١٨٠٠م) وكانت هذه أول مرة يغلق الجامع الأزهر على مدى تاريخه الطويل فقد ظل مفتوح الأبواب منذ إنشائه إلى أن أغلق وظل مغلقا إلى أن شرع الفرنسيون في الجلاء عن مصر فأعيد فتحه .

جلاء الفرنسيين عن مصر:

احتدم الصراع بين الفرنسيين من ناحية وبين الإنجليز والأتراك من ناحية أخرى من أجل إجلاء الحملة عن مصر وبينما كان (منو) منهمكا في مشاريعه الإصلاحية كان الإنجليز والترك يعدون العدة لإعادة مصر إلى حظيرة الدولة العثمانية ، وفي ٨ مارس١٨٠١ نزل الإنجليز والأتراك إلى شاطئ أبي قير بالإسكندرية ، وهرع (منو) بقواته للقائهم ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة عند سيدي جابر يوم ١٣مارس ، هزم على أثرها الفرنسيون ، وتابع الإنجليز زحفهم إلى القاهرة ، والتقى الإنجليز والأتراك بالفرنسيين مرة أخرى في ٩ مايو ١٨٠١ عند الرحمانية [٣٩] وهزمت كذلك القوات الفرنسية وأصبح الطريق مفتوحا إلى القاهرة [٤٠].

كما زحف الجيش العثماني من سوريا بقيادة الصدر الأعظم (يوسف باشا ضيا) ومر بالعريش ووصل إلى بلبيس وانتصر على الفرنسيين بقيادة بليار عند بلدة الزوامل[٤١] في ١٦مايو ١٨٠١ وتراجع الفرنسيون إلى القاهرة ، وتحرج موقفهم وأدركوا أنه لا مفر من النزول على ضغط الحوادث وقرر (بليار) التفاوض بشأن الصلح مع الإنجليز.

وانتهت المفاوضات بتوقيع اتفاقية الجلاء في ١٧يونيو ١٨٠١، وتقضى شروطها أن تجلو الجنود الفرنسية البرية والبحرية التي تحت قيادة الجنرال بليار عن مدينة القاهرة وقلاعها ، وقلاع بولاق والجيزة ، وعن كل جهة تحتلها من الأراضي المصرية وأن يكون جلاء الجنود بأسلحتهم وأمتعتهم ومدافعهم وذخائرهم بطريق

---

[٣٩] الرحمانية قرية من قرى مركز شبراخيت بمحافظة البحيرة .

[٤٠] عبد الرحمن الرافعي ، تاريخ الحركة القومية ، ج٢ ، ص٢١٦ .

[٤١] الزوامل : بلدة تقع في منتصف الطريق بين بلبيس وبلدة الخانكة .

فرع رشيد من النيل ومن رشيد وأبي قير يبحرون إلى فرنسا على نفقة الحلفاء ، وأن يتم الجلاء عن مصر في أقرب وقت ممكن بحيث لا يزيد عن ٥٠ يوما من تاريخ التصديق على الاتفاق وتحدد للجلاء عن القاهرة وبولاق اثنا عشر يوما .

وتبع ذلك توقيع (منو)[٤٢] على شروط الجلاء في الإسكندرية في ٣١ أغسطس ١٨٠١(٢١ربيع الثاني ١٢١٦هـ) وتم جلاء الفرنسيين عن البلاد في منتصف شهر أكتوبر وبذلك اختتمت من تاريخ مصر صفحة مليئة بالحوادث والمحن ولكنها فياضة أيضا بعوامل اليقظة والنهوض والكفاح وهى بلا شك من أعظم أدوار الحركة الوطنية المصرية .

نتائج الحملة :

للحملة الفرنسية بعض النتائج الهامة على الصعيدين الدولي والمصري أما من الناحية الدولية فقد فشلت الحملة في مهمتها وهى إقامة إمبراطورية فرنسية في الشرق العربي ،كما فشلت في هدفها وهو ضرب إنجلترا في طريقها إلى مستعمراتها بالاستيلاء على مصر ، غير أنها وجهت نظر الأوربيين إلى مصر وخاصة الإنجليز والفرنسيين ورأوا ضرورة امتلاكها أو توسيع نفوذهم بها وذلك لأهميتها الإستراتيجية .

وأما عن نتائج الحملة الفرنسية على الصعيد المصري فلها جوانب متعددة فمن ناحية الكفاح الوطني فلا شك أن الحركة الوطنية المصرية قد تقدمت إلى الأمام خطوات .

---

(٤٢) كان (منو) قد هرع بنصف جنوده إلى الإسكندرية عندما سمع بنزول الإنجليز بها ، وترك النصف الآخر بالقاهرة بقيادة الجنرال (بليار) وهزمه الإنجليز في معركة سيدي جابر الآنفة ثم معركة (كانوب) ٢١ مارس ١٨٠١م ثم اعتصم بالإسكندرية حتى اضطر إلى توقيع اتفاقية الجلاء في ٣١ أغسطس ١٨٠١م .

فعندما سقطت دولة المماليك وأفاقت جماهير الشعب على انهيارها ، حمل زعماء الشعب من علماء الأزهر مسئولية القيادة والدفاع عن الوطن ، وأثبت الشعب المصري بقيادة زعمائه كذب الأسطورة التي راجت قبل الحملة الفرنسية عنه ، والتي تقول : بأن الشعب المصري عبارة عن قطيع ينتقل من يد غالب إلى غالب ولا دخل له في قضية من يمتلك البلاد ، ومحا بالدم الفرية التي يريد البعض ترويجها ، بأنه لم يكن طرفا في الصراع على السيادة وأن الحملة كانت حربا بين الفرنسيين والسيادة العثمانية والمماليك .

إذن كان من نتائج الحملة السياسية ، ازدياد قوة الشعب المصري تحت زعامة مصرية صميمة من علماء الأزهر ، وأصبح الشعب بذلك قوة سياسية لها وزنها في صنع الأحداث بعد الحملة وكانت تلك النتيجة على جانب كبير من الأهمية ، ولو أتيح لقوة الشعب أن تتطور لغيرت مجرى الأحداث في البلاد فقد احتوتها عناصر أجنبية (محمد على) وتحالفت معها تحالفا مصلحيا مؤقتا ثم عصفت بها ، كما سنذكر ذلك في موضعه .

ولقد قامت أعباء هذه المقاومة الفذة للحملة على المسلمين وحدهم بقيادة علماء الأزهر ، بينما كوَّن المسيحيون فرقا وكتائب تحت قيادة زعمائهم أمثال المعلم يعقوب القبطي وبرتلمي وغيرهم لمساعدة الفرنسيين ضد أهل البلاد المسلمين.

وكانت أمتنا ما زالت على فطرتها الإسلامية السليمة تحركها روح الجهاد والاستشهاد ولم يكن قد تم تغريبها بعد ، ولا تم تجريدها من العقيدة وروح الجهاد ، وذلك لأن بونابرت عندما جاء بجيشه واجه شيوخ الأزهر القيادة الشرعية والواقعية للأمة ، لذلك كانت سنوات الاحتلال الثلاث هي سنوات حرب متصلة

ومقاومة لا تهدأ ...((ولكن بعد ثمانين عاما من تحضير وتمدين وتغريب أسرة محمد على لمصر ، انتقلت القيادة نهائيا من الأزهر وأصبحت هذه المرة في الجيش ... فلما سقط الجيش في معركة (التل الكبير) سقطت مصر ونعم الإنجليز بهدوء دام أكثر من ربع قرن لأن الأمة كانت بلا قيادة .. لأن قيادها الطبيعية كانت قد نحيت وصفيت وعملية التغريب كانت قد تمت بنجاح ، وأصبحت البلاد ناضجة لكي يتناولها السيد الغربي وقد كان [٤٣] .

وليس للحملة نتائج إيجابية في مجال الحكم النيابي ، على الرغم مما يدعيه البعض من (أن الديوان الكبير الذي استحدثه بونابرت كان بمثابة البرلمان والديوان الصغير بمثابة مجلس الوزراء) لأن هذا الديوان كان موجودا مثيله في العصر العثماني وكان يؤدى دور أكثر مما كان يؤدى ديوان بونابرت ، وكان للعلماء به صوت مسموع لدى الحكام العثمانيين والمماليك ، وكانوا يعترضون فيه على كثير من القرارات التي تمس حياة الشعب ، ويطلبون تغييرها حتى ولو كانت هذه القرارات صادرة من السلطان ذاته .

وكان بونابرت من أنصار سيادة المركزية الشديدة وكان يود أن يبقي الفرنسيون الدواوين التي أنشأها بمصر ((ولم يرم بها خلق النظام البرلماني كما توهم البعض فبونابرت لم يكن ممن يعجبون به أو يرتضيه لفرنسا دع عنك مصر ، بل رام بها إلى إنشاء وسائل تمكنه من الاتصال بأعيان المصريين وتفهم ما يجرى في أنفسهم وتفهيمهم حقيقة مشروعاته ونواياه ، حتى لا يبقى مجال لدس الدساسين وسوء الفهم))[٤٤] .

---

(٤٣) محمد جلال كشك ، ودخلت الخيول الأزهر ، مرجع سبق ذكره ، ص٩ .

(٤٤) شفيق غربال ، محمد علي الكبير ، سلسلة أعلام الإسلام ، القاهرة ١٩٤٤م ، ص٢٠ .

وليست هذه النتائج مما لا يقوم على أساس من الواقع فأكثرها مستمد مما كتبه بونابرت وغيره عن نواياهم ومما شرعوا في تحقيقه فعلا فعندما وصل بونابرت إلى شواطئ الإسكندرية ألقى أول أكذوبة عندما زعم في بيانه أنه جاء مصر لتمدينها من خلال السيطرة الفرنسية وتبعية مصر لفرنسا تحت شعار الجمهورية الفرنسية هذا البيان وصفه هو نفسه بعد ذلك بأنه كان دجلا ((ولكنه دجل من أعلى طراز)) وبرر ذلك قائلا : ((على الإنسان أن يصطنع الدجل في هذه الدنيا لأنه السبيل الوحيد إلى النجاح))[٤٥] .

ولكن هذا الدجل لم يخدع أحداً من المصريين في حينه ، ورفضت مصر كلها الإدعاء الفرنسي بتمدينها من خلال تحويلها إلى مستعمرة فرنسية وذلك على الرغم من إحساس الجبرتي المفجع ببعد الشقة ، وعميق الهاوية بين فرنسا المتقدمة ومصر المتخلفة وأدرك المصريون بأصالتهم ((أنه لا يمكن أن يكون قبول التبعية لفرنسا لأن التقدم لا يمنح بل يصنع ، ولأن الدولة العصرية لا تقوم إلا على أرض مستقلة وبالإرادة الحرة .. وأن مظاهر العصرية المستوردة تتحول إلى أغلال العبودية))[٤٦].

كما أن الحملة ليس لها نتائج إيجابية في مجال التقدم الصناعي ، فعندما فكر الجنرال (منو) في إنشاء مصنع للجوخ في القاهرة لسد حاجة الجيش الماسة إلى الأجواخ التي انقطع ورودها من أوربا بسبب الحصار البحري ، وعارض أعضاء اللجنة الإدارية في قبول العمال المصريين في هذا المصنع ، بحجة الضرر الذي يلحق الصناعة الفرنسية إذا عرف المصريون أسرار هذه الصناعة وكتبت اللجنة رسالة في هذا الصدد قالت فيها :

---

[٤٥] كريستوفر هيرولد ، بونابرت في مصر ، مرجع سبق ذكره ، ص٩٨ – ٩٩ .
[٤٦] محمد جلال كشك ، من مقال له عن الدولة العصرية ، أخبار اليوم ٤/٥/١٩٦٨م .

إن مقدرة المصريين في تقليد المبتكرات الصناعية من شأنها أن تضر بالمصانع الفرنسية)) وصرح ((كونتى)) مدير المصنع الميكانيكي الذي أنشأه الفرنسيون أنه لا يقبل البته تعليم أحد من الأهالي أساليب الصناعة ، وأخيرا تم الاتفاق بين منو واللجنة الإدارية على إنشاء مصنع للأجواخ بإدارة المسيو كونتى على ألا يقبل فيه عامل مصري واحد[٤٧] .

وهكذا أقام الحكم الفرنسي دليلا على أن الفرنسيين لم يبتغوا من الحملة على مصر إلا اتخاذها مستعمرة يستغلونها لمصلحتهم ويضحون في سبيل هذه الغاية بمصالح مصر والمصريين وهذا يكشف لنا زيف ما يروج عن هذا الدور الحضاري الذي لعبته الحملة الفرنسية في مصر .

والذي يمكن أن نقوله في مجال النتائج الفكرية : أن الحملة كانت بمثابة صدمة هزت المفاهيم الفكرية والأوضاع الحضارية التي كانت سائدة في مصر منذ عهود طويلة ، ففي غضون السنوات الثلاث التي قضاها الفرنسيون في مصر احتك بعض علماء الأزهر برجال الحملة واتصلوا بهم واطلعوا على علومهم ، ووقف جيل الحملة الفرنسية موقف الدهشة من ضخامة الفرق الحضاري بين ما كانت عليه البلاد وبين ما وصل إليه العلم الفرنسي ، وقد هزته هذه الدهشة من أعماقه .

غير أن مخالفة الغزاة المصريين في الدين ، واقتحامهم للأزهر بخيولهم ، ورؤية فرنسا غازية قاهرة لهم . وأعمالها الحربية القاسية التي باشرتها في البلاد ، وجعل الجيل الصاعد من علماء الأزهر يقف موقف الرفض لتلك الحملة مهما أبدت من جوانب حضارية نيرة وأيقنوا أن السم في العسل كما يقولون ، وبرزت بينهم حركة التمسك بالذات ورفض التبعية التي تحدثنا عنها إبان حوادث الحملة .

---

[٤٧] عبد الرحمن الرافعي ، تاريخ الحركة القومية ، ج٢ ، ص٢١٠ — ٢١١ .

وكان جيل الحملة من علماء الأزهر على حق في موقفه ، نظرا لأن قواد الحملة لم يبدوا نية خالصة في تطوير البلاد وكان كل همهم استغلال موارد البلاد إلى آخر قطرة من دماء أهلها .

الفصل السادس

محاولات الإصلاح في الدولة العثمانية

حـــاول ســـلاطين العثمانيين أن يقوموا بمحاولات إصلاحية اتخذت النظام الغـــربي نمـــوذجا لها ولم تكن الدعوة إلي الإصلاح نابعة من الشعب بل جاءت من الحكـــام أي أنها ثورة من القمة وليست من القاعدة وكان الهدف الرئيسي لها تأمين مصالح الحكام والحفاظ علي رجال السلطة ولهذا امتد الإصلاح في المقام الأول إلي إصلاح آلة الحرب والنظم العسكرية .

المرحلة الأولى من الإصلاح :

وقـــد كانـــت المرحلة الأولى من الإصلاح أيام سليم الثالث (١٢٠٤- ١٢٢٢هـــ) (١٧٨٩-١٨٠٧م) في هـــذه الفتـــرة قامت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ م وبدأت تنتشر في الولايات الأوربية مبادئ التحرر ، وغزت فرنسا مصر بحملـــة نابليون بونابرت في الفترة من ١٧٩٨ ــ حتى ١٨٠١ م = (١٢١٣ ــ حـــتى ١٢١٦ هـــ) وذلك لامتلاك مصر أهم الولايات العربية ، وبدأ اختراق الدولـــة العثمانـــية وامتلاك أقصر الطرق بين الشرق والغرب . وزاد الصراع بين بريطانيا وفرنسا على وراثة أملاك الدولة العثمانية .

ولـــما ظهر ضعف الدولة العثمانية أمام الغزوة الفرنسية رأى السلطان سليم أن الوســـيلة الوحـــيدة لتقوية الدولة هي إصلاح الجيش لكي تصبح الحكومة قوية وفعالة . وكانت الانكشارية التي هي عصب الجيش العثماني أصبحت نظاما فاسدا وكثر تمردهم على الدولة ، ولم يستطع سليم الثالث أن يعود بنظام الجيش إلى سابق

عهـــده ، فعـــزم علـــى إنشاء فرق جديدة على النمط الأوربي على أيدي مدربين أوربيين.

فقامـــت ضده ثورة الجند القدامى في سنتي ١٨٠٦ ، ١٨٠٧ م وخلعوا الـــسلطان سليم الثالث وقتل في السجن ، وولى الثائرون مكانه ابن عمه مصطفي الرابع ، وتحرك أنصار سليم وقتلوا مصطفي الرابع ووضعوا أخوه محمود الثاني على العرش سنة ١٨٠٨ م وهو الذي بدأت على يديه المرحلة الثانية من الإصلاح .

المرحلة الثانية من الإصلاح :

وبـــدأت المرحلة الثانية من الإصلاح أيام محمود الثاني (١٢٢٣_١٢٥٥ هــــ) (١٨٠٨-١٨٣٩م) وفي عصره وصلت الحركة الوهابية أوجها من القوة وتمكـــنت الدولة من القضاء عليها بمعونة محمد علي سنة ١٨١٨ م وقامت ثورة في الـــيونان فعهـــدت الدولة أيضا إلى محمد علي بإخمادها ونجح ابنه إبراهيم في ذلك .وفيما يلي نلقي الضوء على جهود محمد علي في هذا الميدان.

محمد على يحاول الاستقلال بمصر :

عندما تولى محمد على حكم البلاد ، كان جل همه منصرفا إلى تأييد مركزه الشخصي فيها وان يجعل منها قوة حربية كبيرة ذات بأس شديد ،تقاوم محاولات الدولة العثمانية المتكررة لإضعاف مركزه كما هي عادهًا مع الولاة السابقين ، ورغبة منه في تحقيق هذه الغاية فقد سخر موارد البلاد كلها من أجلها ، واستولى على كل شئ فيها كالزراعة والصناعة والتجارة ، وأضحى محمد على الزارع الوحيد والصانع الوحيد والتاجر الوحيد ، وكل هذه الموارد الأساسية الهامة سخر الشعب فيها بأجور زهيدة أقرب ما يكون إلى النظام الشيوعي الذي تسيطر فيه

الدولة على جميع وسائل الإنتاج . ولم تكن مصلحة الأهالي قمم محمد على في كثير أو قليل فقد كان أجنبيا عن البلاد .

وحاربت مصر بعد ذلك في (شبه جزيرة العرب) وهى الحروب المعروفة بالحروب الوهابية بين سنتي ١٨١١، ١٨١٩م استجابة لتركيا لقمع الحركة الوهابية ، ولقد تلكأ محمد على كثيرا في إجابة طلب تركيا في بادئ الأمر متعللا باشتغاله بمحاربة المماليك ، وفي النهاية خضع للأمر وجرد حملته المعروفة على شبه جزيرة العرب للقضاء على الحركة الوهابية في سنة ١٨١١م .

وكانت الحرب الوهابية من وجهة النظر المصرية المعاصرة للأحداث عملا عدائيا ضد أخوة مسلمين قاموا بدعوة سامية لتخليص الدين من الخرافات والبدع ، فالجبرتي وهو معاصر لأحداث هذه الحرب ، ويعكس وجهة النظر المصرية تجاهها ، لم يكن راضيا عنها وسجل أحداثها بمرارة ظاهرة ، تدل على عدم الرضا والاستنكار ، وسجل بعض منشورات الدعوة الوهابية التي وصلت إلى مصر في كتابه (عجائب الآثار) وعلق عليها بالاستحسان قائلا :((أقول إن كان كذلك فهذا ما ندين به نحن أيضا وهو خلاصة لباب التوحيد . وما علينا من المارقين والمتعصبين)) وقد بسط الكلام في ذلك ابن القيم في ((إغاثة اللهفان)) والمقريزي في ((تجريد التوحيد)) ...[١] .

وبذلك نرى أن الحركة الوهابية كانت حركة إصلاحية إسلامية ، وعليه لم تكن الحرب التي خاضها محمد على ضدهم وبذل فيها المصريون أرواحهم وأموالهم ، لم تكن حربا ضرورية وكانت مصر في غنى عنها ، ولقد ارتكب إبراهيم باشا بن

---

[١] عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج٣ ، ص٢٧٢ .

محمد على في هذه الأراضي المقدسة كثيرا من الجرائم الوحشية ، كان على رأسها انه حكم بقتل جميع رؤساء المذهب الوهابي من رجال الدعوة.

حرب الشام والأناضول :

كان محمد على قد مهد لهدفه السابق بان طالب الدولة العثمانية بتعويض عن خسائره في حرب اليونان ، فمنحته جزيرة كريت . إلا أن هذه الجزيرة لم تكن ترضى محمد على نظرا لتروع أهلها إلى العصيان دائما ، فلم يكن من السهل أن تسيطر عليها قواته إلا بخسائر قد لا تعوض المفقود ، ومن ثم طلب من السلطان حكم بلاد الشام ، فرفض السلطان ، وتوترت العلاقات بين الطرفين ، وأصبحت الحرب قاب قوسين أو أدنى ، فأعد محمد على حملة كبيرة زحف بها على الشام ، ولكنه أخفي أهدافه ، وأعلن انه ماض لتأديب وإلى عكا (عبد الله باشا) لأنه تسبب في تعطيل تجارته ورفض رد الفلاحين المصريين الذين فروا إلى الشام هربا من فداحة السخرة وأعباء الضرائب التي فرضها عليهم الباشا ، فزحفت قواته على الشام في أكتوبر ١٨٣١ بقيادة ابنه إبراهيم ، واحتلت خان يونس وغزة ويافا وحيفا وحاصر عكا برا وبحرا .

امتلأ السلطان غضبا على محمد على فأعلن عصيانه وعصيان ابنه إبراهيم قائد الحملة ، واتهم محمد على السلطان بإفساد الإسلام والمسلمين ، وهدد بخلعه وإعادة الخلافة العربية ، وكان مشروع الخلافة العربية حينئذ في جو السياسة الدولية ، قد سعى له الوهابيون . وفكرت فيه الدول الأوربية لتمزيق الدولة العثمانية .

واضطرت تركيا أمام زحف الجيش المصري إلى إرسال جيش (من ٢٠ألف جندي) بقيادة (عثمان باشا والي طرابلس) ، فشتته إبراهيم باشا في أبريل ١٨٣٢م قبل أن يفتح عكا ، وبعدها قام بفتح عكا بعد حصار دام ستة أشهر ، ولم يقتنع

إبراهيم بعكا حين سقطت ، فأمر قواته بالاستيلاء على سوريا كلها ، ففتح دمشق ، ثم توجه لملاقاة الجيش العثماني الذي تجمع في معركة حمص في يوليو ١٨٣٢م وانتصر الجيش المصري في هذه المعركة التي فتحت الباب أمام إبراهيم لاقتحام الأناضول ، وقد برر محمد على هذا العمل لقناصل الدول بقوله :((إن الإمبراطورية العثمانية شارفت على الانهيار وان القسم العربي منها حقيقة لا ريب فيها ، وان روسيا لاشك ماضية في الدفع بتركيا إلى مقاتلته حتى تقضى عليهما معا))[٢] .

غير أن إبراهيم تقدم غير هياب واحتل (أدنه) و (طرسوس) و (عينتاب) و (مرعش) و (قيصريه) ثم التقى بالأتراك في معركة (قونية) في ٢١من ديسمبر ١٨٣٢م (الأتراك ٥٣ألف جندي والمصريين ٣٠ألف جندي) وانتهت الواقعة بهزيمة ساحقة للجيش التركي ، ونصر مبين للجيش المصري ، وكانت معركة قونية من المعارك الفاصلة لأنها فتحت الطريق أمام الجيش المصري إلى إسلامبول ، ثم تقدم إبراهيم بسرعة إلى (كوتاهية) واحتلها وبذلك صار على مسافة خمسين فرسخا من العاصمة العثمانية ، كما أحتل (مغنيسيا) واستولى على (أزمير) في فبراير سنة ١٨٣٣م .

تحركت الدول الأوربية وخشيت على أطماعها في الدولة العثمانية أن تتبخر ، فروسيا لها أطماع واسعة وتريد أن تسيطر على البسفور والدردنيل ، وكذلك بريطانيا وفرنسا لهما أطماع مماثلة .

وفي خلال ذلك اعتزم محمد على أن يعلن الاستقلال ويقطع أسباب الاتصال بينه وبين الدولة العثمانية ، فردت عليه بريطانيا وفرنسا والنمسا بالرفض ، وحذرته من عواقب هذه الخطوة ، وتحيزت إلى جانب تركيا .

---

(٢) صبحي وحيدة ، في أصول المسألة المصرية ، ص١٤٤ .

فتشجع السلطان على التحرش بالجيش المصري ، وأدى ذلك إلى وقوع الحرب مرة ثانية بين محمد على والسلطان ، وأخيرا عبر الأتراك نهر الفرات الفاصل بين الجانبين وتقابل الجيش التركي (٨٠٠٠٠جندي) مع الجيش المصري (٦٠٠٠٠ جندى) في موقعة (نصيبين) في ٢٤من يونيو ١٨٣٩م ، وتم دحر الجيش التركي في ساعات قليلة ، ولم تصل أخبار الهزيمة إلى السلطان (محمود الثاني) الذي قضى نحبه في ٣٠يونيو ١٨٣٩م ، فقد كتمت عنه الأخبار ، وهو في فراش الموت رأفة به ، ونصب أبنه عبد المجيد (١٨٣٩ – ١٨٦١ م) خلفا له .

وعلى إثر هذه الهزيمة الساحقة قام قائد الأسطول التركي أحمد فوزي وسار بأسطوله إلى ميناء الإسكندرية وسلمه إلى محمد على ، والسبب أن أحمد فوزي كان قلقاً على مركزه بعد موت السلطان محمود ، فقد كان مقرباً إليه ، وبعد تولية ابنه عبد المجيد الذي كان في السادسة عشرة من عمره خاف فوزي على مركزه من عبد المجيد الذي عين خسرو باشا في منصب الصدارة العظمى ، وكان بينه وبين فوزي عداوة قديمة ، فخاف فوزي على نفسه من عواقب الأمور المرتقبة فأقدم على تسليم الأسطول التركي لمحمد علي عدو خسرو اللدود ، وبذلك أضحت الدولة العثمانية في مدى أسبوعين فاقدة جيشها وسلطانها وأسطولها .

التدخل الأوربي وعقد معاهدة لندن يوليو ١٨٤٠م:

تم الاتفاق بين بريطانيا وروسيا والنمسا وبروسيا في ١٥ من يوليو ١٨٤٠م في لندن على اتفاق بموجبه تعهدت الدول بإخضاع(محمد على)، وقرروا أن يعرض عليه السلطان حكم مصر وراثيا وولاية عكا طوال حياته ، وان يكون لمصر حق الاستقلال الداخلي بقيود معينه تربطها بالدولة العثمانية ، مثل دفع الخراج ، وعدم تمثيل مصر في الخارج ، وتحديد عدد الجيش المصري ، فإذا لم يقبل محمد على هذه

الشروط في عشرة أيام تؤخذ منه عكا . فإذا تأخر عشرة أيام أخرى ، فعلى الدول استخدام نفوذها في إخضاعه بالقوة لقبول تلك الشروط .

ورفض محمد على معتمدا على قوته وعلى مؤازرة فرنسا ، فانزل الحلفاء قواقم بالشام لإخضاعه ، واضطرت القوات المصرية إلى الانسحاب بسبب خيانة فرنسا ومخافة قطع مواصلات الجيش ، وتحول الانسحاب إلى هزيمة لم يعد بسببها إلى مصر من الجيش سوى ثلثه ، واضطر محمد على أخيرا إلى الانسحاب من جزيرة العرب وكريت والشام والاحتفاظ بمصر .

وهكذا أوقفت الدول الأوربية محمد على عند حده ، وحاصرته داخل مصر ، واضطر السلطان تحت ضغط السفراء أن يرسل فرمانا إلى محمد على في فبراير ١٨٤١م بمنح مصر وتوابعها في أفريقيا وراثيا لأكبر أبناء أسرته وتحديد عدد الجيش ١٨٠٠٠ جندي ، وبذلك انتهت حياة محمد على السياسية ، وقضى بقية حياته مريضا مرضا عقليا ضيق الصدر بادي الحزن حاقدا على الدول الأوربية ، وحسن العلاقات بينه وبين السلطان فزار إسلامبول .

الوصاية الدولية والتدخل الأوربي:

وقد وضعت التسوية الأوربية حدود وأبعاد الباشوية المصرية ونظمت العلاقات بين الدولة العثمانية والباشوات في مصر من أسرة محمد على ، وهى حدود لم يكن في إمكان السلطان ولا ورثة محمد على في مصر تعديلها إلا بالرجوع إلى الدول الأوربية الموقعة على معاهدة لندن ، واستنت سنة سيئة للتدخل في شئون الدول الإسلامية لإفساد العلاقات بينها وبين بعضها ، وقد خلقت هذه **الوصاية الدولية فرصة واسعة لتدفق النفوذ الاستعماري الأوربي إلى مصر** ، وكان للبند الخامس في القانون الخاص الملحق بمعاهدة لندن والذي ينص (على أن

جميع القوانين والمعاهدات النافذة في الدولة تطبق على مصر كغيرها من أجزاء الدولة[٣] كان لهذا البند خطره نظرا لأنه فتح للامتيازات الأوربية التي توغلت في شئون الدولة العثمانية بابا واسعا شقيت منه مصر زمنا طويلا ، وقد اقتحمت الدول الأوربية هذا البند اقتحاما من أجل انتشار مصالحها في مصر والقضاء على نظام الاحتكار الذي فرضه محمد على في مصر .

فكان معنى قبول هذا البند هو أن تسرى على مصر شروط المعاهدة التجارية المبرمة عام ١٨٣٨ بين بريطانيا والدولة العثمانية ، والتي بموجبها أصبح للتجار الإنجليز الحق في دخول أي جزء من بلاد الدولة العثمانية ليشتروا بأنفسهم المنتجات الزراعية والصناعية من المنتجين من أهل البلاد ، وتعهدت تركيا بإلغاء نظام الاحتكار في أنحاء الإمبراطورية ، ومن ثم أغلقت مصانع محمد على الواحد بعد الآخر .

تمرد الانكشارية:

وفي هذه الأثناء تمرد الانكشارية على محمود الثاني فلم يتردد في الفتك بهم في سنة ١٨٢٦ م على غرار ما فعله محمد علي بالمماليك في مصر فيما عرف بمذبحة القلعـــة ، على الرغم من ظروف الدولة العسكرية إبان ثورة اليونان ، وانتهز محمد علـــي الفرصة وزحف على أملاك الدولة في الشام والأناضول وانتصر على الجيش العـــثماني في معـــركة نصيبين سنة ١٨٣٩م ، وتوفي السلطان محمود قبل أن يعرف نتـــيجة المعـــركة ، واحتلت جيوش مصر مدن : (عين تاب) و(قيصرية) و (ملطية) .

---

[٣] انظـــر : نص المعاهدة والملحق في كتاب محمد رفعت ، تاريخ مصر السياسي ، طبعة بولاق ، القاهرة ١٩٤٢م ، ص ١٥٩ – ١٦٠ .

وتدخلت الدول الأوروبية لمنع محمد علي من وراثة أملاك الدولة العثمانية ، وألزموا محمد علي بالجلاء عن أملاك الدولة العثمانية والاحتفاظ بحكم مصر وراثيا في أسرته مع ارتباط مصر بالدولة العثمانية ، في معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ م

وصدر فرمان سنة ١٨٤١م بإعطاء محمد علي حكم مصر وراثيا في أسرته ، وواصـــل تدعيم نظام الجيش الجديد الذي أنشأه سلفه سليم الثالث ، وجعله هو النظام السائد في الجيش .

المرحلة الثالثة من الإصلاح :

المرحلة الثالثة من مراحل الإصلاح تقترن بعهدي السلطان عبد المجيد الأول ١٢٥٥ ـــ ١٢٧٨ هـــ = (١٨٣٩ ـــ ١٨٦١ م) والـــسلطان عـــبد العزيز (١٨٦١ ـــ ١٨٧٦م) وهـــي مـــرحلة التنظـــيمات العثمانية ومحاولة إنشاء النظام النيابي ، وعرفت بعصر التنظيمات .

تـــولى عبد المجيد الحكم بعد وفاة والده محمود الثاني ، وأنهى مشكلة محمد علي بتدخل الدول الأوربية في شئون الدولة ، وانتهى الأمر بمحمد علي إلى القبول بعد أن عارض معارضة قوية ، ولكن أخضعته الدول الأوربية بالقوة ، وانتهى الأمر بإصـــدار فـــرمان عثماني بتولية محمد علي مصر وراثية في أسرته في ١٣فبراير سنة ١٨٤١م .

خط كلخانة :

وتابـــع عـــبد المجيد خطط والده في الإصلاح ، فأصدر عقب توليه الحكم خطـــا أي (أمـــرا) سلطانيا في (قصر كلخانة) أي مرسوم قصر الورد في نوفمبر ١٨٣٩ م (١٢٥٥ هـــ) والذي عرف (بخط كلخانة)أعلن فيه حقوق الإنسان العثماني وهي الحقوق الخاصة بالروح والعرض والمال ، لتأمين الناس على أرواحهم

وأعراضهم وأموالهم ، وتوسيع دائرة الحرية السياسية ، وألزم أفراد الدولة بالتجنيد الإجباري .

وفي سنة ١٨٥٦ م أصدر أمرا سلطانيا عرف باسم :

(الخط الهمايوني) أي الأمر السلطاني وهو خاص بالمساواة بين جميع رعايا الدولـة مهمـا كانت جنسياتهم وأديانهم ومذاهبهم ، وعرف هذا الخط أيضا باسم (منشور التنظيمات) وقد تمت هذه التنظيمات بضغط من الدول الأوربية .

وقـد استفادت الدول الأوربية من هذه التنظيمات وأخذت توسع نفوذها في الـبلاد العثمانـية وتتدخل في شئون الدولة بحجة حماية حقوق الأقليات الدينية والجنسية . وتوسعت في إنشاء المدارس الأجنبية في عواصم ولايات الدولة ، فكان ذلك بداية للغزو الفكري .

الإصلاح الدستوري في العالم الإسلامي:

كانـت مـصر أول من فكر في الحياة النيابية في العالم الإسلامي في عصر الخديـو إسماعـيل في عـام ١٨٦٦م بإنشاء مجلس شورى النواب في هذه السنة ، وذلـك قـبل الدولة العثمانية نفسها ، وكانت هذه النشأة دون أن تسبقها مطالبة صـريحة مـن الأمة بإنشائه ، فجاء على هيئة منحة من الحاكم وبدأ بذلك مسلوب الإرادة في أمـور الـبلاد التشريعية التي هي من أهم خصائصه ، فقد قيده إسماعيل بكـثير مـن القـيود بما وضعه له في اللائحتين الأساسية والنظامية ، فقد حددت اللائحـتان الأمـور الـتي ينبغـي أن يتناقش فيها المجلس بأنها : "المنافع الداخلية والتصورات التي تراها الحكومة أنها من خصائصه" .

هذا مع فساد نظام الانتخاب فقد كان قائماً على طريقة الترشيح الحكومي الشبيه بالتعيين حتى أن المرشحين الرسميين لا ينجحون في الانتخاب وحسب بل كان

لا ينافسهم في دوائرهم منافس ، فضلاً عن أن نظام الانتخاب كان قاصراً على انتخاب الأعضاء من طبقة العمد والمشايخ ، فهذه الطبقة من الأمة هي التي كانت ممثلة تمثيلاً واسعاً ، وخلا المجلس بذلك من الطبقة المتعلمة لأن نظام الانتخاب لا يجعل لهم حظاً في عضوية المجلس وبذلك حرم المجلس من تلك العناصر الحرة التي تشع على الحياة النيابية نوراً من النشاط والحرية والاستقلال في الرأي .

وكان الخديو يعين رئيساً للمجلس يكون سوطاً مسلطاً على حرية الأعضاء ، فضلاً عن أن خطة العمل في كل دورة كانت الحكومة تقترحها عادة في خطبة العرش التي يلقيها الخديو كل عام في افتتاح المجلس .

وصفوة القول أن المجلس لم يكن له حق اقتراح القوانين ولا حتى إقرارها ، ولم يكن مجلس الوزراء مسئولاً أمامه ، ولم يكن له الحق في مناقشة الميزانية ، وهذه الأمور الثلاثة أهم مظاهر النظام النيابي .

بهذا بدأ المجلس حياته النيابية مكبلا بالقيود وكانت قراراته بعد تلك الأسوار المنيعة ترفع إلى الخديو على هيئة رغبات له فيها القول الفصل .

المرحلة الأخيرة من مراحل الإصلاح:

في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ — ١٩٠٩ م) وهي مرحلة الحد من السلطة المطلقة للسلطان بإصدار القانون الأساسي أي الدستور ، ومن ثم عرف هذا العصر باسم (عصر المشروطية) أي العصر الذي يفهم السلطان أن سلطته ليست مطلقة بل مشروطة بقيود وشروط بعينها يقررها الدستور .

وحدثت انتخابات لأول مرة في الدولة العثمانية واجتمع مجلس النواب الذي كان يسمى (مجلس المبعوثان) باعتبار النائب مبعوثا بالنيابة عن أهالي دائرته

الانتخابـــية ، كمـــا اجتمع مجلس للأعيان (الشيوخ) وكانت تعين الدولة أعضاءه واشترك في الانتخابات أهالي الولايات العربية .

إلا أن هـــذا المجلـــس لم يعمـــر طويلا ، فبعد مرور نحو عامين على إعلان الدســـتور ، أمـــر عبد الحميد بفض مجلس المبعوثان ، ونفي البارزين من النواب ، وأقصى مدحت باشا صاحب فكرة الحياة النيابية ، ونفاه خارج البلاد .

وعـــادت الدولة إلى نظام الحكم المطلق الذي استمر نحو ثلاثين عاما حارب السلطان فيها دعاة الدستور ، وقامت الحرب بين روسيا والدولة العثمانية (١٨٧٦ ــ ١٨٧٨ م) وهي الحرب التي صفيت فيها أملاك الدولة في البلقان .

وحـــاول السلطان عبد الحميد تقوية الدولة بحركة الجامعة الإسلامية التي نـــادى بها جمال الدين الأفغاني استجابة لموجة الشعور الإسلامي الجارف للدفاع عن المسلمين في مواجهة أطماع الغرب في أراضي العالم الإسلامي .

وهرب غالبية المطالبين بالإصلاح إلى خارج البلاد ، وخاصة أوربا وكونوا جمعـــيات وطنية ، علنية في الخارج ، وسرية في داخل البلاد لمكافحة الحكم المطلق ، وخاصة جمعية تركيا الفتاة التي تكونت في أوربا .

حركة الجامعة الإسلامية :

كان العالم الإسلامي قد أفزعته في القرن التاسع عشر أشباح الطمع الأوربي في أراضيه التي كانت تقرب منه شيئاً فشيئاً منذ أن ظهرت في مطلع القرن العاشر الهجري(١٦م) وما كاد ينتصف القرن التاسع عشر حتى تبدلت الحال تبدلاً تاما ففتح الفرنسيون الجزائر واستولت روسيا على أراضي شاسعة عبر القوقاس وبسطت بريطانيا نفوذها على الهند .

كان هذا سبباً كافيا جعل قادة المسلمين يدركون أن الإسلام مهدد بالخطر الفادح والبلاء الشامل بسبب انتشار سيطرة الغرب المسيحي عليه فازدادت حاجتهم إلى التماسك وقوى لديهم الشعور بالترابط بعد طول تفرق . وأضحت الجامعة الإسلامية أمراً ملحاً لمقاومة الغرب وصده وإيقاف أطماعه .

وبدأت المقاومة فعلا في أماكن متفرقة ، ولكنها كانت غير منظمة ولم تكن هناك رابطة تنظم كفاحها ، فهب أبطال أمثال (عبد القادر الجزائري) في الجزائر و(مصطفي كامل) في مصر و(شامل) في القوقاس وغيرهم يقاتلون ويناضلون الفاتحين الغربيين قتالا شديدا ، فكان ذلك القتال على استمراره أشبه بمبضع يزيد العالم الإسلامي جروحاً فيزداد تألماً وصراخاً بيد أن قتالا مثل هذا ما كانت الغلبة فيه لأبطال المسلمين وذلك لوهن قواهم بعد جهاد كبير طويل العهد ، ولعدم تناولهم مددا ونصرا يستعينون بهما على المضي في القتال (٤) .

وبدأ العالم الإسلامي يغلي غليان المرجل على النار فقامت في الجزائر ثورة سنة ١٨٧١ وهب رجال الدين المعروفون بالأولياء في كل بلاد أفريقية الشمالية يستثيرون المسلمين ويستنفرونهم للحرب والجهاد ، فكانت ثورة المهدي في السودان المصري ، وهى الثورة التي دامت طويلا وأجهدت الإنجليز وفتتت في عضدهم وأنزلت بهم خسائر فادحة ،وتم للإنجليز إخمادها ودخل كتشنر الخرطوم قبل ختام القرن التاسع عشر .

وفي أفغانستان انفجرت الثورة كالبركان في وجوه الإنجليز ،واتصلت شرارة هذه الثورة إلى المسلمين في الهند ، فألهبت صدورهم بالحماسة إلهابا فهبوا

(٤) لوثروب ،حاضر العالم الإسلامي ،الطبعة الرابعة ، ج١ ، ص٢٩٢ .

يشقون عصا الطاعة على الإنجليز الذين ما استطاعوا تسكين العاصفة إلا بشق الأنفس وركوب الهول .

وفي أواسط آسيا حدثت مقاومة من نوع آخر حيث ظهرت الطريقة النقشبندية الدينية فأخذت تمتد وتنتشر شرقا حتى بلغت الصين فثار مسلمو الصين ثورتهم الكبرى في تركستان الشرقية .

وفي إندونيسيا بجزر الهند الشرقية شبت الثورة في الأراضي التي كان يسيطر عليها الهولنديون .

وكانت هذه الثورات ومازالت ينقصها التنظيم ، والرابطة التي تضع لها التخطيط ، وكانت أيضا يعوزها القيادة المركزية الواعية لان هذه الثورات التي تقوم هنا وهناك لا يمكن أن توهن شيئا من قوة الغرب تلك القوة الحربية المنظمة على أحدث الأصول والفنون العسكرية (٥) وأدرك قادة العالم الإسلامي حق الإدراك انه إذا رام العالم الإسلامي حقا تحرير نفسه من النير الغربي وجب عليه أن يعمل عملا منظما شاملا ويسعى سعيا أكيدا ثابتا جامعا للوحدة العامة والرابطة الكبرى ،وأيقن هؤلاء أيضا انه لابد للعالم الإسلامي إذا شاء هذا من دراسة علوم الغرب ونهج مناهجه وسلوك سبله في جميع ما يؤدى إلى نهضة العالم الإسلامي القائمة على أسس من العلم والديمقراطية وعلى هذا كان أمثال (محمد عبده) و(جمال الدين الأفغاني) .

وكان قادة الجزيرة العربية (السلفيون) يرون أن استقلال المشرق الإسلامي وتحرره من حكم الغرب المسيحي يجب أن يسبقه إعادة المسلمين إلى عقائد السلف

---

(٥) المرجع السابق ،ص٢٩٣ –٢٩٤ .

وانه متى صلحت نفوس المسلمين وقويت عقائدهم أمكنهم القيام بتلك المهمة الصعبة.

وكان رجال (الحركة السنوسية) في الصحراء الكبرى الأفريقية يرون أن تحرير المسلم سياسيا يجب أن تسبقه الدعوة إلى الأخلاق الإسلامية المرتبطة بالعمل وظل السنوسي طوال حياته يجاهد لإدراك هذه الغاية من أجل تهذيب النفوس وتنشئة الأجيال على الفضائل الإسلامية التي يمكن ترجمتها في سلوك عملي .

ولقد مرت(حركة الجامعة الإسلامية) بمرحلتين :

أولا : مرحلة السلطان عبد الحميد ١٨٧٦ –١٩٠٨ م .

ثانيا : مرحلة ما بعد سقوط الخلافة الإسلامية ومحاولة التضامن في مؤتمر الخلافة بالقاهرة .

أما عن مرحلة (السلطان عبد الحميد الثاني) فانه قد بذل جهدا كبيرا لأحياء عظمة الإسلام والخلافة الإسلامية واسترداد ما كان لها من الجلال والهيبة والخطورة في العالم الإسلامي ، وذلك عندما تكالبت الدول الأوربية على الدولة العثمانية تريد اقتسامها وأطلقت على أملاكها "أملاك الرجل المريض" وتربصوا بها لاغتنامها عند وفاته واقتسامها فيما بينهم ،فنشط السلطان عبد الحميد لمواجهة هذه الأطماع بتقوية الخلافة وتقوية الرابطة بين المسلمين لإيقاظهم لصد أطماع الغرب ، وحاول الاتصال بشتى أنواع المقاومة الإسلامية لتنظيم هذه المقاومة لتكون فعالة.

وحاول الاتصال بألمانيا وكانت ألمانيا بعد انتصارها في الحرب السبعينية (١٨٧٠م) على فرنسا ونجاحها في توحيد الشعب الألماني قد بدأت تحاول إيجاد مجال حيوي لها خارج أوربا ، وتحركت نحو الشرق واتصلت بالدولة العثمانية وقوت

علاقاتها بها ، واستقبل عبد الحميد هذه الروح من ناحيته بالترحيب وحاول أن يستفيد من قوة ألمانيا ،وتقدمها في مجال المشاريع التي يود القيام بها لتقوية الرابطة الإسلامية ، وذلك مثل سكة حديد الحجاز التي كان يود لها أن تمتد من العاصمة العثمانية إلى مكة المكرمة عبر آسيا الصغرى وبلاد الشام وتم مدها إلى المدينة المنورة.

ومن ناحية أخرى كان يريد مناوأة أطماع بريطانيا وفرنسا في بلاده بتقوية علاقاته مع ألمانيا الناشئة القوية التي كانت تعادي الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية وتنشد أن تقاسمها في مستعمراقما خارج أوربا .

التضامن الإسلامي :

قطعت حركة التضامن الإسلامي شوطا لا بأس به منذ ظهرت في مطلع القرن الهجري المنصرم حتى وصلت إلى القوة على يد المغفور له الملك (فيصل بن عبد العزيز)الذي استطاع أن يجمع قادة المسلمين في مؤتمرات قمة منتظمة للتضامن والتآزر أمام العدو المشترك ،وذلك بعد أن حال الاستعمار دون الوحدة الإسلامية التي هدفت إليها حركة التوحيد في الجزيرة العربية .

وعلى الرغم من سيطرة الاستعمار فقد ظل المسلمون منذ مطلع القرن الرابع عشر الهجري يشعرون بشعور إسلامي دافق نحو الوحدة ويتألمون للمصائب التي ينـــزلها الاستعمار بإخوانهم في كل مكان ويتطلعون للتضامن والتآزر أثناء النوائب في جو ضاعت فيه الكيانات السياسية الصغيرة أمام جشع الإمبراطوريات الاستعمارية القوية .

وظل (الحج) كل عام يغذي هذا الشعور ويقويه فهو مؤتمر سنوي للمسلمين على اختلاف أجناسهم وألوانهم يجتمعون فيه على صعيد واحد أمام

خالقهم يجددون إيمانهم . ودلت الإحصائيات في بداية عصر الملك عبد العزيز على أن عدد المسافرين [٦] إلى مكة للحج والعمرة أخذ يزداد باضطراد بفضل الأمن الذي نشره الملك عبد العزيز ، وعادت مكة تلعب دورها في إشعال العاطفة الإسلامية للمسلمين كل عام ، ففيها يجتمع المسلمون من كل أنحاء العالم "مرة في السنة أثناء الحج يلتقون مع بعضهم بعد أن يطرحوا عنهم كل أثر أجنبي خارج المنطقة الحرام المضروبة حول مكة وينسون قومياتهم وأوطانهم، ويتذكرون فقد حقيقة واحدة ،وهي الأخوة في الله، تجمعهم عقيدة واحدة وكتاب واحد ليس للفوارق الإقليمية مكان بينهم وهم يد على من سواهم [٧] .

وظلت المعاهد الإسلامية في العالم الإسلامي وفي طليعتها (الأزهر) تقوم بأمانة الحفاظ على التراث ونشره في العالم الإسلامي في وجه حركات التغريب والغزو الفكري المعادية التي بدأت معاقل الاستعمار تبثها في تلك المراكز التي انتشرت في شتى أنحاء العالم الإسلامي على هيئة كليات ومعاهد للإرساليات التبشيرية والبروتستانتية والكاثوليكية وكانت أهم مراكزها في إسلامبول والشام ومصر والهند .

وكان (الأزهر) منذ أنشأه الفاطميون في القاهرة سنة ٣٦١هـ قد نجا من انقلابات الدول والمحن المتعاقبة على مدى تاريخه الطويل . وغدا منذ العصر المملوكي جامعة المسلمين السنية التي تعني بدراسة التراث الإسلامي على مذاهب أهل السنة والجماعة ، وغدا في مطلع القرن المنصرم مركزاً لتجمع الطلائع المثقفة في العالم الإسلامي يتجمعون في أروقته وصحنه ، لكل جنسية رواق ، فهناك رواق

---

(٦) باول شمتز ، الإسلام قوة الغد العالمية ص١٥٠ –١٦٥ .

(٧) المرجع السابق نفس المكان .

للشوام وآخر للمغاربة والحجازيين والبغداديين والأتراك والسودانيين والجبرتية "الصومال والحبشة" واليمنيين والهنود والصينيين والجاويين وغيرهم ، وبذلك تجمعت فيه الوحدة الإسلامية مصغرة لطلائع المثقفين في العالم الإسلامي يجمعهم شعار واحد هو الحفاظ على التراث الإسلامي واللغة العربية لغة القران الكريم في وجه الغزو الفكري واللغوي الأوربي الذي استباح حماهم بهدف تغيير هويتهم .

وكان هؤلاء المثقفين الأزهريين يؤبون إلى أوطانهم بعد التزود بالمعرفة الإسلامية ليصبحوا دعاة في أوطانهم ويحملون عبء مسئولية الدعوة الإسلامية في جو زادت فيه الأطماع الاستعمارية في العالم الإسلامي .

ورمق الاستعمار الأزهر بعين الريبة فوجه إليه سهامه للقضاء عليه ، ففي مؤتمر المبشرين العام الذي عقد في القاهرة سنة ١٣٢٣-١٩٠٦هـ لجميع إرساليات التبشير البروتستانتية في العالم برئاسة القسيس (زويمر) ، وصف أحد أعضاء المؤتمر ما (للجامع الأزهر) من النفوذ وإقبال الألوف عليه من الشبان المسلمين في كل أقطار العالم الإسلامي وتساءل عن سر نفوذ هذا الجامع منذ ألف سنة إلى الآن ثم قال :

"إن السنيين من المسلمين رسخ في أذهانهم أن تعليم العربية في الجامع الأزهر متقن ومتين أكثر منه في غيره والمتخرجون في الأزهر معروفون بسعة الاطلاع على علوم الدين وباب التعليم مفتوح في الأزهر لكل مشايخ الدنيا" .

وأشار إلى أهمية أوقاف (الأزهر) التي تمكنه من الصرف على طلابه وأساتذته وطالب بضرورة إن يعمل الغرب على إنشاء جامعة نصرانية عالمية في مصر تنافس الأزهر وتقوم الكنيسة بنفقاتها فقال:

"خصوصا وان أوقاف (الأزهر)الكبيرة تساعد على التعليم فيه مجاناً لان في استطاعته إن ينفق على ٢٥٠ أستاذا، ثم تساءل عما إذا كان الأزهر يهدد كنيسة المسيح بالخطر وعرض اقتراحا يريد به إنشاء مدرسة جامعة نصرانية تقوم الكنيسة بنفقاتها وتكون مشتركة بين كل الكنائس المسيحية في الدنيا على اختلاف مذاهبهم لتتمكن من مزاحمة الأزهر بسهولة وتتكفل هذه المدرسة الجامعة بإتقان تعميم اللغة العربية" (٨) .

ولقد واصل الغرب أعماله التخريبية من أجل إضعاف الأزهر وواتته الفرصة يوم أن كان الاستعمار الإنجليز ي قابضاً على صولجانه في مصر ويده من حديد في الفترة من ١٣٠٠هـ -(١٨٨٢-١٩٥٢) فاستولت الحكومة على ما تبقي من أوقافه وغدا مؤسسة تصرف عليها الدولة من ميزانيتها وتقتر له ما شاء لها غرض الاستعمار وهواه وبذلك ضربته في أهم ركيزة له وهي القاعدة الاقتصادية فأضعفت بذلك من مقدرته التعليمية ومقدرته على التطور الذي يقتضيه العصر . فتأخر عن مجارات غيره من الجامعات المدنية في التنظيم وسرعة التطور المطلوبة في جو تتقدم فيه الوسائل العلمية بسرعة مذهلة .

ولكن غالبية علماء الأزهر هاجروا إلى المملكة العربية السعودية وقامت على أكتافهم عملية إنشاء جامعات إسلامية تربي الأجيال الإسلامية وهي جامعات.

١-الأمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض .

٢-والجامعة الإسلامية في المدينة المنورة .

٣- وجامعة أم القرى بمكة المكرمة وفروع هذه الجامعات .

---

(٨) شاتليه ،الغارة على العالم الإسلامي ،ترجمة محب الدين الخطيب ص٢٣ ، ٢٤ الطبعة الثانية ١٣٨٣هـ المطبعة السلفية بالقاهرة .

٤ـــ والجامعة الإسلامية في قازاقستان (نور ـــ مبارك) بوسط آسيا .

٥ـــ والجامعة الإسلامية في إسلام أباد بباكستان .

جهود جمال الدين الأفغاني :

حركة جمال الدين الأفغاني من أجل التضامن الإسلامي جزء من التيار الإسلامي العام الذي شمل العالم الإسلامي كرد فعل لعودة هجوم الغرب المسيحي عليه ذلك الهجوم الذي مزق البلدان الإسلامية زمنا طويلا ومازال وتحكم في مصيرها بسيطرته على مقدراتها .

وجمال الدين الأفغاني ولد في أسعد أباد بأفغانستان ونشا (بكابل) وتلقى العلوم العقلية والنقلية وسافر إلى الهند وحج في سنة ١٢٧٣هـــ وعاد إلى وطنه بعد أن عاين واقع المسلمين المر وتفرقهم أمام اجتماع عدوهم عليهم . فتحركت في نفسه دوافع الدعوة للتضامن الإسلامي فحمل لواءها وتنقل من أجل ذلك في كثير من الأوطان الإسلامية . كإيران والحجاز ومصر والهند وإسلامبول وساعدته معرفته بلغات كثيرة على ذلك كالعربية والأفغانية والفارسية والتركية والفرنسية والإنجليزية والروسية .

وكون مدرسة من المفكرين في البلاد التي ساح فيها واجه بهم التيارات الغربية الوافدة من أوربا (وأرجع كثيرا من مستحدثات الغرب إلى أصولها الإسلامية ورد النهضة الأوربية الحديثة إلى أصول إسلامية).

"ولا ينتمي جمال الدين وتلاميذه في جميع بلاد العالم الإسلامي إلى تلك الفئة التي انحدر منها دعاة القومية الذين يتخذون الطابع الغربي نموذجا لهم دون نقاش ولا أدنى نقد ، فقد استولت عليهم مباهج الحضارة الغربية فاعتنقوا مبادئها قضية مسلمة لا تقبل الشك إطلاقا ، أما جمال الدين وتلاميذه فقد تخيروا منها ما يتفق

وطبيعة العالم الإسلامي ، ولم ينقلوا ما أخذوه بصيغته ، بل صاغوه صيغة جديدة تتناسب مع ما تتطلبه الحياة الشرقية ، وإعطاء ما أنتجته الفكر الأوربي صبغة إسلامية (٩) .

كما انه لا ينتمي إلى الدعاة الذين انبعثوا من الصحراء وحياة البداوة مثل الشيخ (محمد بن عبد الوهاب) و(السنوسي)و(المهدي) .

بل أخذ من كل منهج ما يناسب نهضة العالم الإسلامي المطلوبة في عصره .

فكانت نظرته مثلا إلى (النظام البرلماني) الأوربي على انه من وحي الحكمة الإسلامية فما هو إلا نظام الشورى الإسلامي أحسنت صياغته في العصر الحديث .

يمم جمال الدين الأفغاني وجهه شطر القاهرة حيث (الأزهر) بمصر من ١٢٨٨-١٢٩٧هـ ، ١٨٧١-١٨٧٩م وألقي دروسه وعرض أفكاره في صحن الأزهر بوتقة أفكار المسلمين وأشهر جامعة إسلامية في العالم الإسلامي يومئذ فوجدت أفكاره تربة صالحة وتجمع حوله المريدون يتشربون تعاليمه ويحملون رسالته من أجل الإصلاح السياسي، وفي القاهرة تبين جمال الدين مدي الخطورة التي تهدد الشرق الإسلامي ففي مصر تتركز هجمات أوربا فأعلن المقاومة ضد الاستعمار الأوربي وضد الحكام المسلمين الفاسدين ، وبين جمال الدين أن الإسلام يعطي للشعب حق تقرير المصير " وان الأحداث السياسية التي نتج عنها إقامة نظم الحكم الموجودة اثر الهجوم الغربي على الشرق لا يجوز قبولها على أنها قضاء وقدر كتب على جبين هذا الشعب .... بل يجب الكفاح ضدها حتى تستقيم أو تزول لتحل

---

(٩) باول شمتز ،مرجع سابق ذكره ،ص ١٠٨ .

محلها حكومات عادلة ، والدفاع عن حقوق الشعب واجب مقدس في عنق كل مسلم [١٠] .

وخاطب (أبناء الشرق الإسلامي) في مرارة بالغة آخذ بيدهم من حياة الذل والعجز والمهانة قائلا :

"وما انتم يا أبناء الشرق فلا أخاطبنكم وأذكرنكم بواجباتكم فإنكم قد ألفتم الذل ورضيتم بالمعيشة الدنيئة واستبدلتم القوة بالتأسف والتلهف وسرتم كالعجائز لا تقدرون على الدرء والإقدام والجلب والدفع والمنع والرفع فأنا لله وأنا إليه راجعون [١١] .

ولقد نجح الأفغاني في بث دعوة (اليقظة الإسلامية)في الأزهر وربي تلاميذه فيه ولقنهم منهجه في الإصلاح ومنهم (محمد عبده) و(سعد زغلول)و (محمود سامي البارودي) الشاعر و(عبد السلام المويلحي) و"إبراهيم المويلحي" و(إبراهيم اللقاني) و(عبد الكريم سليمان) و(إبراهيم الهلباوي) وغيرهم ، وعندما أتصل الأفغاني وجماعته بضابط الجيش المصري وبثهم روحه زادت هواجس الخديو توفيق حفيد محمد على وخشي تآزر المدنيين والعسكريين فعزم على التخلص منه ، واستيقظت القاهرة ذات يوم على خبر آلم المخلصين ذلك الخبر هو أن توفيق قد أمر بنفي الأفغاني إلى الهند ولم يكتف توفيق بهذا النفي بل أعلن على الناس بلاغا رسميا نشر في جريدة الوقائع المصرية حاول فيه تشويه سمعة الأفغاني والطعن في سلوكه

---

(١٠) باول شمتز ، الإسلام قوة الغد العالمية ص١٠٩ .

(١١) انظر للمؤلف تاريخ الحركة الوطنية ص٢٢٤ .

الديني ونسب أليه : "السعي في الأرض بالفساد "وانه "رئيس جمعيه سرية من الشبان ذوي الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا " (١٢) .

وبعد خروج الأفغاني من مصر اشتد التذمر وتهيأ الشعب للثورة على التدخل الأجنبي وعلى الحاكم الفاسد في سنوات ١٢٩٨ – ١٢٩٩هـ ١٨٨٠– ١٨٨١م ،١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢م ، ولاذ الحاكم توفيق بالإنجليز وطلب معونتهم ضد الثوار وكانت النتيجة هو وقوع مصر تحت الاحتلال الإنجليز ي الذي استمر نحو ثلاثة أربا ع القرن .

بعد خروج الأفغاني من مصر وصل إلى (حيدر آباد) بالهند ولم يستقر بها طويلا لتعقب الإنجليز له فخرج منها إلى (باريس) التي كانت تفتح أبوابها لثوار البلاد التي بها الاستعمار الإنجليز نكاية في بريطانيا ،فالتقي الأفغاني بالشيخ (محمد عبده)الذي نفي من مصر لاشتراكه في الثورة العرابية السالفة ،فأصدرا معا في العاصمة الفرنسية جريدة تعبر عن التضامن الإسلامي وموجهة إلى الشعوب الإسلامية وهي (العروة الوثقى) أسبوعية يديرها الأفغاني ويرأس تحريرها محمد عبده وتتولى الاتفاق عليها جمعية "العروة الوثقى" لها فروع في الهند ومصر وغيرهما من أقطار الشرق الإسلامي ومهمتها العمل على إنهاض الشعوب الإسلامية من ضعفها وتنبيهها من خطر الاستعمار الغربي.

يقول الأفغاني عن رسالته التي اختطها في حياته ومضي ينفذها كالإعصار لا يعرف التراجع ولا الخوف ولا الرهبة.

"لقد جمعت ما تفرق من الفكر ولمت شعث التصور ونظرت إلى الشرق وأهله ...وما آل أليه أمرهم .. فخصصت جهاز دماغي لتشخيص دائه، وتحرى

(١٢) الوقائع المصرية ،عدد ١٣ أغسطس ١٨٧٩ .

دوائه فوجدت أقتل أدوائه داء (المرض الذي أصاب المسلمين) انقسام أهله ، و تشتت آرائهم واختلافهم على الاتحاد ، واتحادهم على الاختلاف ، فعملت على توحيد كلمتهم وتنبيههم للخطر الغربي المحدق بهم [١٣] .

ولقد لقيت جريدة العروة الوثقى إقبالا من القراء المسلمين وصادرها الإنجليز في الهند ومصر حتى كانت تـــهرب إلى داخل البلاد ، وأعلنت سلطات مصر الرازحة تحت تأثير الإنجليز أن كل من توجد عنده العروة الوثقى يغرم بغرامة تتراوح بين خمسة جنيهات مصرية إلى خمسة وعشرين جنيها . وقد نشر منها في ثمانية أشهر ١٨ عددا صدر آخرها في ذي الحجة ١٣٠١هـــ وبعدها احتجبت عن الصدور بسبب محاربة الإنجليز لها ، وعاد محمد عبده بعدها إلى سوريا ، وفي جمادى الأولي ١٣٠٣هـــ سافر الأفغاني إلى "إيران" بدعوة من (ناصر الدين شاه إيران) وفي إيران تزاحم الأمراء والمجتهدون من رجال الدين حوله ولم يلبث أن بثهم روحه ودعوته فملأت الريبة قلب الشاه وتملكه الخوف من نشاط الشيخ ولمح جمال الدين هذا فخرج من إيران خائفا يترقب وسافر إلى أوربا . وعلى الرغم من انه عاد مرة أخرى إلى إيران بإلحاح من الشاه غير انه طرده منها ولجأ إلى العراق . وكان تأثير الأفغاني في (طهران) مثل ما كان في القاهرة يدفع الملتفين حوله إلى التضامن والثورة على الظلم كما تدفع الخميرة العجين إلى الفوران .

وانتهي الأمر في إيران بثورة الشعب على الشاه وتقدم شاب من تلاميذ الأفغاني وطعن ناصر الدين شاه بسكين صائحا (خذها من يد جمال الدين) سنة ١٣١٤ واعترف الجاني بأنه تلميذ الأفغاني فطلبت الحكومة الإيرانية من الدولة العثمانية تسليم الأفغاني إليها لان الشيخ كان ألقي عصى التسيار في (إسلامبول)

---

(١٣) مقدمة العروة الوثقى طبعة دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠٠هـــ .

بعد أن لقيت دعوته هوي في نفس السلطان عبد الحميد الذي دعا في نفس الوقت (بالجامعة الإسلامية) ردا على الدول الأوربية التي كانت تتربص بدولته الكبيرة لتمزيقها وتوزيعها فيما بينهم فرأى في دعوة الأفغاني فرصة لتقوية حركة الجامعة الإسلامية فدعاه في عام ١٣١٢هـ ١٨٩٥م إلى الحضور إلى إسلامبول وكان وقتها يعيش في لندن منذ سنة ١٣٠٩هـ ١٨٩٢م فلبى الطلب وواصل نشاطه في عاصمة الدولة حتى اغتيال ناصر الدين وطلبت إيران تسليمه لأنها اعتبرته "قاتلا حقيقياً " وان كان غير مباشر ، ولم ينفذ طلب الحكومة الفارسية لأمر خارج عن إرادة الدولة العثمانية ذلك أن الحكيم الأفغاني كان قد فارق الحياة بتاريخ ٩ من مارس سنة ١٣١٤هـ ١٨٩٧م ، وأسدل الستار على تاريخ عالم من أعلام التضامن الإسلامي أطلقت عليه إنجلترا المشاغب الخطير لأنه أراد أن يوقظ النيام ، وأثر في حوادث الشرق الإسلامي أكثر مما أثر فيه رجل آخر بأقواله (١٤) .

وظلت تعاليم الأفغاني حية بعد موته واستمر تأثيرها وأحدثت صدى كبيرا في اليقظة الإسلامية التي كانت تزداد بعد يوم .

المؤامرة الاستعمارية لإجهاض العالم الإسلامي :

كانت أوربا دائما تخشى أن يعود العرب إلى سابق قوهم بعد أن قهرهم زمنا طويلا . وكانت تود أن يظل هذا الجزء من العالم ممزقاً ولا تقوم له قائمة لكي لا ينتقم من الغرب مرة أخري فتضيع بذلك المكاسب الاستعمارية التي حققها الغرب بالسيطرة على الشرق الإسلامي . يقول مورو بيرجر في كتابه "العالم العربي المعاصر" : أن الخوف من العرب واهتمامنا بالأمة العربية ليس ناتجاً عن وجود

(١٤) يؤكد أكثر الإيرانيين وغيرهم ممن ترجموا لجمال الدين أن موته لم يكن طبيعيا ، وانه نفخ في شفته بمادة سامة ،سببت له حالة مرضية تشبه السرطان (مقدمة العروة الوثقي ، ص٢٧).

البترول بغزارة عند العرب بل بسبب الإسلام يجب محاربة الإسلام للحيلولة دون وحدة العرب التي تؤدي إلى قوة العرب لان قوة العرب تتصاحب دائما مع قوة الإسلام وعزته وانتشاره (١٥) .

وفي سنة ١٩٠٧ كان رئيس وزراء بريطانيا هو سير هنري كامبل بانرمان **Sir Henry Combell Bannerman** وكان مهتما بالدراسات التاريخية وحريصا على أن يمد في عمر الإمبراطورية البريطانية ،فأمر بتشكيل لجنة من كبار وأساتذة الجامعات في شتى المجالات الاقتصادية والبترولية والزراعية والتاريخ والاجتماع وشئون الاستعمار وأعلام السياسة في الدول الاستعمارية ذات المصالح المشتركة في كل من فرنسا وهولندا والبرتغال وأسبانيا وإيطاليا وإنجلترا وبلجيكا . واجتمعت هذه اللجنة في لندن في سنة ١٩٠٧ (١٦) وافتتح أعمالها كامبل بابرمان طالبا منها بحث الوسائل الكفيلة بعدم سقوط الاستعمار الأوربي أو على الأقل تأخير مصيره فقال ما نصه :

"إن الإمبراطوريات تتكون وتتسع وتقوى ثم تستقر إلى حد ما ، ثم تنحل رويدا ثم تزول والتاريخ مليء بمثل هذه التطورات وهو لا يتغير بالنسبة لكل نهضة ولكل أمة ، فهناك إمبراطوريات روما وأثينا والهند والصين وقبلها بابل وآشور والفراعنة . وغيرها .. فهل لديكم أسباب أو وسائل يمكن أن تحول دون سقوط الاستعمار الأوربي وانهياره ، أو تؤخر مصيره ؟ وقد بلغ الآن الذروة ، وأصبحت

---

(١٥) مجلة روز اليوسف المصرية في عددها الصادر بتاريخ ٦٣/٦/٢٩ وانظر أيضا : قادة الغرب يقولون ،من منشورات المختار الإسلامي من سلسلة نحور وعي إسلامي ، صص٤٤-٤٥ نشر القاهرة سنة ١٩٧٧ الطبعة الثالثة.

(١٦) حسن صبري الخولي ، سياسة الاستعمار والصهيونية نجاة فلسطين ،ص١١٣ ،جـ١ ،وانظر أيضاً : انطون سليم كنعان ، فلسطين والقانون ، تقرير كامبل بالرمان ، بحث منشور في كتاب المؤتمر الثالث لاتحاد المحامين العرب الذي عقد في دمشق سنة ١٩٥٧، ص ٤٥٧ – ٤٨٩ .

أوربا قارة قديمة استنفدت مواردها وشاخت معالمها بينما لا يزال العالم الآخر في صرخ شبابه يتطلع إلى مزيد من العلم والتنظيم والرفاهية هذه هي مهمتكم أيها السادة على نجاحها يتوقف رخاؤنا وسيطرتنا ".

ومن هذه الكلمة الافتتاحية تحددت مهمة اللجنة في الآتي :

١-اقتراح الوسائل الكفيلة بمنع سقوط الإمبراطوريات الاستعمارية الأوربية القائمة يومئذ.

٢-العمل على عرقلة العالم غير الأوربي وعدم تقدمه وتطوره بحرمانه من التعليم والتنظيم والرفاهية حتى يطمئن الاستعمار إلى وجوده فيه أطول مدة ممكنة .

وقامت اللجنة بدراسة تاريخية موسعة "وانتهت من دراستها إلى تطور عام لمستقبل الاستعمار الأوربي . وضعوه في تقرير اشتهر بتقرير بانرمان قدموه إلى وزارة الخارجية البريطانية التي أحالته بعد دراسته إلى وزارة المستعمرات .

ويستعرض التقرير مصالح الدول الاستعمارية والمجالات الحيوية لكل دولة ومناطق نفوذها في العالم ، وتحدث عن أهمية البحر المتوسط على مر العصور التاريخية وان من يسيطر عليه يستطيع التحكم في العالم ، وأوضح مدى الأخطار التي تنـــزل بالدول الاستعمارية إذا ما هي خسرت مستعمراتها .

ثم تحدث التقرير عن منبع الخطر على الاستعمار وحده في منطقة البحر المتوسط وبالتحديد على شواطئه الشرقية الجنوبية حيث العالم العربي الممتد بين الخليج العربي والمحيط الأطلسي ، وتضم هذه المنطقة قناة السويس شريان الحياة لأوربا في هذه المنطقة الحساسة يعيش شعب واحد تتوافر له وحدة التاريخ والدين واللغة والثقافة والآمال وجميع مقومات التجمع والترابط والاتحاد ، كما تتوافر له كل أسباب القوة والتحرر والنهوض نتيجة لنـــزعاته التحررية وثرواته الطبيعية

الكافية وموارده البشرية المتزايدة ، وقدر عدد سكانه سنة ١٩٠٧ بحوالي ٣٥مليونا من البشر ، ويمكن أن يرتفع هذا العدد في مدي قرن واحد إلى مائة مليون [١٧] .

ثم تساءل التقرير كيف يمكن أن يكون وضع العرب إذا تواحدوا فعلا، ودخلت الوسائل الفنية الحديثة ومكتسبات الثورة الصناعية الأوربية إليهم ؟ وما يحدث لو انتشر التعليم وعمت الثقافة في أوساط هذا الشعب ؟ وما هو مصير هذه المنطقة إذا تحررت وتمكن أبناؤها من استغلال ثرواتها الطبيعية لصالحهم .

ويجيب التقرير على هذه التساؤلات بما يلي :

"عند ذلك ستحل الضربة القاضية حتما بالإمبراطوريات الاستعمارية كما حلت من قبل بالإغريق والرومان " .

ثم يصل التقرير إلى وصف العلاج لدرء هذا الخطر المحتمل على الاستعمار ، فيوصي الدول ذات المصالح الاستعمارية المشتركة بان تعمل على استمرار وضع هذه المنطقة مجزأة متأخرة ، وعلى بقاء شعبها في حالة التفكك والجهل والتناحر ومحاربة اتحاد هذه الجماهير العربية أو ارتباطها بأي نوع من أنواع الارتباط الفكري أو الروحي أو التاريخي .

واقتراح التقرير وسيلة سريعة لدرء الخطر من المنطقة العربية فأوصي بالعمل على فصل الجزء الأفريقي من هذه المنطقة عن جزئها الأسيوي ، واقترح لذلك إقامة حاجز بشري قوي وغريب على الجسر البري الذي يربط آسيا بأفريقيا

(١٧) يلاحظ أن هذا التقرير أقل بكثير مما وصل أليه تعداد العالم العربي في أقل من قرن فقد وصل في ١٩٨٥ إلى حوالي ١٥٠ مليون نسمة .

ويربطهما معا بالبحر المتوسط بحيث يشكل في هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار وعدوة لسكان المنطقة (١٨) .

وكان معني التوصية الأخيرة هو زرع شعب غريب عن المنطقة العربية شرقي قناة السويس أي في سيناء وفلسطين باعتبارهما المناطق الوحيدة التي يمكن أن تفصل آسيا عن أفريقيا كلية وتمزق الوطن العربي كله ، وكان هذا التقرير ورقة عمل للأوربيين بصفة عامة وللدبلوماسيين الإنجليز بصفة خاصة تعمل في ضوئها في منطقة الشرق العربي.

ولقد وجدت الأحلام الصهيونية في هذا التقرير فرصتها الذهبية فتحالفت مع المخاوف الأوربية لخلق الوطن القومي اليهودي في فلسطين لعرقلة النهضة العربية الإسلامية المرتقبة والآتية لا محالة ، ومن ثم ارتباط وثيق بين الصهيونية والاستعمار منذ ذلك التاريخ وهو ارتباط استراتيجي مصيري .

ولعب اليهود دورا خطيرا في الأحداث العالمية قبل الحرب العالمية الأولي وأثناءها ، وخاصة في الدولة العثمانية ، وكان أثر يهود الدونمة واضحا في حركة انقلاب الاتحاديين سنة ١٩٠٩ ، فكان منهم أناس يعدون أركانا في حركة جمعية الاتحاد والترقي التركية .

حركة تركيا الفتاة :

تكـــونت تـــركيا الفتاة من الشباب المثقف ثقافة أوربية وكان هدفها إقامة حكم دستوري وكان مدحت باشا قائدا لهذه الحركة ، وهي تمثل البرجوازية التركية ، ولم يكـــن هدفها تصفية الخلافة العثمانية ولكن إقامة حكم دستوري فيها ، فلما

---

(١٨) المرجع السابق .ص١١٦ ،وانظر أيضا :إبراهيم خليل أحمد ،الاستشراق والتبشير وصلتهما بالإمبريالية العالمية ص٣ – ٥ .

ألغى عبد الحميد الدستور ، وتعقب دعاة الحركة ، تحولت إلى العمل السري داخل البلاد والعلني خارجها . وكانت أصابع الماسونية العالمية وراء أعضاء هذه الجمعية كما ذكر السلطان عبد الحميد في مذكراته .

الاتحاد والترقي :

وتألفت في سنة ١٩٠٧ م جمعية (الاتحاد والترقي العثمانية) في سالونيك ، الذي كان يضم متفرنجي الترك ، والذي كان واقعا تحت سيطرة اليهودية العالمية عن طريق الماسون و (الدونمة) وكان يهود الدونمة من وراء هذه الحركة ، وذلك لتواجدهم في سالونيك ، المتسترين بالإسلام والمتظاهرين باعتناقه ، واستمالوا الجيش إلى حركتهم ، وقام فريق من ضباط الجيش بثورة في يوليو ١٩٠٨ م أرغمت السلطان على إعادة العمل بالدستور ودعوة مجلس المبعوثان إلى الاجتماع.

لم يقاوم عبد الحميد في البداية وأرغموه على إصدار عفو عن كل من كان له ضلع في الثورة وعن جميع المجرمين السياسيين ، لكنه دبر انقلابا مضادا للاتحاديين في مارس١٩٠٩ م بحجة العدوان على مقام الخلافة ، ونسب الكفر والإلحاد إلى جماعة الاتحاد والترقي ، واستطاع أن يجمع حوله رجال الدين والطرق الصوفية وبعض الضباط والجنود ، وطلبوا إسقاط حكومة الاتحاد والترقي وفض مجلس المبعوثان ، وحاصروا الباب العالي (مقر الحكومة والصدر الأعظم) وقتلوا وزير العدل وبعض النواب ، وأعلنوا الشريعة المحمدية دستورا للدولة ، وهذه كلمة حق يراد بها التمسك بالاستبداد الحميدي .

وعلى إثر انقلاب مارس ١٩٠٩ م تحرك جيش الروملي الذي أرغم عبد الحميد من قبل على إعلان الدستور وزحف على العاصمة وأخمد الفتنة ودعا مجلس

النواب ومجلس الأعيان وجعله يقرر خلع السلطان عبد الحميد وتولية أخيه (محمد الخامس) سلطانا وأقسم محمد الخامس يمين الإخلاص للدستور .

وهكذا انتهى حكم السلطان عبد الحميد الثاني الذي قضى في الحكم أكثر من ثلاثين عاما شهدت انهيار الدولة العثمانية ، ومن الجدير بالذكر في صدد سياسة عبد الحميد انه اهتم كثيرا بتقوية اسم الخلافة وبث الدعاية لها في العالم الإسلامي ودعا لجامعة إسلامية كحركة مضادة لأطماع الدول الأوربية في البلاد الإسلامية ، وكان لنشاط عبد الحميد في هذا المجال أثر كبير في إضفاء شيء من الهيبة على سلطانه وعلى اسم الخلافة ، استمر أمدا طويلا .

وقد اهتم السلطان عبد الحميد بإنشاء سكة حديد الحجاز لتيسير سبل الحج أمام حجاج العالم الإسلامي وتقوية الصلة بين الدولة والحجاز واستعان بالألمان على إنشاء سكة حديد الحجاز، وجمع من أجلها أموالا كثيرة من العالم الإسلامي .

ومما يسجله التاريخ للسلطان عبد الحميد انه لم يرضخ لمطالب الصهيونية لاغتصاب فلسطين عندما سعى الصهيوني العالمي (هرتزل) لدى السلطان عبد الحميد لإقناعه بالسماح بالهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وشراء الأراضي فيها وإنشاء مستعمرات عليها ، لكن عبد الحميد رفض الطلب بشدة وأمر بالتشدد مع اليهود الذين يؤمون فلسطين بحجة السياحة بحيث لا يسمح للأجانب منهم أن يمكثوا فيها أكثر من ثلاثة أشهر ومنعهم من أن يتملكوا أملاكا وأراضي فيها .

سياسة الاتحاديين :

على الرغم من أن الناس استبشروا خيرا بعهد الاتحاديين إلا انهم تعصبوا للعنصر التركي وجعلوا له سيادة على العنصر العربي وعملوا على مناوأة اللغة العربية وتنقية اللغة التركية منها مما أثار في العرب روح النقمة عليهم . وحاولوا

تقوية النعرة التركية ، وزعموا أن الترك يتمتعون بحقوق وامتيازات واسعة بصفتهم فاتحين ، وانه لا مجال للاعتراف بحقوق مساوية للعناصر الجنسية الأخرى .

اقتسام تركة الرجل المريض :

كان الاستعمار يترقب انهيار الدولة العثمانية وكان يتعجل في القرن التاسع عـــشر اقتـــسام أراضيها ، فتمكن من اقتطاع كثير منها في ذلك القرن ، فاحتلت فرنـــسا (الجزائـــر) في سنة ١٢٤٦هـــ /١٨٣٠م كما احتلت بريطانيا (عدن) في ١٢٥٥هـــ / ١٨٣٩م ، واحتلت فرنسا (تونس) في سنة ١٢٩٩هـــ / ١٨٨١م ، وغـــزت بـــريطانيا "مصر" سنة ١٣٠٠هـــ /١٨٨٢م وضربت ثورتها التي قادها أحمـــد عـــرابي ونفته مع لفيف من رجال ثورته إلى سيلان ، وأعلنت النمسا ضمها لإقليمـــي البوســـنة والهرسك إلي دولتها في سنة ١٣٢٧هـــ/ ١٩٠٩م وفي نفس الـــسنة أعلنت بلغاريا استقلالها عن الدولة العثمانية بمعونة الدول الغربية .واحتلت إيطاليا ليبيا سنة ١٩١١م .

ثم نـــشبت (الحرب العالمية الأولي) سنة ١٣٣٣هـــ / ١٩١٤م فدخلتها الدولـــة العثمانية بجانب ألمانيا والنمسا والمجر وهي ما كانت تسمي دول الوسط أو المحور ضد دول الوفاق أو الحلفاء وهم بريطانيا وفرنسا وروسيا وإيطاليا ، وذلك لما كانت تراه تركيا في الجانب الثاني من مطامع ودسائس ضدها ودارت الدائرة عليها وعلي المناطق في الأناضول والحجاز وبلاد الشام والعراق ، وكان العرب قد دخلوا بإغـــراء الإنجليز لهم بالاستقلال تحت زعامة الشريف حسين فقد أعطوه وعدا مزيفا بالاستقلال فحارب الدولة العثمانية في الحجاز والشام معهم .

اتفاقية سايكس بيكو (١٩١٦) :

وفي غضون ذلك اتفقت كل من (بريطانيا وفرنسا وروسيا) في معاهدة سرية على اقتسام أملاك الرجل المريض في أسيا فكان نصيب(روسيا) أن تفوز بالمضايق البسفور والدردينل وما حولهما ، ونصيب(فرنسا)سوريا ولبنان ، (وبريطانيا)العراق وشرق الأردن وفلسطين وهذه المعاهدة هي المعروفة بمعاهدة سايكس بيكو سنة ١٩١٦م .

وعد بلفور ١٩١٧م :

وفي سنة ١٩١٧م أعلنت بريطانيا وعدا لليهود على لسان وزير خارجيتها بلفور بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين . وعمل الإنجليز على تنفيذه بمعونة الغرب ، حيث التقت المخاوف الأوربية مع الأحلام الصهيونية كما سنذكر فيما بعد .

لم يوافق العرب على جعل فلسطين وطنا قوميا لليهود ،ولم يوافقوا على فتح باب الهجرة بلا قيد ولا شرط لفلسطين لان أراضي فلسطين الزراعية محدودة ، وقدرتها على قبول السكان محدودة أيضا ، وفتح باب الهجرة لليهود فقط معناه إيجاد مزاحمين جدد للسكان .

واحتج الشريف حسين بقوة على هذا ، وبدأ يشجع الأحزاب العربية ضد بريطانيا ، ووجه خطابا للشعب البريطاني في نوفمبر ١٩٢٣م يشكو فيه ما أصابه هو وقومه من خيبة الأمل وما أصاب البلاد العربية من التقسيم بالرغم من العهود والاتفاقات ، واستنهض همة الشعب البريطاني لإنصافه ... فلم تطمئن الحكومة البريطانية إلى موقف الملك حسين وتشجيعه للأحزاب العربية ضدها ، فصرفوا النظر عنه وتركوه لخصمه ابن السعود يحل مشاكله معه بنفسه.

ودخـــل الملـــك حسين في صراع مع عبد العزيز بن سعود على الحجاز ، وبريطانيا تقف وراء هذا الصراع من وراء الستار ، وكانت تظهر أنها محايدة ولكنها في واقع الأمر كانت تريد التخلص من آمال الملك حسين الواسعة في السيطرة على العــرب ، وشــيئاً فــشيئاً كان الملك عبد العزيز آل سعود يكسب في صراعه مع الــشريف حــسين في الحجاز وانتهى به الأمر إلى أن هيمن على الحجاز كله وطرد الأشراف من الحجاز إلى شرق الأردن في سنة ١٩٢٥م .

إلغاء الخلافة :

وهكــذا لم تكد تنتهي الحرب العالمية الأولي حتى صفيت الدولة العثمانية، وبقــي أن يقــضي علــى نظام الخلافة الإسلامي ، فاصطنع الاستعمار بعد الحرب مــصطفي كمال من بين حطام الدولة فقام بدور رئيسي في إلغاء الخلافة ١٩٢٤م (١٣٤٢هــــ) فــأعلن (إلغــاء الخلافة) في سنة ١٩٢٤ وأعلن الجمهورية ، ونقل عاصــمة الدولة الجديدة إلي "أنقرة" وأفقدها المقر التاريخي في إسلامبول ، وأجري كــثيرا مــن التغييرات في تركيا أبعدتها عن الإسلام وأعلن النظام العلماني للدولة ، و(ألغــي الأوقــاف الإسلامية) والتعليم الديني ، وألغي عطلة الجمعة وجعلها يوم الأحد كما يفعل النصارى ، وألغي التاريخ الهجري وأحل محله تاريخ ميلاد المسيح ، وفي هــذه الإجــراءات معني قطع صلة الإسلام والعروبة بتركيا الجديدة، وأمر بكــتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية وإلغاء كثير من الألفاظ العربية منها والتي كانــت يومئذ تكون نحو نصفها وأحل محلها ألفاظا أوربية ، وغير ذلك بغية تمدينها كمــا ادعي مصطفي كمال الذي أغدق عليه الغرب لقب (أتاتورك) ومعناها أبو الأتراك .

العلمـــانية :

وكـــان المـــبدأ الرئيسي في حركة مصطفي كمال هم (العلمانية) وقبل فهم هـــذه الكلمة (أي العلمانية) فلا يمكن فهم تركيا الحديثة ، ان العلمانية في الغرب معـــناها فـــصل الكنيـــسة عن سلطة الدولة ، ولكن العلمانية في بلد مسلم تحمل مفهـــومها أكثـــر حـــدة وخطـــورة ذلك لان الإسلام ممتزج بالدولة بشكل قوي، فالـــشريعة تحكم حياة الأفراد في كل نواحيها ، ولم يستطيع أي بلد إسلامي اختيار طـــريق العلمانية سوى تركيا ، وذلك فان تركيا أحدثت بموقفها هذا هزة في العالم الإسلامي[١٩] .

وتطور مفهوم العلمانية في البلاد الإسلامية فأصبح يعني وقوف الحكومات موقـــف المواجهة ضد شعوبها المسلمة وضد أي تحرك ديني وعلي الأخص الإسلامي والتوتر المستمر بين اتجاه الحكومات العلماني المرضى للغرب والشعوب المصرة علي إســـلامها وعلـــي ذلـــك فالعلمانية في المفهوم الغربي أرقي من المفهوم الشرقي لان الحكـــومات الغربية لا تنصب نفسها عنصراً مضاداً للدين كما هو الحال في البلاد الإســـلامية العلمانية فالبلاد الإسلامية لا تبيح تكوين الأحزاب علي أساس ديني بيـــنما الغرب تبيح ذلك ففي إيطاليا وألمانيا الحزب الديمقراطي المسيحي ومصر التي كـــان الهـــلال الإسلامي شعارا لها غيرته إلي الألوان الثلاثة المأخوذة من علم الثورة الفرنـــسية المأخوذ من الماسونية التي اعتمدت عليها الثورة الفرنسية بينما الصليب مازال علي أعلام كثير من الدول الأوربية منها بريطانيا والنرويج واليونان وأيسلندا وفنلندا وسويسرا والدنمارك والدومنيكان والسويد وليس هذا بقصد أما عندنا فهو تعصب.

---

(١٩) ضابط تركي لم يعلن عن اسمه ، الرجل الصنم ، ص ٥٤١ نقلا عن كتاب :"الأتراك" لديفيد هوتمان ، ص٣٤–٤٥ .

والواقع أن هذا الإصلاح الذي أجراه مصطفي كمال لم يكن هو الإصلاح الأمـثل الذي يؤدي إلي تقدم المجتمع ، فالمؤرخ الإنجليزي "أرنولد توينبى" يري أن هناك نوعان من السلوك تسلكهما الأمة عندما تغلب أمام أخرى ، أو عندما تقع في وضع خطر يهدد كيانها

١- إما أن تتقوقع علي نفسها.. وهنا يعطي مثالا لذلك من الحركة (السنوسية) في شمال أفريقيا و (الحركة الوهابية) في الجزيرة العربية.

٢- وأما أن تقلد الأمة الغالبة .. وهنا يعطي مثالا لذلك من حركة (محمد علي) في مصر (وحركة مصطفي كمال) في تركيا ومع أن توينبي يفضل السلوك الثاني علي الأول إلا انه لا يوافق عليه أيضا ، بل يعتبره سلوكا خطرا ، ويقول بأنه يشبه محاولة تبديل الحصان أثناء عبور نهر جارف ذلك لان التيار سيجرف ذلك الشخص العابر قبل أن يستقر علي ظهر الحصان الجديد .

ثم يضيف قائلا بان السلوك الثاني يحمل في طياته خاصتين سيئتين :

الأولي : إن هـذا السلوك يخلو من الإبداع لأنه مجرد تقليد أعمي، وهو لا يضيف شيئاً جديداً .

الثانية : انه يبقي منحصراً في طبقة معينة أي أن محاولة التقليد هذه تبقي منحصرة في فـئة صـغيرة مـن مدعي الثقافة ولكنها لا تصبح حركة جماهيرية ولا تنـزل إلي صفوف الشعب .

والذي يتمعن في حركة مصطفي كمال يري العجب في المدى الذي وصل إليه في تقليد الغرب ، حيث تراه يغير الأحرف التركية إلي الأحرف اللاتينية ، وغير القيافة إلي القيافة الغربية أي الملابس ، وغير حتى الأعياد الدينية وجعل يوم الأحد العطلة الأسبوعية بدلا من يوم الجمعة ومنع الحج إلي مكة ، لدرجة انه منع إذاعة

الموسيقى التركية والأغاني التركية والموسيقي الشرقية من الإذاعة ، وصدرت أوامره بان تذاع الموسيقي الغربية فقط.

وبعد سنوات من هذا المنع أصدر أمره بإذاعة الموسيقى والأغاني التركية من الإذاعـــة .. وصدر أمره هذا في جلسة شراب !. إذ كان يوما في مجلس شراب في فـــندق "بـــارك" فحـــن لسماع الأغاني التركية القديمة فاستدعي المطرب التركي المعروف "نور الدين سلجوق" حيث طرب من أغانيه غاية الطرب ، ويقال انه بكي ، ومن جلسة الشراب هذه أصدر أمره بإذاعة الأغاني التركية لأنه دفعه إليها حنين الذكريات [٢٠] .

ولعـــل هذه الحادثة تعطينا فكرة عن انه كان مدفوعا في التغيير بدافع غير ذاتي وعـــندما أتيحت له فرصة التحرر من القيود الذاتية عبر عما في داخله عندما طلب سماع الموسيقي التركية في نوبة شراب وبكي عند سماعها ، ولعل هذه الحادثة أيضا تمثل الشعب التركي وان ما أصابه عارض وعندما يتحرر من قيوده فانه يعود إلي أصله.

تـــركيـــا المـــعاصـــرة:

ظلـــت تركيا بعد مصطفي كمال دولة متخلفة فقيرة وظل العداء الأوربي كامـــنا ضـــدها ، ولم يحمها من تعصب الغرب المسيحي ضدها انضمامها إلي حلف شمـــال الأطلـــسي فظـــل الأوربيون حتى الآن ينظرون إليها علي أنها دولة إسلامية وينحازون ضدها في صراعها مع اليونان في قضايا الحدود في بحر ايجه وبشان قضية الأقلـــية المسلمة التركية في قبرص. ويقولون عنها أنها تحولت من رجل أوربا المريض إلي شحات أوربا الأول .

---

[٢٠] المرجع السابق ص٩-١٠.

والجيش التركي يقبض علي تركيا بيد من حديد ويسيطر عليه تنظيم سرى مـــوال للغرب والماسونية العالمية حتى إذا فكر الشعب يوما في صحوة إسلامية تري الجيش يقوم بانقلاب عسكري يسيطر به علي الأوضاع ويعيدها إلي الخط العلماني المـــوالي للغرب ، ويهلل الغرب لذلك مثلما حدث في سبتمبر ١٩٨٠ ضد اليقظة الإســـلامية الـــتي تتطور يوما بعد يوم في البلاد ، وكذلك فعلوا مع (حزب الرفاه الإســـلامي) الذي فاز بأغلبية في مقاعد البرلمان وتسلم أربكان رئاسة الوزراء ،ثم تأمروا عليه وأجبروه على الاستقالة وكلفوا حزبا علمانيا بتكوين الوزارة .

فعـــندما قامـــت هـــذه اليقظة منذ مدة رأى الغرب فيها خطرا وعودة إلي القرون الوسطي فعملت أمريكا علي احتوائها وقمعها بانقلاب يقوم به عملاؤها في الجيش .

وحـــين وقع انقلاب عسكري مماثل في بولندا وأعلن العسكريون الأحكام العـــرفية ثار الغرب ورأي أن هذا اعتداء خطير علي حقوق الإنسان البولندي طبعا لان الانقلاب العسكري الأول لحساب أمريكا والانقلاب العسكري الثاني لحساب روسيا. علي الرغم من وحشية الانقلاب التركي الذي وضع كل أحزاب المعارضة في السجن وأعلنوا الأحكام العرفية ، وعلي الرغم من ذلك تنفس الغرب الصعداء ورحـــب بانقلاب تركيا بمقولة انه أنقذ تركيا من الفوضى ويقصدون بذلك التحول إلي الإسلام.

أي ما يعد نهضة في أوربا (علي الرغم من صلته في بولندا بالكنيسة) فهو في نفـــس الوقت همجية في تركيا والبلاد الإسلامية ويجب ضربه بقوة العسكر، بينما تتكاتف دول الغرب لتحرس وتحمي يقظة الشعب البولندي.

وكأني بالذين تآمروا علي الـــدولة العثمانية أرادوا أن يستمر تآمرهم، فبعد مـــوت (مـــصطفي كمال) أصدر هؤلاء قانونا لحماية تاريخ مصطفي كمال من أي انـــتقاد ، ولا يزال هذا القانون ساريا حتى اليوم انه قانون غريب في بلد يدعى انه يـــسير على النهج الديمقراطي قانون يكمم الأفواه لم يسبق له مثيل حتى في الدول الديكتاتورية العاتية مثل روسيا الشيوعية فان الذين أتوا بعد ستالين كشفوا حقيقته . وكذلك كشفوا حقيقة لينين وتركوا الشيوعية.

والـــذي يحـــدث في تركيا بعد مصطفي كمال دليل الخوف من انكشاف حقائـــق خطـــيرة ،كمـــا انه دليل العجز على مقاومة هذه الحقائق التي يخشى أن تنكشف.

والمفكـــر في تـــركيا الحديثة يستطيع أن يطعن في الرسل والأنبياء والناس أجمعـــين وبجمـــيع الكتب السماوية وغير السماوية حتى في ذات الله جل في علاه ، وبكـــل شـــيء ولكـــنه لا يستطيع أن يقول حرفا واحدا ضد مصطفي كمال .لقد جعلـــوا مـــنه صنما في حياته وبعد مماته وهم يحاولون أن يمنعوا هذا الصنم من أن يتهاوى تحت ضربات الحقائق [٢١] .

وهناك أمل في (حزب العدالة والتنمية) الجديد وريث حزب الرفاه بزعامة : رجب طيب أردغان الذي وصل إلى الحكم بأغلبية ساحقة وكون الوزارة وبدأ يمد جـــسور الـــتعاون مـــع الدول العربية ويحاول دخول الاتحاد الأوربي ويحافظ على التقاليد الإسلامية .

---

[٢١] الرجل الصنم ،ص٧-٨.

زوال الخلافة من العالم الإسلامي :

في أوائـــل مارس ١٩٢٤م (١٣٤٢هــ) ألغي مصطفي كمال الخلافة من تـــركيا ، وألجأ آخر خليفة كان موجودا يومئذ وهو السلطان عبد المجيد الثاني إلى حـــياة النفـــي الإجباري خارج تركيا لا يملك شيئا ، وأخذ ينتقل من سويسرا إلي فرنسا .

لكـــن الخلافة الإسلامية لم تكن تخص تركيا وحدها بل تهم العالم الإسلامي كلـــه، فقـــد كانـــت جزاء من عظمة المسلمين ومحورا لتاريخهم ورمزا لوجودهم ووحـــدتهم وهـــي رئاسة وقيادة دينية للشعوب الإسلامية في مختلف الأنحاء ، ولقد اســـتمرت الخلافة أكثر من ألف وثلاثمائة عام منذ أن اجتمع المسلمون وانتخبوا أبا بكر الصديق خليفة لرسول الله ﷺ وتعاقب الخلفاء طوال العصور في دول عديدة حتى القرن العشرين (١٤هــ) .

وكان لنبأ إلغاء الخلافة وقع أليم في جميع البلاد الإسلامية وخاصة في مصر إذ أنهـــا مقـــر الأزهـــر الشريف والمعاهد الدينية الإسلامية والحفيظة علي التراث والعلـــوم الإســـلامية ، ولقـــد أثارت تلك المحنة لوعة الشعر والأدب فنظم أمير الشعراء شوقي مرثيته الشهيرة التي تعتبر بحق من أبلغ ما قيل يومئذ تأثيرا في النفس يقول في مطلعها :

ضجت عليك مآذن ومنابر	وبكت عليك ممالك ونـــواح
الهند والهة ومصر حزينـــة	تبكي عليك بمـــدمع سحـــاح
الشام تسأل والعراق وفارس	أمحا من الأرض الخلافة مـــاح

ولقـــد كـــان عزيزاً علي المسلمين أن تختفي الخلافة من حياتهم بين عشية وضحاها ، وتساءل المسلمون بأنه إذا كانت الخلافة قد انتهت من تركيا فلماذا لا

تعـــود إلي الـــبلاد العربية وخاصة أن الخلافة كانت عربية في أصلها وظلت كذلك قـــرونا عديـــدة قبل أن تنتقل إلي الأتراك عندما ضعف العرب ، لهذا فكر كثير من الـــناس ولا سيما علماء المسلمين في إعادة الخلافة إلي حياة المسلمين وتجديدها وبدء عهد جديد في حياها .

وقـــد تزعم الأزهر في مصر طليعة هذه الدعوة وبدأ نشاطا قويا في أوساط مـــصر السياسية والدينية يهدف إلي بحث مسألة الخلافة واتخاذ قرار بشأنها وفي تلك الأثناء انتهي الرأي في مصر إلي ضرورة عقد مؤتمر إسلامي دولي يحضره ممثلون عن الـــدول الإسلامية ويكون مقرة القاهرة تحت رعاية وإشراف الأزهر ويتناول هذا المؤتمـــر مسألة الخلافة بالبحث لكي يصل إلي قرار بشأنها يكون محل اتفاق المسلمين لان الخلافـــة لا تخص مصر وحدها بل تهم العالم الإسلامي كله ، وفضلت مصر أن تتبع الطرق القانونية في هذا الأمر الخطير .

وفي يوم(٢٥ من مارس سنة ١٩٢٤) (١٧ من رمضان ١٣٤٢هـــ) عقد علماء الأزهر اجتماعا تحت رئاسة الأستاذ الأكبر شيخ الأزهر وتداولوا في الأمر ثم أصدروا بيانا جاء فيه ما يلي :

"كثر تحدث الناس في أمر الخلافة بعد خروج عبد المجيد الثاني من الأستانة، واهتم المسلمون بالبحث الكثير فيما يجب عليهم عمله قياما بما يفرضه عليهم دينهم الحنـــيف " ثم بيـــنوا الضرورة القصوى التي تستلزم وجود خليفة وإمام للمسلمين كافة وانتهوا أخيرا إلي القرار التالي :

"لهـــذه الأسباب نري انه لابد من عقد مؤتمر ديني إسلامي يدعي إليه ممثلو جمـــيع الأمم الإسلامية للبحث فيمن يجب أن تسند إليه الخلافة الإسلامية ويكون المؤتمـــر بمدينة القاهرة تحت رئاسة شيخ الإسلام بالديار المصرية (وهو الشيخ محمد

أبـــو الفضل الجيزاوي وهو شيخ الأزهر في مصر) وان يكون عقد المؤتمر في شهر شعبان سنة ١٣٤٣هـــ (مارس ١٩٢٥) [٢٢] "

وفي تلـــك الأثناء فوجئ الناس بالشريف (حسين بن على) ملك الحجاز يومـــئذ بـــإعلان نفسه خليفة على المسلمين دون تشاور معهم أو بيعة منهم ورفض كـــثير مـــن المسلمين الاعتراف له بالخلافة ، وأطلقوا عليه "خليفة أوبريت الإدارة البريطانية ".

وممـــا هـــو جدير بالذكر أن الملك عبد العزيز بن سعود بدأ الزحف على الحجـــاز سنة ١٩٢٥ وأخرج (على بن الحسين)من جدة في ديسمبر سنة ١٩٢٥ وأعلن عبد العزيز ضم الحجاز إلى مملكته في يناير ١٩٢٦ ثم أعلن نفسه ملكا على نجد والحجاز سنة ١٩٢٧ . ولجأ الحسين إلى العقبة ولكن الملك عبد العزيز اعترض علـــى وجـــوده بها خوفا من إثارته للمشاكل على حدود السعودية فنصحه الإنجليز بمغادرتها إلى قبرص فظل بها ست سنوات ومرض ومات ودفن في القدس .

ونشطت الجهود استعداداً لعقد هذا المؤتمر في داخل مصر وخارجها وبدأ ملـــك مـــصر يومئذ وهو الملك فؤاد حفيد محمد علي يعد نفسه لتولي هذا المنصب منافسا بذلك الشريف حسين بن علي .

ووسط هذه الظروف السياسية الصعبة التي تتعلق بمصير الخلافة الإسلامية صدر كتاب في مصر بعنوان (الإسلام وأصول الحكم)في أبريل سنة ١٩٢٥ يبحث في الخلافـــة والحكـــومة في الإســـلام مؤلفة قاضي شرعي في مصر وعالم من علماء الأزهـــر هو الشيخ (علي عبد الرازق) حاول فيه مؤلفه أن يثبت أن الخلافة ليست

---

[٢٢] انظـــر :قرار الهيئة العلمية ،الدينية الإسلامية الكبرى بالديار المصرية في شان الخلافة ، سنة ١٣٤٢هـــ محفظة رقم ٢ من محافظ الخلافة .دار الوثائق بالقاهرة .

من الإسلام وذلك لان الإسلام دين والدين ضد الدنيا ، فلا علاقة للإسلام بشئون الدنـــيا ومنها الخلافة .وان الإسلام لا صلة له بالحكم ولا بالمجتمع ولا بالدنيا ، وانه يجـــب إذاً إنهـــاء الخلافة من حياة المسلمين ، وان الخلافة الإسلامية التي قامت في التاريخ لم تكن إذن إسلامية بل ملكا دنيويا وان أبا بكر أول ملك في الإسلام ، وان الإسلام في حقيقته ليس فيه (جهاد) ، وان جهاد النبي لم يكن من صميم الرسالة ولا جزءا منها لان الجهاد ــ كما يزعم ــ مؤلف هذا الكتاب إنما يكون في سبيل الملك وتوسيع السلطان.

وفيما يلي نص ما ذكره الشيخ علي عبد الرازق في كتابه :

" إن الشريعة الإسلامية شريعة روحية محضة ، لا علاقة لها بالحكم والتنفيذ ، وأن الدنيا من أولها إلى آخرها ، وجميع ما فيها من أغراض وغايات أهون عند الله مـــن أن يقـــيم على تدبيرها غير ما ركب فينا من عقول ، وأهون على الله من أن يبعث لها رسولا ، وأهون عند رسل الله من أن يشغلوا بها وينصبوا لتدبيرها "

وقـــال : " وظاهـــر أن الجهاد لا يكون لمجرد الدعوة إلى الدين ، ولا لحمل الناس على الإيمان ، وإذا كان الرسول قد لجأ إلى القوة والرهبة ، فذلك لا في سبيل الدعـــوة إلى الـــدين ، وإبلاغ رسالته إلى العالمين ، وما يكون لنا أن نفهم إلا أنه في سبيل الملك ! ".

وقـــال " إنـــك إذا تأملت وجدت أن كل ما شرعه الإسلام وأخذ به النبي المـــسلمين ، لم يكـــن في شيء كثير أو قليل من أساليب الحكم السياسي ، ولا من أنظمة الدولة المدنية ، وهو بعد إذا جمعته لم يبلغ أن يكون جزءا يسيرا لما يلزم لدولة مدنية ، من أصول سياسية وقوانين " .

وقال : " إن دعوى إجماع الصحابة على وجوب إقامة إمام عادل ، لا تجد مساغاً لقبولها على حال وليس لها من دليل صحيح ، وأن حظ العلوم السياسية في العصر الإسلامي كان سيئاً ، حيث لم تجد من يبحثها على وجهها ، وأن مقام الخلافة منذ زمن الخليفة الأول كانت عرضة للخارجين عليه "

وقال : " والخلافة ليست في شيء من الخطط الدينية ، كلا ولا القضاء ، ولا غيرها من وظائف الحكم ، ومراكز الدولة ، وإنما تلك كلها خطط سامية صرفة ، لا شأن للدين بها فهو لم يعرفها ولم ينكرها ولا أمر بها ، ولا نهى عنها ، وإنما تركها لنا لنرجع فيها إلى أحكام العقل ، وتجارب الأمم وقواعدها السياسية".

إلى غير ذلك من الآراء الشاذة التي تخالف ما يعتقد المسلمون وما اجتمع عليه علماؤهم والتي أحدثت دويا في أوساط المسلمين .ولا يمكن إلا أن تكون آراء لمستشرق استعماري صهيوني عدو للإسلام والمسلمين ولا يريد لهم القوة .

وقد رد عليه الأزهر في تقرير مطول وفيما يلي ملخص لهذا الرد :

"إن المؤلف يشطر الدين الإسلامي شطرين ، فيلغي منه شطر الأحكام المتعلقة بأمور الدنيا ويضرب بآيات الكتاب وسنة رسول الله عرض الحائط ، فهو يصادم آيات مثل قول الله :

﴿ وابتغي فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ وقوله : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ﴾

وقوله : ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم ﴾

وقوله : ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾

وقوله:﴿ لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ﴾

واستطرد التقرير فذكر كثيراً من الآيات والأحاديث .

ثم قال : " عُلم من كلامه هذا أن الدين لا يمنع من أن جهاد النبي صلى الله عليه وسلم كان في سبيل الملك لا الدين ، وجوَّز أن تكون الزكاة والجزية والغنائم في سبيل الملك أيضاً ، وجعل ذلك خارجاً عن حدود رسالته ، إذ لم يترل به وحي ، ولم يأمـــر بـــه الله تعالى ، والشيخ بذلك يصادم صريح الآيات القرآنية والأحاديث النـــبوية وينكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة ، فقد قال الله تعالى : ﴿ فقاتل في سبيل الله ﴾ وقال تعالى :﴿ فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ﴾ وقال تعالى : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ وقال تعالى : ﴿وأقـــيموا الـــصلاة وآتو الزكاة ﴾ وقال تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتـــزكيهم بهـــا ﴾ وقـــال تعالى في بيان مصارف الزكاة :﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن الـــسبيل فريـــضة من الله ﴾ ، وقال تعالى : ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخـــر ولا يحـــرمون مـــا حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ واعلموا أنما غنمـــتم مـــن شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ .

وجاء في التقرير أيضاً : " ما زعمه الشيخ مصادم أيضاً لصريح القرآن فقد قـــال الله تعالى : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ﴾ ، وقـــال تعـــالى : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ﴾ ، وقال تعالى :﴿ فإن تنازعـــتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك

خـــير وأحسن تأويلا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ .

وجاء في تقرير الأزهر رداً على إنكار علي عبد الرازق للخلافة والقضاء : إن إنكـــار القـــضاء قياساً على إنكار الخلافة باطل ، لأن المعروف في كل الكتب الفقهـــية أن القضاء من فروض الكفايات وقول المؤلف إنه ليس خطة دينية باطل ، ومـــصادم لآيـــات الكـــتاب العزيز مثل قوله تعالى :﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ ، ومثل قوله تعالى :﴿ إن أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكـــن للخائنين خصيما ، واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً ﴾ ، ومثل قوله تعـــالى :﴿ فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ﴾ . [د. محمد رجب البيومي ، الأزهر بين السياسة وحرية الفكر ، ص١٥١-١٦٠] .

والـــذي لا مـــراء فيه هو أن آراء الشيخ علي عبد الرازق التي طرحها في كتابه كانت (تطابق تماما أهداف الإنجليز) والسياسة الاستعمارية في العالم الإسلامي ، فالإنجليز كانوا يريدون هدم الخلافة والقضاء علي كل فكرة من أجل التجمع من جديد حول الوحدة الإسلامية وهذا هو الغرض الأساسي من الكتاب كله [٢٣] .

وأعـــداء الإســـلام يعمـــدون دائما إلي تشويه تاريخ الإسلام والطعن في شخـــصياته وهذا هو الذي قرره وأكده الشيخ علي عبد الرازق بعبارات حماسية عنـــيفة في كـــتابه ، والمستعمرون عامة يعملون علي إبعاد الإسلام عن السياسة ، وفـــصله عن الدولة ، وتجريده من القوة وواجب الجهاد والحرب وحق الدفاع عن

---

(٢٣) انظر : د.ضياء الريس : الإسلام والخلافة في العصر الحديث ، نقد كتاب الإسلام وأصول الحكم ، القاهرة ،١٩٧٦ م ص ١٨٣ .

نفسه ، وليسهل علي المستعمر الاعتداء على المسلمين واستعبادهم واحتلال بلادهم واغتصاب أراضيهم وثرواتهم ، فلا يكون للمسلمين جهاد ولا دفاع ضدهم ولا تدخل في السياسة لان هذه الأمور كلها من شئون الدنيا .

وهذه الآراء التي هي في مجملها آراء المستشرقين انبري للدفاع عنها الحزب الموالي للإنجليز في مصر والذي ينتمي إليه الشيخ علي عبد الرازق وأسرته وهو (حزب الأحرار الدستوريين) الذي انبثق من (حزب الأمة) ربيب الاستعمار الإنجليزي في مصر ، وإذا كان حزب الأمة المنحل قد نشأ بإيحاء ورعاية "اللورد كرومر" المندوب السامي في مصر. فان حزب الأحرار الدستوريين نشأ كذلك بتأييد الإنجليز ورعاية "اللورد اللنبي" ممثل الاستعمار البريطاني في مصر والشرق، ويذكر البعض أن هذا الحزب الأخير الذي ينتمي إلية الشيخ علي عبد الرازق وأسرته يقوم علي أساس مبدأ التعاون مع الإنجليز وصداقتهم ومسايرة سياستهم ، ولا شك أن هذا الكتاب وضع بالتعاون مع المخابرات البريطانية .

وقامت ثورة في "الصحافة المصرية" بين مؤيد ومعارض ، فالصحف التي كانت تعيش في ظل الاحتلال البريطاني أيدت الفكرة وأسبغت علي الشيخ ألقابا كثيرة لا يستحقا من بينها :"العلامة الكبير" و"الأستاذ المحقق" و"المصلح المجدد" بينما رمته الصحف الوطنية بالطيش في الرأي والإلحاد في العقيدة وتعرض لهجوم شديد من كثير من المفكرين الوطنيين ورماه كثير منهم بالخيانة.

وكان من نتيجة نشر هذا الكتاب أن قامت بعض (المظاهرات) في مصر من الأزهر تعلن الاحتجاج ورفعت عرائض وقع عليها عدد كبير من العلماء إلي شيخ الأزهر وبعض الجهات الرسمية طالبوا فيها أن ينهض الأزهر بواجبه في الدفاع

عن الإسلام والرد علي هذه الدعوات الإلحادية الهدامة التي تعد خروجا على أحكام الدين وتحريفا لحقيقة الإسلام وطعنا في تاريخه.

وكانـــت النتيجة أن صدر (قرار من الأزهر) بتقديم مؤلف الكتاب الشيخ "علي عبد الرازق" إلي محكمة تأديبية أمام هيئة كبار العلماء.

وكـــان لهـــذه المحاكمة دوياً لان التهمة فيها تتعلق بمسالة دينية وسياسية في نفس الوقت ، وصدر الحكم فيها بإخراج الشيخ علي عبد الرازق من زمرة العلماء . وتم تجريده من شهادة العالية الأزهرية .

ومهما يكن من أمر هذا الحكم فان الكتاب قد ساهم في نسف فكرة عودة نظام الخلافة لجمع شمل المسلمين ، أما عن المؤتمر الذي دعا إليه الأزهر لبحث مسألة الخلافة فقد انعقد في القاهرة في مايو ١٩٢٦م وذلك بعد أن تأخر عاما عن الموعد الذي حدد لانعقاده في مارس ١٩٢٥م وظهر في أول جلساته انه مختلف الاتجاهات وبـــدا انـــه من المتعذر الوصول إلي اتفاق ، عند ذلك رأى القائمون عليه أن أسلم طريقة لحفظ كلمة المسلمين من التفرق وإبقاء علي الخلافة وحماية لها هو أن يسعوا لفض هذا المؤتمر قبل أن يتخذ قرارات معينة من شانها أن تزيد النفرة بين المسلمين .

ورد الإنجليـــز علـــى موقـــف الأزهر فيما بعد بان عينوا الشيخ علي عبد الرازق وزيرا للأوقاف في مارس سنة ١٩٤٧ م وأصبح يتحكم في الأزهر وعلمائه ورجالـــه وأوقافه ونال كل شيء في ظل المستعمر الإنجليزي حتى البكوية والباشوية في ظل تحالف الاستعمار مع الملكية في الفترة من ١٩٤٥– ١٩٤٩م وأصبح أستاذا للفقـــه في كلية الحقوق بجامعة القاهرة وعينوه عضوا بالمجمع الغوي ، وأصبح كتابه مرجعا أساسيا لكل من يدرس من الطلبة المسلمين في الغرب يعمدونهم عليه على انه من المجددين في الإسلام وانه من الفكر التنويري الحديث.

ويلاحظ أن علماء الأزهر اكتشفوا عندما عقد مؤتمر القاهرة سنة ١٩٢٦ مدى اتساع الهوة بين الشعوب الإسلامية وازدياد الفرقة التي عمل الاستعمار على تعميقها وان هناك حواجز تحتاج إلى وقت طويل تصلح فيه النفوس التي أفسدها الاستعمار ، واحتاج المسلمون نحو نصف قرن بعد ذلك لكي يجتمعوا بزعامة قادهم ورؤسائهم في اجتماع القمة بالمغرب سنة ١٩٦٩م عقب حريق المسجد الأقصى بفلسطين ، وكان هذا الاجتماع علي الرغم من سلبياته إلا انه كان أشبه بالمعجزة .

ولعل سبب فشل مؤتمر القاهرة يرجع إلى عوامل خارجية وداخلية ،

أما العوامل الخارجية : فكانت في خطورة المسألة الموضوعية علي بساطة البحث وعدم إمكان الاتفاق بين زعماء المسلمين علي من يولونه خليفة وفي أي قطر تكون الخلافة فكان هناك تنافس شخصي وسياسي بين الملوك والرؤساء أزكاه الإنجليز ، وعدم وجود من يصلح لهذا المنصب الجيل وكان لدسائس الاستعمار ومساعي بريطانيا بالذات كبير الأثر في إيجاد التفرقة وعرقلة الجهود الرامية إلى إقامة الخلافة من جديد ، كما كان لإعلان الشريف حسين بن على نفسه خليفة على المسلمين وعدم اشتراكه في المؤتمر من العوامل المؤثر والمؤدية إلى فشل المؤتمر ، كما أبرق أحد زعماء المسلمين الهنود الخاضعين للإنجليز إلى المؤتمر . كما لا يزال على مبايعته لعبد المجيد الثاني العثماني المعزول ، وانه لا يزال يعده خليفة المسلمين كما بعث كثير من المسلمين يسألونه ويشككون في مقاصد المؤتمر ويقولون : هل المراد من المؤتمر حفظ الخلافة قياما بالواجبات الدينية أم أن المقصود فقط هو نقل الخلافة من شاطئ البسفور إلى شاطئ النيل .

وأما العوامل الداخلية : الخاصة بمصر فهي أن الملك فؤاد الذي يبدو انه أعد نفسه لهذا المنصب كان لا يظهر انه الرجل الذي تتوفر فيه شروط الخلافة

إذ أن لها شروطا عالية ، من حيث العلم والتقوى فضلا عن انه ليس من أصل عربي وتـــربي في أوربـــا وكان مفتونا بها ، وأكثر من ذلك انه لم يكن محبوبا من شعبه في الــداخل ، فلـــم يتجاوب مع أماني الشعب الوطنية في الحرية وكان يريد أن يقمع أرادته وينفرد بالحكم ، وكان يناصب زعيم الشعب المصري يرحب أن يرتفع هذا الملك إلي مقام الخلافة السامي لكي يزداد نفوذه في البلاد ويزداد استبداده اللهم إلا إذا تحققـــت شروط معينه لتقييد سلطته من أجل منع هذه المخاطر ،كما رأي علماء الأزهر الذين تحمسوا لفكرة الخلافة وضرورة عودتها للهيمنة على حياة المسلمين من جديد [٢٤] .

وكانـــت هذه الظروف الخارجية والداخلية السالفة أقوى من تحمس علماء الأزهر لفكرة عودة الخلافة ففشل المؤتمر وفشلت جهودهم لإعادة وحدة المسلمين وقـــتل الموضـــوع في مهـــده ، وانفـــض المجتمعون وعاد كل إلي وطنه وبقي العالم الإســـلامي حـــتى وقتـــنا هذا بدون خليفة ، ويبدو من جديد وذلك بفعل ألاعيب الاستعمار وتفرقته للمسلمين .

وتم طرد عبد المجيد" (وهو ابن الخليفة السلطان عبد العزيز) وألجأه مصطفي كمال إلى حياة النفي الإجباري خارج تركيا لا يملك شيئا واضطر إلى سؤال الناس فأقـــام أولاً (بمونتـــرو) بسويسرا ثم انتقل إلى مدينة (نيس) على السواحل الجنوبية الفرنسية على البحر المتوسط .

ولمـــا بلغ أمره إلى (النظام) ملك (حيدر آباد الدكن) بالهند ، وعرف أن خلـــيفة المـــسلمين السابق بلغ من الاحتياج إلى حد يمس بكرامة الإسلام رتب له ثلاثمائـــة جنية في الشهر وحفظ شرفه من أن يذل وكان له بذلك اليد المحمودة عند

---

[٢٤] د. ضياء الريس : مرجع سبق ذكره ، ص١٧٨-١٧٩ .

الجميع لاسيما أن الخليفة عبد المجيد هو ممن يستحقون كل خير وانه من خيار الملوك في طهارة أخلاقه واستقامته وسعة عقله ومعارفه وإخلاصه للمسلمين.

وفي سـنة ١٩٣٢ تم زفـاف كريمة الخليفة عبد المجيد الثاني على نجل ملك حـيدر أباد الدكن فتوطدت المحبة بينهما وكان لهذه المصاهرة وقعها السيئ في انقره فقـد خاف الكماليون من أن يعتمد عبد المجيد على ثروة النظام في بث الدعاية في تركيا لإعادة حكم الخلافة إليها من جديد .

كـذلك فـان إنجلترا استقبلت نبأ المصاهرة بشيْء من الخوف لان الإنجليز خشوا أن يجعل عبد المجيد من حيدر أباد مركزا له فيجتمع حوله مسلمو الهند وتخلق لهم هذه المسألة مشكلة في الهند. ولم يحدث شئ من هذا بطبيعته الحال (٢٥) .

كـان الغـرب يعتقد أن هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولي ، وإنهـاء الخلافة من إسطنبول في سنة ١٩٢٤ على يد مصطفي كمال أتاتورك ، هي نهاية للإسلام.

وقد قامت بريطانيا بالفعل بكل الوسائل المتاحة لها في مصر والهند وغيرهما مـن بلدان العالم الإسلامي بإجهاض الروح الإسلامية في الدول العربية والإسلامية عندما تجمعت الأفكار من جديد بدعوة علماء الأزهر لبحث الخلافة في مؤتمر يعقد بالقاهرة في سنة ١٩٢٥ .

---

(٢٥) شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ج١ ص٢٣٥ .

الفصل السابع

مؤتمر مكة
لبحث مصير الحرمين
في ٧ يونيو ١٩٢٦ م٢٦ من ذي القعدة ١٣٤٥ هـ

بعـد أن تم للملـك عـبد العزيز آل سعود السيطرة على الحجاز وطرد الـشريف حـسين شـريف مكـة منها ، سنة ١٩٢٦م حدثت ردة فعل في العالم الإسـلامي خـوفا من الأفكار الوهابية المسيطرة على رجال عبد العزيز آل سعود المتحمـسين لنـشرها بالقوة في الحجاز ، وقد قاموا بهدم القبور والقباب والمساجد المقامـة على القبور وتسويتها بالأرض ، وهدموا مكان مولد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهدموا كل مكان يشتم منه رائحة الإخلال بالتوحيد على حد زعمهم .

حتى قبر الرسول عليه الصلاة والسلام توجهوا إليه وأرادوا هدمه لولا أن تـصدى لهم عبد العزيز بن سعود قائلا لهم : " هذا ما هو حجنا (حقنا) نتصرف فـيه كمـا نشاء وإنما هو حج (حق) العالم الإسلامي كله " ووضع جسمه عليه وقال لهم : " إن أردتم هدمه فاقتلوني قبل ذلك " فتركوه .

وبذلك نجا المسجد النبوي الشريف وقبر الرسول عليه الصلاة والسلام من عبـثهم ، وكان هو المسجد الوحيد الذي نجا من ثورتهم التي أطاحت بكل الآثار في الحجاز حتى شواهد القبور والكتابات الأثرية لم تسلم من ذلك العبث.

وحـــدثت ردة فعل في العالم الإسلامي لما حدث في الحجاز من تخريب أطلق علـــيه الوهابيون انه إبطال للبدع والخرافات من الحجاز ، وأصبحت سمعة الوهابيين ســـيئة في العالم الإسلامي كله ، وامتنعت بلاد كثيرة عن أداء فريضة الحج ، فأراد ابـــن سعود امتصاص الغضب وطمأنة المسلمين على الأماكن المقدسة الإسلامية ، فدعا إلى عقد هذا المؤتمر في مكة المكرمة بعد دخوله واستيلائه على الحجاز مباشرة ســـنة ١٩٢٦ م =١٣٤٤في يـــوم ٢٠ من ذي القعدة ، على شرط ألا يتعرض المؤتمر لمسألة الحكم في الحجاز ، وعلى ذلك أرسلت الدعوة إلى الشعوب الإسلامية والحكومات الإسلامية .

وكانـــت هـــذه الدعوة للمفكرين وعلماء المسلمين ، فحضر المؤتمر ٥٧ مـــندوبا مـــن مختلف البلاد الإسلامية ، ١٥٧ مدعوا وممثلين للصحافة العالمية من بيـــنهم أمين الرافعي المندوب الخاص لجريدة السياسة القاهرية ، ومحمد علي حسن ممثل جريدة اللواء المصري وصاحب جريدة نهضة الشرق بالإسكندرية وهو الذي قـــام بتـــسجيل الجلـــسات في المؤتمر متطوعا ، ومحمد رشيد رضا عن جريدة المنار القاهرية .

وحـــضر المؤتمـــر ممثلون من مصر برئاسة الشيخ محمد الأحمدي الظواهري وكـــيل الأزهر يومئذ ، وممثلون من كل من الهند والعراق وسوريا وفلسطين والشام والحجـــاز وعـــسير واليمن وإندونيسيا والملايو والسودان الغربي وأفريقيا الجنوبية والغـــربية وإيران وأمريكا الجنوبية والشمالية وأوربا وزنجبار وليبيا وتونس والجزائر والمغرب وشرق الأردن والصين والحبشة ونجد وروسيا .

ولكـــل قطـــر من هذه الأقطار صوت واحد في المؤتمر إلا الأقطار الممتازة ببعض الخصائص وهي :

(١) الحجاز المبارك قبلة المسلمين فله ثلاثة أصوات لامتيازه الديني .

(٢) أفغانـــستان وروسيا وإيران وتركيا ومصر ونجد واليمن فلكل منها صوتان لأنها ممالك مستقلة .

(٣) الأقطار الواسعة الكثيرة السكان وهي الهند لها أربعة أصوات .

(٤) جاوة والصين ولكل منهما ثلاثة أصوات .

وتم وضـــع لائحـــة لنظام المؤتمر ووضع النظام التالي لهذا المؤتمر والمؤتمرات المقبلة على النحو التالي :

ـــ يسمى هذا المؤتمر " مؤتمر العالم الإسلامي "

ـــ غاية المؤتمر تعارف المسلمين بعضهم مع بعض وتوحيد كلمتهم.

ـــ النظـــر والسعي في ترقية شئون المسلمين الدينية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية .

ـــ توطيد الأمن في الحجاز وتوفير وسائل الراحة للحجاج وإزالة العقبات التي تعرقل أداء فريضة الحج .

ـــ يعقد المؤتمر في مكة كل عام في موسم الحج فان تعذر ذلك يكون في بلد إســـلامية مـــستقلة ، فان تعذر ذلك يرجع إلى قوله تعالى : " فاتقوا الله ما استطعتم " .

وافتـــتح المؤتمر الشيخ محمد عقلة بتلاوة من آيات الذكر الحكيم ، ثم قرأ الشيخ حافظ وهبة (المصري) مستشار الملك عبد العزيز خطاب الملك بالنيابة عنه ، فـــرحب الملك في خطابه بضيوف المملكة وشكرهم على حضورهم إلى المؤتمر الذي يعتبر الأول من نوعه في العالم الإسلامي ، وتمنى أن يكون بداية طيبة وان يتجدد كل

عـــام لنكون كما قال الله تعالى " وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان " وقوله تعالى : " وأتمروا بينكم بمعروف ".

وذكر انه في الماضي ، لم يكن أحد يعير أي اهتمام للرأي العام الإسلامي ، الذي يرجع إليه من أجل التشاور فيما يجب من الإصلاح وقد تولى أمر الحجاز من قـــبل من يلحدون في الحرم ، ويفسدون في الأرض ، ويظلمون السكان والحجاج ، بعد زوال حكم الدولة العثمانية ، في عهد الشريف حسين بن علي الذي شكا العالم الإسلامي كله من استبداده وظلمه ، إلى أن قمنا بتطهير البلاد المقدسة من استبداده وظلمه .

وكان مما وعدنا به وشرعنا في تنفيذه الدعوة إلى عقد مؤتمر إسلامي ، وبينا في خطاب الدعوة خطتنا في حكومة الحجاز فلم يجيـــبني على دعوتي الأولى أحد من المـــسلمين غير بعض جمعيات إخواننا المسلمين في الهند ، ولم أيأس فوجهت الدعوة للمرة الثانية إلى عقد هذا المؤتمر . وانتم تشاهدون اليوم أن الأمن العام في جميع بلاد الحجاز قد وصل إلى درجة الكمال .

ثم أشـــار إلى أن حكومته لا تقيدهم إلا بشيء واحد هو : عدم الخوض في السياسة الدولية وما بين بعض الشعوب الإسلامية وحكوماتها من خلاف فان هذا من المصالح الخاصة بتلك الشعوب .

وعـــندما فتح باب المناقشة في المؤتمر قال الشيخ الظواهري في المؤتمر : انه يـــشكر جلالـــة ابن سعود على الدعوة لهذا الاجتماع والأخذ بالشورى التي هي أســـاس من أسس الإسلام ، وأشار إلى موقف مصر التي تهتم بخدمة الحرمين في مجال كسوة الكعبة وإنشاء كثير من المرافق الاجتماعية والمستشفيات في الحجاز وإرسال الـــصدقات والمبرات وأنها الدولة الوحيدة التي يوجد في ميزانيتها الرسمية رقم خاص

باســـم التـــبرعات للحجاز ، وهذا غير مبرات وزارة الأوقاف المصرية التي تأتي من أوقاف الحرمين الشريفين في مصر ، من أجل إسعاد أهل الحجاز .

لذلك نحن نرحب بالاشتراك في تقرير ما يعود على الحجاز بالخير سواء كان مـــن طريق تحسين المواصلات أو الصحة أو نشر العلوم الدينية ، وإذا قلت العلوم الدينـــية فـــلا أعني مجرد الفقه والحديث بل أشمل نحو الحساب والهندسة والجغرافيا وغيرها من العلوم .

ثم اعتـــرض على وجود ممثلين للسودان مع أن مصر والسودان شيء واحد لا يتجـــزأ ومـــا الـــسودان إلا قطعـــة من مصر ، وطلب بوجود وفد واحد لمصر والسودان وضرورة تصحيح هذه المسألة ، فاستجابت إدارة المؤتمر لطلبه .

الحرية المذهبية :

ولمـــا دارت المناقـــشة حول هذا الموضوع ألقى الشيخ الأحمدي الظواهري كلمة ارتجالية قال فيها : " سأقول بصراحة وأرجو ألا يتألم أحد كم قال القائلون إن النجديين يكفرونكم في كذا وكذا ... وقد جئنا لنتبين الأمور ولنتصافى .

لقـــد كـــان من أمر أبي جعفر المنصور (الخليفة العباسي) انه أراد أن يحمل الـــناس على (كتاب الموطأ) للإمام مالك إمام المدينة المنورة ، فقال له الإمام مالك رضي الله عنه رافضاً هذه الفكرة : "هيهات هيهات". قد تفرق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأمصار وعند كل قوم علم ".

فانظروا إلى ما رآه الإمام مالك إذ لم تأخذه النعرة والأثرة والأنانية وطلب أن يكون الناس أحراراً في مذاهبهم .

لقد رأيت بعيني هنا أمراً آلم نفسي ، فقد كنت بالحرم أمر خلف المقام بعد الطـــواف فـــشاهدت جماعة يلتفون حول شخص مصري ويقولون له بعنف شديد

وقسوة : " هل أنت قلت: يا رسول الله ؟ " هنا خاف الشخص في نفسه وأنكر وانكمش وذعر إلى درجة أفاضت عيني ، وقد جاءني بعد ذلك ومعه كثيرون من المصريين يقولون لي : أرأيت كيف ينكرون علينا ، فهدأت روع من جاءني وقلت لهم : اطمئنوا ولا تفزعوا واصبروا حتى يتبين الحق إنما الهدى هدى الله "

هذا أيها السادة بعض ما يدعوني إلى إقرار هذا الاقتراح الذي أطلب الموافقة عليه ، أناشدكم الله ورسوله ، وإذا قلت: (ورسوله) فأرجو ألا يعترض علي معترض ، فان هذا اعتقادي الذي أدين الله عليه ، أناشدكم الله ورسوله أن تعملوا بالتسامح وسعة الصدر وعسانا نقضي على أسباب هذه الخلافات التي أضرت بالمسلمين ضرراً بليغاً .

وبعد الأخذ والرد قرر المؤتمر إنهاء الجلسة قبل الوصول إلى قرار نهائي .

وفي المساء انعقدت لجنة الاقتراحات وعرض فيها مشروع القرار الذي وضعه الشيخ الظواهري فقررت تقديمه إلى المؤتمر وهذا نصه :

"نظراً إلى أن الحجاز الشريف مركز ديني عام لأهل القبلة جميعا يفد عليه المسلمون من كل فج على اختلاف مذاهبهم الفقهية والكلامية ليعبدوا ربهم وليقضوا مناسكهم يقرر المؤتمر أن يمكنوا جميعا من أن يؤدوا عبادتهم ومناسكهم وفق مذاهبهم المذكورة ، وألا يمنع إلا مما يمس كرامة أحد من الأحياء أو الأموات أو يخالف الإجماع المعتبر عند علماء أصول الفقه ويقرر أن الحكم بأن ما يأتي به الحاج موافق للمذهب الذي ينتسب إليه أو غير موافق إنما يكون لعلماء ذلك المذهب لا لغيرهم " .

وعرض هذا الاقتراح على المؤتمر ودارت مناقشة بشأنه واتسعت جوانب الكلام من وفود الهند ومصر وسوريا فأقر المؤتمر أخيراً هذا الاقتراح .

القبور والآثار :

وقـــد تحدث أحد الهنود عن أن مسألة القبور والآثار لم تناقش فقال الشيخ الظواهري : اليوم آخر أيام المؤتمر ونريد أن ننصرف على سلام وصفاء ، فنرجو أن ينظر اقتراح إخواننا الهنود الخاص بالقبور والآثار .

فقـــال يوســـف ياســـين مندوب السعودية : إذا كنتم لا تريدون خلافاً وتودون أن ينتهي الأمر بسلام فأرجو ألا ينظر في هذا الاقتراح لأنه هو بنفسه يفتح باباً للشقاق والخلاف .

فرد الشيخ الظواهري :إننا نريد إزالة سوء التفاهم ، أما السكوت على ما نحـــن علـــيه فضار ونريد أن يصل الصفاء إلى قرارة القلوب والحق حق مشاع بين الجمـــيع ، ومن الحق ما هو مُرٌّ ويجب تلطيفه وانتم أدرى وأبصر بعواقب إغضاب القلوب ، فأطلب عرض الاقتراح وقراءته .

فتلا السكرتير الاقتراح وهذا نصه : "أرجو أن يقرر المؤتمر ما يلي :

١- أن يعاد بناء الآثار في أقرب وقت ممكن .

٢- أن القبور التي لم تهدم ينبغي حفظها وصيانتها .

٣- أن القـــبور الـــتي هـــدمت يُترك أمر إعادة بنائها إلى لجنة من علماء المـــذاهب الـــسنية والشيعية فهذه اللجنة تنظر في ذلك ويكون رأيها نهائـــياً . وعلى أثر ذلك وافق المؤتمر عليه بالإجماع ، فرد الشيخ عبد العزيز العتيقي المندوب الحكومي قائلاً : أريد التنبيه أننا لا نوافق على اتخـــاذ القـــبور أوثاناً وأن الذي جرى ما مس رفاة وإنما كان المساس بالأحجـــار ، فقـــال الشيخ الظواهري : معاذ الله أن يقول أحد أن

المسلمين اتخذوا القبور أوثاناً ، ونريد أن لا يتشدد قوم منا ويغالون فيما لا فائدة فيه .

وعلى كل فعلى الرغم من أن الجانب السعودي وافق مرغماً على بعض الجوانب التي قررها المؤتمر الخاصة بإطلاق الحرية المذهبية إلا انه لم ينفذها فيما بعد .

واقترح المؤتمر إنشاء سكة حديد بين مكة وجدة ، وبين ينبع والمدينة ، وبين المدينة ومكة ، وبعد أخذ ورد واعتراض من بعض الحجازيين قبل الاقتراح على أن تجمع أموال للمساهمة في إنشاء هذا المشروع من جميع المسلمين ، وأن يراعى جانب حقوق الجمالة الذين كانوا ينقلون الحجاج بجمالهم .

ومن الاقتراحات الغريبة أن وفد الحجاز طلب من المؤتمر رد منطقتي عمّان والعقبة إلى إقليم الحجاز ، فقد كانت قديماً من أملاك الحجاز ، وقد رفض المؤتمر النظر في هذا الاقتراح لأنه سياسي محض وخارج عن موضوعات المؤتمر .

وعرض الشيخ الظواهري أن ترسل حكومة الحجاز بعثات إلى مصر لتعلم الطب والهندسة والإدارة والبوليس ، ومصر ترحب بالطلاب الحجازيين الذين يفدون إليها فوافق الجميع على هذا الاقتراح .

ولما قام أحد المتزلفين الهنود باقتراح يطلب فيه اعتبار حاكم الحجاز له سيادة نوعية على العالم الإسلامي أجمع ، فانبرى له الشيخ الظواهري وقال : أيها الأخ ، لا جلالة ابن سعود يقرك على هذا ولا نحن نقرك ، وقام الأعضاء جميعاً دون أن يتم كلامه ، وأعلن إخوانه من الهنود أنهم برءاء مما قاله هذا الخطيب وأنه لم يعلمهم بما يقول .

زيارة المقابر والآثار:

وقام الأعضاء بزيارة المقابر والآثار الإسلامية ، فوجدوا أن محل مولد النبي صلى الله عليه وسلم قد هدم ، وأزيل كل أثر فيه ، وصار أرضاً بلقعاً ، ورأوا فيه بأعينهم الكلاب ترتع وتبول على تلك الأرض التي شرفها الله بان كانت أول أرض مسها جسم النبي صلى الله عليه وسلم .

كما رأوا أن اللوحات الحجرية الأثرية المكتوبة بالخط الكوفي القديم التي وضعت على القبور ليعرف بها أصحابها قد أزيلت من مواطنها وكسرت تكسيراً ، ورأى الأعضاء أيضاً أن البناء الذي كان على قبر السيدة خديجة أم المؤمنين قد أزيل كما أزيل غيره ، وهدمت القباب ولم تبق أي علامة تدل على انه قبر السيدة خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها .

بيان ابن سعود للمؤتمر:

لما وجد ابن سعود أن المؤتمرين اختلفوا في كثير من القضايا التي بحثوها ، ألقى عليهم حافظ وهبة بيانا نيابة عن ابن سعود جاء فيه :

لا أريد أن أتدخل في أعمالكم ولا أقيد حرية المؤتمر في البحث ، ولكن يظهر أننا نحاول القيام بكل شيء في أول مؤتمر إسلامي وأخشى أن حرصنا على القيام بكل شيء يجعلنا نفقد كل شيء وأفضل شيء التدرج فرب عجلة وهبت خطأ .

إني وان لم أحضر مجلسكم واقف على مباحثاتكم بالتفصيل ، يهمنا أن تنجحوا حتى تبرهنوا للعالم أن المسلمين أهل للحياة ، وان دينهم لا يحول دون رقيهم مهما اختلفوا في الآراء .

أيها الإخوان :

إنا لا نُكْرِه أحدا على اعتناق مذهب معين أو السير في طريق معين في الدين فذلك موكول أمره لعلماء الدين وحملة الشريعة ، ولكني لا أقبل بحال من الأحوال التظاهر بالبدع والخرافات التي لا يعتبرها الشرع وتأباها الفطرة السليمة ، لا يسأل أحـد عـن مذهـبه أو عقـيدته ، ولكن لا يصح أن يتظاهر أحد بما يخالف إجماع المسلمين أو يثير فتنة عمياء بين المسلمين .

وبهـذه المناسبة أقدم لكم خطتنا السياسية لهذه البلاد لترشدونا إن أخطأنا وتؤيدونا إن أصبنا .

١ـــ إننا لا نقبل أي تدخل أجنبي في هذه البلاد الطاهرة أيا كان نوعه.

٢ـــ إننا لا نقبل امتيازات لأحد دون أحد بل جميع الوافدين لهذه البلاد يجب أن يخضعوا للشريعة الإسلامية .

٣ـ إن البلاد الحجازية يجب أن يوضع لها نظام حيادي خاص لا تُحـارِب ولا تُحارَب ، ويجب أن يضمن هذا الحياد جميع الحكومات الإسلامية المستقلة .

٤ـــ النظـر في مـسائل الصدقات والمبرات التي ترد من سائر الأقطار الإسلامية ، ووجوب صرفها وانتفاع البلاد المقدسة منها .

فاعترض الشيخ الظواهري على قوله في البيان : انه لا يقبل التظاهر بالبدع والخرافات التي لا يعتبرها الشرع وتأباها الفطرة السليمة ، وقال: إن هذا قول حق إذا كان المراد به ما يقرره جميع علماء المذاهب الإسلامية أنه من البدع والخرافات ، أما ما يقول فريق من العلماء أنه منها ، ويقول فريق آخر أنه ليس منها فلا يمكن الموافقة على أنه ليس منها .

وقد قال جلالته انه لا يُسأل أحد عن مذهبه ولكن لا يصح أن يتظاهر أحد بمـــا يخالـــف إجماع المسلمين أو يثير فتنة عمياء وهذه الكلمة الأخيرة (أو يثير فتنة عمياء) واسعة النطاق غير محددة ، فقد يفهم قوم أن من التظاهر بما يثير فتنة عمياء التظاهـــر بمـــنع الناس من أمور جائزة في مذاهبهم وقد يفهم آخرون أن من ذلك ، التظاهـــر بفعل ما تبيحه المذاهب متى كان ممنوعا في مذهب آخر : ولا شك أن في تطبيق هذا المبدأ خطرا كبيرا قد ندرك مغزاه من الحادثة الآتية :

ســـأل سائل أمامنا الشيخ ابن بليهد كبير العلماء النجديين وقاضي القضاة عـــن ســـبب منع شرب الدخان فقال : "نحن لا نمنعه لأنه حرام ، ولا لأنه حلال ، فـــنحن نعلـــم أن فيه خلافا بين العلماء وإنما نمنعه لان النجديين إذا رأوا من يشربه ذبحوه .

فهل هذا الذي يعنيه جلالة ابن السعود بهذه الفقرة ؟ وهل يريد النجديون أن يحكّمـــوا البدو في كل من يفد على الحجاز ؟ وهل مثل هذا التصريح في مصلحة النجديين وفي مصلحة الحجاز نفسه ؟

وهل مع هذا يمكن أن يأمن الناس في حرم الله حيث يأمن الحيوان والنبات ، ويكون الحاج في خطر الذبح إن خالف مشيئة البدو ولو في شرب سيجارة ؟

ومن هم الأحق بالمقاومة والردع ، أولئك الذين يذبحون شارب الدخان أم أولئك الذين يفعلون ما تبيحه مذاهبهم الإسلامية مما لا يضر أي إنسان ؟

وقـــال جلالته : وخير لنا أن ننظر إلى مصالح المسلمين ونترك هذه الأمـــور الجزئية للعلماء ، وقد كنا نود أن يراعى هذا المبدأ من أول الأمر فلا تهدم المآثر وغيرها حتى يرى علماء المذاهب الإسلامية رأيهم فيها .

ولقـــد بين جلالته خطته السياسية وطلب الإرشاد إن كان ثمة خطأ وذلك أمـــر يشكر عليه كل الشكر ولو أتيح لنا نفحص هذه الخطة ونبين نتيجة الفحص لبيناها كالآتي :

قال في البند الأول : إننا لا نقبل أي تدخل أجنبي في هذه البلاد الطاهرة أيا كان نوعه .

فكلمـــة (الأجنبي) هذه مجملة فإذا كان المراد بها من لا يدين بالإسلام ، فـــذلك ما يؤيده فيه كل العالم الإسلامي ، إلا أن تطبيق ذلك مع الجميع بين سلطنة نجـــد ومملكة الحجاز يحتاج إلى دراسة المعاهدات التي عقدها نجد مع الدول الأجنبية خـــشية أن يكون فيها ما يحمل إقرارا بوجه من وجوه التدخل الذي نهى عنه في هذا البند .فمثلا إذا فرض أن لدولة أجنبية حق التدخل في تعيين سلطان نجد من بين آل ســـعود كـــان معنى ذلك أن لهذه الدولة حق التدخل في تعيين ملك الحجاز ما دام سلطان نجد هو ملك الحجاز .

وإذا كـــان المـــراد بالأجنبي من ليس من أهل الحجاز وان كان مسلما فلا نـــدري كـــيف يمكن إقرار ذلك والحجاز لجميع المسلمين ، ولا ندري كيف ساغ حينئذ تدخل نجد في الحجاز باسم الدين .

وقال في البند الثاني : إننا لا نقبل امتيازا لأحد دون أحد بل جميع الوافدين لهذه البلاد يجب أن يخضعوا للشريعة الإسلامية .

فـــإذا كـــان معـــنى ذلك منع ما يسمى في العرف السياسي بالإمتيازات الأجنبـــية فذلك ما نوافقه عليه ، ولكنا في الوقت نفسه نتساءل عما يعنيه بالشريعة الإســـلامية الـــتي يجـــب أن يخضع لها كل من يدخل الحجاز ، فإذا كان المراد هو الشريعة في مذهب النجديين ، فهناك الخطر الشديد على قاصدي الحجاز وقاطنيه ،

فـإن مما تجيزه المذاهب الإسلامية ما يعده النجديون شركا أو دون الشرك بقليل ، ومعـنى هذه أن يكون عمل المسلم بمذهبه مما يعرضه لعقوبة الإعدام أو الضرب أو غـير ذلك من وجوه التعذير الشرعي . أما إذا كان المراد الخضوع للشريعة بأوسع معانيها فذلك ما نؤيده فيه كل التأييد ولكن ذلك يقتضي :

أولا : سن قانون شرعي يوافق عليه المسلمون على اختلاف مذاهبهم .

ثانـيا : إقامـة قضاة يثق بهم العالم الإسلامي وإلا لم يكن هناك أي ضمان لـلأرواح والأموال خصوصا بعد ما شاع أن النجديين استحلوا دماء أهل الطائف وأموالهم من أجل مذاهبهم في بعض الأمور الدينية .

وقال في البند الثالث : إن بلاد الحجاز يجب أن يوضع لها نظام حيادي خاص ويجب أن يضمن هذا الحياد جميع الحكومات الإسلامية المستقلة .

وهـذا الإقتراح إنما يفهم إذا كان على وجه يشمل مسألة الحجاز كلها ، يـستوي في ذلـك الحـاكم وطريقة الحكم فهو على هذا التقرير يمكن قبوله على الطريقة الآتية :

أولا : أن يكون انتخاب الحاكم بواسطة الحكومات الإسلامية المستقلة إلى مدة معينة .

ثانياً : أن يدخل في هذا الضمان كل الحكومات المجاورة للحجاز .

ثالـثاً : إذا وقـع خـلاف بين الحجاز وأحد مجاوريه كان حله بواسطة الحكومات الضامنة .

رابعـاً : لا ينـتخب لحكـم الحجـاز أحد من آل الإمارة أو الملك في الحكومات المجاورة حتى لا توجد سبيل إلى المطامع .

وهـــناك طـــريقة أخـــرى وهـــي أن ينعقد مؤتمر من الحكومات الإسلامية المـــستقلة فيـــضع نظامـــاً وافياً لطريقة الحكم ثم ينتدب هذا المؤتمر واحدة من هذه الدول لتنفيذه على أن تكون مسئولة أمام هذا المؤتمر تقدم تقريرها إليه في كل عام وعلى أن يراعى في وضع النظام رغبات الشعوب الإسلامية ، وان يكون الانتداب لمـــدة معيـــنة ولا مانع من تحديده لنفس تلك الدولة ، ولا مانع من أن تكون هذه الدولة نجد إذا رأى المؤتمر ذلك .

وهـــذا هو الذي ينبغي أن يكون أساس المؤتمر الحجازي السنوي ، ويكون المؤتمر الثاني مهمته تنفيذ رغبات الشعوب ووضعها في القالب الدولي الحكومي .

أمـــا إذا كانـــت مسألة الحاكم لا دخل للدول الضامنة فيها وان معنى هذا البـــند أن عليهم أن يعترفوا بحكومة جلالة ابن سعود في الحجاز وان يضمنوا له هذا الملك فتلك مسألة تحتاج إلى إمعان النظر قبل إقرار هذا الاقتراح .

وفـــيما يتعلق ببند الصدقات والمبرات التي ترد من سائر الأقطار الإسلامية الـــتي جعلها جلالته ركناً من أركان الخطة السياسية ، فان الصدقات والمبرات التي يرغب صاحبها في توزيعها على وجه خاص بنفسه أو بنائبه لا سبيل إلى إقرار تدخل الحكومة فيها بل أمرها موكول إلى محض إرادة المتصدق ، لذلك لم نفهم معنى لذكر هـــذا البـــند كركن من أركان الخطة السياسية ، ونحن نرى أن ذكره قد يغل بعض أيدي المتصدقين الذين لا يريدون أن يتحكم أحد في صدقاقم .

الملك يسحب بيانه :

ولما كان رد الشيخ الظواهري جمع وجوه الاحتمالات وأبدى رأيه فيها بل وتعرض أيضاً لنظام الحكم في الحجاز وعدم أحقية ابن سعود فيه ، إذا كان يريد أن يأخذ نفسه أيضاً بما يطلبه من غيره .

وقـــد عـــرف جميع من في المؤتمر ردود الشيخ الظواهري على بيان الملك وأقروها ووافقوا جميعاً على ما جاء فيها إلا أن وفد نجد كان ساخطاً وناقماً عليها ، فهـــي في نظـــرهم مذكرة جريئة من شأنها لو أقرها المؤتمر أن تقوض السياسة التي ارتآها وأعلنها عبد العزيز ليحكم الحجاز بمقتضاها .

فـــإذا كان عبد العزيز يريد حقاً من أعضاء المؤتمر أن يرشدوه في شان هذه الـــسياسة ويبينوا له أوجه الخطأ منها ، فعليه أن يقبل هذه التوجيهات التي شرحها الشيخ الظواهري رداً على بيان الملك ، فتصدوا لفكرة عرض المذكرة على المؤتمر ، وتقدموا للشيخ الظواهري بالرجاء ألا يتقدم بها ثم وسطوا عنده الشيخ رشيد رضا فانضم إليهم في الرجاء ، ولكن الشيخ الظواهري اقترح عليهم اقتراحاً آخر هو أن يـــسحب الملـــك بـــيانه وعندئذ لا يكون هناك مجال للرد عليه فحصل ذلك فعلاً وسحب الملك بيانه من المؤتمر .

والواقـــع أن هذا الموقف من الملك عبد العزيز كان سياسة ناجحة من أجل إنجـــاح المؤتمر ، لأنه لو لم يسحب بيانه فان المؤتمر كان سيفشل وينفض كما فشل مؤتمـــر الخلافة بالقاهرة والذي عقد في نفس العام ١٩٢٦م قبل هذا المؤتمر بقليل ، وكان هذا من حسن التصرف واتساع الحيلة ، والملك بذلك يعرف متى يكر ومتى يفر ، وهذا من حسن السياسة أيضاً .

وقـــد استجاب ذكاء عبد العزيز الفطري لنداء العقل ولقد أشعرته روحه القـــوية أن هـــؤلاء المسلمين سكان مصر والعراق والهند وسوريا وفلسطين وتركيا وروســـيا ويوغوســـلافيا التي يدين بعض أهلها أو كلهم بالإسلام ، لابد أن يكون إسلامهم صحيحاً ولابد أن قباب مساجدهم الفخمة ومآذنهم الشامخة وفخامة البناء

في قبورهم لم تؤثر في هذا الإسلام ولم تقوض من أركانه عندهم ، بل هي على العكس تزيد في بهائه ورونقه وتشعر بعظمته وقوته .

ولابد أن تكون هذه المخترعات الأوروبية الحديثة من نور الكهرباء وآلة التليفون والراديو والطائرات والسكة الحديد والسيارات الحديثة وما شابهها كل ذلك من المحدثات ليس من عمل الشيطان بل من عمل الله أوحى به لعبده ابن آدم فعلمه إياها كما علم آدم الأسماء كلها .

نتائج المؤتمر :

اختلفت الآراء بالنسبة للنتيجة التي أسفر عنها المؤتمر ، فمن قائل بان المؤتمر فشل ، ونتيجة لهذا الفشل فكر ابن سعود جدياً في إبعاد الاجتماعات السياسية عن الأماكن الدينية ، فيقول المؤرخ الألماني باول شمتز في كتابه "الإسلام قوة الغد العالمية" : "فمنذ انعقاد مؤتمر مكة الذي دعا إليه ابن سعود لمناقشة مسألة الخلافة فكر (ابن سعود) بعد أن فشل المؤتمر وخيب آماله جدياً أن يبعد الاجتماعات السياسية عن الأماكن الدينية – أي عن مكة – لأنها غالباً ما تطرق المسالك الوعرة ، وتضفي على الناحية الدينية ضباباً ، يحجب صفاء العلاقة الأخوية بين الحكومات الإسلامية ، وبهذا بعدت مكة وتغير طابعها كمنبع تخرج منه أيضاً التيارات السياسية " .

ثم قال مستطرداً :

"لم يمنع هذا الإجراء الذي اتخذه ابن سعود بإبعاد المؤتمرات السياسية عن مكة – حدوث اللقاءات السياسية بين قادة الشعوب الإسلامية في حرم هذه المدينة ، بل زاد الشعور بضرورة اللقاءات الفردية بين زعماء المسلمين وشهدت دروب مكة ووديانها – مراراً وتكراراً معالم التفاهم والتقارب بين أتباع الإسلام من

جميع أنحاء العالم ، ومن هذه اللقاءات نمى على أرض مكة – أثناء موسم الحج – شعور بضرورة إقامة ترابط إسلامي بدينهم يثبت وجوده بالعمل الجماعي على مسرح السياسة والتآزر ، والتكاتف في المسائل الدولية حتى يستطيع العالم الإسلامي أن ينتزع لنفسه مركز القوة ".

ويرجع الفضل في أن مكة تلعب هذا الدور اليوم إلى ذلك الرجل الذي يشار إليه أكثر من مرة إلى انه أعاد الأمن للحرم وما حوله وشدد الحراسة على الأماكن المقدسة والطرق المؤدية إليها ، فخلق لكل المسلمين الجو للقاء آمن إلى أقصى ما يتصوره الإنسان من متطلبات الأمن على النفس والمال".

ويقول حافظ وهبة (المصري) وهو من مستشاري الملك عبد العزيز المقربين: " إن السبب الرئيسي في عدم نجاح المؤتمر هو عدم التجانس بين أعضاء المؤتمر ، وبينهم وبين النجديين من جهة أخرى ، فما يعده النجديون أساساً للعمل ، ويتعصبون له لا يشاركهم فيه بعض الشعوب الإسلامية الأخرى ، وما يعتقده الهنود من وسائل الإصلاح لا يشاركهم فيه الجاويون والهنود من أهل الحديث .

إن النجديين يرون أن التوحيد هو الدواء الوحيد لما أصاب العالم الإسلامي من الأمراض ، لقد كانت مكة والمدينة مهبط الوحي ومصدر التشريع فيجب أن نبدأ فيها بهدم القبور وتسويتها ، وهدم القباب والمساجد المقامة على القبور ، وهدم كل مكان يشتم منه رائحة الإخلال بالتوحيد ، كما يجب إبطال جميع البدع من الحجاز ".

ويقول حافظ وهبة أيضا : " وقد انتهى المؤتمر الإسلامي الأول بقرارات ورغبات وتمنيات كان نصيبها الإهمال من العالم الإسلامي ، وحكومة الحجاز لا

تـــستطيع أن تقـــوم بما طلب منها ، فليس لديها من المال ما تستطيع به تنفيذ جميع رغبات العالم الإسلامي .

ولكـــني أرى أن المؤتمـــر نجـــح في الحد من تطرف الوهابيين ، وإعلامهم بوجهات النظر للمذاهب الأخرى المغايرة لوجهة نظرهم المتطرفة ، وإعلامهم أيضا بأنـــه يجب عليهم أن يتركوا حجاج بيت الله الحرام وقاصديه يؤدون مناسكهم كل حسب مذهبه ، ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين .

وكـــان لموقـــف الملك عبد العزيز المرن دور كبير في نجاح المؤتمر لأنه كان سياســـيا من الدرجة الأولى ، لدرجة انه لم يتعصب لوجهة نظره عندما طلب منه أن يـــسحب بـــيانه الذي أثار الاعتراضات الكثيرة من أعضاء المؤتمر . وبذلك ضمن استمرار المؤتمر ورأى أن اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية .

وكـــان هـــذا الموقف المصري في المؤتمر ، والذي حظي بالتأييد من غالبية الوفـــود ، مما جعل مشايخ الوهابية يتراجعون ويتركون الحجاج من كل المذاهب الإسلامية يؤدون مناسك الحج بسلام دون تدخل منهم .

ولمـــا عـــاد الوفد المصري إلى القاهرة قدم الشيخ الظواهري تقريره لوزير الخارجية المصري ، لان مهمة هذا الوفد كانت مهمة رسمية في دولة أجنبية ، وعندما انتهـــى عبد الخالق ثروت باشا وزير الخارجية من قراءة التقرير ، أثنى على موقف الـــشيخ الظواهري القوي في المؤتمر ومناقشته للوهابيين بالحكمة والموعظة الحسنة وقـــال له : " إني لم أكن أعرف من قبل أن الأزهر يخرج سفراء سياسة كما يخرج علماء دين ، ولكن علمت الآن أن الأزهر قادر على هذا "

ولمـــا استقر حكم الملك عبد العزيز بعد ذلك في مملكته بعد الإطاحة بحركة الإخـــوان المتشددين ، عمل على الاستعانة بعلماء الأزهر لتطعيم الفكر الوهابي في

شـــتى المؤســـسات التعليمية السعودية لكبح جماح التطرف ، وقد كنت من بين من عملـــوا في الـــسعودية في ثـــلاث جامعات هي جامعة الملك عبد العزيز فرع مكة المكـــرمة في الفتـــرة مـــن ١٩٧٧ م حتى ١٩٨٠م وجامعة أم القرى في الفترة من ١٩٨٠حتى ١٩٨٢م ، وفي الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة في الفترة من ١٩٨٦ حتى ١٩٩١م ، وهذه الجامعة الأخيرة لأبناء العالم الإسلامي من شتى بقاع الأرض ، فكـــان هذا خيرا وبركة للحجاز وقاصديه من الحجاج والمعتمرين بوجه خاص ، ولأبناء العالم الإسلامي بوجه عام .

ولا بـــد مـــن الاعتراف بان الأمن استتب في الحجاز بفضل شدة الملك عـــبد العزيـــز وضربه بشدة على أيدي اللصوص الذين كانوا يقطعون طرق قوافل الحجـــاج وينهـــبون متاعهم ويقتلوهم في كثير من الأحيان ، ولذلك كان الحجاج المـــصريون قـــبل العهد السعودي يأخذون معهم أكفاهم ويخرجون من بيوهم على ظهورهم على أساس الهم ربما لا يعودون إلى ديارهم وأهلهم مرة أخرى .

فكرة إقامة الجامعة العربية
بتوجيه بريطاني عقب الحرب العالمية الأولى سنة ١٩٢١
في ضوء وثيقة لم تنشر

الظروف الدولية:

في ٢٤ من نوفمبر سنة ١٩١٧م أي بعد انقضاء ستة أسابيع بقليل على وقوع الانقلاب الشيوعي الذي جاء بالشيوعية في روسيا إلى الحكم ، وجهت الحكومة السوفيتية الجديدة نداءها الرسمي الأول : إلى كل المسلمين العاملين الذي أزاح اللثام عن الخطوط السياسية العريضة في موقف البلشفيين تجاه الشرق جاء فيه ما يلي :

" لقد سقطت مماليك المغتصبين والقراصنة الرأسمالية وان الأرض تغلى تحت أقدام المعتدين الاستعماريين ، يا مسلي روسيا يا من خربت مساجدكم وهدمت بيوت عبادتكم نعلن لكم أن عقائدكم الدينية وشعائركم ومنشآتكم الحضارية والقومية ستصبح ابتداء من اليوم مصونة لن تمتد إليها يد آثمة ، أقيموا حياتكم القومية في جو الحرية دون أن يعوقها عائق فلكم الحق في ذلك "

وفي بيان آخر لاحق لهذا التاريخ قال لينين موجها بيانه إلى مسلمي العالم .

" يا مسلمي الشرق يا مسلمي إيران وتركيا وبلاد العرب والهند يا من مارس المغتصبون الاستعماريون القادمون من أوربا التجارة قرونا بأرواحكم وأموالكم وحرياتكم وأوطانكم ، يا من قسم دياركم هؤلاء النهاب الذين أشعلوا الحرب العالمية ، نعلن لكم:

– إن معاهـــدات القيـــصر المخلوع السرية التي نص فيها على السماح له بغـــزو القـــسطنطينية بالقـــوة قد مزقت ومحيت من الوجود ، فالجمهورية الروسية وحكومتها ترفض الغزو المسلح لأراضى دولة أجنبية .

– إن معاهدة تقسيم إيران قد مزقت و أزيلت من الوجود، فبعد أن تنتهي العملـــيات الحـــربية ستسحب القوات الروسية مباشرة من إيران وستكفل الحرية للشعب الإيراني ليقرر مصيره السياسي عن طريق استفتاء شعبي حر.

– إن معاهـــدة تقسيم تركيا واغتصاب أرمينية قد مزقت ومحيت من الوجود وبعـــد أن تنتهـــي العمليات الحربية ستكفل الحرية أيضا لشعب أرمينية ليقرر مصيره السياسي عن طريق استفتاء شعبي حر"

واتـــضح مـــن النداء الشيوعي إلى العالم الإسلامي أن الروس أرادوا به عقد تحالف بينهم وبين المسلمين لمقاومة الاستعمار الرأسمالي وكان رد الفعل طيبا حيث تجاوبت أصـــداء البـــيان الـــروس في العالم الإسلامي وأحدث رجع الصوت دويا في أرجاء المـــنطقة فتـــزايدت الأصوات في تركيا وفارس وغيرهما التي هللت للبيان السوفيتي ووصفة البعض بأنه وثيقة الحرية الكبرى لو تحقق ما جاء فيه.

وهكذا بدا أن المبادئ الأساسية لعمل مشترك بين روسيا الحرة ، وبين العالم الإســـلامي الذين يئنون تحت وطأة المغتصبين الأجانب ويشربون كأس عبودية الاســـتعمار الغربي قد وضحت وأن الظروف أصبحت ملائمة لتوحيد الجهود ضد الاستعمار .

واستمر الروس في جذبهم للعالم الإسلامي فكونت موسكو (لجنة إسلامية) آي مجلـــس أعلى للشئون الإسلامية في يناير ١٩١٨م ودعت هذه اللجنة إلى

عقـــد مؤتمر إسلامي في ديسمبر ١٩١٨ وتكونت في هذا المؤتمر "رابطة تحرير الشرق "(٢) .

وفي غـــضون ذلـــك راقـــب الغـــرب بحقد ما حققته الثورة الروسية من انتـــصارات عقـــب بيانها إلى العالم الإسلامي وتجاوبت أصداء ثورتهم في العالم الإســـلامي للـــتخلص مـــن الاستعمار الغربي ففكر الأمريكان في وضع خطة لسحب البساط من تحت أقدام الروس.

إعلان حق تقرير المصير :

فأعلن الرئيس الأمريكي ولسون (في أكتوبر ١٩١٨) مبادئه الأربعة عشر التي تتعلق بحق تقرير المصير لكل الشعوب قاطبة دون تفرقة . وأعلن نهاية عهد التوســـع وبدايـــة عهد يمكن لكل أمة أن تحصل فيه على آمالها وأمانيها القومية علـــى أسس من العدل والمساواة بين الأجناس وقرر نهاية استعباد الدول القوية للشعوب الضعيفة (٣) .

وقـــد أخلـــف ولسن وعوده وعهوده للشعوب الإسلامية وكما هي عادة الغـــرب حـــتى يومنا هذا ، فقد طبق حق تقرير المصير في أوربا على المسيحيين فقـــط ، بالنسبة للدول التي كانت تخضع للدولة العثمانية في شرق أوربا ، ولم يطبق في العالم الإسلامي والعربي ، وطبق بدلا منه مبدأ توزيع أسلاب الحرب ، وأعطى الأمريكيون والأوربيون للعرب وعودا كاذبة .

---

(٢) باول شيمتز ، الإسلام قوة الغد العالمية ،ص ٢٤٢-٢٤٤ .

(٣) جلال يحي ، العالم العربي ، الجزء الثاني ، ص٥٣٥-٥٣٦

وانظر أيضا : عبد الرحمن الرافعي ، ثورة ١٩١٩الجزء الأول ص ٥٧-٥٩

واستمرت روسيا في خططها في مغازلة العالم الإسلامي ، فدعت الحكومة الـــشيوعية إلى عقد مؤتمر عالمي لشعوب الشرق في" باكو " عاصمة أذربيجان ، ووجهـــت الدعوة إلى أكثر من ٢٥٠٠عضو من كل بلاد العالم الإسلامي ولبى الدعـــوة أكثـــر من ١٨٠٠عضو ، على الرغم من محاربة الدول الاستعمارية لفكرة المؤتمر ، ومنع المدعوين والقبض عليهم في الهند ، ووضع قنابل في سفينة الوفد الفارسي إلى المؤتمر، ورفض إعطائهم تأشيرات خروج لأن الاستعمار يده من حديد في بلدان العالم الإسلامي.

وفشل المؤتمر لمحاولة الشيوعيين المقارنة بين الإسلام والشيوعية تلك المقارنة التي رفضتها الوفود الإسلامية في المؤتمر رفضا باتا ، واتضح لدى السوفييت أن مـــا يـــبحث عـــنه الوطنيون المسلمون لدى روسيا هو السلاح والمساعدات العـــسكرية والموقـــف الدبلوماســـي ضـــد القوى الغربية ،و أظهرت موسكو اســـتعدادها لـــتقديم هذا كله لأن نضال الشعوب الإسلامية ثوري في رأيها ويمكن أن يمزق أوصال الاستعمار الغربي الذي هو العدو الرئيسي لموسكو [٤] .

كان هذا هو النشاط السياسي للدول الكبرى في أواخر الحرب العالمية الأولى ، وبـــدأت إنجلترا تحاول تفتيت العالم الإسلامي وهى بصدد إهالة التراب على الخلافة الإسلامية في تركيا بعد قضائها على الدولة العثمانية .

وثيقة سرية بإنشاء الجامعة العربية:

وبـــدأت فكـــرة إنشاء الجامعة العربية بتوجيه بريطاني عقب الحرب العالمية الأولى في سنة ١٩٢١م وذلك بزعامة مصرية ، وتحت يدنا وثيقة تؤكد ذلك لم تنـــشر مـــن قـــبل ، وهى عبارة عن مذكرة معدة في وزارة الخارجية البريطانية

---

[٤] باول شيمتز، مرجع سبق ذكرة ، ص ٢٤٦-٢٤٧

ومقدمـــة إلى وزارة الخارجـــية المـــصرية تقترح إقامة جامعة عربية تحت رعاية بـــريطانيا مـــن وراء الـــستار ، وتكون مصر هي الظاهرة في الصورة ، ودون الدخول في تفاصيل ينبغي التنويه بادئ ذي بدء بما يلي :

أولا: أننا بصدد وثيقة تاريخية طالما سمعنا بها ولكن ليس لدينا نصها.

ثانيا: تتحدث الوثيقة بصراحة واضحة عن مبادرة إنجليزية لإقامة جامعة عربية بـــزعامة مـــصر وتحـــت رقابة بريطانيا منذ عام ١٩٢١م أي أن فكرة الجامعة العـــربية ولـــيدة الحـــرب العالمية الأولى لا الحرب العالمية الثانية ولذلك تقلب الحقائـــق المسجلة في التاريخ رأسا على عقب حيث أن المعروف تاريخيا من قبل أن الجامعة العربية وليدة الحرب العالمية الثانية.

ثالـــثا: ينبغـــي أن نعطى للوثيقة مكانها اللائق بها كمصدر من مصادر الدرجة الأولى لا يـــنازعه مـــنازع وينبغي ألا نهون من شان الوثيقة كما حدث عندما عرضتها في الجمعية التاريخية سنة ١٩٧٥م واعترض عليها البعض قبل أن يراها وحاولـــت في الـــسنة نفسها أن ألقى حولها بحثا في الجمعية لكن لم يسمحوا لي بذلك .

رابعـــا: هذه الوثيقة مهمة بعد تراجع القومية ودخول الإسلام مرة أخرى إلى ساحة المقاومة بشعار" الإسلام هو الحل " مما يدل على أن الغرب مهما حاول بشتى وســـائله الذكية تتويه الشرق الإسلامي وتدويخه وإنشائه أصلة فانه سريعا ما يعود إليه أقوى مما كان وذلك راجع للقوة الكامنة في الإسلام كدين وأسلوب حضارة .

وتتكون الوثيقة من:

أولا: ديـــباجة تـــشرح الوضـــع في شعوب الشرق العربي بعد الحرب الأولى وانتـــشار مـــبادئ الحق والعدل فيها والرغبة في إعلان أمانيها القومية غير ان العجز يقعدها عن أن تحكم نفسها بنفسها .

ثانيا: تتحدث الوثيقة عن أن الأفكار في الغرب مشغولة بإحداث تعديل أساسي في قـــواعد الـــسياسة الاستعمارية وعلى الأقل في البلاد العربية تكون بالرقابة عليها بدلا من حكمها مباشرة .

ثالثا: تتحدث الوثيقة عن أصول المشروع ومبرراته وفوائده .

رابعا: تذكر الوثيقة ملخص المشروع في النهاية

خامـــسا: تتنبأ الوثيقة بخلع الشريف حسين من الحجاز ووضع حاكم مدني أخر مكانـــه ، ولا تستبعد أن يكون الحاكم أميرا مصريا لما لمصر من هيبة في الحجاز وفصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية .

سادسا: تقترح الوثيقة أن يقوم بالمشروع شخصية لها خبرة بالشئون العربية .

سابعا: الوثيقة مهمة بعد تراجع القومية العربية ودخول الإسلام مرة أخرى إلى ساحة المقاومة بشعار "الإسلام هو الحل" .

ملاحظة :

يلاحـــظ أن فكـــرة الجامعة العربية كان قد بشر بها من قبل في لبنان على نطاق مدارس الإرساليات،والجامعة الأمريكية سنة ١٨٦٥م وهي جامعة بروتستانتية ، والجامعـــة اليسوعية الكاثوليكية التي أنشئت بعد الجامعة الأمريكية بقليل ، وهي جامعـــة فرنـــسية ، وكـــان هدف هذه الإرساليات بث العلمانية والأفكار القومية العربية المعزولة عن الدين ، والتي من أهدافها ، تصفية القومية الإسلامية ، المقلقة للدول الاستعمارية .

مشاريع الوحدة العربية بين الحربين :

لم تـــتمكن بـــريطانيا من إقامة الجامعة العربية بعد إسقاط الخلافة مباشرة ، وذلك بسبب تعلق العرب والمسلمين بالخلافة الإسلامية ، وظلت مشاريع الوحدة العـــربية والجامعة العربية التي نصحت بها بريطانيا معلقة ، وكان هناك عدة مشاريع للـــوحدة العـــربية قدمت من جهات مختلفة ، وكان في مقدمة مشاريع الوحدة التي تقـــدم بها العرب لبريطانيا مشروعان هاشميان تقدم بهما الحكام الهاشميون في كل من بغداد وعمان .

فـــالأول : مشروع الهلال الخصيب والذي تقدم به (نوري السعيد) رئيس وزراء العـــراق .والثاني : مشروع سوريا الكبرى ، وتقدم به الأمير عبد الله بن الشريف حسين أمير شرق الأردن .

أما المشروع الأول وهو الهلال الخصيب :

وهـــو مـــشروع عراقي وضعه (نوري السعيد) رئيس الوزراء العراقي في أكتوبـــر ١٩٤٣م يطلب فيه توحيد سوريا ولبنان وشرق الأردن والعراق في دولة واحـــدة وعـــودة فلسطين إلى سوريا التاريخية ونشر هذا المشروع في كتاب أزرق عراقي سنة ١٩٤٣م وقدمه لبريطانيا ، وذكر إن المشروع سيؤدى إلى منافع متبادلة بـــين بـــريطانيا والعرب ، وذكر بريطانيا بوعودها للعرب بالاستقلال منذ الحرب الأولى ، وخوفها من خطورة تفتيت العرب في دويلات صغيرة ، وان فكرة الوحدة بـــين هذه الأقاليم ستسمح لهم بتقديم الخدمات الدفاعية للحلفاء . وحاول نوري الـــسعيد إبعـــاد مصر والسعودية عن مشروعه في المرحلة الأولى منه ، وبعد نجاح الـــوحدة بـــين العراق وسوريا التاريخية يمكن انضمام دول أخرى له واقترح نوري

السعيد منح اليهود في فلسطين نظام حكم شبه ذاتي ، ويكون لهم الحق في إدارة أقاليمهم في المدن والريف ويمكن منح لبنان نظاما خاصا إذا اقتضى الأمر .

وأرسل نوري السعيد نسخا من هذا المشروع إلى زعماء العرب ثم نشر في (كتاب أزرق) عراقي صدر في بغداد سنة ١٩٤٣م . ولكن بريطانيا نظرت إلى المشروع بعدم استحسان ولذلك رفضت المشروع على لسان " إيدن " وزير خارجيتها . ورفضته مصر والسعودية وسوريا أما فرنسا فقد خوفت لبنان من هذه الوحدة وحاولت ضرب الزعامات العربية ببعضها (٥) .

والمشروع الثاني :

هو مشروع سوريا الكبرى فقد انتهز أمير شرقي الأردن عبد الله بن الحسين ، عملية رفض مشروع الهلال الخصيب وتقدم بمشروع آخر سنة ١٩٤٣م مماثل لمشروع بغداد وان كان يهدف إلى سوريا كخطوة أولى يصل منها إلى كل الهلال الخصيب .

وتقدم الأمير عبد الله بمذكرة إلى الحكومة البريطانية استند فيها بمطالبة الأحرار في سوريا والأردن بوحدة سوريا والأردن ولبنان وفلسطين في دولة واحدة يتولاها الأمير عبد الله ، ونص على منح كل من فلسطين ولبنان إدارة خاصة لحفظ حقوق الأقلية اليهودية وإلغاء وعد بلفور ، كما اشتمل على ضرورة تكوين اتحاد عربي تعاهدي أو فيدرالي يتشكل من كل من سوريا والعراق في المستقبل ويترك الباب مفتوحا لدخول أي دولة عربية أخرى ترغب في الانضمام إلى المشروع فيما بعد (٦) .

---

(٥) د . جلال يحيى ، العالم العربي الحديث ، ج٣ ، ص٦٥-٨٠ .

(٦) المرجع السابق ، ج٣ ، ص٨٠-٨٥ .

ولقــد نــشر هذا المشروع بعد ذلك في (كتاب أبيض) أردني في عمان ، وأخيرا فشل هذا المشروع الهاشمي كسابقه بسبب موقف فرنسا منه ومعارضة مصر والــسعودية للمشاريع الهاشمية ورفض السوريون الجمهوريون حكما ملكيا عليهم كالأمير عبد الله بن الحسين الذي يحتاج إلى بريطانيا في تدعيم ميزانية بلاده ، ويضع قوات فيلقه العربي في خدمة الإنجليز .

وكــان فشل المشاريع الوحدوية الهاشمية مقدمة لمشروع الجامعة العربية التي قادتــه مــصر بقيادة (مصطفي النحاس) رئيس وزراء مصر ، الذي دعا الحكومات العــربية للتشاور حول إنشاء الجامعة العربية بالإسكندرية وجعل المشاورات خاصة بالدول المستقلة وبذلك استبعد فلسطين وعرب المغرب للوصول إلى قرارات سليمة يمكن تنفيذها دون تدخل الدول الكبرى ذات المصالح والنفوذ في هذه الأقاليم .

الموقف العربي بعد الحرب الثانية :

أمــا عــن موقف العرب بعد الحرب الثانية ، فكانوا قد حاولوا تكويــن الجامعــة العربية في نهاية الحرب وتنادى ملوك العرب ورؤساؤهم إلى عقد مؤتمر قمــة عــربي يعقد في (انشاص) بمصر لبحث القضية الفلسطينية في ٢٨ من مايو ١٩٤٦م .

وقد حضر هذا المؤتمر وفود من مصر والأردن والسعودية واليمن والعراق وقــد أصــدر المؤتمر بيانا أكد فيه أن قضية فلسطين قضية عربية عامة ، وانه يتحتم على الدول العربية وشعوبها صيانة عروبتها ، ورفضوا الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وقرروا تأليف هيئة تمثل الفلسطينيين وترفع صوتهم عاليا.

وبعد ذلك بشهر عقدت الجامعة العربية مؤتمرا في (بلودان) بسوريا ، وقرر هذا المؤتمر تخصيص مليون جنيه لهيئة فلسطين العربية سنويا لإنقاذ أراضى فلسطين ،

ولكـــن هـــذا المبلغ لم يكن يفي بشيء أمام الإمكانيات اليهودية المدعومة من أوربا وأمريكا ويهود العالم .

وصـــفوة القـــول أن الموقـــف العـــربي كـــان يتمسك بالنواحي القانونية والاجتماعات السياسية لإثبات حق العرب في فلسطين بينما اليهود يهيئون المسرح في فلســـطين مـــن الناحـــية العملـــية للاستيلاء عليها بالقوة عن طريق العصابات الصهيونية في فلسطين .

تحنط الجامعة العربية :

كـــان مصير الجامعة العربية التي تم إنشاؤها في أعقاب الحرب العالمية الثانية بإشـــارة من بريطانيا كان مصيرها التحنط والتشرذم فقد نشأت مكتوفة الأيدي لا تتحرك ضد أي قضية لان حق التصويت فيها أعطى لأقل دولة عربية مثل البحرين أو الإمارات أو قطر حق الاعتراض أي حق الفيتو على قرارات الجامعة إذا رفضت هـــذه الدولـــة قرارات الجامعة ، وكان هذا ما فعله الإنجليز ، لأن إمارات الخليج خاضـــعة لإنجلترا ، فيكون القرار بذلك في حقيقته لإنجلترا ، ودول الخليج الصغيرة المفتتة مصرة على إماتتها لأنها في قبضة الدول الاستعمارية تعمل بإشارتها وتوجيهها ضد الرأي العام العربي والدول العربية الكبيرة .

ولما أصبحت الجامعة العربية جثة هامدة تشرذمت إلى :

- مجلس تعاون خليجي :وهو أنشئ بإشارة من أمريكا بعد قيام الثورة الإيرانية ســـنة ١٩٧٩م لكـــي يكون مناوئاً لها تمشياً مع الرغبة الأمريكية ، وأيضاً من أجل إمـــداد المقاومـــة في أفغانستان ضد الاتحاد السوفييتي الذي اقتحم أفغانستان سنة ١٩٨٠م بقـــواته واحـــتلها ، وكـــان أيضاً من بين مهام هذا المجلس الحفاظ على إمدادات البترول إلى الغرب وأمريكا والتحكم في أسعاره .

وعندما قامت أمريكا باحتلال العراق سنة ٢٠٠٣م وأصبح لها تواجد عسكري في العراق ، وقواعد عسكرية في دول الخليج ، في كل من الكويت والبحرين وقطر ، انـــتهت خدمـــة مجلس التعاون في النواحي العسكرية بعد احتلال أمريكا للعراق وتواجدها العسكري في أغلب دول مجلس التعاون .

ومن ثم في اجتماع مجلس التعاون في ديسمبر ٢٠٠٥م لم يعد هناك حديث عن التعاون العسكري بين الدول الخليجية الست ولا حديث عن قوات درع الجزيرة ، وهي القوات التي تم الاتفاق على إنشائها .

وبـــدأ الحديث عن المخاطر المحدقة بدول الخليج بسبب إيران مرة أخرى بمقولة أنهـــا تقـــوم بصناعة الذرة وأن هذا فيه خطورة على دول مجلس التعاون وكان هذا الكـــلام يتفق مع وجهة النظر الأمريكية ، ولم يتحدثوا عن خطورة الأسلحة الذرية المتواجدة فعلاً عند إسرائيل ، وكانت هذه مسألة خطيرة أن تكون نظرة هذه الدول مطابقة لنظرة أمريكا إلى كل من السلاح النووي الإيراني المرفوض والسلاح النووي الإسرائيلي المقبول من أمريكا .

وكانت هناك في اجتماع مجلس التعاون الأخير (ديسمبر ٢٠٠٥م) خلافات بين الدول الخليجية الكبيرة فالإمارات مع قطر من ناحية والسعودية مع عمان من ناحية أخـــرى ويذكـــر المراقبون أن هناك حرب على الحدود بين الدول الخليجية ولكنها حـــرب مكتومة بسبب عدم الاتفاق على ترسيم الحدود بينها ، ومع هذا لم يتحدث المجتمعون في اجتماعهم سالف الذكر عن هذه المشاكل الحدودية .

- اتحـــاد المغرب العربي : أو ما يسمى الاتحاد المغاربي من كل من المغرب وموريتانـــيا والجزائر وتونس وليبيا ، الذي قال عنه المغاربة يوم إنشائه انه يـــضم أصـــحاب آكلي الكسكسي وحدهم ، وأصحاب لابسي الزعبوط

المغربي كما أكد على ذلك معمر القذافي حاكم ليبيا في يوم من الأيام ، وقد تم تعطيل هذا المجلس الآن (٢٠٠٥م) بسبب الخلافات بين كل من المغرب والجزائر بسبب أزمة الصحراء المغربية التي ضمتها المغرب إليها بعد خروج الاستعمار الأسباني منها ، غير أن الجزائر دعمت بعض القبائل في هذه الصحراء وأرادت أن تنشئ منهم دولة أطلقت عليها دولة البوليساريو ، وهذا بسبب تدخل القوى الأجنبية التي لا تريد للعرب استقراراً .

- مجلس التعاون العربي : من كل من مصر والعراق والأردن واليمن وواضح انه تكون من الدول التي أبعدت عن مجلس التعاون الخليجي وعن مجلس التعاون المغربي ، وقد تم فضه بعد احتلال العراق للكويت سنة ١٩٩٠م ولم يعد له وجود الآن .

القومية الإسلامية :

ونلاحظ بذلك أن القومية العربية قد بلغت أجلها وطوت أشرعتها نهائياً، وذلك لأنها كانت بمبادرة غربية وكانت علمانية ، والذي نشهده الآن في أواخر القرن العشرين ومطلع القرن الواحد والعشرين هو ظهور قومية إسلامية التي ستكسب المزيد من المحتوى الديني لتصبح ذات طبيعة إسلامية غالبة .

وبذلك فان هذه القومية الإسلامية ستخوض معركتين في وقت واحد :

الأولى : معركة ضد القومية العلمانية العميلة في الوطن العربي التي كانت هي السبب في تقطيع العلائق بين القومية العربية والجمهور المسلم ثقافة وانتماء ، وهي من النخب المحلية الحاكمة التي تم تغريبها وإيهامها بأنها شريك مع الاستعمار الغربي في عمليات الاستثمار ، بل شريك صغير في عمليات نهب الشعوب ، ويواكب هذا عملية إفساد ورشوة لأعضاء هذه النخب .

الثانية : معركة ضد الشرق أوسطية : التي يريد الغرب فرضها لإدخال إسرائيل وبعض البرامج الأجنبية الزاحفة ، التي تعني إذابة الهوية العربية الإسلامية وهذا هو مفهومها السياسي ، ومفهومها الأمني الذي يحافظ لإسرائيل على تفوقها العسكري ، وعدم نقل تكنولوجيا عسكرية أوروبية إلا إلى إسرائيل وحرمان العرب منها .

وللشرق أوسطية مفهوم آخر اقتصادي : يفرض هيمنة إسرائيلية على المنطقة يجعل إسرائيل متحكمة في بنك التنمية الشرق أوسطي المزمع إنشاؤه على أن يكون له دور مثل دور صندوق النقد الدولي التابع للدول الكبرى ، والذي يتدخل في اقتصاد كل الدول النامية ، ويحولها إلى دول مدينة ، ويعطي من يطيع أوامره ويمنع من يخالف .

وللشرق أوسطية مفهوم علمي : يجعل من إسرائيل المحتكر الوحيد في المنطقة العربية في مشروعات التكنولوجيا الأوروبية المتقدمة على ان تتولى هي وحدها تسويق هذه التكنولوجيا في المنطقة حيث أن إسرائيل أتمت اتفاقاً مع السوق الأوروبية يتم تنفيذه وبموجبه سوف تكون هي المسيطر الفعلي على أسواق التجارة الخارجية في المنطقة وبنسب تصل إلى أكثر من ٦٠%. [مصطفي بكري ، جريدة الأحرار ، ١٩٩٤/١١/٣٠م] .

ظهور التيارات الإسلامية :

عقب إلغاء الخلافة الإسلامية في الدولة العثمانية ، وطغيان الإمبريالية وهيمنتها وتقسيمها للعالم الإسلامي ، ونهبها لثرواته ظهرت بقوة التيارات الإسلامية السلفية المناهضة للإمبريالية وللاستعمار ، والسلفيون على أنواع :

السلفية السطحية :

وهـــي الـــتي تعود إلى عصور التراجع الحضاري للمسلمين ، معتمدة على تـــأويلات التـــراث الإســـلامي في عصور التراجع الحضاري ، وأنصار هذا الاتجاه يتمسكون بالسطحيات من أعمال السلف ، مثل المظاهر الإسلامية كإطلاق اللحى والملابـــس القصيرة للرجال ، ولبس الخمار أي تغطية الوجه للنساء وغير ذلك من الأمـــور السطحية ، ومنع النساء من مشاركة الرجال في الحياة العامة ، ويرفضون الاشتراك في الانتخابات ، ويرفضون أيضاً كثيرا من التقدم الحضاري ، ومن هؤلاء الحركة الوهابية والحركة السنوسية ، وهؤلاء يعوقون الأمة في مجال التقدم الحضاري لرفـــضهم كـــل جديد من مستحدثات الحضارة ، بدعوى أنه لم يكن موجودا على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام والسلف الصالح .

السلفية القتالية:

ومنهم سلفية قتالية تدعوا للجهاد في أي مكان يعتدي فيه على المسلمين ، وهـــذا مـــا حدث في أفغانستان والشيشان والبوسنة والهرسك والعراق وغيرها من البلاد الإسلامية التي يعتدي عليها الاستعمار والإمبريالية.

وقـــد اســـتغلت الـــولايات المتحدة الأمريكية هذا الاتجاه للسلفية القتالية واســـتدعتهم لقتال السوفييت في أفغانستان سنة ١٩٨٠ وما بعدها وأصبحت لهم قـــيادة عالمـــية هناك أطلقت على نفسها تنظيم القاعدة بقيادة (أسامة بن لادن) السعودي الجنسية ، والدكتور (أيمن الظواهري) المصري الجنسية.

السلفية التقدمية :

وهـــناك ســـلفية تقدمية تعود إلى المنابع الجوهرية والنقية للسلف الأول في صـــدر الإســـلام ، ويـــستلهمونها لحـــل مشكلات الحاضر ، ولا يرفضون التقدم الحضاري ، ومن هؤلاء تيار جماعة الإخوان المسلمين .

فـــبعد فـــشل مؤتمـــر الخلافة بالقاهرة بعامين أسس (حسن البنا) جماعة الإخـــوان المسلمين في الإسماعيلية في مصر سنة ١٩٢٨م وكان مؤمناً بان الإسلام نظام متكامل يصلح للدين والدنيا معاً وكان شعار الجماعة :

(الله غايتنا والقران دستورنا ، ومحمد ﷺ قائدنا ، والجهاد طريقنا ، والموت في سبيل الله أسمى أمانينا) .

وحاربـــت جماعة الإخوان الاستعمار في عهد الملكية في مصر ، ولا تخضع للهيمنة الاستعمارية على أوضاعنا الاقتصادية ، وتحارب الحكم الاستبدادي المتعاون مـــع الاستعمار الغربي ، فتربصت الملكية بجماعة الإخوان المسلمين ، وقام البوليس السري بقتل زعيم الجماعة حسن البنا سنة ١٩٤٩م.

وقامـــت ثـــورة يوليو سنة ١٩٥٢م في مصر وكان للإخوان المسلمين فيها دور كـــبير ، وكان كثير من قادتها أعضاء في جماعة الإخوان المسلمين ، لكن رجال الـــثورة تنكروا لهم وبدءوا يبتعدون عن الإخوان شيئاً فشيئاً طبقاً لنصائح الغرب وأمـــريكا لهم بالبعد عن الاتجاه الإسلامي إن كانوا يريدون نجاحاً وتعاوناً مع المجتمع الـــدولي . وكان هذا هو نفس السبب الذي دفع الغرب إلى القضاء على الخلافة ، وضرب حركة الشريف حسين في الحجاز لأنها ذات جذور دينية.

وبـــدأ جمـــال عـــبد الناصر يتحدث عن القومية العربية الخالية من الاتجاه الإســـلامي ووعد شعب مصر بالاشتراكية ، وأصبح بطلاً على مستوى العالم العربي

بسبب تحديه ومعارضته للغرب ، وبدأ يضرب جماعة الإخوان المسلمين عندما بدأ يشعر بقوة نفوذه في مصر ، وأعلنت حكومة الثورة عن مؤامرة مزعومة للإخوان المسلمين لاغتيال عبد الناصر عقب حادث المنشية سنة ١٩٥٤ م وبدأت حكومة الثورة في اعتقالهم وتنفيذ أحكام الإعدام على عدد من رموزهم ، وأجبرت جماعة منهم على الخروج من مصر فرحل عدد منهم إلى دول الخليج العربي ، ومن هنا بدأت جماعة الإخوان المسلمين في الانتشار في خارج مصر وعلى الأخص في السعودية وقطر والأردن والكويت ، وسمحت لهم بعض الدول كالأردن والكويت بالعمل الرسمي في المجالس النيابية ، وتم حظر الجماعة في مصر فتحولت منذ ذلك الوقت إلى جماعة سرية ، لكنها لم تـمُتْ .

ولما مات عبد الناصر سنة ١٩٧٠م وخلفه محمد أنور السادات سمح للإخوان المسلمين بالعمل السياسي وبإصدار الجريدة الرسمية لهم (جريدة الدعوة) لكي يقاوم بهم تيار الشيوعية الذي كان مستشرياً في البلاد أيام عبد الناصر بزعامة نائبه علي صبري ، ولما ضرب السادات الشيوعيين بزعامة علي صبري في حركة التصحيح في ١٥ مايو ١٩٧١م ووضعهم في السجون كان في حاجة إلى مؤازرة التيار الإسلامي .

ولكن التيار الإسلامي المتطرف انقلب على السادات بعد اتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٩م ورفض فكرة الصلح مع إسرائيل وفكرة التكيف مع إسرائيل في النظام الشرق أوسطي وكثرت المنظمات السرية الإسلامية المتطرفة التي تدعوا إلى ضرورة مقاومة النظام المتعاون مع إسرائيل والغرب ، وانتهى الأمر بدعوة بعض الفصائل المتطرفة بالإطاحة بالسادات حيث اعتبرته كافراً خارجاً عن الدين وتم

اغتـــياله على يد ضابط من الجيش ينتمي إلى بعض الجماعات السرية المتطرفة سنة ١٩٨١م .

وعقـــب مقـــتل السادات تولى محمد حسني مبارك نائب السادات الحكم وحكـــم مـــصر بقوة معتمداً على قانون الطوارئ والتمكين للشيوعيين والعلمانيين الذين حاربهم السادات وإقصاء الإسلاميين تماماً ، واستطاع نظام الطوارئ السيطرة علـــى الجماعـــات الإســـلامية المتطرفة ، ولكنه أعطى هامشاً من الحرية للإخوان المـــسلمين حيث يسمح لهم بالتواجد غير الرسمي في مجلس الشعب وفي الإعلان عن رأيهم في بعض الجرائد الخاصة ببعض الأحزاب مثل "الحقيقة" و "آفاق عربية" وهي من جرائد حزب الأحرار .

ولكـــن تـــيار الإخـــوان المسلمين المعتدل ما زال قوياً في الشارع المصري والـــشارع العربي بصفة عامة ، وحصل في انتخابات ٢٠٠٥م على ٨٨ مقعداً في انـــتخابات مجلس الشعب ولولا التزوير الذي قام به رجال الحزب الوطني الحاكم لحصل على أغلبية مقاعد مجلس الشعب .

ويعتقد البعض (٧) أن الإخوان إحدى المنظمات المعارضة التي لديها الفرصة لـــتحل محـــل الـــنظام الحالي وانهم مستقبل الحياة السياسية في مصر في حالة وجود إصلاح حقيقي وانتخابات حرة فهم مدربون ومستعدون لتولي السلطة .

ولكـــن يـــبدو أن النظام الحاكم له مصلحة في تضخيم حجم سيطرة التيار الإسلامي وذلك من أجل الاستهلاك المحلي كما يقول د. سعد الدين إبراهيم أستاذ الاجتماع والمتخصص في تاريخ الحركات الإسلامية في مصر الذي يقول :

---

(٧) منتصر الزيات ، جريدة الأسبوع عدد ١٢ يوليو ٢٠٠٤م .

" لا تمـــتلك القـــيادة السياسية ذكاء حاداً ولكنها استطاعت الحفاظ على بقائهـــا سياسياً ، لقد استخدم النظام الإسلاميين فزاعة لإخافة الغرب ، يسمح لهم بالتواجد ثم يضغط عليهم ، انهم مجرد أداة ردع يقول للغرب " هل تريدون أن أفتح الباب أمام الإسلاميين لتكون مصر إيران أو الجزائر أو أفغانستان أخرى؟!!"

هذه العبارة تخيف المصريين البسطاء وأيضاً تخيف أمريكا ، إنها خدعة ذكية ، والإخوان المسلمون يدركون أنها خدعة " (٨) .

عسكرة البلاد:

إن المـــصريين في مطلـــع القرن الواحد والعشرين قد ضاقوا زرعا بالحكم العسكري الذي لجأ إلى عسكرة البلاد منذ حكم عبد الناصر ثم السادات ومبارك ، هذا النمط الذي أرسى قواعد الاستبداد ، وجعل من العسكريين طبقة مهيمنة على كل شيء ، لهم كل الامتيازات ،سواء في توزيع الأراضي الزراعية الجديدة وأراضي المساكن ، والمساكن ، التي يتاجرون فيها مما رفع أثمانها عن طريق المضاربة .

وفقد الناس الأمل في حياة عادلة فلجئوا إلى الحلقات الدينية بحثا عن الراحة النفـــسية وذلـــك لأن الـــتجمعات السياسية والديمقرطية محذورة ، بسبب قانون الطـــوارئ الـــذي يحذر التجمعات السياسية ، ويعتبر أي اجتماع بأنه محاولة لقلب نظـــام الحكـــم ، مـــع أن هذا الاتهام لو صح فإن الإسلام لا يجرمه مادام بالطرق الديمقـــراطية وعـــن طريق صناديق الانتخاب ، فالإسلام يقرر تداول السلطة في القرآن الكريم ، في قوله تعالى : (وتلك الأيام نداولها بين الناس) فهذا دليل واضح على وجود قانون إلهي بتداول السلطة يعني أنه : لا أحد خالد في الحكم .

---

(٨) سعد الدين إبراهيم ، جريدة الأسبوع عدد ١٢ يوليو ٢٠٠٤م .

فتـــنفس الناس الصعداء في التجمعات الدينية ، وقد ساعدت هذه العوامل بعض الدعاة على أن يصبحوا نجوما يلتف الناس حولهم ينشدون الراحة النفسية من ســطوة الحكم الاستبدادي الذي ضيق عليهم في معايشهم وحرياتهم ، وظهر كثير مـــن نجـــوم الدعاة المشورين كالشيخ الغزالي ، وعمر عبد الكافي والداعية الشاب (عمرو خالد) وغيرهم ، ممن يلتف الناس حولهم .

وممـــا زاد من هذه الظاهرة ما حدث ويحدث من ظلم المسلمين في كثير من بقـــاع الأرض ودفاع هؤلاء الدعاة عن المظلومين من إخوانهم المسلمين في فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان والبوسنة والهرسك وكوسوفو وكشمير وغيرها من المناطق الإسلامية ، عندما تقاعس حكام العالم الإسلامي ورضوا بالخنوع والخضوع لأمريكا والصهيونية العالمية التي هي شوكة أمريكا في ظهر العرب والمسلمين .

الفصل الثامن

الثورة الإيرانية

علـــى الرغم من أن الشاه محمد رضا بهلوي ، حاول في العقود الثلاثة الأخيرة من حكمه أن يجعل من إيران قوة كبرى ، بالاعتماد على موارد البترول الضخمة ، إلا أن معارضة رجال الدين له ظلت قائمة ، وزادها اشتعالاً عوامل عديـــدة ، وهـــي تكمـــيم الأفواه بجهاز السافاك ، ومحاولة الشاه ربط النهضة الإيـــرانية الأخـــيرة بإحياء الفارسية القديمة والعلمانية الأوروبية ، والتعاون مع الصهيونية العالمية ، رغم تعاطف الشعب الإيراني مع إخوانهم العرب ومناصرتهم لقضية فلسطين .

وبـــدأت المعارضة تحلل أسباب فشلها على أيام حركة مصدق وآية الله كاشـــاني سنة ١٩٥٢م ، فاستخلصت أن الفشل يرجع إلى اعتماد الثوار على الجهاز الحكومي القائم وعلى العملية الديمقراطية في انتخاب رئيس الوزراء عن طريق مجلس النواب ، فعلى الرغم من أن رجال الدين احتلوا أغلبية المقاعد في أيام مصدق وكان آية الله كاشاني رئيساً لمجلس النواب إلا أن ذلك لم ينقذ البلاد ، وقررت المعارضة السرية في إيران أن لابد من مواجهة العنف بالعنف ، فذلك هـــو السلاح القوي لمن يريدون تغييرا ، وبدأت الجمعيات السرية في الانتشار ، وكان من أهمها :

١- **مجاهدي خلق** : التي تأسست في أواخر الخمسينيات ، وتشكلت من بعض عناصر الجبهة القومية التي تم حلها وحظر نشاطها ، وكانت ذات

ملامح إسلامية ، وتبنت العديد من الأفكار التقدمية الشائعة في العالم الثالث.

٢- **فدائيان خلق** : وهي جماعة ماركسية الاتجاه بشكل واضح وتعد الوريث لحزب تُوَده الذي تلاشى تقريباً وقتلته الحكومة قتلاً .

٣- **فدائيان إسلام** : وهي منظمة إسلامية بزعامة نواب صفوي ، وكان معه مصطفى الخمينيبن بن آية الله الخميني ، الذي اغتالته السافاك ، وصادق خلخالي ، واغتالت السافاك أيضا نواب صفي بعد القضاء على مصدق.

وسلكت هذه المنظمات مسلكاً إرهابياً كسلاح ضد إرهاب السافاك للمعارضة ، وتمكنتا ، من البقاء على الرغم من اختراق السافاك لصفوفها ، وأصبحت فدائيان خلق أكثر فاعلية عندما اتصلت بمنظمة فلسطينية هي "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين" التي يشرف عليها جورج حبش ، وقامت الجبهة الشعبية بتدريب أعضاء "فدائيان خلق" في لبنان .

دور مصر في الثورة :

اتصلت بعض الجماعات من المعارضة [1] الإيرانية بحكومة الثورة المصرية حوالي خمسين فرداً على رأسهم : إبراهيم يزدى وصادق قطب زاده

[1] كان في إيران بجانب مجاهدي خلق وفدائيان خلق وفدائيان إسلام عدة أحزاب علمانية أهمها : ١- حزب إيران -٢- حزب الأمة الإيرانية -٣- حزب الشعب الإيراني -٤- حركة تحرير إيران التي كان يقودها مهدي بازجان وآية الله طلقاني وانفصلت الحركة الأخيرة عام ١٩٦١م عن الجبهة الوطنية لأنها طالبت بالتأكيد على القيم الإسلامية وهناك أحزاب إقليمية في إيران مثل : ١- الحزب الديمقراطي الكردستاني -٢- جبهة تحرير الأهواز -٣ - رابطة شعب بلوشستان -٤- وجمهوري خلق مسلمان أذربيجان . انظر : قدري قلعجي الشاة الطريد ، الحوادث عدد ١٢٢٦ ، بتاريخ ١٩٨٠/٥/٢م .

الـــذي تـــولى وزارة خارجـــية إيران في حكومة الثورة ومصطفى الشمراني ممن تقلدوا مناصب قيادية بعد الثورة . وقد حضر هؤلاء إلى القاهرة للتدريب على الـــسلاح ، وتم إرســـالهم إلى معسكر إنشاص خارج القاهرة ، وإنشاص ضيعة كانـــت للملـــك فـــاروق وقد أعدها حكومة الثورة لكي يتلقى فيها جماعات جـــبهات التحريـــر المختلفة تدريبهم ، وهناك التقوا بجماعات من الفلسطينيين والإرتـــريين وغيرهم من الأفارقة كما أرسلت مصر أيام عبد الناصر مساعدات مالية لأسر الذين قتلهم الشاه ، وتجاوب عبد الناصر مع رسالة بعثها إليه آية الله الخميني يطلب منه مساعدة هذه الأسر (٢) .

المعارضة الإسلامية في قُم :

ونظـــراً للمـــراقبة الشديدة التي يتعرض لها المعارضون لحكم الشاه في طهـــران واستمرار الضغط عليهم فقد هجروا العاصمة تماماً وتمركزوا في مدينة "قُـــم" وعلى الأخص المعارضة الإسلامية ، وهي القوة الرئيسية (٣) ، ومدينة قم هـــي العاصـــمة الدينية في إيران وهي التي دفنت فيها أخت الإمام جعفر الرضا فاطمـــة المعصومة سنة ٢٠١هـــ (٨١٦م) وقد اهتم الصفويون بهذه المدينة منذ أن أسسوا دولة شيعية في فارس في القرن العاشر الهجري ، فأحاط الشاه عباس الأول (٩٩٨-١٠٣٩هـــــ) قـــبر فاطمـــة المعصومة بآيات من فن العمارة الإســـلامي ، وأصـــبحت المديـــنة مركز للدراسات الإسلامية وملتقى العلماء ومـــثوى الأتقياء الذين يفضلون أن يدفنوا فيها ، ويشعر الزائر للمدينة بهالة من القداســـة تحيط بالمكان ولجأ رجال الدين إلى قم ليكونوا بعيداً عن أعين الرقباء من رجال السافاك .

– (٢) محمد حسنين هيكل ، مدافع آيات الله ، الطبعة الأولى ، دار الشروق ، بيروت ١٤٠٢هـــ ، ص٩٨ .

– (٣) المعارضة الإسلامية قديمة في إيران من أيام أسرة القجار .

وفي "قـــم" برز من بين رجال الدين زعيم قوي هو : "آية الله روح الله موســـوي الخميني" الذي يرجع أصله إلى قرية خمين التي تبعد ٨٠ ميلاً جنوب غـــربي مدينة قم ، وقد ولد عام ١٩٠٢م من والد يدعى مصطفى موسوي من رجال الدين ، وقد مات والده مقتولاً بيد بعض الإقطاعيين لأنه كان يدافع عن حقوق الفلاحين ، وذلك بعد ميلاده بأقل من عام ، وماتت أمه سنة ١٩١٨م ، والتحق الخميني منذ صغره بالمدارس الإسلامية في مدينة "أراك" وفي مدينة "قم" وكان فقير الحال لدرجة أنه كان ينام في المسجد الذي يتلقى فيه دروس العلم ، وســـرعان ما أتم دراسته ، وحصل على شهادة في الفلسفة الإسلامية والمنطق ، وبـــدأ في إلقـــاء دروسه على أيام الشاه رضا بهلوي ، ونظراً لأنه كثير التعرض للأمـــور الـــسياسية فقد وجد متابعة له من المخابرات الخاصة برضا بهلوي ، ثم بعـــده من السافاك التي أنشأها محمد رضا بعد ذلك ، وبلغت قمة إيذائه عندما قتلت السافاك أحد أبنائه واسمه مصطفى فيما بعد .

ونظراً لجرأة الخميني في حوزته (أي حلقته التي يلقي فيها دروسه) بدأت السافاك ترصد تحركاته وعلمت بمبلغ من المال (١٥٠ ألف دولار) أرسله جمال عبد الناصر إلى أسر الأرامل واليتامى [٤] من منكوبي حكم الشاه ، فأراد الشاه استغلال هذا الحادث فأذاع خطاباً توجه به إلى القيادات الدينية في إيران يسألهم عـــن رأيهـــم في زعيم ديني (دون أن يصرح باسم الخميني) يأخذ مالاً من غير الشيعة ، ولم يسكت الخميني ورد على الشاه في "حوزته" في اليوم التالي قائلاً : "لقد آن الأوان لأن تنتهي (التقية) وأن نقف ونعلن ما نؤمن به" .

- [٤] أرسل عبد الناصر هذا المبلغ (كما ذكر محمد حسنين هيكل دون تحديد للسنة التي أرسله فيها) عن طريق عبد الحميد السراج رئيس جهاز المخابرات في ذلك الوقت وأخذه شخص لبناني وغادر مطار بيروت ، ولكنه قبض عليه في مطار طهران ووقع في يد المخابرات الإيرانية التي أبلغت الشاه بدورها . (محمد حسنين هيكل ، المرجع السابق ، ص١١٥) .

ثم اقتـــبس جزءاً مما قاله الشاه في الإذاعة وعلق عليه قائلاً : "أنا لست في حاجـــة إلى نقـــود ، فالهـــبات التي تجيء من حوزتي تغطي كل احتياجاتها ، والـــنقود التي أرسلها الرئيس جمال عبد الناصر لم تكن مرسلة لي ، وإنما للجنة المـــساعدات ، لسد احتياجات الأرامل والأيتام هؤلاء الذين ترملوا وتيتموا من جـــراء حكم الشاه وحكم أبيه من قبله ، وإنني أنتهز هذه الفرصة لأعلن نهاية التقية [٥] " .

وبهـــذا الإعلان أصبح الخميني أول زعيم شيعي يستنكر التقية ويهاجم الـــشاه علناً وبشكل مباشر ، وهاجم الخميني غيره من رجال الدين الصامتين وقال : " إما أن ينضم إلينا كل رجال الدين ، وإلا فهم أسوأ من المرتدين وإن لم يـــتكلموا جهاراً ، فمعنى هذا أنهم قد اختاروا جانب الشيطان ، وختم الخميني حديـــثه بمـــوعظة متوجهاً للشاه ، وقائلاً له : "لم أعد قلبي لتقبل إنذارك ، وإنما أعددته لتلقي رماحك [٦] " .

وفي شهر مارس ١٩٦٣م هاجمت قوات الشاه السرية وعملاؤه المدرسة الفيـــضية التي تعود الخميني أن يلقي فيها موعظة بمناسبة الذكرى السنوية لموت جعفـــر الصادق ، وقتلت حوالي ٢٢ شخصاً وقبضت على عدد أكبر ، وعندما علـــم آية الله الحكيم الذي يعيش في العراق بما حدث لزملائه اتصل بهم وطلب مـــنهم الحـــضور إلى كـــربلاء والـــنجف بعيداً عن اضطهاد الشاه ، وأعلنت السلطات استعدادها لتسهيل مهمة من يريد الرحيل عن البلاد ، ولكن الخميني رد علـــى الـــشاه بقوله : "لن أتخلى عن مسئولياتي بعون الله ، وإذا كان لنا أن نموت فسنكون من الشهداء وإذا كتبت لنا الحياة فسنكون من الظافرين [٧]" .

- [٥] المرجع السابق ، ص ١١٥– ١١٦ .
- [٦] محمد حسنين هيكل ، مرجع سبق ذكره ، ص١١٧– ١١٨ .
- [٧] محمد حسنسن هيكل ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٠ .

وإزاء هـــذا كان لابد من القبض على الخميني وكان الخميني قد ألقى مـــوعظة في ٥ يونيو ١٩٦٣ بمناسبة مرور أربعين يوماً على استشهاد الشباب بسبب الهجوم على المدرسة الفيضية ، وحشدت الحكومة قوات كبيرة في مدينة قـــم ، وألقـــى الخميني أعنف كلمات وجهها للشاه حتى هذا التاريخ ، فقال : "اســـتمع إلى نـــصحي ! استمع إلى أولئك الذين همهم مصالح الشعب بشكل حقيقـــي ! استمع أيها البائس العليل ! لقد عشت حتى الآن خمساً وأربعين عاماً في هذه الدنيا ، فلتتوقف هنيهة ولتتأمل ماذا قدمت لبلدك ، وليكن مصير أبيك درســـاً تتلقنه .تتهمنا بالرجعية إنما أنت الرجعي الأسود" وأكمل حديثه وهاجم الشاه في سياسته تجاه أمريكا وإسرائيل ، فتحرك البوليس وقبض على الخميني ، فانـــدلعت المظاهرات على الفور في قم وطهران ، وامتلأت الشوارع بالدبابات والمدافـــع وقتلت عشرات المتظاهرين ، وقام أحد طلبة المدرسة الفيضية باغتيال حسن علي منصور رئيس الوزراء.

وزادت الأزمة بينما كان الخميني قد أودع السجن في طهران ، فتحرك آيـــات الله الآخرين بزعامة شريعة مداري ، وكان الخميني لم يحصل على درجة آيـــة الله العظمى ، وكان قد قدم رسالة إلى اللجنة المختصة من العلماء وكانت قيد الفحص وهي بعنوان "تحرير الوسيلة" فوافقت اللجنة على الرسالة وحصل الخمـــيني على لقب "آية الله العظمى" وكانت قوانين البلاد تمنع القبض على من يحمـــل هـــذا اللقب العلمي والديني ، وأصبح استمرار حبسه قضية حساسة ، فقررت السلطات التخلص منه وإخراجه من البلاد ، فحملته سيارة ورمته على الحـــدود في مـــنطقة مهجورة لكنه نجح في عبور الحدود من تركيا إلى النجف ولحقت به أسرته فيما بعد .

وقـــبض الشاه بيد من حديد على البلاد ، وبدأ الخميني يتصل بأنصاره وبالـــشعب عن طريق إرسال الشرائط المسجلة فكان يهاجم الشاه في العراق ثم

ترســـل الأشـــرطة إلى إيران وتوزع فيزداد غضب الجماهير ، وكان المريدون يتحلقون لسماع صوته وانضم إليهم غيرهم ، وسرعان ما تحولت تلك الرسائل المسجلة على الكاسيت إلى رسائل سياسية وطبع منها الآلاف وتم تداولها خارج مدينة قم ، وفعلت هذه الرسائل فعلها القوي في البلاد [٨].

اتفاقية الجزائر ١٩٧٥م:

ورغب الشاه في أن يضغط على العراق بشأن نشاط الخميني في النجف لكـــنه لم يـــتمكن من ذلك قبل سنة ١٩٧٥م ففي هذه السنة تمت اتفاقية بين العـــراق وإيران في الجزائر وسويت المشاكل إلى حين وتعهدت كل من العراق وإيران بعدم التدخل في الشئون الداخلية للبلد الآخر .

وفي سنة ١٩٧٧م طلبت السلطات العراقية من الخميني إما أن يتوقف عـــن دعوته للثورة أو يرحل عن البلاد لأن إيران طلبت تنفيذ بنود اتفاقية سنة ١٩٧٥م ، واســـتعد الخمـــيني لمغـــادرة العراق إلى فرنسا ، وبينما هو يستعد للـــرحيل روعته السافاك في سبتمبر ١٩٧٧ بقتل ابنه مصطفى الذي كان يقوم بـــدور رئيـــسي في حمل رسائل والده المسجلة إلى إيران . وتمالك الخميني نفسه وواصل معركته ضد نظام الشاه وأصدر أربعة تعليمات إلى الإيرانيين :

١- أن يقاطعـوا المؤسـسات الحكومـية طالمـا أن الحكـومة لا تـستطيع أن تـزعم أنـها حكـومة إسـلامية .٢- أن يـسحبوا كـل أشـكال الـتعاون مـع الحـكومة .٣- ألا يـسهموا في أي نشاط قد يفـيد الحـكومة .٤- أن يقيموا مؤسسات إسلامية جديدة في كل المجالات الاقتصادية والمالية والقضائية والثقافية .

الخميني في فرنسا :

---

[٨] وبعـــد نجاح هذا الأسلوب من التوعية الثورية أضحى يدرس في المعاهد السياسية في الغرب على أنه مجال جديد وفريد من نوعه وأطلقوا عليه (cassette Revolution) أي الثورة عن طريق شرائط الكاسيت ، أو الثورة عن طريق الخطابات المسجلة .

وغـادر الخمـيني العراق في ٦ أكتوبر ١٩٧٧م إلى باريس واستقر في ضاحية "نوفل لي شانو" التي تبعد ٢٠ ميلاً غربي باريس ، وقد قامت لجنة الطلبة في باريس باستئجار فيلاً له في هذه الضاحية على حسابها وقامت بترتيب رحلته إلى باريس وقاموا بحراسته خوفاً على حياته أثناء إقامته في فرنسا .

الثورة تنتقل إلى جميع أنحاء إيران :

وسـادت إيـران في عـام ١٩٧٨م حالـة من الفوضى بسبب كثرة المظاهـرات ولم تعـد مدينة قم وحدها هي الثائرة وإنما انتقلت الثورة إلى جميع المـدن الإيرانية وعلى الأخص طهران وبدأت الاضطرابات في كثير من المواقع فزلـزلت الأرض مـن تحت أقدام الشاه وحكومته ، وكثر تمرد بعض كتائب الجيش وفرار بعضها لأن الخميني عمل على مخاطبة الجيش وطالبهم في خطبه بألا يخدموا في جيش الشاه لأنه جيش الشيطان وهم جنود الله المستضعفين ، وينبغي عليهم ألا يطلقوا النار على إخوانهم من المسلمين "لأن كل رصاصة تصيب قلب مـسلم هـي أيـضاً رصاصة تصيب قلب القرآن ، يجب أن يعودوا إلى قراهم ولأسـرهم وأراضـيهم ، يجب أن يرجعوا إلى المسجد إلى الله " وأخذ الخميني يحـثهم علـى أخذ أسلحتهم معهم عند الهرب ورسم لهم خطة الهروب فقال : "فلتتركوا الجيش بأعداد صغيرة أسلحتكم معكم ، فهي أسلحة الله".

ودعـا الخميني إلى تكوين لجان ثورية "فليكن كل مسجد لجنة ثورية" ، وفي ينايـر ١٩٧٨م كانت مدينتي "قم" و "مشهد" مسرحاً لأحداث دامية هي بداية الانتفاضة في إيران بسبب أن إحدى صحف الحكومة تتهجم على آية الله الخميني ، فثار الناس وخرجوا بعد صلاة الجمعة مستنكرين في مظاهرات ملأت شـوارع قم ومشهد ، وعلى طريقة السافاك واجه الرصاص المتظاهرين وسقط

كـثيرون ، قـدرهم بعـض المصادر بسبعين قتيلاً وذكرت مصادر أخرى أن الشرطة منعت الدم عن الجرحى فمات منهم كثيرون [٩].

خوف إسرائيل :

كانـت أمـريكا وإسرائيل في هلع شديد لأن الثوار ازدادت علاقتهم بمنظمة التحرير الفلسطينية التي كانت تقوم بتدريبهم وتزويدهم بالأسلحة وكان بعضهم في حراسة الخميني في باريس .

محاولة التراجع المتأخرة :

اسـتقر رأي الشاه على أن يجري تغييرات تتعلق بالحريات ، ومن أجل ذلـك قام بتعيين رئيس جديد للوزراء هو جعفر شريف أمامي في أول سبتمبر ١٩٧٨ وقـد اخـتاره الشاه على أساس أنه يتمتع بعلاقة طيبة برجال الدين ، ولكـن بعـد فوات الأوان. وحاولت الحكومة إرضاء رجال الدين فألغت في التـشكيل الجديـد وزارة شـئون المـرأة التي أقامها الشاه ، وتم إلغاء التقويم الإمبراطوري الفارسي الجديد والعودة إلى التقويم الهجري [١٠] .

لكن الوقت كان متأخراً فقامت مظاهرات عنيفة في طهران تطالب بخلع الشاه ، وقيام الجمهورية الإسلامية وعودة الخميني من المنفى ، وكانت هذه أول مرة تصل فيها المظاهرات إلى هذه الجرأة ، فأعلنت الحكومة الأحكام العرفية في ١٩٧٨/٩/٧م ، وزادت المـصادمات والمظاهـرات لدرجـة أزعجت أمريكا وإسـرائيل والـشاه ، فاضـطر الشاه إلى اختيار حكومة عسكرية على رأسها الجنرال (غلام رضا أزهري) ، رئيس أركان القوات المسلحة ووافقت أمريكا ،

- [٩] عبد المنعم سليم ، مجلة الدعوة المصرية (عدد ذو الحجة ١٣٩٨هـ) مقال بعنوان "الثائرون في إيران سود ماركسيون أم مسلمون إيرانيون" .
- [١٠] عبد المنعم سليم ، مجلة الدعوة المصرية ، عدد ذي الحجة ١٣٩٨هـ ، مرجع سبق ذكره .

واحتلت القوات العسكرية مواقعها في طهران ومحطة الإذاعة ودور الصحف في ٦ من نوفمبر ١٩٧٨م .

وحاول الشاه تهدئة الخواطر فأعلن على الشعب أنه ينوي محاربة الفساد والظلـــم وأن الحكومة العسكرية مؤقتة لكن هذه المحاولات كانت بمثابة محاولة لإنقـــاذ حكمه بينما هو يهوي بشدة من أعلى القمة ولا يستطيع أحد إنقاذه إلا بمعجزة . [١١]

وبــــدأت الحكومة تضحي ببعض من كانت تشير إليهم أصابع الاتهام في مجال الفساد وظلم الشعب ، ففي ٧ نوفمبر قبضت على الجنرال ناصري رئيس السافاك ، وبعده قبضت على أمير عباس الذي ظل رئيساً للوزراء ويقود مسيرة الظلـــم ١٢ ســـنة ، وتم القبض على كثير من الموظفين الكبار وعلى عشرة من أصـــحاب الملايـــين ، وأعلـــنت السلطات أنه سيتم محاكمة هؤلاء جميعاً بتهمة الفساد ، وسيتم التحقق مع أخوة وأخوات الشاه ، فأرسل الخميني إلى الشعب يحذرهم من ألا يخدعوا بمثل هذه المناورات وقال لهم :"إن الرجل الذي يجب أن يكون موضع التحقيق هو الشاه نفسه وليس أخوته وأخواته أو مؤسسة بهلوي ، فلتقدموه للمحاكمة " .

وهنا اطمأن الخميني إلى حجم الجماهير التي تطيعه فبدأ يعد العدة لما بعد ســـقوط الشاه ، فطلب من بازرجان الذي كان في زيارته في باريس أن يعد له قائمة بأول وزارة لحكومة الثورة وتم الاتفاق عليها ، وعينه الخميني ممثلاً سياسياً لـــه في طهـــران ، وطلب منه أن يذهب إلى المناطق البترولية في الجنوب وينظم إضـــراباً من عمال البترول وتم هذا الإضراب بنجاح الأمر الذي أضر بحكومة الشاه ضرراً بليغاً .

---

(١١) محمد حسنين هيكل ، مرجع سبق ذكره ، ص٢١٢ ، وانظر أيضاً : إلياس حرفوش ، واشنطن في انتظار شاه إيران ، مقال في مجلة الحوادث ، عدد ١١٥٨ ، ١٢/١/١٩٧٩م .

موقف الروس والأمريكان :

استمرت روسيا في تأييد حزب توده الشيوعي ، وكانت ترى أن الحركة الشعبية في إيران يتزعمها رجال الدين وهذا لا يسرها لأن الدين في نظرها رجعي ، فلم تكن راضية بهذه الحركة على الرغم من أنها شعبية وهي تدعي أنها تناصر الحركات الشعبية ، وهو لاشك تناقض واضح .

والروس ليسوا أكثر ارتياحاً من الأمريكان إلى المعارضة الدينية في إيران ، لأن قوة هذه المعارضة ستغذي المسلمين في الاتحاد السوفيتي الذين يشكلون قومية إسلامية لا يستهان بها ، وقيام جمهورية إسلامية على الحدود السوفييتية ستكون له نتائج تهدد أمن الاتحاد السوفييتي واستقرار العلاقات الروسية الإيرانية [١٢] .

وقدمت السفارة الأمريكية في باريس تنازلات للخميني منها السماح له بالعودة إلى إيران ومنحه مكاناً رئيسياً في حكومة يختار أعضاءها بنفسه ، ولكن الخميني كان يشك في نوايا أمريكا ، فرفض كل حديث عن الإصلاح السياسي في ظل الإمبراطورية القائمة .

وصفوة القول أن الأمريكيين بدءوا يبحثون عن بديل أكثر استقراراً من الشاه ، وهم خائفون من الشيوعيين في إيران وزيادة النشاط الشيوعي ، كما أنهم ليسوا مرتاحين في الوقت ذاته لمعارضة الخميني الذي أعلن عن تصميمه على قطع البترول عن إسرائيل وهو موردها الأساسي ، وتقوم بينه وبين المقاومة الفلسطينية علاقات قوية.

تعيين حكومة مدنية في ظل الحكم العسكري :

---

[١٢] المرجع السابق ، نفس المكان .

فـــشلت الحكـــومة العسكرية في قمع حركة التمرد المدني والمظاهرات المدمـــرة وموجة الإضراب عن العمل التي عطلت سير الحياة العامة في إيران ، وأدركـــت الحكـــومة أنها بشأن إفناء شعب بأسره ، وإزاء هذه الخطورة اضطر الجنرال غلام رضا أزهري إلى تقديم استقالته والخروج من إيران ، وفي ٢٩ من ديسمبر ١٩٧٨م عين الشاه "شاهبور بختيار" رئيساً للوزراء في حكومة مدنية في الظاهـــر وحكـــم عسكري في الباطن ، وكان بختيار عضواً في الجبهة الوطنية ، وكان مشتركاً في المفاوضات مع الأمريكان التي يقوم بها بازرجان وعندما رفض بازرجـــان المضي في هذه المفاوضات بأمر من الخميني لأنها خدعة ، استمر بختيار فـــيها وكـــان يحظى بإعجاب الأمريكان ، وانتهى به الأمر إلى أن قبل تشكيل الوزارة .

وحاول بختيار تنفيذ كل ما كانت الجماهير تنادي به وطالب به الخميني ، ففـــي الـــيوم الأول لتعييـــنه قال : إن الشاه سيغادر البلاد ، وإن "السافاك" ســـتحل ، وأن الـــصحف ستصدر بدون مراقبة ، وأن رجال الدين سيديرون أملاكهم بأنفسهم ، وأعلن التوقف عن تزويد إسرائيل وجنوب أفريقيا بالبترول ، وتـــبنى برنامج المعارضة الدينية كاملاً ، غير أن رجال الدين كانوا غير واثقين به لأنه عمل من ورائهم ويريد أن يسحب الثورة من أيديهم .

فـــأعلن الخميني أنه لن يؤيد بختيار لأن تعيينه غير شرعي طالما أن الشاه هو الذي قام بتعيينه ، وذكر أن التهديد بانقلاب عسكري "لن يخيفنا لأن هناك انقلابـــاً قائماً بالفعل فحكومة أزهري كانت انقلاباً عسكرياً وحكومة بختيار ما هي إلا واجهة لانقلاب عسكري ، وبختيار ألعوبة في يد الجنرالات ، وإذا تدخل الجيش فإن ذلك سيكون تحت قيادة أمريكا ، في هذه الحالة فإننا سنعتبر أنفسنا في حالة حرب مع أمريكا [١٣] " .

- [١٣] محمد حسنين هيكل ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٢٤ .

فهاجمت الجماهير وهتفت في شوارع إيران بسقوطه وعدم التعاون معه ، وأعلنت أنها لا تعترف بأحد سوى الخميني ، وبذلك أصبح الخميني هو رجل إيـــران الأول بـــلا منافس ، ولابد من عودته من باريس ، ليقود هذه الجماهير التي لا ترضى به بديلاً ، ومع ذلك ظل الأمريكيون يراهنون على بختيار كورقة أخـــيرة ، وحاول بختيار مجابهة الظروف القاسية لبلاده وسط نار متأججة وبات مـــن الصعب على أي مسئول أن يهدئ من غلوائها إلا بشق الأنفس ، وحاول بختـــيار أخـــذ موافقة من مجلس النواب للعمل بحرية ، ولكن المعارضة لم تعط له الفرصة ، وقررت الجبهة الوطنية طرده بمجرد عدم رضا الخميني عليه .

الخروج الأخير للشاه من البلاد :

إزاء هذا الوضع المتدهور في إيران لم يعد هناك من مخرج سوى أن تسلم أمـــريكا بخروج الشاه من البلاد لأنها دافعت عنه كثيراً وأصبح موقفها مكشوفاً وهي تريد أن تحافظ على مصالحها في إيران حتى ولو على حساب مصلحة بقاء الشاه ، فأبلغته قرارها الأخير بضرورة ترك البلاد إلى حين .

فأصـــدر الـــشاه قراراً بتحويل جميع ممتلكات العائلة الحاكمة في إيران والتي لا يمكن نقلها إلى صندوق خاص ، وأمر بالإفراج عن السجناء السياسيين ، وأعلـــن أن الصندوق الذي أمر بتحويل هذه الممتلكات إليه يسمى "صندوق بهلـــوي" وذلـــك لاستخدام أرباحها في الأغراض الدينية والثقافية والاجتماعية والخيريـــة ، وذلك طبقاً للقول القائل "بيدي لا بيد عمرو" وهي أعمال جاءت متأخرة عند الغرغرة ، ومؤسسة بهلوي المزعومة ، كانت موجودة ، كان الشاه قد أنشأ مؤسسة بهلوي الخيرية في مطلع الستينيات حتى يحل مكان رجال الدين في تقـــديم المساعدات ، ويحول إليها الأوقاف الخيرية إلى مصدر لرشوة الأنصار والمحاســـيب وكانت أحد المواقع الرئيسية التي تقوم فيها الأسرة المالكة باصطياد الثـــروات ، وانهمك أعضاء الأسرة المالكة في نقل أموالهم إلى الخارج هم وكثير

مـــن الأثـــرياء الخائفين من يوم الحساب ، وحاول الشاه أن يأخذ معه مجوهراته المحفوظة في البنك المركزي لكنه لم يتمكن لإضراب موظفي البنك .

وفي صـــباح يوم ١٣٩٩/٢/١٩هـــ (١٩٧٩/١/١٧م) اضطر محمد رضـــا بهلـــوي لقبول مطالب المعارضة الدينية وغادر طهران متوجهاً إلى أسوان بمصر ، ولم يتمالك نفسه وهو يصعد سلم الطائرة ، فانفجر باكياً على الرغم من جبروته في سابق أيامه ، وغادر أسوان بعد عدة أيام إلى المغرب ، ومنها إلى جزر الـــبهاما فالمكـــسيك فالولايات المتحدة الأمريكية ، وأخيراً إلى بنما ، وكانت أمـــريكا علـــى استعداد للتخلي عنه إذا نجحت تجربة بختيار كتسوية وسط بين الإمبراطورية المطلقة والجمهورية الإسلامية التي ينادي بها رجال الدين (١٤) .

وعقب انتشار نبأ رحيل الشاه في إيران انطلقت مئات الألوف من أبناء الـــشعب في طهـــران يعبرون عن فرحتهم وخرجت السيارات المزينة بالأعلام وصور الإمام الخميني (١٥) .

عودة الخميني إلى إيران :

عـــارض شـــاهبور بختيار في البداية عودة الخميني إلى إيران وطلب منه إعطـــاءه فرصة لمدة ثلاثة أشهر ينتهي خلالها من تنفيذ البرنامج الذي كان يرى أن الخميني يرضى عنه ، وذكر له إذا ما عاد فإن الجيش سيقوم بمذبحة لا محالة ، لكـــنه اضـــطر أخـــيراً للموافقة على عودته قائلاً : إن الإمام الخميني تحول في الخارج إلى أسطورة وإذا عاد إلى إيران فستزول الأسطورة (١٦) .

وصـــمم الخمـــيني على العودة إلى إيران على الرغم من أن كثيراً من مستـــشاريه كانوا يخشون ذلك تحسباً لما قد يقوم به الجيش من أعمال مضادة ،

- (١٤) الحوادث ، عدد ١١٥٨ ، لسنة ١٩٧٩م .
- (١٥) الشرق الأوسط ، عدد ١٦٥ الأربعاء والخميس ١٧ ،١٨ يناير ١٩٧٩م .
- (١٦) الحـــوادث ، العدد ١١٦٢ بتاريخ ٩ من فبراير ١٩٧٩م ، من مقال لجلال كشك بعنوان : "آيات الله والشعب ضد الجنرالات".

واقترح بازرجان أن يشكل الخميني حكومة في المنفى ويعلن الجمهورية ، ووافق كثيرون من حاشية الخميني على هذا الرأي ، لكن الخميني رفض وقال : "ينبغي أن نـــذهب جميعاً إلى طهران" وكان معاونو الخميني يواجهون صعوبة في العثور علـــى طائـــرة تقلهم إلى الوطن وفي النهاية قام أحد أثرياء الشيعة بإيداع ثلاثة ملايين دولار لتغطية أجر طائرة نفاثة من طراز جامبو تابعة لشركة إيرفرانس ، والـــتأمين المرتفع عليها وعلى طاقمها من الرجال الفرنسيين الذين تطوعوا لهذه المهمـــة ، واستقل الخميني الطائرة ووصل إلى طهران في صباح يوم الخميس ٤ من ربيع الأول سنة ١٣٩٩هـــ (أول فبراير ١٩٧٩م) ، ومنع الخميني زوجته وزوجات مؤيديه من القيام بالرحلة معهم [١٧] .

ويـــصف صحفي مصري هو محمد جلال كشك كان على متن الطائرة التي أقلت الخميني إلى طهران هذه الرحلة أو قل المغامرة النادرة فيقول : "كان علـــى مـــتن الطائرة مائة وخمسون صحفياً من جميع الجنسيات ، قيل إنهم أحد الأســـباب الـــتي ضمنت عدم إقدام السلطات الإيرانية على حماقة ضربها فوق إيران [١٨] " .

وتوجه الخميني من مطار طهران إلى مقبرة زهرة الفردوس وألقى خطاباً سياســـياً قـــوياً هاجم فيه الشاه وشرعيته قائلاً : ملكية الشاه غير شرعية لأن الجمعـــية التي أقرتها اتخذت قرارها تحت تهديد الأسنة ومع ذلك فالملكية الوراثية مرفوضـــة حـــتى لو أقرت بالتصويت الحر ، لأن إقرارها يعني أن الذين أقروها ســـيتحكمون في مصير الناس الذين سيأتون بعدهم بخمسين سنة ، فكيف يعطي الـــناس لأنفـــسهم هذا الحق إن لكل زمان رجاله ، ولهؤلاء الرجال حق تقرير مـــصيرهم بأنفسهم ، فلنفرض أن كل الشعب اختار كاجار ملكاً ، فهذا يعني

- [١٧] محمد حسنين هيكل ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٢٩ .
- [١٨] محمـــد جـــلال كشك ، آيات الله والشعب ضد الجنرالات والأمريكان ، الحوادث عدد ١١٦٢ في ٩ فبراير ١٩٧٩م.

حـــق كاجـــار في أن يكـــون ملكاً عليهم ، ولكن لا يعني فرض أسرته والنظام الملكي على المستقبل لأن هذا يعني أن الذين عاشوا منذ نصف قرن سيحكمون في مـــصيرنا اليوم ، وليس من حق أي جيل أن يحرم الأجيال من بعده من حرية الاختيار .

وقطع الخميني بذلك الطريق على أي اقتراح بإجراء استفتاء على النظام الإمبراطوري ، وهو ما يقترحه أنصار الشاه ، واستمر الخميني في خطابه يسقط شـــرعية كل المؤسسات القائمة ، فمجلس النواب لم ينتخبه أحد والحكومة غير شـــرعية ، وهـــاجم الـــولايات المـــتحدة الأمريكية قائلاً : "إنهم يعطون نفطنا للـــولايات المتحدة وغيرها ويأخذون مقابله سلاحاً لبناء قواعد للدول التي تبيع لنا هذا السلاح ، وبهذه الطريقة تبني الولايات المتحدة قواعدها بنفطنا ويعطوننا ســـلاحاً أكثر تقدماً من قدرة جيشنا على استخدامه وبذلك يبررون وجودهم العسكري عندنا ، ولو استمر ذلك لعدة سنوات لانهارت بلادنا" .

وهاجم حكومة بختياري بقوله : "إنه يقول إن البلد لا يتحمل حكومتين وأنـــا أوافـــق ، وعليه هو أن يرحل لأن حكومته غير شرعية وأمريكا وبريطانيا وحدهما يعترفان به ويطالبان الجيش بدعمه" .

ثم خاطـــب القوات المسلحة فدعاها للعودة إلى أحضان الشعب وتحرير نفسها من النفوذ الأجنبي "أيها السيد الجنرال ألا تريد أن تكون حراً ؟ ! وأنت يـــا ســـيادة العقيد ، أتريد أن تكون دمية ؟ " ثم أكد أنه لا نية في الانتقام من الضباط المرتبطين بالعهد الإمبراطوري بل ستحفظ كرامتهم ، ثم خاطب الجيش قائلاً : "نريد جيشاً ، لا عصابة يحكمها الأجانب [١٩] .

وفي يـــوم السبت ٦ من ربيع الأول ١٣٩٩هـــ (٣ من فبراير ١٩٧٩ م) أعلن الخميني في مؤتمر صحفي أنه هو رئيس مجلس الثورة الإسلامي وأنه قد

---

[١٩] المرجع السابق ، نفس المقال .

شـــكل المجلـــس ، وسيعين المجلس حكومة تطرح دستور الجمهورية الإسلامية للاستفتاء ، ثم تجرى انتخابات الجمعية التشريعية ، وأن الأقليات ستتمتع بحقوق المواطنين كاملة ، وأن الجهاد مشروع إذا استقدمت الحكومة معونة أمريكية أو جـــنود إســـرائيليين ، وفي يـــوم الاثنين ٨ من ربيع الأول عين بازرجان رئيساً للحكومة وكان قد اتفق معه من قبل وهو في باريس على أعضائها .

وفي الـــيوم الـــثالث أذاع راديو طهران لأول مرة في تاريخه نشرة أنباء باللغـــة العـــربية في الساعة الواحدة بعد ظهر ٣ فبراير ، وذلك احتراماً لمشاعر حـــوالي ٢ مليون عربي في إيران ومساواقم ببضعة آلاف من الأمريكيين الذين يذاع لهم برنامج كامل بالإنجليزية (!) في الإذاعة والتليفزيون .

وأخذت كل السلطات الحكومية التابعة لبختيار تتلاشى ، فقد استقال رئيس مجلس الوصاية على العرش "جلال طهراني" وقدم استقالته للخميني قائلاً : "إن المجلـــس غير شرعي" ، وعمدة طهران (جواد شهرستاني) قدم هو الآخر استقالته قائلاً : "بإرادة الشعب وإجماع الأمة أنت قائد الثورة التي بنور الإسلام ستنتـــصر ، وبما أن الحكومة الحالية غير شرعية فإني أقدم استقالتي" ، وقد قبل اســـتقالته وعيـــنه مـــن قـــبله عمدة لطهران وطلب منه أن يضيف إلى خطاب الاستقالة الذي سيقدمه لبختيار خبر التعيين ، واستقال حاكم بلوشستان (حسن إســـلامي) ومجلـــس الـــنواب استقال منه حوالي ٧٢ من مجموع ٢٦٨ عضواً واختفى حوالي مائة عضو ، ولم يعد مع بختيار سوى حوالي مائة عضو ولم يستطع أن يجتمع بختيار بهم إلا سراً ، هذا بالإضافة إلى أن جميع رجال الدين انضموا إلى الخميني ، وجاء وفد من كردستان السنية لمبايعة الإمام الذي كان يؤكد في كل أحاديثه على وحدة جميع المسلمين على اختلاف مذاهبهم .

واتخذ الخميني مقراً له في طهران في مدرسة رافع الحسينية في أحد أكثر أحياء إيران شعبية وهو حي "جاله" وتم تركيب أجهزة الاتصال بالعالم الخارجي

بهــذه المدرســة عــن طــريق عمال التلكس والاتصالات الخارجية المضربين ليستخدمها الصحفيون في إرسال أخبار الثورة إلى العالم ، لأن الشبكة الحكومية معطلة بسبب الإضراب .

وحاولــت أمــريكا أن تتحرك مع عميلها بختيار وصدرت الأوامر إلى جنرال أمريكي يسمى "هويزر" بتنظيم الانقلاب العسكري في إيران ، وأن لحظة الانقــلاب المــضاد قد حانت ، ولكن لم يكن هناك جيش يمكن أن يقوم بهذه الحــركة لأن جميع قطاعات الجيش كانت قد انضمت إلى الثوار ولم يعد سوى كــبار القادة ، ولذلك قرر الجنرال "هويزر" بعد أن أعلم واشنطن بالموقف أن يختفي من سماء إيران [٢٠] .

واتــصل الجنــرال غرباغي قائد الجيش بمهدي بازرجان رئيس وزراء الثورة ، وطلب منه أن يرسل مندوباً عنه لكي يتسلم منه الجيش ولم يكن هناك جيش يمكن أن يسلمه ، فقد انتحر أو قتل كثير من القادة الكبار عندما تأكدوا من نجاح الثورة ، وقام الخميني على الفور بتأليف قوات خاصة به تسمى قوات الحــرس الثوري ، وهي التي قامت يوم حضوره إلى طهران بتنظيم ثلاثة ملايين مــن المــستقبلين له على طول الطريق بين مطار طهران ومقبرة زهرة الفردوس (١٨ كــيلو متراً) وبدأ هؤلاء يتلقون تدريبات عسكرية على أيدي ضباط من مــنظمة التحريــر الفلسطينية ، ولقد كافأ الخميني منظمة التحرير على موقفها فمــنحها مقر السفارة الإسرائيلية في طهران لكي تكون مقراً لمكتب المنظمة في طهران .

وفجــأة لم يجــد بختيار حوله من رجال وزارته أحد ، وحتى قبيلة بختيار تخلــصت مــنه وتخلــت عنه وأعربت عن تأييدها للخميني ، فلم يجد أمامه إلا الاختفاء عن الأنظار ، وبعد فترة ظهر خارج البلاد .

- (٢٠) محمد حسنين هيكل ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٣٣ .

حكومة الثورة تباشر السلطة :

تولى مهدي بازرجان رئاسة الوزراء ، وقد حققت نجاحاً كبيراً فقضت على الجيش وعلى الشرطة والبيروقراطية الحكومية ، فتخلصت السلطة الثورية من مستويين من الموظفين ، واستعانت بالمستوى الثالث الذي لم يدنس في نظرها. وحل الخميني الجيش ، وألف بدلا منه قوات الحرس الثوري .

وتولى صادق خلخالي رئيس منظمة فدائيان إسلام قيادة المحاكم الثورية وهو الذي قال : "بأن منظمته كان لها علاقات مع حركة الإخوان المسلمين في مصر أيام حسن البنا" ، وقال : "بأنه شخصياً له علاقات مع الإخوان المسلمين في الخليج [٢١] .وكان زميلا لمصطفى الخميني بن آية الله الخميني الذي اغتالته السافاك .

وكان هناك المجلس الثوري الذي يتراوح أعضاؤه بين ٢٠ — ٣٠ عضواً من أعوان الخميني وتلامذته المخلصين ، وتتراوح أعمارهم ما بين ٤٠ و ٥٠ سنة ولم يكشف النقاب عن أسماء أعضائه رسمياً وإن كان من المعروف أن منهم : آية الله حسين منتظري ، وآية الله صادق خلخالي ، وآية الله محمد بهشتي ، وآيـة الله مفتح ، بالإضافة إلى بعض الشخصيات المدنية منها أبو الحسن بني صدر وقطب زاده ، ومهدي بازرجان ، وإبراهيم يزدي[٢٢] .

ضرب النفوذ الأمريكي في إيران :

كانت السفارة الأمريكية في طهران أحد القلاع الاستعمارية القوية في العالم الإسلامي ، إذا لم تكن أقواها على الإطلاق ، فقد ركزت عليها أمريكا وجعلتها مركزاً للتجسس في منطقة الشرق الأوسط فكان يتجمع فيها يومياً كل المعلومات عن الشرق الأوسط ، وكان هناك تنسيق بين هذا المركز

– [٢١] الحوادث عدد ١٢٢٤ ، الجمعة ٨ من أبريل ١٩٨٠م .

– [٢٢] مجلة الوطن العربي ، عدد ١٤٤ ، بتاريخ ١٥ نوفمبر ١٩٧٩م ، ص٣٧ .

وإســرائيل وجهاز المخابرات الإيراني (السافاك) ، وكانت هذه السفارة تشكل حكومة داخل حكومة إيران ، وإن شئت فقل هي المركز الفعلي لإدارة البلاد ، ولم تكــن مهمــة موظفي السفارة مجرد الحفاظ على العلاقات الدبلوماسية مع حكــومة الشاه ، وإنما أصبحت حماية نظامه المتعاون معهم على استغلال ثروات إيران ، وكان بالسفارة عناصر من المخابرات المركزية الأمريكية .

وعــندما اشــتدت يد الثورة في داخل إيران وهددت الشاه والوجود الأمريكي والصهيوني في إيران ازداد نشاط السفارة الأمريكية ، وتوجس رجال الثورة خيفة من أعمال السفارة المضادة لثورتهم ، وتذكروا الانقلاب الأمريكي المــضاد الــذي دبرته السفارة الأمريكية عام ١٩٥٣م ، وتم لهم إعادة الشاه وضــربوا المعارضــة الإيرانية ضربة قاصمة ، وتم القضاء على معارضة مصدق ورجــال الدين ، فصدقت نية رجال الثورة على احتلال مجمع السفارة التي هي في عقــر دارهــم قبل أن تفترسهم وتقضي على ثورتهم ، وتجارب الماضي ماثلة أمامهم .

وكانت قد حدثت بعض الصدف الطيبة التي ساعدت رجال الثورة في الإقــدام علــى احــتلال السفارة ، فعندما تم القبض على الجنرال "نعمة الله ناصــري" رئيس جهاز السافاك حصلت منه الثورة على اعترافات مفيدة منها : أنــه كــان للــسافاك عميل داخل السفارة الأمريكية واسمه الحركي "حافظ" فاتــصلت بــه حكــومة الثورة سراً ، ووعدته بالأمان إذا ما استمر في نشاطه لــصالحهم ، وتعــاون حافظ فعلاً تحت التهديد مع رجال الثورة وسلمهم عدة وثائــق هامة أبانت عن التحركات السرية الأمريكية ضد الثورة ، وكانت هذه المعلــومات عــاملاً مــن عوامل الإسراع في احتلال السفارة ، حيث أن بعض الوثائق كانت تدل على أن رحلة الشاه إلى الولايات المتحدة أمر دبر له من قبل الثورة ، وعندما ترك الشاه المكسيك إلى نيويورك يوم ٢٢ من أكتوبر ١٩٧٩م

لم يعـــد هناك أدنى شك في أن هناك أمر يدبر ضد الثورة ، وتراءت أمام رجال الثورة ذكريات عام ١٩٥٣م المفزعة .

وطلـــب الخمـــيني من الطلبة حراس الثورة في بيان أن يفتحوا عيونهم ويـــرقبوا مؤامرة الولايات المتحدة هذا العدو الخبيث ، وبناء على ذلك قامت اللجـــنة الـــثورية داخـــل جامعـــة طهران باعتماد خطة للهجوم على السفارة الأمريكية للاستيلاء على بقية الوثائق التي كانوا يعلمون أنها ستزودهم بكثير من المعلومات عن سياسات الشاه واتجاهاته وخطط أمريكا ضدهم .

وفي ٤ مـــن نوفمبر ١٩٧٩م قامت قوة من الطلبة حوالي ٤٠٠ طالب مـــن الميليـــشيا الـــثورية معـــززين بمساندة الخميني سراً بالهجوم على السفارة الأمـــريكية ، وكـــان "حافظ" عميل السافاك قد أعطاهم معلومات عن مواقع الحـــرس ونقاط الضعف التي كان يتصور وجودها في سور السفارة ، وزودهم بخريطة لكل مباني السفارة ، ولذلك عندما بدأ الهجوم نفذته فرقة مدربة تعرف كل الأماكن ، وخلال ثلاث ساعات تم لهم احتلالها ، واحتجز الطلاب أعضاء الـــسفارة كرهائن ، واشترطوا لإطلاق سراحهم تسليم الشاه السابق إلى إيران لمحاكمـــته ، والأهـــم من ذلك استولى الطلبة على الوثائق المودعة في السفارة ، واستفادت حكومة الثورة من هذه الوثائق في مجالات كثيرة .

وطالت فترة احتجاز الرهائن في السفارة الأمريكية حتى أذلت أمريكا ، وعبثاً حاولت جهات كثيرة التدخل لإطلاق سراح رجال السفارة الأمريكية ، وخاصـــة بعد أن وصلت الثورة إلى هدفها في إبطال مفعول السفارة الأمريكية كمركز للتخطيط للثورة المضادة ، وتم الحصول على الوثائق ، لكن الخميني بعد مـــا أدرك عجز أمريكا عن عمل شيء فعال ضدهم كان يقول لأصدقائه مبرراً هذا العمل : "إنني أريد أن أعلم المستضعفين في العالم أن هناك نقاط ضعف لدى جبابرة العالم يمكن استغلالها لإذلالهم" ، وفعلاً بدأت صورة أمريكا تهتز في العالم

وخاصـــة عندما قامت إيران بنشر المخازي الموجودة في الوثائق الأمريكية التي أبانـــت خطط أمريكا من أجل السيطرة على الدول الضعيفة في العالم الإسلامي وفي العالم كله .

ولقـــد أثرت الوثائق في شعبية بعض رجال الثورة مثل "أبو الحسن بني صـــدر" فقـــد وجـــد رجال الثورة أن اسمه تردد كثيراً في بعض الوثائق بشأن اتـــصالات أمريكية به ، فانتهى به الأمر إلى أن حاصره رجال الدين والطلبة ، وعلـــى الرغم من أنه تم انتخابه رئيساً للجمهورية في عام ١٩٨٠م وكان يحظى بتأييد الخميني ، إلا أن كل هذا لم يعفه من المسئولية نظراً لأن اتصالاته بأمريكا الـــتي أوضحتها الوثائق لم تتم بعلم الخميني ولا بعلم أي فرد من أعوانه بها ، ولم يجد مفراً سوى الهروب إلى خارج إيران .

وحـــاول كـــثيرون من مدعي الدفاع عن حقوق الإنسان التدخل لحل مشكلة الرهائن في السفارة الأمريكية باعتبارها مشكلة إنسانية فحسب بصرف النظـــر عـــن الاعتبارات السياسية ، فكان رد الخميني عليهم عنيفاً يعرفهم فيه بتضاربهم مع أنفسهم إزاء المشاكل الإنسانية في العالم ، وأنهم لا يتحركون لمأساة إسلامية وإنما يتحركون لمشكلة تتعلق بالغرب فقط ، فعندما أرسل بابا الفاتيكان رســـالة إلى الخميني بشأن إطلاق سراح الرهائن الأمريكيين رد عليه بقوله :"لا تـــشغل نفسك بما يحدث في إيران ولتوجه ناظريك إلى ما يحدث في أمريكا، لماذا لزمت الصمت عندما احتلت القدس؟".

وعندما قال له أحد الصحفيين بأن أخذ الرهائن ضد القانون الدولي رد عليه الخميني قائلاً :"وما هي الفوائد التي عادت على إيران من القانون الدولي ؟ هـــل مـــنع الـــشاه من وضع يده على ثروات البلاد ؟ هل منع الأمريكيين من الإطاحة بحكومة إيرانية دستورية وقتل زعمائها ؟ إننا لا نرى أن القانون الدولي

قد احترم مطلقاً في حالة إيران ، وبالتالي لا نرى أي مبرر يفرض علينا أن نحترمه الآن [٢٣] " .

وبقي الخميني على صموده يتحدى العالم كله حتى أثرت مسألة الرهائن في الأوضـــاع الـــسياسية داخل الولايات المتحدة الأمريكية ، وأثرت في مصير الرئيس الأمريكي "كارتر" الذي اعتلى كرسي الرئاسة في مطلع عام ١٩٧٧م ، ونـــزلت بـــشعبيته إلى الحـــضيض وخاصـــة عندما حاول إنقاذ الرهائن بحركة انقـــضاض عسكرية بإنزال بعض القوات الأمريكية في صحراء إيران وفشلت الطائرات في هذه العملية لأنها اصطدمت في بعضها أثناء نزولها فاحترقت وشبت الـــنيران فـــيها وقضت على قواتها المعدة للحركة ، وكانت روسيا تراقب هذه المغامـــرة ، فاتـــصلت بأمريكا تحذرها من مغبة الاندفاع في المغامرات اليائسة ، وكانـــت النتيجة هي سقوط "كارتر" في انتخابات الرئاسة لفترة ثانية ، ولم يقبل الإيرانيون حل المشكلة إلا في مطلع عهد خليفته "ريجان" في يناير ١٩٨١م .

قامـــت الجزائـــر بدور كبير في مجال التوسط لفك أسر الرهائن ، فقد كانـــت هـــي الـــبلد الذي يقوم برعاية المصالح الإيرانية في أمريكا ، وهي بلد إســـلامي لهـــا حكومة ثورية تستطيع إقناع إيران ، وكان لإيران شروط خاصة بالإفراج عن بعض المدخرات الإيرانية في بنوك أمريكا وحكومة الثورة في أمس الحاجـــة إليها بعد أن عضتها أمريكا بناب الحصار الاقتصادي ، ولم يكن هناك مجـــال للتمـــسك بالـــشرط القديم وهو تسليم الشاه لحومة الثورة ، ذلك لأن المقادير كانت قد سبقت الثوار إلى الشاه عقب انتقاله إلى مصر للعلاج في أحد مستـــشفياتها في ٢٤ مـــارس ١٩٨٠م حـــيث قضى نحبه وهو يعاني من مرض الـــسرطان الخبيث في ٢٧ من يوليو ١٩٨٠م ، ودفن في مصر في مدافن أسرة محمد علي الملحقة بمسجد الرفاعي حيث كان أبوه قد دفن من قبل .

- [٢٣] محمد حسنين هيكل ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٤٥ ، ٢٥٠ .

ونحـــن نعتقد أن عملية الاستيلاء على الوثائق في السفارة الأمريكية كانت مهمة جداً لرجال الثورة بعد أن عرفوا بعضها عن طـــريق عمـــيلهم المعروف "حافظ" وتم عن طريقها التعرف على خطـــط الأمـــريكيين التي كانوا يعتزمون تنفيذها في إيران ، وفقد الأمـــريكيون بعدها خطوط الاتصال مع عملائهم في داخل إيران ، وهؤلاء العملاء كانوا يشكلون الرصيد الاحتياطي للانقلاب المضاد ، الأمر الذي أدى إلى ارتباك الأمريكيين بعدها تماماً كما لو كانوا فقدوا البوصلة التي توجههم.

كمـــا أن إيران فتحت بذلك مجالاً كبيراً للضعفاء في العالم الـــذين تـــتحكم في مصائرهم هذه الأوكار التي تسمى بالسفارات وتـــنقض علـــى مـــستقبلهم في الوقت المناسب ، عندما يريدون الـــتخلص مـــن الحكام العملاء والمستبدين الفاسدين ، فتقوم هذه الـــسفارات بمـــساندة هـــؤلاء الحكـــام لكي يدوم لدولها استغلال الشعوب المطحونة .

الحرب العراقية الإيرانية :

كانـــت هناك خلافات على الحدود بين العراق وإيران منذ قامت إيران بـــضم إقليم (**عربستان**) إليها في بداية حكم رضا خان سنة ١٩٢٥م ، وهي العملـــية التي قضت بها إيران على إمارة (**المحمرة**) المستقلة التي كان يحكمها الشيخ (**خزعل الكعبي**) آخر أمراء بني كعب ، وتمكنت إيران من ذلك بمعونة بـــريطانيا الـــتي أرادت ألا يكون بترول هذه المنطقة الكثير في يد عربية فيكون بترول الخليج العربي كله عربياً ، فدبرت مؤامرة مع رضا بهلوي للاستيلاء على

هـــذا الإقلـــيم العـــربي الذي تطل به العراق على الخليج ، ويقع في شرق شط العـــرب ، وفي مقابل هذا أعطاها رضا بهلوي ما أرادت من نفوذ داخل إيران ، وكـــان إقليم عربستان أقرب إلى العراق منه إلى إيران تاريخياً ، ولغوياً وتقاليد سائدة في كلا المنطقتين ، كما أنه مكمل لجبهة العراق المطلة على الخليج العربي والـــتي أصـــبحت العراق بدونه تطل على الخليج بجبهة حوالي (١٣ميلاً) غير صـــالحة لرسو السفن أي أن بريطانيا خنقته بذلك العمل أيضاً ، إذا أضفنا إلى ذلك استقطاع الكويت من جبهة العراق التي تطل بها على الخليج جزءا مهما.

وبعـــد أن اســـتوعبت إيران الإقليم تماماً ، بقيت بعض المشاكل على الحـــدود العراقية الإيرانية معلقة بين البلدين حتى سنة ١٩٧٥م وفي تلك السنة وقعت كل من العراق وإيران اتفاقية في الجزائر ، وأدت هذه الاتفاقية إلى تسوية أهـــم مشكلة بالنسبة للعراق ، وهي مشكلة تمرد الأكراد في شمال العراق والتي كانـــت إيـــران وراءهـــا ، فقـــد كانت تمد الأكراد بالسلاح وتدعم موقفهم الانفـــصالي عن عرب العراق ، وقدمت العراق لإيران بعض التنازلات في شط العـــرب ، لكن الاتفاق كان يتضمن إعادة تخطيط كامل للحدود تحصل العراق من خلاله على مائة كيلومتر مربع من الأرض يستقيم بها خط الحدود العراقية ، وتكونت لجنة مشتركة لتحديد المناطق التي ستحصل عليها العراق [٢٤] .

وعـــندما قامـــت الثورة الإيرانية توقفت أعمال اللجان فجأة وأحس العراقيون أنهم نفذوا الجزء الخاص بهم في اتفاقية الجزائر ، ولكن إيران لم تعطهم مـــا التـــزمت به ، ومنذ عودة الخميني إلى إيران والعلاقات تسوء وتدهور بين البلدين .

---

(٢٤) انظـــر : نـــص اتفاقية الجزائر سنة ١٩٧٥م في نشرة صادرة عن منشورات العالم العربي في باريس سنة ١٩٨١م بعنوان : "الصراع العربي الفارسي" ، الملحق الثاني عشر .

وعلـــى الرغم من أن العراق بادر بمباركة الثورة الإيرانية رسمياً ، فأرسل الرئيس أحمد حسن البكر برقية إلى الخميني يعلن فيها عن سروره للقضاء على حكم الشاه المتعاون مع الصهيونية ، وأعلــن الــرئيس العراقي عن سياسة بلاده التي رحبت بالثورة الإيــرانية التـــي أبــدت تعاطفها مع الثورة الفلسطينية ، وبعد أن جــرى الاستفتاء على الدستور الإسلامي في إيران أرسل الرئيس صـــدام حسين (الذي خلف الرئيس البكر في رئاسة العراق) برقية تهنئة أخرى بمناسبة تصديق الشعب الإيراني على هذا الدستور ، ولكـــن رد الخمينـــي على برقية صدام حسين فقدم الشكر للشعب العراقـــي في عبارات غامضة ، ثم أنهى البرقية بقوله : "والسلام على من اتبع الهدى" ، ومن المعروف تاريخياً أن هذه العبارة كان يخـــتم بهـــا الرســـول علـــيه الصلاة والسلام رسائله إلى الكفار والمشركين عندما كان يدعوهم إلى الإسلام ، وكان معنى ذلك أن الخميني ينظر إلى صدام حسين على أنه خارجاً عن الإسلام [٢٥] .

وتلقفت أمريكا هذه المشاكل وكانت تواقة إلى الانتقام من إيران الثورة ، فـــوجدتها فرصة لتنفيذ خطتها المعروفة بالضرب بيد إسلامية وتكون هي غير ظاهـــرة في الـــصورة علـــى طريقة المثل العربي القائل : "بيد عمرو لا بيدي" ، فلعبت دوراً كبيراً في إزكاء الخلاف بين الطرفين وخاصة أنها قدرت أن مثل هذا الـــصدام العراقي الإيراني سيقضي على أي وفاق عربي إيراني محتمل بعد تعاون مـــنظمة فـــتح الفلسطينية مع الثورة الإيرانية ، ويمزق إي إمكانية لالتقاء عربي إيـــراني ، فضلاً عن تحالف عربي إيراني يجعل الشرق الأوسط كله منطقة متروعة

---

(٢٥) محمد حسنين هيكل ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٦٧ .

النفوذ الأجنبي ، ويطرح إمكانية الاستخدام الموحد للنفط في مواجهة الاحتكارات العالمية ، ومواجهة السياسة الأمريكية المنحازة لإسرائيل [٢٦] .

وتصاعدت الاشتباكات على الحدود بين العراق وإيران في شهري يوليو وأغسطس ١٩٨٠م ، وفي بداية شهر سبتمبر بدأت معارك محدودة جوية وبحرية ، وزادت حشود الطرفين على الحدود ، وفي ١٧ من سبتمبر قام صدام حسين بإعلان من جانب واحد بإلغاء اتفاقية الجزائر ١٩٧٥م بحجة أن حكام إيران قد أخلوا بالاتفاقية منذ بداية عهدهم .

وفي ٢٢ من سبتمبر ١٩٨٠م اجتاحت القوات العراقية الحدود الإيرانية في هجوم كاسح على إيران ، وتحركت القوات الجوية العراقية وأغارت على عشر قواعد عسكرية وجوية في عمق الأراضي الإيرانية ، وعطلت مدارجها وشلت العديد من هذه المواقع ، وكان أهمها مطار (كرمنشاه) العسكري وقاعدة همدان الجوية ، وقاعدة طهران الجوية ، وقاعدة أصفهان ومطار الأحواز ، وقاعدة شيراز ، وقاعدة تبريز .

وقامت الطائرات الإيرانية بغارات على البصرة وبغداد ونينوة وواسط في الأراضي العراقية ، ووجهت السلطات الإيرانية تحذيراً إلى دول الخليج من أي هجوم بري أو بحري أو جوي ينطلق من موانيها ضد الأراضي الإيرانية ، ولهذا التحذير الإيراني مغزاه ، لأن إيران تدرك أن العراق سيحتاج أثناء الحرب إلى الارتكاز في بعض الموانئ الكويتية وخاصة حول جزيرة (بوبيان) الكويتية التي تقع في خليج الكويت ، لأن العراق ليس لديه موانئ في الخليج صالحة لرسو السفن .

---

[٢٦] محمد جلال كشك ، مجلة الحوادث اللبنانية ، عدد ١١٨٠ ، بتاريخ ١٩٧٩/٦/١٥م ، بعنوان "الخليج يحترق في الشتاء" .

ونتج عن هذه الحرب إيقاف تصدير النفط الإيراني وتأزمت الأوضـــاع الاقتصادية في إيران ، وكانت العراق تود أن يكون هذا باعثاً لإيران على طلب المفاوضات لتسوية الخلافات ولكن ذلك لم يحـــدث ، وتطــورت الحرب تطوراً مفزعاً حيث أقدمت كلا البلدين علـــى تدميـــر كـــل مـــا يمكن تدميره في داخل الأراضي العراقية والإيـــرانية دون تمييـــز للأهداف المدنية من العسكرية ، وأريقت دماء إسلامية بسبب العناد الإيراني .

وتمـــادى الإيـــرانيون فـــي رفض الصلح الذي طلبه صدام حـــسين أكثر من مرة ، ولعبت الدول الكبرى دوراً خبيثاً في مجال إزكـــاء وإشـــعال نـــار الحـــرب لكـــي تقضي على قوة الدولتين الإســـلاميتين ، واعتبر الإيرانيون بعد فترة أن الحرب كانت لازمة لهـــم لتوحـــيد الجـــبهة الداخلـــية في إيران بعد الثورة حيث كان الصراع داخل إيران بين القديم والحديث على أشده فجاءت الحرب مع العراق فوحدت كل هؤلاء ضد العدو الخارجي ويتطهر الجيش الإيراني على حد تعبير آيات الله في إيران .

وتقـــدمت إسرائيل على الرغم من جرحها الذي مازال ينزف من إيران الثورة ، تقدمت إلى مساندة إيران في الحرب لإضعاف العرب والمسلمين عموماً ، فأمـــدت إيران بالمعدات العسكرية أضحت إيران في حاجة ماسة إليها من أي مكـــان لأن نـــار الحرب أحرقت كل مخزونها من السلاح ، وقامت الطائرات الإســـرائيلية بالهجوم على المفاعل النووي العراقي سنة ١٩٨١م ، الذي تقدم العراق عن طريقه في مجال الأبحاث النووية .

وبـــدأ الخمـــيني يوجه رسائله إلى الشعب العراقي يطالبه فيها بالإطاحة بحكومة صدام حسين ، ودعا الجيش العراقي إلى توجيه أسلحته إلى صدور قادته وإســـقاط الـــنظام الحاكم في بغداد ، وبدأت إيران تتلقى أسلحة من كثير من المصادر الروسية والأمريكية والفرنسية وغيرها من المصادر والهدف واضح من هؤلاء جميعاً ليس لصالح العالم الإسلامي وإنما لتدمير البلدين ، وتنفست أمريكا الصعداء واعتلاها ارتياح لما أصاب العراق وإيران على السواء على الرغم من النفاق الأمريكي المعهود والإعلانات التليفزيونية بأنها على الحياد .

المحصلة النهائية :

والمحـــصلة النهائية أن الحرب التي أثارتها العراق ، ومن ورائها أمريكا والغـــرب ، ومدعمـــة من دول البترول ضد إيران ، قد دعمت من قوة الثورة الإســـلامية في إيران ، على مدى ثمان سنوات ، وأعطت رجال الثورة القوة ، بأن يضربوا معارضيهم في إيران بيد من حديد ، لأنه لا صوت يعلو فوق صوت المعـــركة مع أعداء الوطن ، حتى أن ابن شاه إيران المخلوع عرض على الخميني أن يأتي إلى وطنه من المنفى ، لكي يحارب ضد أعداء الوطن .

وقف الحرب الإيرانية العراقية :

انتهت الحرب الإيرانية العراقية فجأة عام ١٩٨٨م ، عندما اقتنع "آية الله الخمـــيني" أن اســـتمرارها لم يعد ممكناً ، بسبب استترافها لموارد بلده المالية والبشرية ، وقال "آية الله الخميني" في كلمة قصيرة حزينة لشعبه ، قال فيها "إنه كـــان أهون عليه أن يتجرع كأساً من السم ولا يقبل بوقف إطلاق النار ولكنه الآن يقبله" [٢٧] .

---

[٢٧] محمد حسنين هيكل ، حرب الخليج ، ص٢٢٥ – ٢٢٨ .

وأدى الانهيار المفاجئ لإيران ، إلى مشاعر متناقضة في بغداد ، وبشكل ما فإن العراق أحس بالفراغ المباشر ، نتيجة لتوقف حرب شغلته واستغرقته بالكامل سياسياً وعسكرياً واقتصادياً ونفسياً ، وبتوقف المعارك بدأت قوة العراق تواجه نوعاً من البطالة ، قريب الشبه بالفراغ الذي دهم القوات المسلحة الأمريكية بعد سقوط التهديد السوفييتي .

الهجوم العراقي على الكويت :

دخلت العراق في خلاف مع الكويت ، بسبب حصص البترول واتهمت الكويت بأنه السبب في انخفاض أسعار البترول ، لأنه ينتج أكثر من حصته ، ويغرق السوق بالبترول ، وأن ذلك يضر بالعراق وتحركت أطماع العراق القديمة في الكويت ، وتحرشت القوات العراقية بها ، وشاركت السفيرة الأمريكية في إغرائه باحتلال الكويت ، قائلة بأن أمريكا لا تتدخل في نزاعات بين العرب ، وفي الثاني من أغسطس عام ١٩٩٠م احتل العراق الكويت ، وادعى أنها جزء من بلاده ، وأطلق عليها المحافظة رقم ١٩ من بلاده ، وثار العرب في الخليج والعالم العربي ، وأهم من ذلك ثارت أمريكا ، ولم تقبل أن يكون في يد صدام ثلث بترول الخليج ، يتحكم فيه ويهدد الباقي .

تم إرسال قوات أمريكية إلى الخليج ، بطلب من الكويت والسعودية ومعها قوات فرنسية وإنجليزية ثم عربية ، مصرية وسورية وخليجية ، وبعض الدول الإسلامية ، وظهرت قوة أمريكا في السيطرة على الأمم المتحدة ، بعد ضعف الاتحاد السوفييتي ، الذي أصبح يستجدي المعونات من أمريكا لإطعام الجوعى في روسيا وغيرها من الدول التي أفقرها الشيوعية .

وبدأ العراق يشعر بأنه محاصر بقوى معادية ، وأغلقت في وجهه كل السبل ، ففكر في اللجوء إلى إيران في أزمته ، رغم ما جرى بين البلدين من حرب في عقد الثمانينات ، قضت على الأخضر واليابس ، فأعلن "صدام

حسين" فجأة استجابته من طرف واحد لكل طلبات إيران ، وبعث إلى طهران برسـل علـى مستوى عال ، بينهم السيد "طارق عزيز" ، وأبدى الإيرانيون استعداداً للتعامل مع الموقف بمرونة ، على الرغم من تحرك أطراف عربية ودولية ضد هذا التقارب ، ومنها سوريا .

والـذي دفع العراق إلى ذلك هو الحصار البحري والجوي الذي أحاط بـه بطوق من الفولاذ ، إلى حد يجلب شعوراً بالاختناق ، وبذلك كسبت إيران مـن العـراق كل ما كانت تود أن تأخذه ، الأمر الذي جعل الناس يقولون : ولماذا كانت تلك الحرب المهلكة طوال ثمان سنوات ؟ .

ووقعـت الحرب ولم تستفد العراق من هذا التنازل الضخم شيئاً ، بل على العكس ، خسرت حوالي ١٣٥ طائرة لجأت اضطرارياً إلى الهبوط في إيران ، ولم تعترف إيران منها سوى بحوالي ٢٣ طائرة ، قالت أنها جزء من تعويضات الحرب .

وتحطمت قوة العراق العسكرية ، وضربت قوات التحالف كل منشآته ، وأراد الأمـريكان في النهاية تقسيم العراق ، إلى ثلاث دول : دولة كردية في الـشمال ، ودولة شيعية في الجنوب ، وثالثة سنية حول بغداد ، وكانت إيران جاهـزة لتـشجيع إخوانها الشيعة في جنوب العراق ، وظهرت حكومة مؤقتة شيعية ، مقرها طهران بقيادة السيد "محمد باقر الحكيم" (٢٨) .

وفوجـئت الـسعودية التي تعد هي الأخرى لحكومة مؤقتة للعراق ، أعـدتها وحرصت على طابعها السني ، المفاجأة قاسية التي تخشى من الشيعة ، لأنهـم يتمركزون بالدرجة الأولى في شريط يمتد من جنوب العراق إلى جنوب شـبه الجزيـرة العربية ، ويرى البعض (٢٩) بأنهم قاموا بأدوار بارزة في تاريخ

---

(٢٨) المرجع السابق ، ص٥٧٣ – ٥٧٤ .

(٢٩) محمد حسنين هيكل ، المرجع السابق ، ص٥٧٤ .

الحركة القومية العربية ، لكن بعض المؤسسات الرسمية للفكر السني ، لم تستطع في كثير من الأحيان تقدير هذا الدور ، وقد راحت هذه المؤسسات تختلط مرات كثيرة ، مفترضة وجود خلافات أعمق بين المذاهب الإسلامية ، وبدلاً من أن تحاول مؤسسات السنة الواثقة من نفسها ، بحكم أغلبيتها الساحقة في العالم العربي ، تقريب الخلافات بين المذاهب ، فإنها — واعية أو غير واعية — راحت تزيد الفجوة ، غير مدركة أنها بذلك تفتح ثغرات لا داعي لها في الجسم العربي [٣٠] .

وفي مارس عام ١٩٩١م ، والسعودية لا تخفي سعادتها بما حدث للعراق ، جاءت يقظتها المفزعة من هذه السعادة بمخاوفها من أن الشيعة على وشك الاستيلاء على السلطة في العراق ، وأن الخطر الشيعي أصبح العدو رقم واحد حتى بعد "صدام حسين" ، وأنه إذا نجح الشيعة في الجنوب واستولوا على بغداد ، أو إذا أقاموا دولة لهم في الجنوب فقط ، فإن المد الشيعي سوف يصل من هناك إلى الكويت وإلى البحرين ، ويندفع إلى المنطقة الشرقية للسعودية ، وبالذات منطقة القطيف وعاصمتها "الظهران" ، عاصمة البترول السعودي ، وإذاً فالأمر جد خطير .

ولكن الجيش العراقي ، الذي عاد من معركة الكويت خاسراً يلعق جراحه ، اندفع إلى الجنوب الشيعي والشمال الكردي ، الذي كانت تعد فيه مؤامرة شبيهة بمؤامرة الجنوب ضد العراق أن يستعيد السيطرة على الشمال والجنوب ، وتخلت الأطراف الخارجية عن معاونة الشيعة في الجنوب والأكراد في الشمال ، خوفاً من عواقب الأمور المرتقبة والنتائج المزعجة من إقامة دولة شيعية في الجنوب أو كردية في الشمال .

---

(٣٠) المرجع السابق ، ص٥٧٤ .

واكـتفت الـولايات المـتحدة الأمـريكية وحلفائها بتشديد الحصار الاقتـصادي والعـسكري على العراق ، وملاحقته بتدمير إمكانياته العسكرية الباقية ، بعد أن أصبح مجلس الأمن أداة طيعة في يدها ، وعدم وجود قوة موازنة تقف أمام جبروت أمريكا .

وهكذا فإن الفرصة أعطيت للثورة الإسلامية ، كي تتمكن من السلطة وتقـود الوطن ، والذي أعطاها هذه الفرصة هم أعداؤها ، وذلك مثل الفرصة الـتي أعطيت للثورة الفرنسية في أوروبا ، عندما تحرش بها أعداؤها في أوروبا ، وأثاروا حرباً أوروبية ضدها ، فانتشرت مبادئ الثورة الفرنسية في أوروبا كلها.

ومثل هذا حدث للثورة الإسلامية في إيران ، فإن مبادئها انتشرت بقوة في المنطقة العربية والبلاد الإسلامية ، وكانت مبادئها تنتشر بقوة في دول الجوار ، وعلـى الأخص أفغانستان وباكستان وطاجيكستان ودول وسط آسيا ، ومن ثم فإنـنا سنـشهد نضالاً قوياً ضد الاتحاد السوفييتي في أفغانستان ، ستكون له نـتائج ضـخمة ، ليس في أفغانستان وحدها ، وإنما في دول وسط آسيا التابعة للاتحاد السوفييتي نفسه ، وفي البلاد الإسلامية العربية وغير العربية .

محاولة التضامن الإسلامي :

بعـد هـزيمة العرب أمام إسرائيل سنة ١٩٦٧م واعتداء اليهود على المسجد الأقصى سنة ١٩٦٩م بحرق جزء منه فاستيقظ العالم الإسلامي ، ورأى أنـه لابـد أن يتضامن ، وطرحت صيغة كومنولث إسلامي ، وطرحت فكرة الجامعة الإسلامية من جديد لتوحيد السياسة والثقافة والاقتصاد والحرب وإحياء اللغة العربية وجعلها لغة الثقافة والتفاهم الإسلامي ومحو العنصرية بين المسلمين ، وطـرح الملـك فيـصل بن عبد العزيز فكرة للتضامن الإسلامي حيث قال لـزعماء المسلمين فلنتضامن في النوائب والكوارث والنزلات وكل دولة على حالها من ناحية نظامها السياسي سواء كان ملكياً أو جمهورياً .

وفي سنة ١٩٦٧م وقعت الهزيمة المرة بالعرب في الحرب التي شنها اليهود عليهم واستولت إسرائيل على شبه جزيرة سيناء من مصر ومرتفعات الجولان من سوريا والضفة الغربية لنهر الأردن من المملكة الأردنية الهاشمية ، وبلغت مأساة العرب والمسلمين أقصاها باعتداء اليهود على المسجد الأقصى وحرقه عام ١٩٦٩م بهدف إعادة بناء هيكل سليمان مكانه ، وما نفعت الجامعة العربية في هذا المجال ذلك لأنها صورة ميتة خالية من النضال والترابط والعمل الجدي كما أرادها الإنجليز من قبل .

ودعا الملك فيصل إلى انعقاد مؤتمر للدول الإسلامية ، وافتتح أول مؤتمر في التاريخ بمدينة الرباط عاصمة المملكة المغربية ، ولبى الدعوة ٢٥ دولة ، وتمخض المؤتمر عن توصية لعقد سلسلة من المؤتمرات لوزراء الخارجية لوضع أسس لقيام أمانة دائمة لمؤتمر الدول الإسلامية ، واكتفى المؤتمر باستنكار الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية ، وندد بحرق المسجد الأقصى ، وطلب الانسحاب الكامل غير المشروط لإسرائيل من الأراضي العربية المحتلة ، وأيد حقوق الشعب الفلسطيني المغتصب ، وتحفظت كل من تركيا وإيران الشاه على قرار المؤتمر بدعم المقاومة الفلسطينية [٣١] .

وأثمرت فكرة التضامن عن اجتماعات دورية لقادة وزراء خارجية المسلمين ، وأنتجت مؤسسات ثقافية واقتصادية وسياسية لم تكن لها قدرة فعالة في المجال الدولي الإسلامي والعالمي ، فقد اجتمع وزراء خارجية الدول الإسلامية في أكثر من ١٥ مؤتمراً حتى مطلع القرن الحادي والعشرين ، بالإضافة إلى عدة مؤتمرات للقمة ماعدا الاجتماعات الاستثنائية .

والمضحك المبكي أن زعماء العالم الإسلامي اختلفوا في مؤتمر إسلام أباد على اللغة التي تدار بها جلسات المؤتمر ، فالدول التي كانت مستعمرات فرنسية

- [٣١] حركة التحرر الوطني الفلسطيني (فتح) ، (قصة الأقصى الذي احترق) ، القاهرة ١٩٦٩م ، ص٣٣ .

في الماضـــي طلبت بأن تكون لغة المؤتمر هي الفرنسية ، أما الدول التي كانت بها اســتعمار إنجليزي فقد أصرت على أن تكون لغة المؤتمر هي الإنجليزية ولذلك كـــان انقـــسامهم في موضوع أفغانستان انقسام ميول إلى أمريكا أو إلى الاتحاد الـــسوفييتي ، وفي مـــسألة لغة المؤتمر كان انقسامهم استعمارياً ، وليس هذا في اللغـــة فقط وإنما في الاتجاهات السياسية والمشارب الثقافية ، وفي النهاية اتفقوا علـــى جعـــل اللغة العربية التي هي لغة القرآن الكريم هي لغة المؤتمر والإنجليزية والفرنسية هي لغات للمؤتمر وأعلن ذلك في ميثاق منظمة المؤتمر الإسلامي .

وأثمرت صيغة التضامن الإسلامي مؤسسات كثيرة للعمل الإسلامي غير أن قـــراراتها وتوصياتها ضعيفة وغير ملزمة للأعضاء ، وبدأ الغرب يحارب فكرة المؤسسات الإسلامية التي نتجت عن اجتماعات مؤتمرات القمة الإسلامية ومنها : فكرة البنوك الإسلامية مثل بنك فيصل الإسلامي المصري وله فروع في جميع أنحـــاء العالم الإسلامي ، والمصرف الإسلامي الدولي للاستثمار والتنمية المصري الـــذي حاربته مصر حتى أفلس ، وحرضت رأس المال المصري من عدم التعامل مع هذه البنوك الإسلامية ، وبذلك فشلت فكرة البنوك الإسلامية .

وصـــفوة القـــول أن نظام منظمة المؤتمر الإسلامي لم يكن فعالا في حل مـــشاكل العـــالم الإســـلامي مـــثل : مشكلة كشمير ، والصومال ، والقضية الفلـــسطينية ، والبوســـنة والهرسك ، والشيشان ، والمسلمين في الصين ، وغير ذلك من مشاكل العالم الإسلامي الذي يصر الغرب على عدم حلها .

بيـــنما يتوجه الغرب بكل قوته إلى مشاكل الأقليات المسيحية في العالم ويحلـــها بـــسرعة ، كمـــا حدث في مشكلة الأقلية المسيحية في تيمور الشرقية بإندونيسيا ، فبمجرد أن بدأت الاضطرابات بين المسلمين والمسيحيين في تيمور الـــشرقية قامت الدول الغربية المسيحية على قدم وساق وأعطت المسيحيين في تيمور الشرقية حق تقرير المصير في عدة شهور سنة ٢٠٠٣م ، على الرغم من

أنهم أقلية موجودة منذ زمن بعيد داخل إندونيسيا ولا يمكن لهم العيش وحدهم ، وهكذا فإن نظام الكيل بمكيالين في القضايا الدولية أعطى المسيحيين في تيمور الشرقية حقهم في الاستقلال بسرعة عن إندونيسيا ، ولم يعط الفلسطينيين الذين يكافحون منذ قرن من الزمان حقهم في الاستقلال عن إسرائيل .

العالم الإسلامي بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م :

الـــذي يدفع كثيرا من الثوار في العالم الإسلامي لأعمال عنف لمواجهة الظلم الذي يترل بهم بسبب عدم حل مشاكلهم وإعطائهم حق تقرير مصيرهم ، وهـــو الحق الذي تقرره مواثيق الأمم المتحدة ، وتعطيهم الحق أيضاً في مقاومة الاســـتعمار ، وهـــذه المقاومة حق من حقوقهم ، ومع ذلك فإن الدول الكبرى تطلـــق على هذه المقاومة أنها إرهاب ، وبدأت أمريكا تحارب هذه المقاومة التي تطلـــق علـــيها أنها إرهاب ، وبذلك ضاعت حقوق المناضلين المسلمين في كل مكان .

ولـــذلك اندفع بعض المناضلين في العالم الإسلامي إلى الانتقام من بعض الدول الغربية الكبرى التي ترسي قواعد الكيل بمكيالين في قضايا العالم ، ودبروا الانـــتقام مـــنهم وعلـــى رأسهم أمريكا ، فدبرت مجموعة من عشرين شخصاً الانتقام من أمريكا ، وكانت هذه المجموعة بقيادة بعض الثوار السعوديين الذين لهـــم خـــبرة في مقاومة الاتحاد السوفييتي السابق في أفغانستان ، وهذه المجموعة تـــسمى (القاعدة) بقيادة أسامة بن لادن السعودي ، والدكتور أيمن الظواهري المصري ، وكان هذا الانتقام هو الهجوم على أمريكا في عقر دارها بالطائرات . وقـــد أصاب هذا الهجوم مركز التجارة العالمي في نيويورك ومبنى البنتاجون في واشنطن ومحاولة ضرب مبنى الكونجرس الأمريكي والبيت الأبيض، وقد نجحوا في ضرب بعض الأهداف مثل مبنى التجارة العالمي والبنتاجون في ١١من سبتمبر ٢٠٠١م .

واهتـــزت أمريكا كلها لهذا الحدث وأعلنت الحرب ليس على القاعدة الـــذي مقـــرها في أفغانـــستان وإنما على العالم الإسلامي كله ، ومن هنا بدأت الحـــرب التي مازالت دائرة على أفغانستان والعراق ولبنان وفلسطين والتحرش بإيـــران وســـوريا ، ويطلقون عليهما محور الشر ، ويتحرشون أيضاً بحزب الله الذي يقاوم التدخل الإسرائيلي في لبنان .

لديـــنا خطاب للرئيس بوش الابن أعلنه أمام الكونجرس بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م ، بتاريخ ٢٩/١/٢٠٠٢م يعلن فيه صراحة لا لبس فيها عداؤه للعرب والمسلمين في بلادهم أو في أمريكا ذاتها ، ويتوعد كل من يقف في طريقه معلناً أن معركته ممتدة وسوف تدور رحاها أو دارت بالفعل في الدول العربية والإسلامية ويؤكد في صراحة لا لبس فيها تأييده لإسرائيل فيما تقوم به من قتل وتدمير واغتيال ومذابح ضد الفلسطينيين ، ولا يتورع أن يعلن قائلا أنه ســـيظل في حـــربه هذه حتى يشرب المسلمون الخمر ويأكلوا الخنزير ويباشروا الجنس والشذوذ الجنسي وأنه سيعمل على أن تسود الحضارة المسيحية اليهودية الـــتي يقودها الرجل الأبيض ، وأن أي مؤسسة عالمية ستقف في طريقه سيعمل على إزالتها ، وأن الجامعة العربية يجب حلها .

ويعلـــن أنـــه سيمضي على خطوات أبيه من أن يشن حرباً ضد العرب والمـــسلمين كل عشر سنوات حتى لا تقوم للعرب والمسلمين قائمة ، وأن كل بترول الشرق الأوسط من السعودية ودول الخليج وإيران والعراق سيصل إلى أمريكا وتتحمل الدول المنتجة للبترول نفقاته ، ويعلن في صفاقة أن إسرائيل هي الحليف الأوثق لأمريكا ويهدد كل من تسول له نفسه ويعبر عن عدم رضاه مما تقـــوم به إسرائيل في فلسطين وما حولها من البلاد العربية الأخرى من عدوان ومذابح وعبث وفساد في الأرض وإهلاك للزرع والحرث والنسل .

والخطاب نشر في صحيفة أمريكية هي " ميديا مونيتورز نتويرك" لكاتب طبيب مسلم أمريكي من أصل شرق أوسطي عمل في مجال الطب الأكاديمي والصحة ، ويقوم بكتابة مقالات عن القضية الفلسطينية والإسلام والسياسية الخارجية الأمريكية في الشرق الأوسط .ونقله الدكتور محمد إبراهيم الجيوشي في كتابه عن الأقليات الإسلامية في المجتمعات الغربية (٣٢) .

ويفتخر بوش بأنه سينفذ خطة أبيه وجده بقتال العرب والمسلمين كل ١٠ سنوات لفرض الهيمنة على العالم الإسلامي ، فيقول :" يا دادي (بوش الأب) إنني آمل أن أكون قد حافظت على إرث آل بوش حياً بمحاربة العرب والمسلمين كل عشر سنوات لضمان استمرار الفوضى في بلادهم" .

وعلى الرغم من تعاون الكثير من الدول الإسلامية مع أمريكا عسكرياً ومخابراتياً في محاربة الإرهاب ، وذلك كما فعلت باكستان وإيران والسودان ومصر والسعودية ، إلا أنه يقيم علاقات لتطوير التكنولوجيا النووية المدنية مع الهند ويرفضها مع باكستان التي جعلت أرضها وسماءها مجالاً مباحاً للأمريكيين أثناء حربهم في أفغانستان ، ويحاصر إيران ويتحرش بها عسكريا لمنعها من تطوير تكنولوجيا نووية للأغراض السلمية ، ويغض الطرف عن إسرائيل النووية .

ويتعهد بوش أمام الكونجرس الأمريكي في خطابه السالف بأنه سيرغم العرب والمسلمين على توريد البترول إلى الولايات المتحدة الأمريكية في أنابيب تحت الماء على نفقتهم الخاصة لكي لا تنقطع إمدادات البترول عن أمريكا في أي ظروف حربية فيقول :"وسنبدأ العمل في مشروع طموح لبناء خط أنابيب تحت الماء من المملكة العربية السعودية والخليج والعراق وإيران إلى نيويورك وعلى نفقتهم لضمان إمدادات نفطية غير منقطعة ".

---

(٣٢) د.محمد إبراهيم الجيوشي ، الأقليات الإسلامية في المجتمعات الغربية ، ص ٢٢ــ ٣٣ .

ومن هنا يجب أن نتنبه لخطورة التعامل مع أمريكا التي ترغب في تخريب العالم الإسلامي وألا نغتر بمقولة أنها تريد الإصلاح الديمقراطي في العالم الإسلامي ، فالإصلاح سيأتي إن عاجلاً أم آجلاً لا محالة .

ويجب على الزعماء العرب والمسلمين أن يمنحوا شعوبهم جانباً كبيراً من الديمقـــراطية ، وأن يسمحوا للمعارضة في بلادهم بتداول السلطة ، فهذا قانون من القوانين الكونية التي تحدث عنها القرآن الكريم في قوله تعالى : "وتلك الأيام نداولها بين الناس" (٣٣) ، وعلى الزعماء العرب والمسلمين أن يقلعوا عن شغفهم في التـــشبث بالـــسلطة مدى الحياة وإقصاء شعوبهم وأن يقلعوا عن آفة محاولة تـــوريث الـــسلطة لأبنائهم ، فإن هذه الأعمال هي التي ستساعد أمريكا على إشـــاعة الفرقة في كل الأوطان الإسلامية ، فتصبح هي الخصم والحكم في نفس الـــوقت ، ويجعلها تنفذ ما وعد به رئيس أمريكا أنه سيجعل البلدان الإسلامية والعربية تقاتل بعضها البعض .

نشر الخلاعة والدعارة :

ويقول بوش بأنه يعجبه قول توني بلير رئيس الوزراء البريطاني حين قال:

"دعـــونا نعـــيد تشكيل العالم ليصبح على صورتنا وهكذا وبفضل إلهنا ســـنقوم نحن شعوب العالم من الجنس الأبيض المتحضر بفرض معتقداتنا الرزينة والودودة والتحريرية على عالم جائع لأموالنا ورسالتنا ، ولن يخضع الرجال بعد الآن لشرط إطلاق اللحى ولن تخضع النساء لشرط تغطية وجوههن وأجسادهن ، ومن الآن فصاعداً يحق للعالم تناول الخمر والتدخين وممارسة الجنس السوي أو الشذوذ الجنسي ، بما في ذلك سفاح القربى واللواط والخيانة الزوجية والسلب والقـــتل ، وقيادة السيارات بسرعة جنونية ومشاهدة الأفلام وأشرطة الخلاعة داخـــل فـــنادقهم أو غـــرف نـــومهم ، وبالنسبة لشركاتنا التي تنتج مثل هذه

---

(٣٣) سورة آل عمران آية ١٤٠ من القرآن الكريم .

المنتجات فسيحق لها الوصول من دون أي عقبات للدول المتخلفة التي منعت تلك الحريات عن شعوبها" .

ويجب علينا أن نتنبه أن أمريكا تحاول أن تشد إلى معسكرها المعادي للإسلام والمسلمين في العالم كلاً من روسيا والصين والهند ، فهو يقول في آخر خطابه :" وقد انتقلت دولتنا بكل فخر من غضب الشوارع إلى الغضب الخارجي وقد نجح هذا في حال إسرائيل وهو ناجح الآن بالنسبة لنا ولحليفاتنا روسيا والصين والهند "

ويقول: " إن جميع المنظمات الدولية التي تعارض أي هدف يتعلق بالمصلحة الوطنية الأمريكية الإسرائيلية (غير ذي صلة) أي لا قيمة لها ، ويشمل هذا منظمات كالأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي ومحكمة الجنايات الدولية ومنظمة التجارة الدولية ومفوضية الأمم المتحدة الخاصة بحقوق الإنسان ، ومفوضية حقوق اللاجئين التابعة للأمم المتحدة ، ومنظمة الصحة العالمية ، والجامعة العربية التي يجب في اعتقادي أنه يجب حلها فوراً ، واللجنة الدولية للصليب الأحمر والفاتيكان وجميع المنظمات الإسلامية،كل هذه المنظمات يعتبرها غير ذي صلة أي لا قيمة لها عندما تتعارض مع مصالح أمريكا وإسرائيل (٣٤)

ومن الأخطار التي يجب علينا أن نتيقظ لها ، بعد القضاء على هيمنة الاتحاد السوفيتي ، هي أن أمريكا بدأت تصطنع لها عدوا بدل الاتحاد السوفيتي وهو الإسلام ، وبدأت تتحرش بالعالم الإسلامي في كل مكان ، وبعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١م بدأت أمريكا سياسة جديدة في تعاملها مع المسلمين هي

- (٣٤) هذا الخطاب نشر في صحيفة أمريكية هي " ميديا مونيتورز نتويرك " لكاتب طبيب مسلم أمريكي من أصل شرق أوسطي ، وقد ترجمه إلى العربية أحمد بشير بابكر ، ونشر في صحيفة الخليج الإماراتية في ٨من فبراير ٢٠٠٢م ونص الخطاب كما هو منشور في صحيفة الخليج ونقله الدكتور الجيوشي في كتابه عن الأقليات الإسلامية في أوربا.

سياسة الحرب الاستباقية ، فإذا ظنت أمريكا أن دولة تستعد للدفاع عن نفسها وتسلح نفسها فلأمريكا الحق دون موافقة الأمم المتحدة في الهجوم عليها ، وذلك كما فعلت في حربها على العراق . فيقول بوش في خطابه أمام الكونجرس الأمريكي بتاريخ ١٩/١/ ٢٠٠٢م :

" توصلت أمريكا أخيرا لمصيرها الواضح أمام العالم فنحن سنكون من يشن الحروب على كل من نختاره هدفا لنا ، .....وإذا رأينا هناك حاجة لإراقة الدماء فسنقوم بذلك بأنفسنا ، ومن الآن فصاعدا فستقرر أمريكا متى ؟ وأين ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟ تشن الحرب " .

نشر ظاهرة التقاتل بين المسلمين :

وهناك خطورة في محاولة نشر ظاهرة التقاتل في العالم الإسلامي ، فقد أعلن بوش في خطابه سالف الذكر أمام الكونجرس الأمريكي بتاريخ ١٩/١/ ٢٠٠٢م : " أنه سيصدّر الإرهاب إلى العالم الإسلامي والعربي ويجعلهم يقاتلون بعضهم بعضاً ، وهذه خطة شبيهة بتصنيع الإرهاب قبل ذلك التي تمت في أفغانستان على يد أمريكا ضد الاتحاد السوفيتي ، وهي خطة تشيع الخراب والتدمير في العالم الإسلامي ، وقد نجحت هذه الخطة حتى الآن في كل من أفغانستان والعراق والصومال وهدفه استمرار الفوضى في البلاد الإسلامية .

وفيما يلي نوضح كيف تم تصنيع الإرهاب :

تصنيع الإرهاب من الجهاد :

بعد أن رأى الأمريكان القوة العقائدية للمسلمين في قتالهم ضد الاتحاد السوفيتي في أفغانستان ، ورأوا سهولة تجمع المجاهدين من العالم الإسلامي لهذا الغرض أدرك الغرب قوة المسلمين العقائدية التي هي أخطر من أعتى الأسلحة.

فحاولت الولايات المتحدة إيجاد عدو جديد لتقديمه إلى الرأي العام الأمريكي وأعضاء الكونجرس عقب انهيار الاتحاد السوفييتي الذي كانت تصفه

الــولايات المــتحدة بــــ " إمبراطورية الشر " فاتخذت الولايات المتحدة عدة إجراءات ضد بعض الدول الإسلامية المناصرة للمجاهدين مثل (إيران) وبلاد المغــرب وبــلاد الشام والجزيرة العربية والسودان باستثناء السعودية ومصر ، وأطلقــت عليها نفس الصفة التي كانت تطلقها على الاتحاد السوفييتي وهى " الدول الشريرة " .

وبدأت الولايات المتحدة وبريطانيا في اتخاذ الإجراءات الظالمة ضد هذه الــدول وإصــدار قــرارات من مجلس الأمن بعقابها وحصارها وفرض حصار اقتــصادي علــيها وأحــيانا بمهاجمتها عسكريا كما حدث في مهاجمة الولايات المــتحدة الأمريكية لليبيا والسودان وأفغانستان والصومال وسكوت العالم على هذه الاعتداءات ، وذلك بسبب انحسار الدور الخارجي للاتحاد السوفييتي الذي كانــت بعض الدول العربية والإسلامية تعتمد عليه في دعم مواقفها وتوجهاتها السياسية.

فصحت عزيمة الولايات المتحدة الأمريكية على معاداة الإسلام بعد زوال خطــر الشيوعية والاتحاد السوفيتي فاتخذوا من هذا الشباب المرفوض من بلاده أداة لــضرب الإســلام وتشويه سمعته ففتحوا بلادهم له وأعطوه حق اللجوء السياسي ، وسمحوا له بنشاط معاد لبلاده لتخريب نهضة هذه البلاد من ناحية ، وتشويه سمعة الإسلام والمسلمين من ناحية أخرى .

وهكذا عندما تم للولايات المتحدة الأمريكية ما أرادت وهو ضرب الاتحاد الــسوفيتي في أفغانــستان ، بــدأت تفكــر في الاستحواذ على هذه الطاقات الإسلامية الجهادية والسيطرة عليها وتوجيهها للعمل ضد أوطانها وتصنيع خلايا إرهابــية مــنها لتشويه سمعة المسلمين في العالم . وفي الوقت نفسه بدأت تضيق الخــناق علــيها في طريق العودة إلى أوطانها وذلك بتخويف حكومات الدول

الإســـلامية مـــنها في الوقت الذي فتحت الدول الغربية أبوابها لهم للعمل ضد أوطانهم .

وتم إيداع البعض من هذه العناصر المجاهدة في غياهب السجون وهم من حامت حولهم الشبهات في أعمال إرهابية زيادة على عملية الجهاد التي قاموا بها في أفغانستان والصومال والبوسنة والشيشان وهنا تحول الجهاد إلى إرهاب ضد الـــدول العـــربية والإســـلامية ، والخطير في الأمر أن المجاهدين العرب الأفغان وجـــدوا لهم ملاذا آمنا في أوربا وأمريكا فقد منحتهم هذه الدول حق اللجوء الـــسياسي وبـــدأت تـــصرف علـــيهم بموجب حق اللجوء السياسي الدولي ، وأصـــبحوا تحت يد هذه القوى العالمية تستعملهم وقت اللزوم ، بل وأدخلتهم بعـــض الدول مثل فرنسا ضمن فرقها من المرتزقة . ولهذا دعا بعض المخلصين مـــثل الدكـــتور مصطفى محمود باليقظة فيما يتعلق بتصنيع الإرهاب من الجهاد فقال : " إننا نرفض تصنيع الإرهاب الإسلامي وفق المواصفات الأمريكية على أيـــدي رجال C . I . A في أفغانستان والعراق والصومال والسودان والجزائر بتسليح القبائل المتناحرة والإنفاق عليها وعلى زعمائها في بذخ شديد . [٣٥]

---

(٣٥) د . مصطفى محمود ، مقال بعنوان " قلب الحقائق " أهرام ٢٥/٤/١٩٩٨م .

الفصل التاسع

الغزو الفكري في العالم الإسلامي

بعـــد أن فـــشل الغزو المادي المسلح للمسلمين من إدراك غاياته وهي السيطرة علي العالم الإسلامي ، تفتق ذهن أعداء الإسلام عن خطة جديدة تقوم على غزو من نوع جديد يؤدي نفس الغرض وهو السيطرة علي المسلمين وهذه الخطة الجديدة هي غزو أفكار المسلمين وتقوم علي مرحلتين :

المرحلة الأولي : هدم الإسلام في عقائده ونظامه وشرائعه وثقافته ولغته وتقاليده ووحدة أمته انطلاقاً من قول المستشرق الفرنسي هنري لامانس (١٨٧٢–١٩٣٧) . "إن الـــسيطرة علـــي أي منطقة من العالم لا تتم إلا من خلال وقف مفعول الحضارة الداخلية لهذه المنطقة " .

وفـــي المرحلة الثانية : بعد وقف مفعول الحضارة الداخلية إغراء المسلمين بتقليد الغرب المسيحي في نظمه وقوانينه الوضعية ولغته وثقافته وتمجيد القيم الغربية المسيحية وذلك علي حساب تراث الأمة الإسلامية وتكون النهاية انصراف المسلمين عن التمسك بالإسلام .

لهذا تخلي الغرب المسيحي عن استعمار الأراضي واستعمر بدلها العقول والقلـــوب مـــا دام هذا يوصله إلى هدفه وهو السيطرة على المسلمين . وهذا الأســـلوب الجديـــد أخطر ألف مرة من أساليب الاستعمار السابقة العسكرية والـــسياسية لأنه يسري في جسم العالم الإسلامي سريان السم ويقدم إليهم في أطـــباق شهية خداعة وهم لا يدرون أن السم في العسل ، لقد قاد هذه الهجمة

اليهود والمستشرقون والصليبية العالمية والمبشرون والشيوعيون والمؤازرون لهؤلاء جميعا في داخل البلاد الإسلامية .

ولكن كيف بدأت هذه الخطة الماكرة ؟ بدأت بعد فشل الحروب الصليبية التي كانت صراعاً سافراً بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي دام نحو قرنين من الزمان فقد بدأت هذه الحروب عام ٤٩٠هـ (١٠٩٦م) بالحملة الصليبية الأولي ثم انتهت بسقوط عكا في يد المسلمين بقيادة السلطان المصري الأشرف خليل بن المنصور قلاوون سنة ٦٩١هـ (١٢٩١م) وحفلت هذه الفترة الزمنية بالعديد من التجارب والعبر المستفادة بالنسبة للمسلمين والصليبين علي السواء .

وقد تبلورت هذه الدروس المستفادة من الحروب الصليبية بالنسبة للصليبيين في وصية كتبها لويس التاسع ملك فرنسا الذي قاد الحملة الصليبية السابعة على مصر سنة ٦٤٧هـ (١٢٤٩م) والتي أتاحت له معاناته في سجنه بالمنصورة فرصة هادئة ليفكر بعمق في السياسة التي يجب على الغرب إتباعها بعد ذلك إذا ما فكر في غزو الشرق الإسلامي .

وكانت بنود هذه الوصية هي تحويل الحملات الصليبية العسكرية إلى حملات صليبية سلمية تستهدف الغرض نفسه ، ويكون سلاح الحملات الجديدة هو إثارة الخلافات بين الأوساط الإسلامية وإشاعة التفكك في وحدة المسلمين ، والعمل على بقاء هذه الخلافات مستمرة بين الأمراء المسلمين والإمعان في تأييد بعضهم ضد البعض وتأمين هذا التأييد إذا دعت الحال بمعاهدات ومحالفات يمكن نقضها عند الاقتضاء واستغلال ما يكون بين العرب وأمراء المسلمين من منافسات وخلافات استغلالا يمكن الغرب من التمتع بامتيازات سياسية واقتصادية وثقافية مما يهيئ السبيل إلى تفتيت الكتلة الإسلامية .

ومـــن ناحـــية أخرى فقد لمس الغرب المسيحي تقدم الشرق الإسلامي حـــضارياً عنه فبدأ يتعلم علوم المسلمين لكي يهزمهم بأسلحتهم وأيضاً ليشوه عقائد المسلمين وتاريخ الإسلام .

يقول المفكر الهندي وحيد الدين خان في هذا الصدد :

"وبعـــد الفشل الذريع (أي في الحروب الصليبية) قررت أوربا تغيير سياستها ، وأخذت تستعد لحملة جديدة على عالم الإسلام" .

"وكانـــت خلاصة التفكير الجديد أن يتعلم الغرب علوم المسلمين ثم يهزمهم بأسلحتهم وفنونهم ذاتها " .

"وسمـــى الأوربـــيون الحرب الجديدة ، بالصليبية الروحية **Spritual Crusade** وكانت غاية الصليبية الروحية أن يتعلم الأوربيون علوم المسلمين فيشوهوا العقائد الإسلامية وتاريخ الإسلام [١] .

دعاة الغزو الفكري : أولا : المستشرقون :

في أعقـــاب الحروب الصليبية عاد الغرب إلى أوربا يحمل صورة مشرقة لمعـــاملات الإســـلام وكثيراً من جوانب التقدم والسماحة ، فتيقظت الكنيسة الكاثوليكـــية لهذا الخطر الذي يهدد المسيحية في عقر دارها، فجندت جماعة من المفكرين في طليعتهم رجال الدين المسيحي يدرسون الإسلام بوحي من الكنيسة للانـــتقاص مـــن تعاليمه وإهدار قيمه ، واتخذوا من وصية لويس التاسع ملك فرنسا السالفة عاملاً مساعداً لهم على ضرب الإسلام والمسلمين .

وبذلك بدأت أولي أعمال المستشرقين لإطفاء هذا الضوء الذي لاح في الغرب وإخراس ألسنة المنصفين منهم وحاولوا جهدهم تناول المسلمين بالتشويه والتـــزييف والعمل على تعميق الكراهية والأحقاد في نفوس الأوربيين وتغذيتها

---

(١) انظر :مقالاً لوحيد الدين خان بجريدة الأخبار القاهرية بعنوان :"الغرب .. حيث توقف المسلمون " ، عدد ١٨ من أكتوبر (تشرين أول) سنة ١٩٧٢ .

بالـــشبهات والأباطـــيل بهدف حجب الإسلام عن أوربا والحيلولة دون نفاذه إليها [٢] .

وعـــندما بـــدأ الضعف يدب في أرجاء العالم الإسلامي في أواخر القرن التاسع الهجري ومطلع العاشر الهجري فكر الغرب المسيحي في الانقضاض عليه للقـــضاء علـــى الإســـلام الذي شبهته الكنيسة الكاثوليكية يومئذ بأنه طاعون وطالـــبت بـــضرورة بذل الجهود للحيلولة بين سكان بقية العالم وبين إصابتهم بالطاعون الإسلامي ، ومن ثم كانت هجمة البرتغاليين والأسبانيين في هذه الفترة على أطراف العالم الإسلامي في البحار الشرقية في نفس الوقت الذي بدأت فيه الاتـــصالات الـــسلمية بقلـــب العالم الإسلامي والعمل على رصد كل صغيرة وكـــبيرة في بـــلاد المسلمين وكشف موارد الثروة فيها واستغلال تلك الثروة ونقلـــها إلى الغـــرب واستتبع هذا الاتصال السلمي نفوذ سياسي قوي للغرب المسيحي في العالم الإسلامي.

تأويل الجهاد :

وتـــساءل الغـــرب كـــيف يدوم له هذا النفوذ السياسي والاستغلال الاقتـــصادي والإسلام مازال يدعو معتنقيه إلى الجهاد والثورة على الاستغلال والظلم ؟ من هنا بدأ الغرب يفكر في وسيلة لإضعاف المسلمين وتقليم أظافرهم والعمـــل علـــى تحطـــيم المقاومة الإسلامية وبدأت جهود المستشرقين في مجال (تأويـــل الجهاد) وصرف أنظار المسلمين إلى الدعة والقعود عن الجهاد في سبيل الله ومدافعـــة الغزاة بالاشتغال بالعبادة والزهد وتسميتها بالجهاد الأكبر [٣] . ليسهل للاستعمار السيطرة عليهم لأطول مدة ممكنة.

- (٢) د : على جريشة ، أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي ، ط١ ص٢١ –٢٢ .
- (٣) المرجع السابق ، نفس المكان

وبدأ المستشرقون عملهم لحماية الاستعمار في البلاد الإسلامية بتشويه مبادئ الإسلام وبعثهم لخلافات المسلمين الماضية وخلقهم خلافات أخرى لا يلتفت إليها المسلم بعد ما صهر الإسلام علاقته بأخيه المسلم وكون منها وحدة قوية .

ولما كان الغرب قد تقدم علمياً في عصر النهضة فقد بدأ يستغل هذا التقدم في المفاضلة بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي من تأخر الأول وتقدم الثاني ثم تركزت الأسباب أخيرا في المقابلة بين الإسلام والمسيحية وأعتبر الإسلام دين المتخلفين والمسيحية دين المتقدمين .

وخلاصة عمل المستشرقين في البلاد الإسلامية تتلخص في غرضين :

الأول : إضعاف القيم الإسلامية عن طريق شرح تعاليم الإسلام ومبادئه شرحاً يهز القيم الإسلامية في عقول المسلمين ويضعف تمسك المسلم بالإسلام ويقوي في نفسه الشك فيه كدين (٤) .

ثانياً : بعد مرحلة التشويه تبدأ مرحلة تقديم البديل للمسلم على أيدي المنصرين الذين يسمون خديعة بالمبشرين لإغواء المسلمين وغيرهم باعتناق المسيحية.

ولقد نجح المستشرقون إلى حد كبير في المجال الأول وفشلوا هم والمبشرين في المجال الثاني وهذا باعترافهم هم .

ثانياً : المبشرون :

عندما أجتمع مؤتمر (المبشرين) في جبل الزيتون بفلسطين عام ١٩٠٩م وقف مقرر المؤتمر ليقول : " إن جهود التبشير الغربية في خلال مائة عام قد فشلت فشلاً ذريعاً في العالم الإسلامي لأنه لم ينتقل من الإسلام إلى المسيحية إلا

- (٤) محمد البهي ،الفكر الإسلامي الحديث ، وصلته بالاستعمار الغربي ص٢٧ .

واحـــدا مـــن اثنين : إما قاصر خضع بوسائل الأغراء أو بالإكراه ، وإما معدم تقطعت به أسباب الرزق فجاءنا مكره ليعيش " .

وهـــنا وقـــف القس(زويمر) ليقول :" كلا . هذا الكلام يدّل على أن المبـــشرين لا يعرفون حقيقة مهمتهم في العالم الإسلامي ، إنه ليس من مهمتنا أن نخرج المسلمين من الإسلام إلى المسيحية ، كلا !

إن مهمتنا أن نخرجهم من الإسلام فحسب وأن نجعلهم ذلولين لتعاليمنا ونفـــوذنا وأفكارنا ، ولقد نجحنا في هذا نجاحاً كاملا ، فكل من تخرج من هذه المـــدارس لا مدارس الإرساليات فحسب ولكن المدارس الحكومية والأهلية التي تتبع المناهج التي وضعناها بأيدينا وأيدي من ربيناهم من رجال التعليم ، كل من تخـــرج من هذه المدارس خرج من الإسلام بالفعل وإن لم يخرج بالاسم وأصبح عوناً لنا في سياستنا دون أن يشعر ، أو أصبح مأمونا علينا ولا خطر علينا منه . لقد نجحنا نجاحا منقطع النظير [٥] " .

وفي مؤتمر سابق للمبشرين في القاهرة في عام ١٩٠٦ قال زويمر سابق الذكر وكان رئيس المؤتمر :

"لم يـــسبق وجـــود عقـــيدة مبنية على التوحيد أعظم من عقيدة الدين الإســـلامي الـــذي اقتحم قارتي آسيا وأفريقيا وبث في مائتي مليون من البشر عقائده وشرائعه وتقاليده ، وأحكم عروة ارتباطهم باللغة العربية ".

ثم قدم القسيس زويمر بعض النصائح للمبشرين من بينها :

(أ) وجوب إقناع المسلمين أن النصارى ليسوا أعداءهم .

(ب) وأخطرها يجب تبشير المسلمين بواسطة رسول منهم ومن بين صفوفهم لان الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها [٦] .

---

(٥) سيد قطب ، في التاريخ فكرة ومنهاج ، ،ط٢ص٦٦-٦٧.

(٦) على جريشة ،أساليب الغزو الفكري ،ط١ ،١٣٩٩هـــ ص ٣٣-٣٤ .

ومـــن ثم فمـــن الواجب علينا أن نتتبع نشاط المستشرقين وأعوانهم في المجال الأول الخاص بإضعاف عقيدة المسلم فإذا أمكننا ذلك استطعنا أن نتعرف علـــى أقـــوالهم التي اختلطت بذكاء وخبث في ثقافتنا المعاصرة لكي نتمكن من غـــربلة هذه الثقافة وتنقيتها من الدخيل الهدام ، أو بمعنى آخر تنقية غذاء العقل والروح من السم الذي دسه الحاقدون على المسلمين في غفلة منهم .

بعث العصبيات الشعوبية بين المسلمين :

نشأت الجماعة الإسلامية الأولى على أيام الرسول محمد عليه الصلاة والـــسلام وفـــيها كـــثير من الأجناس فبجانب العربي كان سلمان الفارسي ، وصـــهيب الرومي ، وبلال الحبشي . والكل أخوة في الله ، فقد صهر الإسلام علاقـــة المـــسلم بأخيه المسلم بقاعدة ذهبية قوامها :" الناس سواسية كأسنان المـــشط" "لا فرق لعربي على عجمي إلا بالتقوى " و "اسمعوا وأطيعوا ولو ولى عليكم عبد حبشي ".

فقـــضى الإسلام بذلك على التمييز بين الأجناس والألوان الذي يغرس الحقد في نفوس البشر ، ومن ثم دخل الإسلام آسيا وأفريقيا وسادت بين أفراده المحـــبة المبنـــية على أساس من المساواة ، وبذلك تقدمت أمته خالية من الحقد والمبنـــية علـــى عـــدم تمييـــز الأجناس . وهو ما كان يسمي في صدر الإسلام بالشعوبية أي التعصب لشعب دون شعب آخر وعرف حديثاً بالقومية والوطنية الضيقة .

ونظـــر الاســـتعمار إلى ما حققه الإسلام من وحدة فريدة بين الأجناس بعـــين ملؤها الحقد ، فجند المستشرقين لإحداث التصدع في البناء الإسلامي ، وفي هـــذا المجـــال ارتـــبط الاستـــشراق بالاستعمار الأوربي ونسقت أعمال المستشرقين تحت رعاية وزارات المستعمرات الأوربية وكانت مهمة الاستشراق في هذا المجال العمل هي تفتيت الوحدة الإسلامية التي كانت ما تزال قائمة في

الدولـــة العثمانـــية ، فعملوا في كتاباتهم على بعث القوميات القديمة التي قضي علـــيها الإسلام لإثارة أسباب الفرقة والقطيعة بين الأجناس الإسلامية المختلفة وعدم اتحادها .

فـــتحدثوا عن (الأكراد) و(العرب) في العراق وعما بين الجنسين من فـــوارق في تـــصور الحـــياة وفهم العقيدة والأماني القومية ، وعلى هذا النحو يتحدثون عن العرب و(البربر) في شمال أفريقيا وما بينهما من اختلاف ، وسكان الشمال والجنوب في السودان و (السنة) و(الشيعة) في العراق وفي إيران والبلاد الإسلامية الأخرى .

وبـــناء علـــى ذلـــك عمـــل الاستشراق والاستعمار على فصل هذه الجنـــسيات مـــن جديـــد ، (فالفرس) في إيران و(الأتراك) في آسيا الصغرى ، و(العرب) في جزيرتهم و(البربر) في شمال أفريقيا . و(المصريون) في وادي النيل وغيرهـــم مـــن الجنسيات عمل الاستعمار متعاونا مع الاستشراق على إعادة قومياتهم من جديد .

واستكمالا لهذا المخطط شجع المستشرقون في جامعات أوربا الدارسين المـــسلمين والعـــرب علـــى دراسة لهجاتهم المحلية ليعيد تمزيق اللغة العربية التي توحدت بالقران إلى لهجات محلية ثم إلى لغات تبعد شيئاً فشيئاً عن اللغة العربية الأم لغـــة القران ، فيبعدون بذلك عن مصدر تشريعهم وعقيدتهم وهو القرآن وبالـــتالي يبعدون أيضا عن تراثهم الفكري الموروث ، ويحاول المستعمر تحويل تراثنا إلى "فولكلور" للتسلية والفرجة .

وشـــجع الاســـتعمار العرب على الانفصال عن الدولة العثمانية تحت شـــعار جديد لا يعرفه الإسلام وهو " القومية العربية" كما سبق أن أشرنا ولم يكـــن هذا حباً في العرب ومصلحتهم ولكنه في الدرجة الأولى من أجل القضاء على الرابطة الإسلامية القوية بين المسلمين ، وخلق ثغرات إقليمية جديدة تزيد

من تفرق العالم الإسلامي ، وفي نفس الوقت أغرى الأتراك المثقفين العائدين من أوربا للتعصب لقوميتهم التركية ، ومن ثم وقع الصدام بين الطرفين أثناء الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م .

يقول المستشرق (المبشر) لورانس براون **Lourance Brown** الذي ألـــف كـــتابا عن "الإسلام والإرساليات" **Islame and Missions** عن خطورة الوحدة الإسلامية :

"إذا اتحـــد المـــسلمون في إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العـــالم وخطـــراً ، وأمكن أن يصبحوا نعمة له أيضا ، أما إذا بقوا متفرقين فانهم يظلون حينئذ بلا قوة ولا تأثير " [٧] .

ويقـــول أيـــضا:" الخطـــر الحقيقـــي كامن في نظام الإسلام وفي قوته على التوسع والإخضاع وفي حيويته انه الجدارالوحيد في وجه الاستعمار الأوربي"[٨] .

وبعـــث القوميات على نحو ما سلف لم يكن هدفا نهائيا للاستعمار وإنما كان هـــدفا تكتيكيا مرحليا عندما يحقق غرضه يبحث الاستعمار عن وسائل أخرى لتمزيق المسلمين كخلق الوطنيات الضيقة .

مراكز محاربة الوحدة الإسلامية:

بدأت السفارات والقنصليات الاستعمارية تعمل عملها في العالم الإسلامي وبلدانه الإسلامية لبث روح الفرقة بين المسلمين ، وكانت أعمالها بارزة بشكل واضـــح في إســـلامبول وبيروت والقاهرة وبغداد ودمشق واتخذت لها مركزين رئيـــسيين : في إسلامبول لضرب الدولة الإسلامية في مركزها الرئيسي ، وفي بيروت لضرب الدولة الإسلامية في قلبها العربي .

أما بالنســـبة لمركز بيروت :

- (٧) محمد البهي ، الفكر الإسلامي الحديث ، ص٥٢٥ .
- (٨) المرجع السابق ، ص٥٢٦ ، ومصطفى خالدي وعمر فروخ ، التبشير والاستعمار ، ص١٨٤.

فقـــد وضـــع له المخطط على أن يعمل للمدى الطويل وللنتائج البعيدة والتي تلمـــس بعض آثارها في هذه الأيام ، ولقد بدأ هذا المخطط على شكل جمعيات مثل :

(**جمعـــية الفنون والعلوم**) التي أنشأها البعثة التبشيرية الأمريكية سنة ١٢٦٥هـــ ١٨٤٧م والتي تولى رعايتها العميلان الإنجليزيان :

"بطرس البستاني " و "ناصف اليازجى" واشترك معهما في رعايتها طائفة من أعضاء البعثة التبشيرية الأمريكية ولم يدخلها أحد من المسلمين ولئن ظهرت هـــذه الجمعـــية بمظهر نشر العلوم والفنون وإحياء اللغة العربية وآدابها وبعث التـــراث العـــربي الفكري ، إلا أن الغرض الصحيح هو إثارة النعرات القومية والحركات الانفصالية عن الدولة العثمانية .

وفي ســـنة ١٢٦٧هـــ ١٨٥٠م تأسست (الجمعية الشرقية) تحت رعاية الأب اليـــسوعي الفرنسي (هنري دبرنير) من المسيحيين العرب والأجانب دون المسلمين .

ثم أتـــت مرحلة جديدة أصبح فيها هذا النشاط في يد الوطنيين العرب من مسلمين ومسيحيين وذلك عندما نشأت سنة ١٢٧٤هـــ ١٨٥٧م (الجمعية العلمية السورية) وأدى هذا النشاط الهدام إلى مذابح سنة ١٢٧٧هـــ ١٨٦٠م الـــتي وقعت بين المسلمين والمسيحيين في الشام والتي أدت إلى تقسيم الشام إلى طوائف متحاربة ويقول (عمر فروخ) عن هذه الفتنة :

"في عام ١٨٦٠ نشبت بين الموارنة والدروز (المسلمين) في جبل لبنان فتـــنة غسلت البلاد بالدماء وتركت في نفوس الناس أسوأ الأثر إلى اليوم إلا أن هذه الفتنة لم تنشب فجأة ولكنها كانت تهيأ خطوة خطوة ولقد كان مهندسوها

بارعين إلى حد أن الذين ذهبوا وقودها لم يعلموا يوم ذلك أن الدول الأجنبية قد هيأتها على أيدي المبشرين " (٩) .

وقــد تسببت أحداث سنة ١٨٦٠ إلى وقف نشاط الجمعيات مؤقتا وهجـرة بعض رجالها إلى مصر ليقظة الدولة العثمانية إلا أنها استأنفت نشاطها بقوة بعد ذلك وأخذت تجند لعملها كثيرا من الشخصيات العربية من المسلمين والمسيحيين على السواء من إسلامبول والقاهرة ودمشق وبيروت وغيرها .

وكانت أول جمعية أخذت شكل التنظيم السياسي هي :

(جمعية بيروت السرية) التي تأسست عام ١٢٩٢هـ (١٨٧٥م) فقامــت علــى أســاس فكرة القومية العربية وكانت في الظاهر تعمل للعرب والعــروبة ، وتثير العداء للدولة العثمانية ، وتعمل على فصل الدين عن الدولة وجعــل القومــية العــربية هي الأساس ، وتحويل الولاء عن العقيدة الإسلامية ليكون للأقليات المسيحية واليهودية في البلاد العربية وجود بل دول في المنطقة وهذا ما حدث فيما بعد .

ويطول بنا المقال لو استعرضنا نشاط هذا المركز ، وغاية ما يمكن قوله هــو أن هــذا المركــز مازال حتى الآن يقذف بالزعماء الذين ينادون بالقومية والوطنــية وكلهم ميشيل وجورج وقسطنطين وانطون وكلوفيس ، وتحول هذا المركز الآن إلى المناداة بسيطرة المسيحيين على المسلمين في لبنان أو على الأقل الاســتقلال عنهم في وكر شبيه بوكر الصهاينة في فلسطين ومن ورائهم الدول الاستعمارية تدفعهم بالسلاح .

وكانــت بلاد الشام تنقسم قبل أحداث سنة ١٨٦٠ إلى التنظيمات الإدارية الآتية :

١ – ولاية (حلب) وتشمل شمال الشام .

---

(٩) التبشير والاستعمار ص١٢٧ .

٢- ولاية (طرابلس) وتشمل وسط الشام .
٣- ولاية (دمشق) وتشمل الجزء الجنوبي من بلاد الشام حتى الحدود المصرية .

وبعد مذابح سنة ١٢٧٧هـ (١٨٦٠م) تدخلت الدول الأوربية وعملت على إنشاء (متصرفية لبنان) (١٠) .

وتدخلت الدول الأوربية أكثر في لبنان من أجل تقسيمه إلى قسمين : شمالي للمسيحيين ، وجنوبي للمسلمين ، يفصل بينهما الطريق الممتد من بيروت إلى دمشق . وكان الاستعمار يريد منها غاية ذكرها أنيس صايغ في كتابه :"لبنان الطائفي " قال :

"وقد أرادت الدول من ذلك المشروع جعل لبنان بلداً مسيحياً " (١١) .

ثم بدأت بعد ذلك بدعة تعيين رئيس مسيحي على لبنان ، فقد انعقد في (بيروت) مؤتمر دولي حضره المفوض عن الدولة العثمانية مع خمسة وكلاء من: بريطانيا وفرنسا وروسيا والنمسا وبروسيا .

وقرر الوكلاء أن تكون إدارة لبنان بواسطة متصرف (حاكم) مسيحي يعين برضا تلك الدول ونص القرار على أن يكون هذا الحاكم نصرانيا أوربيا كاثوليكيا لا وطنيا مسلماً أو مسيحياً (١٢) .

وبعد الحرب العالمية الثانية وزع الاستعمار في لبنان كتابا لمؤلف مجهول بعدة لغات على البعثات الدبلوماسية وعلى المهاجرين اللبنانيين بعنوان :" لبنان وطن قومي للنصارى في الشرق الأدنى " وكان هذا التوزيع سراً ومجاناً وهو من تأليف المستشرقين الأوربيين (١٣) بالطبع .

---

(١٠) انظر :أحمد عزت عبد الكريم ، التقسيم الإداري لسوريا في العهد العثماني ،مجلة كلية الآداب جامعة عين شمس ، المجلد الأول سنة ١٩٥١ .

- (١١) أنيس صايغ ، لبنان الطائفي ، ص١٤٣.

(١٢) عمر فروخ ، التبشير والاستعمار ، ص١٤٣.

- (١٣) المرجع السابق ص١٣٩-١٤٠ .

إنشاء الجامعات المسيحية في لبنان :

وعملت حركة المستشرقين على إنشاء الجامعات في لبنان متعاونة مع المبشرين والإرساليات التبشيرية والاستعمارية محاولين غرس مبادئ التربية الغربية في نفوس المسلمين حتى يشبوا مستغربين في حياتهم وتفكيرهم وحتى تخف في نفوسهم موازين القيم الإسلامية (١٤) .

فأنشأوا لهذا الغرض عدة مؤسسات تعليمية في لبنان أهمها (الجامعة الأمريكية) في بيروت سنة ١٢٨٢هـ (١٨٦٥م) والتي كانت تسمى من قبل اسم "الكلية السورية الإنجيلية" وهي جامعة بروتستانتية كان لإنشائها أثر سيئ في نشر الأفكار الهدامة بين شباب الشام المثقف ويرمز إليها (S P C) .

وأنشئت بعدها بقليل "جامعة كاثوليكية" هي جامعة القديس يوسف وتعرف الآن (بالجامعة اليسوعية) في بيروت وتدير أعمالها إرسالية التبشير الكاثوليكية في بيروت ، وبسبب التعاليم التي تنشرها وتبثها هذه الجامعة كان لها الحظ الأوفر في انتشار الأفكار الفرنسية في الشام (١٥) .

وقد كانت هاتان الجامعتان تصولان وتجولان في ميدان الثقافة في الوقت الذي لم يكن في الشام كله جامعة إسلامية ، الأمر الذي فتح الباب على مصراعيه للأفكار الهدامة لتحتل عقول طلائع المثقفين الذين سارعوا إلى الانخراط في صفوفهما.

وكان الطلاب المسلمون في (الجامعة الأمريكية) يجبرون على الدخول يوميا إلى الكنيسة التابعة للجامعة وشهود بعض الطقوس المسيحية، ولما احتج بعض الطلبة الغيورين على إسلامهم في سنة ١٩٠٩م (١٣٢٦هـ) أصدرت

---

(١٤) محمد البهي ، المبشرون والمستشرقون وموقفهم من الإسلام ص١٤-٢٥.

– وانظر أيضا مجلة :الإسلام في عددها الصادر في ١٦ مارس سنة ١٩٥٨ ، ص١١٤.

– (١٥) محب الدين الخطيب ، الغارة على العالم الإسلامي ص٨ .

الجامعــة في بــيروت منشورا ردا على احتجاجهم ويتضح من المادة الرابعة منه طابع هذه المؤسسة وأمثالها وهاك نص هذه المادة :

"إن هــذه كلية مسيحية ، أسست بأموال شعب مسيحي ، هم اشتروا الأرض ، وهــم أقامــوا الأبنــية ، وهم أنشأوا المستشفي وجهزوه ولا يمكن للمؤســسة أن تــستمر إذا لم يسندها هؤلاء وكل هذا قد فعله هؤلاء ليوجدوا تعليما يكون الإنجيل من مواده فتعرض منافعه الحقيقية المسيحية على كل تلميذ، وكل طالب يدخل مؤسستنا يجب أن يعرف سابقا ماذا يطلب منه" .

كمـــا أعلن مجلس أمناء الكلية في هذه المناسبة : "إن الكلية لم تؤسس للتعلــيم العلمـــاني ولا لبث الأخلاق الحميدة ، ولكن من أولى غاياتها أن تعلم الحقائــق الكــبرى التي في التوراة ، وان تكون مركزاً للنور المسيحي وللتأثير المسيحي ، وان تخرج بذلك على الناس وتوصيهم به [١٦] " .

هذه هي أهداف هذه المؤسسات الغربية المسيحية سافرة دون استحياء فليعلم كل مسلم مدى التخريب الذي تتعرض له البلاد الإسلامية ، إذا عرفنا انــه لا تخلــو عاصمة إسلامية من وجود جامعة أمريكية بروتستانتية أو معهد كاثوليكي أو مدارس للإرساليات الأجنبية المسيحية المتعصبة .

انتقال جناح لبناني إلى مصر :

بعــد مذابح لبنان سنة ١٨٦٠م تيقظت الدولة العثمانية لنشاط الغزو الفكــري الهدام في بيروت وخطره على الوحدة الإسلامية ، فبدأت تشدد من قبــضتها علــيه وخاصة في فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني (١٢٩٣-١٣٢٨هــ ، ١٨٧٦-١٩٠٩م) ومن ثم تعرض عبد الحميد لهجوم شديد من

- (١٦) إبراهيم خليل أحمد ،الاستشراق والتبشير وصلتهما بالإمبريالية ص٥٥-٥٦ .
- وعمر فروخ وزميله ،التبشير والاستعمار ،ص١٠٨-١٠٩.
- ومحمد البهي ،المبشرون والمستشرقون ،ص١٠.

هؤلاء ورموه بالاستبداد ونعتوا عصره بعصر الاستبداد الحميدي ، فانتقل جناح منهم إلى مصر . وكانت مصر يومئذ في قبضة الأوربيين بعد التسوية الأوربية للمسألة المصرية ، والتي تمت في لندن سنة ١٢٥٦هـ وتمخضت عن معاهدة لندن ١٨٤٠م التي فرضت على محمد علي وعلى مصر الخضوع لأطماع الغرب .

وفي مصر وجد هؤلاء المهاجرون اللبنانيون وأغلبهم من المسيحيين المارون مرتعاً خصباً تحت حماية النفوذ الأوربي قبل الاحتلال الإنجليزي لمصر ، وبعد الاحتلال الإنجليزي ١٣٠٠هـ ١٨٨٢م أصبحوا في حماية الإنجليز .

وكان في طليعة هؤلاء(شبلي شميل) و(جرجى زيدان) و"فرح انطون" و"يعقوب صروف" و(فارس نمر) و(اسكندر مكاريوس) وغيرهم.

وأنشأ هؤلاء في مصر عدة جرائد ومجلات بمعونة الاستعمار الإنجليزي وتشجيعه وتوجيهه ، وبدأوا يكتبون فيها الأفكار الاستشراقية التبشيرية ومن هذه الصحف :

الأهرام : التي أسسها (سليم تقلا وأخوه بشارة تقلا) سنة ١٨٧٦ م.

والمقطم : التي أسسها فارس نمر .

والهلال : التي أسسها ورأس تحريرها (جرجي زيدان) سنة ١٨٩٢م .

والمقتطف : التي أنشأها في سنة ١٨٦٨ (فارس نمر) و(يعقوب صروف) وكانت صلة فارس نمر بالاحتلال الإنجليزي في مصر قوية ، وقد تزوجت ابنته من "المستر سمارت" مستشار السفارة الإنجليزي في القاهرة [١٧] فمكن له هذا في مصر .

---

(١٧) محمد محمد حسين ، حصوننا مهددة من داخلها ، ط٤ ص٢٣١ .

ولكي نعرف الصلة التي تربط هذه المجلة بالنشاط الإرسالي البروتستانتي فـإن الجامعة الأمريكية في بيروت هي التي احتفلت بالعيد المئوي لهذه الجريدة سنة ١٩٦٨م ونشرت بهذه المناسبة فهرساً للمقتطف تحت إشراف هيئة تدريس الدراسـات العربية بالجامعة في بيروت وذلك لأن الجامعة الأمريكية بالقاهرة لم تتمكن من ذلك بسبب أن جمال عبد الناصر كان قد فرض عليها الحراسة بعد هزيمة العرب في حرب سنة ١٩٦٧ .

وقد ظلت مجلة (المقتطف) تبث سمومها في مصر حتى قيام ثورة ١٩٥٢ حيث أوقف صدورها .

يقـول عـبد الله النديم عن أصحاب مجلة (المقتطف) : إنهم أعداء الله وأنبيائه ... والأجراء الذين أنشأوا لهم جريدة جعلوها خزانة لترجمة كلام من لم يديـنون بـدين ممن ينسبون معجزات الأنبياء إلى الظواهر الطبيعية والتراكيب الكيماوية ويرجعون بالمكونات إلى المادة الطبيعية منكرين وجود الإله الحق وقد سـتروا هـذه الأباطيل تحت اسم فصول علمية وما هي إلا معاول يهدمون بها عموم الأديان " .

وكانـت تلـك الصحف التي أنشأها اللبنانيون المسيحيون المارون في مـصر منابر للفكر الغربي في ظل الاحتلال الإنجليزي ، وكانت خلاصة دعوتهم رفـض الأسـاس الإسلامي للفكر العربي ومحاولة بناء أساس جديد مستمد من الفكر الغربي المسيحي ، وتنمية الروح الإقليمية في مواجهة الوحدة الإسلامية ، وتقوية الاتجاه العلماني وفصل الدين عن الدولة وفصل الشريعة الإسلامية عن حياة الناس وإبعاد التعاليم الإسلامية عن ميدان تربية النشء .

وقـد مكن اللورد كرومر المندوب السامي الإنجليزي لهؤلاء في مصر ، بـل وكان مبتهجا فرحا بهم فوصفهم في مذكراته بأنهم : " منحة من السماء " وأنهـم بمـثابة "خمـيرة البلاد" يعني مصر وكانت صحفهم هي اللسان الناطق

لسلطان الاحتلال باللغة العربية ، فأيدت الاحتلال وهاجمت الحركات الوطنية ، وكـــتب هؤلاء يدافعون عن حق الإنجليز في مصر ويصفون حسنات الاستعمار ويمجـــدون أبطاله ويطالبون باستمراره ويدعون أهل مصر إلى الرضوخ إليه ولم تمر بمصر حادثة واحدة إلا وقفوا فيها موقفا معارضا لأماني الشعب (١٨) .

وعـــن هـــذه المدرسة المارونية والتي تتلمذ عليها الذين يحتفلون بحملة بونابرت يقول ابن مصر البار ، ونموذج الوطنية الصادقة ، والعالم المجدد (عبد الله النديم) : إنهم الأجراء أضداد مصر والمصريين ، المؤسسين للفتن والمترددين علـــى أبـــواب وكـــلاء الدول الأجنبية بالأكاذيب والأراجيف ، فأصبحوا لا شـــرقيين ولا غـــربيين ، واتخـــذهم أوروبا وسائل لتنفيذ آرائها ووصولها إلى مقاصدها من الشرق .... لقد نبتت لحوم أجسامهم في خدمة الأجنبي فانفعلت لها أرواحهم " .

وهناك نموذج من كتاباتهم عن ضرورة فصل الدين عن الدولة ، مما كان ينشر في جريدة (المقطم) في أواخر القرن الماضي الميلادي ، فقد جاء في عددها الصادر في ٧ من أغسطس سنة ١٨٩٩م ما يلي :

"يجب على الخاصة منا أن يعلموا العامة التمييز بين الدين وبين الدولة لأن هذا التمييز أصبح من أعظم مقتضيات الزمان والمكان فإذا لم تدركه عامتنا كان الخطر محيطا أبدا بماضينا لو سألت عامتنا اليوم لوجدتهم يعتقدون أن الدين لا يقـــوم إلا بالدولـــة . والدولـــة لا تقوم إلا بالدين وأنهما متلازمان لا ينفك أحـــدهما عن الآخر ، وهذا خطأ مبين ، لأن الغرض المقصود من الدولة والغاية التي تسعى الدولة إليها في زماننا هذا هي غاية دنيوية محضة هي أمن الناس على أرواحهـــم ، أمـــا الـــدين فالغاية المرجوة منه على اختلاف الزمان والمكان هي

---

(١٨) انـــيس صايغ "لبناني"الفكرة العربية في مصر ،ص١١٢ وما بعدها وانور الجندي ،اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار ،ص١٧٦-١٧٧.

صـــلاح الناس في هذه الدنيا حتى يدخلوا جنات النعيم فهو الصلة بين الأفراد الذين يتدينون به وبين خالقهم ولكل إنسان دينه ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة.

"أمـــا قـــيام الدولة بالدين والدين بالدولة فلا وجود له في عصرنا بين الدولـــة العزيزة المتمدينة ألا بمعنى أن هذه الدولة لا تكون إلا إسلامية وتلك لا تكـــون إلا مـــسيحية فإذا لم نميز بين الدولة والدين في عصرنا ، فماذا نفعل لو سقطت الدولة أيسقط معها الدين ؟ " (١٩)

هذا نموذج لما كانت تنشره هذه الجرائد العميلة ذات الفكر الدخيل ، وهـــذه هـــي أفكـــار رجالها الذين وصفوا أنفسهم بأنهم مهاجرون من قبضة الاستبداد الحميدي ومدافعون عن حرية العرب واستقلالهم .

وقـــد كشف (المفكرون المسلمون) في مصر هذا المخطط الاستعماري للغـــزو الفكـــري وتـــصدوا وعملوا على تعريته في الجرائد الإسلامية مثل : (اللواء) التي أسسها مصطفي كامل زعيم الحزب الوطني .و(الدستور) التي كان يرأس تحريرها فريد وجدي . و(العلم) وكان يرأس تحريرها الشيخ (عبد العزيز جاويش) . و(المنار) التي أسسها سنة ١٨٩٨م محمد رشيد رضا . (والمؤيد) التي أسسها الشيخ علي يوسف وغيرها .

ومن مقالات جاويش في الرد على أصحاب (المقطم) عملاء الإنجليز :

"لقد أقام فينا أصحاب المقطم السنين الطوال فكانوا حجاج بيت اللورد كـــرومو الحرام ..يتعبدون بطوافه ولثم حلقة بابه ،استصفاهم ذلك اللورد بعد أن عجم عودهم وغمز قناهم" (٢٠) .

---

(١٩) المقطم ، عدد ٧ من أغسطس سنة ١٨٩٩.

(٢٠) الشعب عدد ٢٩ أبريل ١٩٩٤ .

وقد وصف النديم المقطم فقال : " إنها الجريدة الإنجليزية التي تصدر في مـــصر " ووصف أصحابها بأنهم الأجراء الخونة عملاء الأجانب " الذين خانوا وطـــنهم وســـلطانهم وأهلهم وخلانهم وذلك عندما داروا حول أبواب الإنجليز وازدروا جريدتهم لشق عصا الاجتماع الشرقي " .

عـــندما احـــتلت إيطاليا ليبيا سنة ١٩١١م وهبت مصر لمساعدة ليبيا لعـــوامل إســـلامية فجمعوا الأموال وأرسلوا المتطوعين للدفاع عن ليبيا ومنهم عزيـــز على المصري وعبد الرحمن عزام ، ونظم شعراء مصر عدة قصائد حماسية في نـــصرة ليبيا مثل حافظ إبراهيم ومصطفي صادق الرافعي واحمد محرم وعلى الغاياني وذكي أبو شادي ، وغيرهم .

أما (لطفي السيد) فقد طلع على الناس بسلسة مقالات في جريدته تحت عنوان " سياسة المنافع لا سياسة العواطف " حمل فيها على أصحاب هذا الموقف ، وانتقد أولئك الذين يرسلون أبناءهم للجهاد في ليبيا ضد المعتدين الإيطاليين ، ودعـــا إلى نـــبذ طـــرابلس والانصراف عن مساعدتها وتحويل المبالغ المخصصة للمـــنكوبين إلى بعض المشاريع المصرية الداخلية لأنه لا شيء يربط مصر بجاراتها العربيات وأن مصلحة مصر تتناقض مع مصالح تلك الجارات (٢١) .

فـــرد علـــيه الـــشيخ (عبد العزيز جاويش)في "اللواء" التي كان يرأس تحريـــرها قائلا : "لقد خسر الذين فتنتهم وساوس صدورهم وأعمتهم عن الحق سخافات مكتشفاتهم ، يحاولون أن يصرفوا الأمة المصرية الإسلامية عن تخفيف ويـــلات إخوانهم الذين أغارت عليهم دولة الخيانة والغدر ، إخوانهم في الجوار وإخوانهم في الإنسانية " (٢٢).

- (٢١) أنور الجندي ،اليقظة الإسلامية ،ص١٧٨ .
- (٢٢) جريدة الشعب ،عدد ٢٩ أبريل ١٩٩٤.

هـــذا في الـــوقت الذي نشرت فيه مجلة (الرابطة الشرقية) بيانا لأحد المجاهـــدين الطرابلـــسيين يترجم فيه بعض فقرات من نشيد للجنود الإيطاليين الفاشست المعتدين جاء فيه:

يـــا أماه . أتمي صلاتك ولا تبكي ، بل اضحكي وتأملي .ألا تعلمين أن إيطالـــيا تدعـــوني ، وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحا مسرورا .لأبذل دمي لسحق الأمـــة الملعونة .ولأحارب الديانة الإسلامية التي تجيز البنات الأبكار للسلطان .سأقاتل بكل قوتي لأمحو القرآنية .... الخ

ويعقب المجاهد الطرابلسي على هذا النشيد بقوله :

((اقـــرأوا هـــذه الأنـــشودة أيها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ، واقـــرأوها ألـــف مرة بل اقرأوها ألف مرة حتى ترسخ في أذهانكم وتنقش في أدمغـــتكم انتقاشـــاً لا تمحوه عوادي الأيام ، ولا تزيله كوارث الأعوام . نعم احفظـــوها حفظـــا قويا ، حتى إذا لاقيتم ربكم نطقت بها ألسنتكم بين يديه ، وحوسبتم على غفلتكم وتغاضيتم عما أصاب دينكم من إهانة وتشنيع .

أيها المسلمون ! أينما كنتم أناشدكم الله أن تقرأوا هذه الأغنية ، أغنية الفاشـــست وتمعـــنوا في معانيها جيدا ، وبعدئذ تستعرضون في مخيلتكم جيوش الطلـــيان الجرارة تسير في طرق (طرابلس – برقة) الإسلامية مدججة بالسلاح تتـــرنم بهـــذه الأنـــشودة بـــصوت واحد تخاله الرعد القاصف . تصوروا حالة المـــسلمين إخـــوانكم وهـــم يسمعون بآذانهم عبارات الهزء والسخرية بدينهم وقرآنهم وقوميتهم وعروبتهم .... ما هي أياديكم إلى أولئك المجاهدين الذين يناضلون القوى في البر والجو والبحر في سبيل صيانة دين هو دينكم وكتاب هو كـــتابكم ؟ عجيب أمر المسلمين . أيها المسلمون كيف تتذوقون الراحة ودماء إخـــوانكم تهـــدر وأوصـــالهم تقطع وأعراضهم تغتصب ؟ .... أين علماء الإســـلام وورثـــة الأنبياء ؟ أين ملوك العرب في الحجاز والجزيرة ؟ أين أرباب

الغيرة والحمية ؟ أين أرباب الصحف أدمغة الأمة ؟ أين الشعراء ؟ أين المراثي ؟ أين الدموع ؟

إشهد أيها الإله القادر واشهدوا أيها الأجداد العظام . إن الأمة الطرابلسية البرقاوية المحكوم عليها بالفناء تلقي تبعة هذا الخطب الجلل على عاتق المسلمين ، إن كان ثمة مسلمون . والسلام على من سمع فوعى ، فأدرك العقبى .[مجلة الرابطة الشرقية ، السنة الثالثة ، العدد الثاني ، نوفمبر ١٩٣٠م].

وكان (محب الدين الخطيب) (٢٣) السوري المقيم في مصر يحرر في جريدة المؤيد مقالات قوية يتتبع فيها نشاط المستشرقين والمبشرين في العالم الإسلامي وأهمها مقالاته التي كتبها تحت عنوان : الغارة على العالم الإسلامي . سنة ١٣٣٠هـ ثم نشرها في كتاب بنفس العنوان (٢٤) . وأنشأ محب الدين الخطيب أيضا (المطبعة السلفية) الشهيرة بالقاهرة للعناية بنشر الفكر الإسلامي .

وكان هؤلاء المدافعون في وجه الغزو الفكري الغربي المسيحي في مصر كلهم من المؤمنين بالأصول والجذور الإسلامية التي تنبع من الفكر الإسلامي الأصيل ومعظمهم تخرج في الأزهر أو نهل من علومه الإسلامية ، وكان هؤلاء يمثلون التيار الرئيسي الوطني الجارف ،فكشفوا للمسلمين في مصر وفي كل مكان عن منهج هؤلاء العملاء وأهدافهم واتهموهم بالخصومة لحركة اليقظة الإسلامية والعمالة للاستعمار .

– (٢٣) كان محب الدين الخطيب نشاط قومي مضاد لحركة التتريك في البلاد العربية فلفت نظر السلطات التركية الحاكمة في دمشق فأخذت تلاحقه وتضيق عليه ،فهاجر إلى مصر عام ١٩١١ وانشأ فيها المكتبة السلفية ومطبعتها وبدأ يكتب في جريدة المؤيد .

– (٢٤) طبع هذا الكتاب طبعتين الأولي في سنة ١٣٥٠هـ والثانية في سنة ١٣٨٣هـ وعنيت بنشرة المطبعة والمكتبية السلفية ونشر منجما في المؤيد سنة ١٣٣٠هـ وفي صحيفة الفتح سنة ١٣٤٩هـ-١٣٥٠هـ.

حزب الأمة المصري :

ولمـا انكـشف مخطط الغزو الفكري وانكشف عملاؤه من المسيحيين اللبنانيين المهاجرون في مصر رأي الإنجليز ضرورة إنشاء جناح جديد أكثر قدرة علـى التخفـي والتمويه ،ويزداد قوة بأن يكون زعماؤه من المصريين المسلمين أنفسهم ، فأنشأ.الإنجليز (حزب الأمة) لهذا الغرض سنة ١٨٩٧ م وكانت هذه هي الظروف والملابسات السياسية والفكرية والاجتماعية والثقافية بعد الحرب العالمية الأولي ولأمد طويل جدا.

ويذكر البعض أن (حزب الأمة) منذ إنشائه مجموعة من الطامعين الذين أعطـاهم الاسـتعمار بعض المكاسب ووزع عليهم أراضي الدائرة السنية التي تـركها العثمانـيون في مصر ، وخلق منهم طبقة موالية له وكان على رأسهم (لطفـي الـسيد) [٢٥] (وعبد العزيز فهمي) و(عبد الخالق ثروت) وأسرة (عبد الرازق باشا) و(سعد زغلول) و (فتحي زغلول) و(إبراهيم الهلباوي) وغيرهم من الطامحين الذين يلهثون في أعقاب الإنجليز .

وكـان هدف هذا الحزب وبرنامجه مستمد من مفاهيم اللورد كرومر الأساسية ويستهدف تمزيق الوحدة الإسلامية وحدة الفكر الإسلامي في مجال الربط بين الدين والمجتمع وإحلال مفهوم الإقليمية باسم القومية ونزع مصر من الرابطة الإسلامية وإرساء دعائم القوانين الوضعية بدلا من الشريعة الإسلامية ، هـؤلاء لهـم جريدة تكون منبرا لأفكارهم المسمومة هي جريدة "الجريدة" التي تـرأس تحريرها (أحمد لطفي السيد) الذي أسبغ عليه الإنجليز لقب أستاذ الجيل كمـا أغدقوا على قرينه (طه حسين) عميد الأدب العربي . وكان لطفي السيد وجماعـته قلـة مـن الطامحين يخالفون روح الأمة الإسلامية والمسلمين في مصر

- (٢٥) انور الجندي في كتابه "اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار " وكان لأحمد لطفي السيد أخ يسمي سعيد باشا لطفي ، كان أول مدير مصري للإذاعة المصرية عند نشأتها سنة ١٩٣٠ .

ويخالفــون فكرها وجوهر ضميرها وطبيعتها ، فكان هؤلاء يسبحون ضد التيار الإسلامي العام إلى حيث يرتضي الاستعمار والاحتلال (٢٦) .

ولمــا كشف المسلمون في مصر هوية هؤلاء وردوا فكرهم إلى مصادره الأولي عــند المستــشرقين ،اضطروا بعد الحرب العالمية الأولي إلى تغيير جلدهم فأنــشأوا تــشكيلا جديدا تحت أسم "حزب الأحرار الدستوريين" وغيروا اسم جريدهم وسموها (السياسة) وأعطوا رئاسة تحريرها لوجه جديد هو (محمد حسين هــيكل) الــذي غير رأيه وفكره في نهاية حياته وتحول تحولا كاملا في مذكراته واعترف بأن (حزب الأمة) صنعة الإنجليز (٢٧) .

ويمكنــنا القــول بأن هؤلاء الطامحين لم تكن تقوم لهم قائمة إلا بالنفوذ الاســتعماري في مصر الذي كان يفرض آراءهم في السياسة والتربية والثقافة وكــان الــرأي العام مناهضا لهم ويحاول أن يمضي في طريق اليقظة الإسلامية الذي اختطه الشيخ محمد بن عبده وجمال الدين الأفغاني .

<u>حقيقة أحمد لطفي السيد</u> :

في جــريدة صــوت الأزهــر الأسبوعية الصادرة في ٢ من المحرم سنة ١٤٢١هــ الموافق ٧ من أبريل سنة ٢٠٠٠م العدد الثامن والعشرون ، كتب الدكــتور عاطــف العراقي مقالاً بعنوان : " أحمد لطفي السيد ودوره في مجال التنوير والثقافة الإنسانية " .

تحدث الدكتور عاطف العراقي في هذا المقال عن أن أحمد لطفي السيد يحتل في تاريخ الفكر المعاصر مكانة كبيرة وانه يعد علماً بارزاً من أعلام التنوير في الفكــر المــصري العربي ، والسبب في ذلك يرجع إلى انه كان من الذين " يحاولــون المــزج بين القيم أو التراث (الأصالة) والجديد أو الحضارة الأوربية

- (٢٦) انور الجندي ،اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار ،ص١٨٧ .
- (٢٧) المرجع السابق ،ص١٨٢.

(المعاصرة) في مواجهة مجموعة من المفكرين قد آثرت الاحتفاظ بالتراث وحده كما هو والوقوف عنده لا تتعداه ولا تخرج عنه قيد أنمله .

وأيـــضا في مواجهة مجموعة أخرى قد رفضت التراث بأكثر ما فيه أو بكل ما فيه وآثرت التمسك بكل ما هو غربي ، بكل ما كان تعبيرا عن الحضارة الأوربية الغربية .

وهـــذا الحكم على (أحمد لطفي السيد) يجانب الصواب لان أحمد لطفي الـــسيد كان ينتمي إلى المجموعة الثانية التي تتمسك بكل ما هو غربي وترفض التراث بكل ما فيه ، وكان ينتمي إلى (حزب الأمة) الذي صنعه الإنجليز وهذا الحـــزب كان يعتقد وجهة النظر التي ترفض التراث والأخذ بكل ما هو غربي ، وهـــذا الحزب أنشأه (اللورد كرومر) أول المعتمدين البريطانيين بعد الاحتلال (١٨٨٤-١٩٠٧م) وهو الذي وضع خطة لتحويل مصر إلى دولة علمانية .

واعـــتمد كرومـــر في البداية على مجموعة اللبنانيين المارون من خريجي الجامعة الأمريكية (البروتستانية) والجامعة الفرنسية (الكاثوليكية) في بيروت الذين هاجروا إلى مصر واستقبلهم الاحتلال الإنجليزي وقال عنهم كرومر "انهم مـــنحة مـــن السماء " وكانت خلاصة دعوتهم رفض الأساس الإسلامي للفكر العـــربي ومحاولـــة بـــناء أســـاس جديد مستمد من الفكر الغربي وتنمية الروح الإقليمـــية في مواجهة الوحدة الإسلامية وتقوية الاتجاه العلماني ، وفصل الدين عـــن الدولـــة ، وفـــصل الشريعة الإسلامية عن حياة الناس ، وإبعاد التعاليم الإسلامية عن ميدان تربية النشء .

وكـــان في طليعة هؤلاء المهاجرين من لبنان (شبلي شميل) ، و(جورج زيدان) ، و (فرج أنطون) ، و (فارس نمر) ، و (إسكندر مكاريوس) وسليم تقلا وأخـــيه بـــشارة تقلا ، وغيرهم . وكان عددهم قد وصل في أواخر القرن ١٩

حـــوالي ثلاثـــين ألفـــا وأشهر صحفهم : (المقطم) و (المقتطف) و (الهلال) و (الأهرام) وغيرها .

وانـــشأ هؤلاء في مصر عدة جرائد ومجلات بمعونة الاستعمار الإنجليزي وتـــشجيعه وتوجيهه وبدأوا يكتبون فيها الأفكار السالفة ، ومن هذه الصحف (المقطـــم) التي أنشأها في سنة ١٨٨٩م (فارس نمر) ، وكانت صلة (فارس نمر) بالاحـــتلال الإنجليـــزي في مـــصر قـــوية ، فقـــد اقترن بابنة قنصل إنجلترا في الإســـكندرية سنة ١٨٨٨م ، وقد تزوجت ابنته من المستر (سمارت) مستشار السفارة الإنجليزية في القاهرة ، فمكن له هذا في مصر . وهو الذي كان يقول : " إن وجود الإنجليز في مصر أكبر نعمة وسوف يستمر كذلك لهذا القطر " .

وكانـــت تلـــك الصحف التي أنشأها اللبنانيون المارون في مصر منابر للفكـــر الغـــربي في ظل الاحتلال الإنجليزي ، بتوجيه من اللورد كرومر ، وقد كـــشف (كرومر) عن هدفه هذا في عديد من الفقرات من تقاريره حين هاجم الإســـلام كـــنظام للحكـــم ، وأثار عليه حملة ضخمة ، وادّعى بأنه دين مناف للمدنـــية ، ولم يكن صالحا إلا للبيئة والزمان اللذين وجد فيهما ، وان المسلمين لا يمكنهم أن يرقوا في سلم الحضارة والتمدن إلا بعد أن يتركوا دينهم وينبذوا القـــرآن وأوامـــره ظهـــريا لأنه يأمرهم بالخمول والتعصب ويبعث فيهم روح البغض لمن يخالفهم والشقاق وحب الانتقام .

كما هاجم (كرومر) فكرة الجامعة الإسلامية ، وكان يرى أنها مصدر لقوة الأمم الإسلامية وسبيلا إلى سطوتها ، لان في اتحاد هذه الأمم ما يفزع أوربا.

وقد مكّن اللورد (كرومر) المندوب السامي الإنجليزي لهؤلاء اللبنانيين في مـــصر بـــل وكان مبتهجا فرحا بهم فوصفهم في مذكراته بأنهم " منحة من السماء " وأنهم بمثابة خميرة البلاد " ، يعنى مصر ، وكانت صحفهم هي اللسان

الـــناطق بلـــسان الاحتلال باللغة العربية فأيدت الاحتلال وهاجمت الحركات الوطنية ، وبدأت تبشر بضرورة فصل الدين عن الدولة .

وقـــد كـــشف المفكرون المسلمون في مصر هذا المخطط الاستعماري للغـــزو الفكـــري وتصدوا له ، وعملوا على تعريته في الجرائد الإسلامية مثل (اللـــواء) الـــتي أسسها مصطفي كامل زعيم الحزب الوطني ، و(الدستور) التي كـــان يرأس تحريرها محمد فريد وجدي ، و(العلم) التي كان يرأس تحريرها عبد العزيـــز جـــاويش ، و (المنار) التي أسسها سنة ١٨٩٨م محمد رشيد رضا ، و (المؤيد) التي أسسها الشيخ علي يوسف وغيرها من الصحافة الوطنية .

وكـــان يكـــتب في هذه الجرائد الشيخ (محمد عبده) ، و (محمد رشيد رضـــا) ، و (محب الدين الخطيب) ، و (مصطفي صادق الرافعي) ، و (مصطفي لطفي المنفلوطي) ، و (أحمد تيمور باشا) ، و (عبد العزيز جاويش) ، وبعضهم سمـــى مقالاته التي ينشرها في جريدة المؤيد وهو (محب الدين الخطيب) بعنوان : " الغارة على العالم الإسلامي " .

وكان هؤلاء المدافعون في وجه الغزو الفكري الغربي في مصر كلهم من المؤمنين بالأصول والجذور الإسلامية ، التي تنبع من الفكر الإسلامي الأصيل ، ومعظمهـــم تخرج في الأزهر أو نهل من علومه الإسلامية ، وكان هؤلاء يمثلون التيار الرئيسي الوطني الجارف ، فكشفوا للمسلمين في مصر وفي كل مكان عن مـــنهج هـــؤلاء العملاء المرتزقة وأهدافهم ، واتهموهم بالخصومة لحركة اليقظة الإسلامية ، والعمالة للاستعمار .

ولمـــا انكـــشف مخطـــط الغزو الفكري وانكشف عملاؤه من اللبنانيين المارون المهاجـــرين في مصر ، رأى الإنجليز ضرورة إنشاء جناح جديد أكثر قدرة على التخفي والتمويه ، ويزداد قوة بان يكون زعماؤه من المصريين المسلمين أنفسهم ، فانـــشأ الإنجليز (حزب الأمة) لهذا الغرض نفسه ، وكانت هذه هي الظروف

والملابسات الفكرية والسياسية التي أوجدت حزب الأمة في مصر ، وهو الحزب الــذي انبعثت منه أرضية الحياة السياسية والفكرية الاجتماعية والثقافية ، بعد الحرب العالمية الأولى .

و(حزب الأمة) منذ أنشأه كرومر مجموعة من الطامعين الذين أعطاهم الاستعمار بعض المكاسب ووزع عليهم أراضى " الدائرة السنية " (وهى أملاك الدولة العثمانية في مصر التي تمت مصادرتها) وخلق منهم طبقة موالية له وكان علــى رأســهم (أحمــد لطفي السيد) ، و (عبد العزيز فهمي) ، و(عبد الخالق ثــروت) ، و (سعد زغلول) و(فتحي زغلول) ، و(إبراهيم الهلباوي) وغيرهم ممــن أطلقوا على أنفسهم " أصحاب المصالح الحقيقية " من أعيان البلاد الذين أفــسح لهــم الاحتلال البريطاني الفرصة للحصول على أكبر قدر من أراضى " الدائرة السنية " .

وكــان هدف هذا الحزب وبرنامجه مستمد من مفاهيم (اللورد كرومر) الأساســية ، ويستهدف تمزيق الوحدة الإسلامية ووحدة الفكر الإسلامي ، في مجــال الــربط بين الدين والمجتمع ، وإحلال مفهوم الإقليمية ، ونزع مصر من الرابطة الإسلامية ، وإرساء دعائم القوانين الوضعية بدلاً من الشريعة الإسلامية ، وكــان لهؤلاء جريدة يبثون فيها أفكارهم المسمومة هي جريدة (الجريدة) التي ترأس تحريرها (أحمد لطفي السيد) الذي أسبغ عليه الإنجليز لقب " أستاذ الجيل" ، وكــان لطفــي السيد وجماعته قلة من الطامحين يخالفون روح الأمة الإسلامية والمسلمين في مصر ، ويخالفون فكرها وجوهر ضميرها وطبيعتها ، فكان هؤلاء يــسبحون ضــد التــيار الإسلامي العام في مصر إلى حيث يرتضى الاستعمار والاحتلال .

وحمل (لطفي السيد) على الفكرة العربية والانتماء العربي والإسلامي ، عــندما نــزل الاحــتلال الإيطالي على ليبيا سنة ١٩١١م ، واحتلوا طرابلس

وبـــنغازى ، وهـــبت مصر لعوامل إسلامية وعربية فجمعت الأموال وقدموها للمجاهدين وأرسلت مصر إلى جبهات القتال بعثات طبية لإسعاف المنكوبين ، وأشترك بعض المصريين في القتال ضد الإيطاليين ومنهم (عزيز على المصري) ، و(عـــبد الرحمن عزام) ، ونظم شعراء مصر عدة قصائد حماسية في نصرة الجار ، ومنهم (أحمد شوقي) و (حافظ إبراهيم) ، و (مصطفي صادق الرافعي) ، و(أحمد محـــرم) ، و(علي الغاياتى) ، و(زكى أبو شادي) ففعلت هذه القصائد فعلها في الشعب المصري ، وأيقظته لمؤازرة ليبيا العربية المسلمة .

أمـــا (لطفـــي الـــسيد) فقد طلع على قرائه بسلسلة مقالات كتبها في الجريدة بعنوان (سياسة المنافع لا سياسة العواطف) حمل فيها على سياسة الجهاد ، وطالـــب بالحـــياد بـــين العثمانـــيين وبين إيطاليا ، وتحويل المبالغ المخصصة للمنكوبين إلى بعض المشاريع المصرية الداخلية ، لأن لا شئ يربط مصر بجاراتها العربيات ، وأن مصلحة مصر تناقض مصالح تلك الجارات .

وقـــال : " مالنا نحن وهذا الأمر ؟ أن ما يحدث هناك لا يهم مصر ولا دخـــل لها فيه ، ودعا إلى سياسة المنافع لا سياسة العواطف ، ودعا الحكومة إلى محاكمة من يحملون لواء الدعوة إلى مساعدة طرابلس " .

وتـــسببت هذه المقالات في سخط الرأي العام ، لدرجة انه أوقع حزبه في حـــرج ، ولم يـــستطع إقناع أعضاء حزبه (حزب الأمة) بمناصرته في موقفه واضطر الحزب إلى الاندفاع في الطريق الذي اندفع فيه الرأي العام المصري لأنه خـــشي مـــواجهة الرأي العام ولم يوافق لطفي السيد ، واضطر لطفي إلى ترك الجريدة يتولى أمرها غيره من المحررين ، وأتوا بمحمد حسين هيكل يكتب بدله الافتتاحية أثناء انقطاع لطفي السيد .

فهاجم إيطاليا في افتتاحية الجريدة وترك الكلام عن وقوف مصر موقف الحياد ويقول هيكل في مذكراته عن هذا " وما كان أشد اغتباط رجال الجريدة

بهذا الموقف الذي وقفته ، والذي أنجاهم وأنجى الجريدة من سخط الرأي العام" المصري.

وتـــصدى لأحمد لطفي السيد الشيخ (عبد العزيز جاويش) في مقال له بجـــريدة (اللـــواء) قـــال له فيه : " لقد خسر الذين فتنتهم وساوس صدورهم وأعمـــتهم عـــن الحق سخافات مكتشفاتهم يحاولون أن يصرفوا الأمة المصرية الإسلامية عن تخفيف ويلات إخوانهم الذين أغارت عليهم دولة الخيانة والغدر ، إخـــوانهم في الجـــوار ، وإخوانهم في الإنسانية ، أي مدير الجريدة ، أي عدو نفـــسه : هـــل نقمـــت مـــنا أن ندعو المسلمين لنجدة المسلمين ، وأن نستنفر الموحدين فماذا كنت تريد ؟ " .

ولأحمـــد لطفي السيد مقال مشهور في إنكار وجود المسألة العربية قال فـــيه : " ليس هناك مسألة عربية ، وإذا كان للمسألة العربية محل من الوجود ، فان وجودها الآن سابق لأوانه جداً .

وعـــندما قامـــت الحرب العالمية الأولى وأعلنت بريطانيا الحماية على مصر، كتب في (الجريدة) " إن مصر إذا كان لابد لها من أن تحكمها أمة أخرى ، فإنجلتـــرا خـــير أمـــة ترضاها مصر " وهى نفس الفكرة التي طرحتها جريدة (المقطـــم) التي قالت : " إذا خيرت مصر بين من يحكمها من الدول فإنها تختار إنجلتـــرا " ، وكانت (المقطم) تدافع عن سياسة الإنجليز منذ إنشائها على يديهم عقب الاحتلال الإنجليزي لمصر .

وكـــان هيكل غير راض على رأى لطفي السيد وذكر في مذكراته انه كتب مقالا يسفه فيه هذه الدعاية التي بدأت (الجريدة) ومعها (المقطم) يروجان لها ، ورفض لطفي السيد نشره في الجريدة .

وأمـــام هجوم الصحافة المصرية الوطنية عليه بسبب آرائه المنحازة إلى الإنجليز ، تخلى بعض أصدقائه عنه أمثال هيكل ، وآثر لطفي السيد الانسحاب

مـــن الميدانين السياسي والصحفي ، كما يقول هيكل في مذكراته ، وذهب إلى قـــريته (برقين) دقهلية وترك الجريدة يتولى شئونها الأستاذ (عبد الحميد حمدي) أحد المحررين فيها . وتوقفت عن الصدور منذ سنة ١٩١٥م .

ولمـــا كشف المسلمون في مصر هوية رجال حزب الأمة وردوا فكرهم إلى مـــصادره الأولى عـــند المستشرقين ، اضطروا بعد الحرب العالمية الأولى إلى تغيير جلدهم فأنشأوا تشكيلا جديداً تحت اسم " حزب الأحرار الدستوريين " ، وغيروا اسم جريدتهم وسموها (السياسة) التي صدرت منذ عام ١٩٢٢م وأعطوا رئاسة تحريرها لوجه جديد هو " محمد حسين هيكل " الذي غير رأيه وفكره في نهاية حياته ، وتحول تحولاً كاملاً وأصبح عنصرا أصيلا في مدرسة اليقظة العربية الإسلامية وأضاف ثقافته الغربية ومنهجه الجديد لكي يكون قوة للفكر العربي الإسلامي ، واعترف في مذكراته بان حزب الأمة صنعه الإنجليز .

مناصرة لطفي السيد للصهيونية :

وليس أدل على انحراف لطفي السيد من اختياره هو وزميله طه حسين لحـــضور حفل افتتاح الجامعة العبرية في تل أبيب سنة ١٩٢٥م ، وكان لطفي السيد يومها رئيس الجامعة المصرية (جامعة القاهرة الآن) وقد أثار اشتراك لطفي السيد وطه حسين احتجاج الفلسطينيين وكثيراً من القيادات الوطنية في مصر . وقد استغلت الدوائر الصهيونية حضور لطفي السيد لافتتاح الجامعة العبرية من الناحية الدعائية إلى مدى بعيد وشاركتها في ذلك وكالات الأنباء الأوروبية .

ومما هو جدير بالذكر أن شركة صهيونية في مصر وهي شركة الكاتب المـــصري الـــتي مولتها (أسرة هراري) الذين ينتمون إلى شريحة عليا من كبار الـــرأسماليين الـــيهود الـــذين ثبت تاريخيا دورهم الأساسي في تمويل ومساندة الأنشطة الصهيونية في مصر، قد أصدرت مجلة (الكاتب المصري) التي صدرت في أكتوبر عام ١٩٤٥م ، وكان يرأس تحريرها الدكتور طه حسين في الفترة من

١٩٤٥-١٩٤٨م ، وأخذت هذه المجلة تناصر حق اليهود في إنشاء وطن قومي لهم في فلسطين على حساب عرب فلسطين وتجاهلت هذه المجلة القضية الفلسطينية في وقت وصلت فيه الصدامات بين العرب واليهود إلى ذروتها في فلسطين ، ولم تخل صحيفة مصرية من متابعة هذه الأحداث بشتى ألوان الكتابة والتغطية الصحفية .

بينما كانت مجلة الكاتب المصري تخوض في مختلف القضايا السياسية المعاصرة بدءاً بمشكلة المضايق التركية ومستقبل آسيا بعد هزيمة اليابان والثورة الدامية في ملاجاش (جزيرة مدغشقر) وذلك في إطار باب ثابت أطلقت عليه اسم (شهرية السياسة الدولية) ، وكان مخصصاً لمتابعة الشئون والأحداث العالمية ، وكانت لا تمنح القضية الفلسطينية أكثر من عمود أو اثنين كحدث هامشي ، كما كانت تقتصر على المعالجات الخبرية دون التعليق أو التحليل .(انظر الكاتب المصري ، ديسمبر ١٩٤٥م ، أبريل ويونيو ١٩٤٦م) .[د.عواطف عبد الرحمن ، من مقال لها في جريدة العربي حول التاريخ السري لليهود في مصر ، عدد٩٦٠ بتاريخ ٢٢مايو ٢٠٠٥م] وقد تعرضت مجلة الكاتب المصري لحملة عنيفة من جانب بعض الصحف المصرية.

مركز إسلامبول :

في إسلامبول عاصمة تركيا عمل الاستشراق والاستعمار عملهما الغادر لتخريب الوحدة الإسلامية وضرب الدولة في عاصمتها وفي رجال الحكم فيها وكانت الخميرة التي اعتمد عليها الاستعمار والاستشراق في قلب الأوضاع في إسلامبول هم مجموعة من الشباب التركي المثقف ثقافة أوربية حيث كونوا جمعية في باريس تسمى (جمعية تركيا الفتاة) عملت من أجل فصم عرى الوحدة الإسلامية والمناداة بالقومية التركية الضيقة ،وكان فرع هذه الجمعية يعمل سرا في إسلامبول ، وكان (مدحت باشا) قائدا لهذه الحركة .

وتوغلت(حركة تركيا الفتاة) في الجيش العثماني وانتشرت أفكارها إلى المدارس العسكرية العثمانية وذلك لان التعليم العسكري في إسلامبول كان أكثر أنواع التعليم اتصالا بالثقافة الأوربية ، ففي عام ١٣٠٧هـ ١٨٨٩م ألف بعض طلاب المدرسة العسكرية الطبية في إسلامبول جمعية سرية فرعا لجمعية تركيا الفتاة داخل البلاد وعندما افتضح سر الجمعية عام ١٣١٠هـ-١٨٩٢م غادر بعض أعضائها إلى باريس هربا من انتقام السلطان عبد الحميد وعلى رأسهم (خليل غانم) المسيحي العربي الذي أصدر في جنيف جريدة (الهلال) ثم جريدة (تركيا الفتاة) في باريس ومنهم (أحمد رضا) الذي كان مديرا للتعليم في بروسه وأصدر في باريس جريدة (مشورت) كل أسبوعين باللغة التركية مع ملحق باللغة الفرنسية وكانت تهرب إلى تركيا ذاتها عن طريق دوائر البريد الأجنبية التابعة للقنصليات الأوروبية التي كانت تتمتع بامتيازات خاصة داخل الدولة تجعلها بعيدة عن التفتيش .

وكثرت الجمعيات ذات النشاط الهدام في الدولة ففي سنة ١٣٢٤-١٩٠٦م ألف (مصطفي كمال) (أتاتورك) وكان يومها ضابطا في الجيش في دمشق جمعية "الوطن" وكانت من العناصر الساخطة على عبد الحميد في الجيش ثم لم تلبث أن نقلت نشاطها إلى (سالونيك) [٢٨] التي أصبحت مركزا للخارجين والمتآمرين على الدولة وخاصة من رجال الجيش وصار اسمها (الوطن والحرية) . ولم يلبث مصطفي كمال أن وجد في سالونيك جمعية أخرى تمارس نشاطاً سرياً كبيراً وعلى اتصال بالأجانب فيها وهي (الجمعية العثمانية الحرة) وكان من

- (٢٨) سالونيك مدينة من مدن مقدونيا باليونان ،ويرجع السبب في اختيار سالونيك مركزا لنشاطهم أنها كانت أكثر المناطق اتصالا بأوربا وضعف قبضة عبد الحميد نسبيا كما كان نشاط قوميات البلقان دفع الدولة إلى حشد قوات عسكرية فيها تحت قيادة كبار الضباط وهو الجيش الثالث العثماني .، وكان للأجانب تدخل في سالونيك بسبب كثرة الاضطرابات في المنطقة فانشأت خمس دول أوربية إدارة دولية لمتابعة الوضع فكان أن وجد الجيش الثالث العثماني نفسه في قلب دائرة التدخل الأجنبي (محمود منسي اليقظة العربية ص١٠١) .

أعـــضائها (جمـــال)و(طلعت) (٢٩) زميلا مصطفي كمال في ثورته . ولم يلبث مـــصطفي كمال أن وجد في سالونيك البيئة الملائمة فعمل جهده لتوحيد هذه الجمعـــيات في ســـنة ١٣٢٥هـــ /١٩٧٠م في جمعية واحدة هي (جمعية الاتحاد والترقـــي العـــثماني) بالتـــركية (عثمانلي ترقي واتحاد جمعيتي) ووثقوا صلاقم بالأجانب من رجال الإدارة الدولية الذين خططوا معهم للثورة على السلطان عـــبد الحميد في يوليو ١٣٢٦/١٩٠٨م وقيدوا من سلطة السلطان ثم أصبح رجالهـــا أصحاب سيطرة كاملة على شئون الدولة و لم يلبث هؤلاء أن قاموا بعـــزل الـــسلطان عـــبد الحميد آخر السلاطين الأقوياء في ٧ من ربيع الآخر ١٣٢٧هـــ أبريل ١٩٠٩م .

ولقـــد نادى هؤلاء بالقومية التركية وتفضيل العنصر التركي على بقية العناصر التي تتكون منها الدولة وقد كتب أحدهم مقالا في صحيفة (طنين) وهو (حسين جاهد) بتاريخ أكتوبر ١٣٢٦هـــ ١٩٠٨م يقول :

"إن الأمـــة التـــركية كانـــت وستظل هي الأمة الحاكمة في السلطنة العثمانية، وان الترك يتمتعون بحقوق وامتيازات سامية بصفتهم فاتحين ،وانه لا مجال للاعتراف بحقوق مساوية للعناصر الجنسية الأخرى. وان الدستور العثماني لا يمكن أن يكون في شكله النهائي سوى دستور تركي " (٣٠) .

وفرض الاتحاديون اللغة التركية على مختلف عناصر وأجناس الدولة بما فـــيهم العـــرب علـــى حساب لغاقم ، فلم يسمحوا بفتح مدارس أهلية تعلم دروســـها بالعـــربية ، ومدارس الحكومة وضعت الحكومة لها برنامجا يهدف إلى التتريك ، كما صدرت التعليمات إلى رؤساء المحاكم بان تكون المرافعات باللغة التـــركية ، وأبلغت لجان الاتحاد والترقي في الولايات العربية بان تكون مخابراقا

- (٢٩) يـــنحدر طلعـــت باشـــا من أصل يهودي واعتنق الإسلام ويطلق عليه وعلى مثله في التاريخ العثماني "الدونمة" بمعنى المنشقين ، انظر :عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية ،ج٢ ص١٠٢٤ .
- (٣٠) توفيق برو ، العرب والترك في العهد الدستوري ص٩٦ ، د.محمود منسي ، اليقظة العربية ، ص١٠٨.

مـــع اللجـــنة المركزية في سالونيك باللغة التركية ، وفرض على التجار العرب تقديم البيانات إلى دوائر الجمارك باللغة التركية ، ومنع قبول الشكاوى المكتوبة باللغة العربية في مجلس المبعوثان .

وممـــا يـــدل على تعصب الترك للغتهم ومحاربتهم للغات الأخرى تلك الحادثـــة التي جرت في البرلمان فقد وقف وزير الأوقاف — وهو عربي — ليلقي بيانا عما قامت به وزارته ، وبعد أن ألقى البيان باللغة التركية اختتمه بدعاء في كلمـــات عربية ، فهب النواب الترك محتجين على استعمال لغة غير التركية في المجلس ، ولم يستطع رئيس المجلس تهدئة هذه العاصفة من الاحتجاج على الوزير إلا عـــندما أكد النواب أن ما قاله الوزير ليس إلا دعاء تقليديا ليس من صلب الخطاب وإنما هو دعاء خاص بين الوزير وبين الله [٣١] .

وكانـــت هـــذه الـــنغمة جديدة على الأتراك فان اللغة العربية هي لغة القران الكريم وكانت غالبية اللغة التركية من كلمات عربية وكانت التركية في طريقها إلى أن تكون عربية خالصة بسبب نظرة المفكرين العثمانيين المقدسة إلى لغة القران حتى أن جمال الدين الأفغاني سعى لدى السلطان عبد الحميد من أجل إحـــلال اللغـــة العربية محل التركية على أساس أن هذا الإجراء من شانه زيادة هيـــبة تـــركيا كدولة إسلامية وهيبة السلطان كخليفة على المسلمين جميعاً من عرب وغيرهم .

وصـــفوة القـــول أن الغـــزو الفكري ساعد في تدمير الدولة العثمانية ومازال يسرى في العالم الإسلامي لمحو الشخصية الإسلامية ، ولا شك أن العالم الإســـلامي في حاجة إلى ثورة ثقافية يتحرر بها من ربقة الأفكار الدخيلة المزيفة التي أدخلت عليه في فترة تخلفه.

– (٣١) محمود نسي ،المراجع السابق ، ص١٠٩ .

المصادر والمراجع

- حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ط٧ ، ١٩٦٤م . – وسهيل زكار ، تاريخ العرب والإسلام .
- ابن الأثير (المتوفى سنة ٦٣٠هـ) ، الكامل في التاريخ ، ط٤ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٨٣م والخضري ، الدولة العباسية ، القاهرة ١٩١٥م
- الطبري (ت ٣١٠هـ) ، تاريخ الأمم والملوك ، طبعة دار المعارف بمصر.
- ابـــن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، طبعة دار الكتب اللبناني سنة ١٩٥٩م .
- المقريزي ، اتعاظ الحنفاء بذكر الأئمة الخلفاء .
- الغزالي ، إحياء علوم الدين ، دار القلم ، بيروت .
- مصطفى غالب ، تاريخ الدعوة الإسماعيلية .
- أحمد أمين ، فجر الإسلام وضحى الإسلام وظهر الإسلام .
- حامد غنيم ، العلاقات العربية السياسية في عهد البويهيين .
- البغدادي ، الفرق بين الفرق .عمر الدسوقي ، إخوان الصفا .
- ابن النديم ، الفهرست ، طبعة طهران .
- ياقـــوت الحمـــوي ، معجم البلدان ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٧٩م .
- خير الدين الزركلي ، الأعلام،ط٥، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٠م .
- مجلة الوثيقة،العدد العاشر،السنة الخامسة،يناير ١٩٨٧،مقال القرامطة.
- ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، بيروت ، تحقيق د. إحسان عباس .
- أحمد مختار العبادي ، في التاريخ العباسي والأندلسي .

- ابن طبا طبا ، الفخري في الآداب السلطانية ، دار بيروت ، ١٩٨٠م .
- سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربي .
- حسين مؤنس ، أطلس تاريخ الإسلام والشرق الإسلامي في العصر الحديث
- محمد بن شديد العوفي ، العلاقات بين الفاطميين والعباسيين .
- البلاذري ، فتوح البلدان ، تحقيق صلاح الدين المنجد .
- د. مصطفى محمد رمضان ، دور الأزهر في الحياة المصرية .
- ــــــــــــ ، العالم الإسلامي في العصر العباسي ، القاهرة ١٩٩٨م .
- ــــــــــــ ، تاريخ النظم الإسلامية ، القاهرة ٢٠٠٥م .
- ــــــــــــ ، المسلمون في آسيا الوسطى وإيران ، القاهرة ١٩٩٤م .
- ــــــــــــ ، تاريخ الحركة الوطنية وجذور النضال المصري ١٩٨٥م .
- نظام الملك ، سياسة نامة . والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى .
- عبد النعيم حسنين ، سلاجقة إيران والعراق .
- ألفريد بل ، الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي .
- توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام ، القاهرة ١٩٧٠م النهضة المصرية .
- عبد الهادي التازي ، جامع القرويين .والمراكشي،المعجب في أخبار المغرب .
- أحمد بن إياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، الطبعة الثانية ، تحقيق محمد مصطفي ، القاهرة ١٩٦٣م .والإمام محمد أبو زهرة ، الوحدة الإسلامية .
- محمد علي الغتيت ، الشرق والغرب من الحروب الصليبية إلى حرب السويس ، المرحلة الأولى في الصراع بين الشرق والغرب ، الدار القومية للطباعة ، القاهرة ، لم تذكر سنة الطبع .
- عبد الحميد بن أبي زيان ، دخول الأتراك إلى الجزائر ،طبع الجزائر/١٩٧٣م
- نفح الطيب ، للمقري ، طبعة بيروت ١٩٦٨م ، تحقيق د.إحسان عباس .

- محمــد كمال الدسوقي ، "العثمانيون وقراصنة رودس" بحث منشور في مجلة مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى ، العدد الثاني ، سنة ١٣٩٩هـ .
- د. عبـد العزيـز الشناوي ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، طبعة مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٠م . وأوروبا في مطلع العصور الحديثة ، الطبعة الأولى ، القاهرة سنة ١٩٦٩م وصور من دور الأزهر في مقاومة الاحتلال الفرنسي لمصر في أواخر القرن الثامن عشر، دار الكتب .
- أحمد توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا .
- كرستوفر هيرولد ، بونابرت في مصر ، ترجمة فؤاد أندراوس ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧م .
- محمـود شاكر ، الكشوف الجغرافية ، دوافعها — حقيقتها ، من منشورات المكتب الإسلامي ، بيروت سنة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٣م .
- حامد عمار : علاقة الدولة المملوكة بالدول الإفريقية .
- د. السـيد مصطفي سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ، الطبعة الثانية ، من منشورات معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة سنة ١٩٧٤م .
- زيـن الدين الملباري ، تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتكاليين ، لشبونة ١٨٩٨م .ود. انور عبد العليم : ابن ماجد الملاح .
- **Angelo pesce , jiddah portrait of an Arabian city , Falcom , press , Italy ١٩٧٧ .**
- أحمـد بن ماجد : كتاب الفوائد في أصول البحار والقواعد ، تحقيق إبراهيم خوري وعزة حسن ، نشر في دمشق سنة ١٩٧١م .
- قطـب الـدين النهـرواني : البرق اليماني في الفتح العثماني ، طبعة دار اليمامة بالرياض .والإعلام بأعلام بيت الله الحرام .
- يحيي بن الحسين : غاية الأماني في أخبار القطر اليماني .
- أنور عبد العليم ،كتاب ابن ماجد الملاح من سلسلة أعلام العرب رقم ٦٢.

- بانيكار ، آسيا والسيطرة الغربية ، نشر دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٢م .
- صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي .
- ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية .
- د. حسنين ربيع ، وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادي لموانئ الحجاز واليمن في العصور الوسطى ، بحث قدم إلى الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية بجامعة الرياض ، إبريل ١٩٧٧م .
- عبد الرحمن الرافعي ، وسعيد عاشور ، مصر في العصور الوسطى ، الطبعة الأولى ، دار النهضة العربية ، القاهرة سنة ١٩٧٠م .
- عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، طبعة المطبعة الشرفية ، القاهرة ١٣٢٢هـ .و مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس .
- و تاريخ مدة الفرنسيس بمصر ، مخطوط لدى المؤلف ،من مكتبة ليدن .
- د.عبد الوهاب عزام ، مجالس السلطان الغوري .
- محمد فؤاد كوبريلي ، قيام الدولة العثمانية .
- أحمد السعيد ، تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ، دار المعارف .
- عبد السلام عبد العزيز فهمي،السلطان محمد الفاتح،دمشق سنة ١٣٩٥هـ.
- محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية العثمانية . طبعة بولاق .
- بديع جمعة والخولي ، تاريخ الصفويين وحضارتهم ، القاهرة سنة ١٩٧٦م.
- محمد إسماعيل جمال الدين ، دولة الإسماعيلية في إيران .
- عبد القادر بن فرج ، السلاح والعدة في تاريخ جدة ، مخطوط لدىالمؤلف.
- نص الرسالة التي أرسلها السلطان سليم للشريف ، وقد ترجمها إلى العربية الدكتور أحمد فؤاد متولي في أحدث كتاب نشر عن "الفتح العثماني للشام ومصر" القاهرة سنة ١٩٧٦م .
- أحمد بن زيني دحلان ، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام .

- القلقشندي ، صبح الأعشى ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٩١٣م .
- عبد عبد الرحمن زكي ، ابن إياس واستخدام الأسلحة النارية .
- د.عبد الرحيم عبد الرحمن ، الدولة السعودية الأولى ، القاهرة ١٩٦٩م.
- حافظ وهبة ، جزيرة العرب في القرن العشرين ، القاهرة ، ١٩٣٥م .
- د . سيد نوفل ، الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربي وجنوب الجزيرة ، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة ، الطبعة الثانية ، دار المعرفة .
- حسن سليمان ، الكويت ، نشر المكتبة الأهلية بغداد ١٩٦٨م .
- عبد الرحمن الرافعي،عصر محمد على ، القاهرة ١٩٥١م،وتاريخ الحركة القومية .دار النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥١م .
- عمر رضا كحالة ، العالم الإسلامي .والموسوعة البريطانية
- د . ساعد العرابى ، الملك عبد العزيز رؤية عالمية .
- د . مالك رشوان ، مشاكل القبائل على الحدود العراقية النجدية .
- محمد جلال كشك ، السعوديون والحل الإسلامي. ودخلت الخيول الأزهر
- علي مبارك ، الخطط ، ط٢ ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩٦٩م.
- صبحي وحيده ،المسألة المصرية ،الأنجلو المصرية ،القاهرة سنة ١٩٥٠م .
- كتاب : المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل ، والدولة اليهودية .
- أدوار جوان ، مصر في القرن ١٩ ، من الترجمة العربية لمحمد مسعود ، القاهرة ١٩٣١م . و د. محمد فؤاد شكري ، الحملة الفرنسية .
- شفيق غربال ، محمد علي الكبير،سلسلة أعلام الإسلام ، القاهرة ١٩٤٤م.
- كتاب محمد رفعت ،تاريخ مصر السياسي ، طبعة بولاق ،القاهرة ١٩٤٢م.
- لوثروب ،حاضر العالم الإسلامي ،ترجمة حجاج نويهض ، تعليقات شكيب أرسلان ، الطبعة الثالثة ، دار الفكر ، ١٩٧١م .

- باول شمتز ، الإسلام قوة الغد العالمية، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٩٧٤م .
- شـــاتليه ،الغـــارة على العالم الإسلامي ،ترجمة محب الدين الخطيب ، الطبعة الثانية ١٣٨٣هـــ المطبعة السلفية بالقاهرة .
- مقدمة العروة الوثقى طبعة دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠٠هـــ .
- قادة الغرب يقولون ،من منشورات المختار الإسلامي من سلسلة نحور وعي إسلامي ، صص٤٤-٤٥ نشر القاهرة سنة ١٩٧٧ الطبعة الثالثة.
- حسن صبري الخولي ، سياسة الاستعمار والصهيونية تجاة فلسطين.
- انطون سليم كنعان ، فلسطين والقانون ، تقرير كامبل بالرمان ، بحث منشور في كتاب المؤتمر الثالث لاتحاد المحامين العرب الذي عقد في دمشق سنة ١٩٥٧م.وسعد الدين إبراهيم ، جريدة الأسبوع .
- إبراهيم خليل أحمد ،الاستشراق والتبشير وصلتهما بالإمبريالية العالمية.
- ضابط تركي لم يعلن عن اسمه ، كتاب "الرجل الصنم ".
- قرار الهيئة العلمية ،الدينية الإسلامية الكبرى بالديار المصرية في شان الخلافة ، سنة ١٣٤٢هـــ محفظة رقم ٢ من محافظ الخلافة .دار الوثائق بالقاهرة .
- د.ضياء الريس : الإسلام والخلافة في العصر الحديث ، القاهرة ، ١٩٧٦م
- شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي .- جلال يحي ، العالم العربي .
- عبد الرحمن الرافعي ، ثورة ١٩١٩م .- منتصر الزيات ، جريدة الأسبوع .
- قدري قلعجي الشاة الطريد،الحوادث عدد ١٢٢٦ ،بتاريخ ١٩٨٠/٥/٢م .
- محمد حسنين هيكل ، مدافع آيات الله ، دار الشروق ، بيروت ١٤٠٢هـــ
- عبد المنعم سليم ، مجلة الدعوة المصرية (عدد ذو الحجة ١٣٩٨هـــ).
- إلـــياس حرفوش ، واشنطن في انتظار شاه إيران ، مقال في مجلة الحوادث ، عدد ١١٥٨ ، ١٩٧٩/١/١٢م .

- نـــص اتفاقـــية الجزائر سنة ١٩٧٥م في نشرة صادرة عن منشورات العالم العربي في باريس سنة ١٩٨١م بعنوان : "الصراع العربي الفارسي" .
- حركة التحرر الفلسطيني (فتح) ، (قصة الأقصى) ، القاهرة ١٩٦٩م .
- د.محمد إبراهيم الجيوشي ، الأقليات الإسلامية في المجتمعات الغربية .
- د. مصطفى محمود،مقال بعنوان " قلب الحقائق " أهرام ٢٥/٤/١٩٩٨م .
- مقـــالاً لوحيد الدين خان بجريدة الأخبار القاهرية بعنوان :"الغرب .. حيث توقف المسلمون " ، عدد ١٨ من أكتوبر (تشرين أول) سنة ١٩٧٢ .
- د : على جريشة ، أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي .
- محمد البهي ،الفكر الإسلامي الحديث ، ط٨ ، القاهرة ١٩٧٥م .
- سيد قطب ، في التاريخ فكرة ومنهاج . أنيس صايغ ، لبنان الطائفي.
- مصطفي خالدي وعمر فروخ ، التبشير والاستعمار.
- أحمـــد عزت عبد الكريم ، التقسيم الإداري لسوريا في العهد العثماني ،مجلة كلية الآداب جامعة عين شمس ، المجلد الأول سنة ١٩٥١ .
- محب الدين الخطيب ، الغارة على العالم الإسلامي ، طبع هذا الكتاب طبعتين الأولي في سنة ١٣٥٠هـــ والثانية في سنة ١٣٨٣هـــ وعنيت بنشرة المطبعة والمكتبية السلفية ونشر منجما في المؤيد سنة ١٣٣٠هـــ وفي صحيفة الفتح سنة ١٣٤٩هــ-١٣٥٠هــ.ومحمود منسي ، اليقظة العربية . محمد محمد حـــسين ، حـــصوننا مهددة من داخلها .أنور الجندي ،اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار .توفيق برو ، العرب والترك في العهد الدستوري .
- مسكويه ، تجارب الأمم ، طبعة مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة .
- <u>الـــدوريات :</u> جـــريدة الوقائع المصرية ، مجلة روز اليوسف المصرية ، الشرق الأوسط ، الحوادث ، مجلة الوطن العربي .

الفهرس

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

١٧١٢٨ / ٢٠٠٦